برناردشو

تاريخ حياته الفكري

تأليف

أحمد خاكى
وكيل وزارة التربية والتعليم

توزيع المعارف بالأسكندرية

١٩٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كانت دراسة برنارد شو من أهم ما يشغل الأدباء ومؤرخي الأدب في الأجيال الثلاثة الماضية . وقد زاد في دراسته عمقا أنه كان متعدد النواحي وكان في نفس الوقت معمراً توفي وقد أوفى على الخامسة والتسعين . وكان لتعدد نواحيه آثار عميقة في الكتابات التي سردت تاريخ حياته . فبعض مؤرخي الأدب آثر أن يكتب تاريخ حياته من وجهة الفكاهة والسخرية ، وبعضهم حشد في تاريخ حياته قصصا وأقاصيص عما كان يبدو منه في حياته الخاصة والعامة ، وبعضهم عالج حياته ككاتب مسرحي عني بالمسرح والأدب التمثيلي أكثر ما عني في كتاباته . أما الكاتب الأول الذي كتب حياة برنارد شو فهو برنارد شو نفسه . فانه لم يكن يترك شاردة ولا واردة من تاريخ حياته إلا أحصاها : إما في مقدماته الطويلة ، وإما في رسائله وإما في كتبه التي كتبها في عنفوان قوته الذهنية .

ولسنا نعلم حين بدأنا كتابة هذا الكتاب كيف استطعنا أن نخوض هذه الكتب جميعا ، فقد كان من العسير على كاتب أن ينتقي عناصر كتابه من هذا الخضم اللجب من كتابة وأدب . فكتابة تاريخ لبرنارد شو لم تكن يسيرة كما ظننا في مبدأ الأمر دون الوفرة الغامرة من النقد الذي كتبه أو كتب عنه ، وطول السنين التي أنتج فيها ، وتنوع الموضوعات التي تناولها ، والقراءات الوافرة الفياضة التي استغرقت مبادئه ومذاهبه والصداقات أو الخصومات التي تعرض لها : كل هذه كانت مسرحا يزخر بأنواع الأدب. وكان على مؤلف الكتاب أن يتخير منه ما يلائم مزاجه . ولذلك فقد تساءلنا عند أول فكرة لتأليف هذا الكتاب : ما الغرض من كتاب عن برنارد شو يؤلف باللغة العربية ؟ وبنفس أسلوب برنارد شو المنطقي وجدنا أننا لسنا في حاجة إلى قصص عن سخرياته أو فكاهاته ، ولا نحن في حاجة إلى

تاريخ مفصل يسرد الأحداث التى مر بها فى السنوات الخمس والتسعين التى عاشها على ظهر الأرض ، إنما نحن فى حاجة إلى تاريخ فكرى ، يتتبع أفكاره وآراءه منذ قراءاته الأولى ، ويتأثر بهذه الأفكار والآراء عند نضجه بعد الأربعين ، ثم يصاحبها مرة أخرى وهى تخرج فى مسرحياته وكتبه بعد النضج . فإذا حسبنا أن برنارد شو كان رجلا من أهل الفن المسرحى ، فان فنه المسرحى لم يكن إلا تعبيراً عن آرائه — وعلى هذا الأساس كتبنا عن تاريخ حياته الفكرى وذلك يكوّن الباب الأول من هذا الكتاب ، ثم كتبنا عن آرائه وأفكاره ومذاهبه وهذا يكون الباب الثانى من هذا الكتاب .

* * *

كانت أول معرفة لنا ببرنارد شو منذ أيام الدراسة الأولى فى الأدب الانجليزى ، وكنت قد قرأت أكثر مسرحياته بما يتبعها من مقدمات ولما أبلغ الخامسة والعشرين . ولكننى مؤمن الآن أننى لم أفهم مما قرأت أول مرة إلا القليل .

وقد كانت تبدو أمامى نكاته وسخرياته غامضة سقيمة فى أحيان ، وكانت ألفاظه وأفكاره عميقة تعلو على الفهم فى أحيان أخرى . وفى كلتا الناحيتين كان يجب أن يتهيأ قارىء برنارد شو بالمعرفة التامة للظروف التى قال فيها النكتة ، والمذهب الفلسفى الذى نبعت عنه الفكرة . ذلك أن برنارد شو — كسائر أهل الفن والأدب — لم يكن إلا كائنا حيا يتأثر بالظرف التى يعيش فيها . فلا يمكن أن نفهم نكاته ولا أفكاره ، أو نقدر مسرحياته وكتبه ، إلا إذا تعمقنا فى البحث عن أصول هذه الآثار جميعا ، فنحن كدارس الشجرة الحية الزاهرة لا يمكننا أن ندرسها بحق إلا إذا بحثنا أصولها ، وفحصنا جذورها ، وحققنا ما تفيده من الأرض وما تنتفع به من هواء . وقد استطعنا بعد جهد غير يسير أن نفصّل أفكاره فى خمس فئات هى ما يتصل بالمجتمع ثم بالاقتصاد ثم بالسياسة ثم بالعلم ثم بالدين والفلسفة ، لكن كل هذه تتداخل كل فئة منها بالأخرى — فليس العقل الانسانى مقسما إلى أدراج أو صناديق كل منها منعزل عن الآخر ،

بل العقل الإنسانى أيضا كائن حى يتأثر ككل الكائنات الحية بما ينثال فيه من أفكار ـ ولا يفرّق كثيرا بين ماهو من شئون الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة أو العلم أو الدين أو الفلسفة .

وعندنا أن عقل برناردو شو كان مصفاة استقبلت أكثر المذاهب والمبادىء والفلسفات التى تداولها الفكر فى الأجيال الثلاثة التى عاشها . وبعد أن عالج هو هذه الأفكار أخرجها فى صور ظن أنها نقية . لكن هناك ناحيتين لكل فكرة من هذه الأفكار : الناحية الأولى هى أسلوب المعالجة نفسه والناحية الثانية هى النتائج التى وصل إليها بعد هذه المعالجة . أما عن الأسلوب الذى اتخذه لمعالجة كل فكرة أو مبدأ من هذة الأفكار والمبادىء فقد كان قائما على المنطق الجدلى الذى نسب فى أخريات القرن الثامن عشر للفيلسوف الألمانى فريدريك هيجل وسمى المنطق الديالكتيكى ، وأما نتائج هذه المعالجة فقد انتهت فى كل مرة بأنه ليس هناك نتيجة نهائية حاسمه لاية فكرة من الافكار ولا لأى مبدأ من المبادىء . فان كل نتيجة ـ حسب هذا المنطق الديالكتيكى ـ لاتزال عرضة للشك ، لأنه كل قضية تحتمل نقيضا للقضية . وعلى ذلك فليست معالجة برنارد شو لهذه الأفكار والمبادىء إلا رياضة فكرية ، تكاد لاتخرج من قضيه إلا لتواجه قضية مناقضة أخرى . وهذه الرياضة الفكرية فى أساسها هى التى أراد برناردو شو أن يجعلها محوراً لمسرحياته . فهو قد ذهب إلى أن فى هذه الرياضة الفكرية متعة ذهنية ينبغى أن يتمتع بها القارىء أو الناظر إذا أراد أن ينتفع بالفن المسرحى ، فهل أفلح برنارد شو فى خلق هذا الاستمتاع الذهنى فى مسرحياته ؟ ذلك سؤال لايزال يتردد حتى الساعة التى نحن فيها .

* * *

هذا المتاع الذهنى هو الذى ينعم به قارىء برناردشو إذا هو استطاع أن يخلص أفكاره من النكات ، والسخريات والمبالغات وأنصاف الحقائق والميل إلى ذكر الأساطير . ولكن لو أن الأمر قد وقف عند حد الاستمتاع الذهنى لو قفنا

نحن عند هذا الحد أيضا ، ولو فرّنا على أنفسنا مشقة البحث والكتابة ،وكان حسبنا أننا استمتعنا بكثير من هذا الذى حشده فى كتبه ومسرحياته .ولكن الأمر عندنا كان أعمق من ذلك بكثير . الأمر عندنا أننا حملنا برنارد شو محمل الجد ، وأننا حاولنا أن نتعمق آراءه ومذاهبه ونخلصها من الغلاف التمثيلى الذى أحاطها به هو نفسه وأن نجعل النهاية التى انتهت إليها كل قضية مبدأ لقضية أخرى جديرة بالتفكير . لقد وقعنا على قول لأولدس هكسلى هو أنه لو أن العالم انتبه إلى ما قاله برنارد شو،وما ذهب إليه من أفكار ومبادىء: لو أن العالم درس هذه الأفكار والمبادىء دراسة عميقة مؤمنة وسار عليها، لو أن العالم تقبلها . على سبيل التفكه والتندر لتجنب العالم المجزرتين البشريتين اللتين نسميهما الآن «الحرب العالمية الأولى » و «الحرب العالمية الثانية » ونحن اليوم مقتنعون كل الاقتناع بما ذهب إليه أولدس هكسل حين قدر أفكار برنارد شو هذا التقدير فى ذكرى ميلاده التسعين .

وقد بدأنا التفكير فى كتابة هذا الكتاب منذ أكثر من عشرين عاما . وكتبنا قليلا من فصوله أثناء حلنا وترحالنا فى بور سعيد ولندن وبغداد وواشنجطن والرياض ولكن الدفعة الكبرى التى دفعتنا لمراجعته وإكماله كانت فى الاسكندرية، حيث تهيأ لنا من الهدوء الذهنى ، والتدبر العلمى ما استطعنا أن نراجع به ما كنا قد كتبناه فى مرحلة مبكرة واستطعنا أن ندرس مختلف الموضوعات التى تعرض لها برنارد شو ونحن على وعى من أن كثيرا منها يمثل المشكلات التى تبدو لنا فى مجتمعنا الاشتراكى الذى نريد له أن يتم شكلا وروحا .

* * *

لم يكن برنارد شو إلا عقلا تجرد لتثبيت القيم الاشتراكية ، ولم يكن تاريخه الفكرى إلا ملحمة ذهنية من ثنائيات لاتزال تتخالف وتتآلف فى المجتمع الذى يعيش فيه .

ولم يكن تاريخ برنارد شو الفكرى إلا انتقالا من التفكير الفردى الرأسمالى إلى التفكير الجماعى الاشتراكى . لذلك نظن أن القضايا التى تعرض لها برنارد شو فى تحوله من التفكير الأول إلى التفكير الثانى جديرة بالدراسة عند كل مثقف يريد أن يزداد علما بالاشتراكية . وسيرى قارىء هذا الكتاب أنه بدأ بدراسة الفقر والمال ، وأنه كابدالفقر فى سنوات تسع طويلة فى لندن وأنه التحق بالجمعيات الاشتراكية الناشئة ، وكان واحدا من مؤسسى جماعة الفابيين . وأنه ظل فى حياته الطويلة ، يعالج القضايا الاشتراكية جميعها قضية بعد أخرى حتى سلم لنا من قضاياه ذلك الذى أوجزناه فى الباب الثانى من هذا الكتاب. ويجمل بنا أن نشير إلى مايتفق فيه برنارد شو مع حياتنا الفكرية المعاصرة . ولأن تفكير برنارد شو كما أسلفنا كان يمثل الثورة على التفكير الرأسمالى ، والتحول من هذا التفكير إلى التفكير الاشتراكى فليس هذا فى الواقع إلا مثالا واضحا لما نحن فيه الآن . ثار برنارد شو على التفكير الرأسمالى الفردى ، وأظهر النقائص التى تشوب الرأسمالية : أوضح الفجوة بين طبقة أصحاب رؤوس الأموال وطبقة العمال الكادحين ، وناقش ماجرته الرأسمالية من احتكار للاسواق ومن تكتل ضد المستهلكين ، ثم من أزمات الكساد أو التضخم التى كانت لازمة للنظام الرأسمالى . وكل هذه هى النقائص التى نراها نحن فى النظام الرأسمالى الذى كان يسود بلادنا قبل الثالث والعشرين من يوليه سنة ١٩٥٢ .

إذا أمعنا فى دراسة التفكير الاقتصادى عند برنارد شو استطعنا أن نستشف منه الأسس المنطقية التى يقوم عليها التحول الاشتراكى لا فى إنجلترة وحدها ولا فى فرنسا وألمانيا إنما فى أى بلد من بلاد العالم . وهذا الطابع الفكرى العام هو الذى جعلنا نسهب بعض الاسهاب حينما تعرضنا لافكاره الاقتصادية. فقد رأينا أن ندرس الاقتصاد الرأسمالى كما صوره بعض الفلاسفة الراديكاليين من أمثال آدم سمث ، ورأينا أن نفرد فصلا خاصا لتأثره

بكتابات كارل ماركس لأن كارل ماركس يمثل الأسلوب العلمى لنقد الرأسمالية ، ورأينا أيضا أن نتتبع جهوده الفكرية فى الحلقات الاشتراكية التى قامت فى إنجلترة ضد نظامها الرأسمالى . ويستطيع القارىء فى هذه السلسلة المنطقية أن يوازن بين تفكير برنارد شو وبين منطق التطبيق الاشتراكى العربى ، بل يستطيع القارىء أن يرى الأصول العقلية أو الفكرية أو الذهنية التى يستند عليها تحولنا الاشتراكى . فمنطق برنارد شو الجدلى هو الذى يسوق القارىء فى كل قضية من القضايا حتى ينتهى به إلى حتمية الحل الاشتراكى .

* * *

واجه برنارد شو — كمفكر محترف — كل القضايا التى حشدها فلاسفة الرأسمالية وفندها قضية بعد أخرى . واجه مبدأ الملكية الشخصية ، ومبدأ حرية الفرد ، ومبدأ حرية التجارة وعدم تدخل الدولة ، وناقش كل واحد من هؤلاء — ثم وضع النظام الرأسمالى تحت مجهره العقلى فعدد النقائص الخفية والظاهرة فى هذا النظام : وبدأ يشرح الظاهرة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى صاحبت هذا النظام وهى ظاهرة انقسام الناس إلى طبقتين : طبقة صغيرة تملك كل شىء تقريبا وطبقة أخرى كبيرة لا تملك شيئا تقريبا . وقد أوفى برنارد شو على الغاية فى شرح هذه الظاهرة المثلثة بكثير من الأسهاب فى مؤلفاته ومسرحياته . ثم عالج النتائج التى أتت فى إثر الرأسمالية من التضخم والكساد والبطالة والتعطل ثم من إستعباد الإنسان لأخيه الإنسان. وإذا أنت حاولت أن تضع تاريخ ثورتنا الكبرى تحت المجهر أيضا لوجدت أنها تتفق فى كثير من العناصر مع ما أفاض به برنارد شو . فالمجتمع البائد كان مجتمع النصف فى المائة ، وكانت تسيطر عليه طبقة قليلة العدد من الاقطاعيين وأصحاب رؤوس الأموال يتمتعون بما تنتجه طبقة كثيرة العدد من العمال والكادحين . وكانت النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية جميعا تحمى الطبقة الأولى ، وزادنا سوءا فى هذا العهد البائد أن كان هناك

استعمار ـ هو فى نفسه يمثل أقصى مراحل الرأسمالية . وكان نتيجة كل ذلك أننا عانينا المساوىء التى قامت الثورة الكبرى لاستئصالها .

* * *

على أن برنارد شو فى تفكيره الجدلى ، وفى تفنيده التفكير الرأسمالى ، وفى تحوله إلى التفكير الاشتراكى ، تعرضّ للشيوعية والفوضوية وغيرهذين من المبادىء التى دعا اليها غلاة الماركسيين .

وقد يبدو برنارد شو فى أحيان مغاليا فى تفكيره ، وقد تذهب به شطحات الخيال فى أحيان إلى الترنم بالشعارات التى نادى بها بعض المفكرين الشيوعيين ، بل قد يُـجرى مثل هذه الشعارات على السنة الشخوص المسرحية التى يختلقها على المسرح ، ولكن لايعنى ذلك أنه كان شيوعيا ولا فوضويا . والحق أن طبيعة الظروف التى وجد نفسه فيها فى لندن لم تكن تشجع على الشيوعية ، بل كانت تشجع على المصالحة بين الاشتراكية والديمقراطية . وفى هذا جميعه يتفق تفكير برنارد شو مع التفكير الاشتراكى الثورى فى الجمهورية العربية المتحدة .

فالاشتراكية الماركسية ـ وبخاصة عند غلاة الماركسيين ـ تحوى من العناصر ما لا يتفق والتطبيق العربى للاشتراكية . انها تذهب إلى أبعد حدود الجدلية المادية : فلا تعترف بالدين ولا تؤمن بالله تعالى ، وهى تعكف على العلاقات المادية وتحاول أن تطرد من هذا العالم روحانياته ، فهذه نقيصه أولى من نقائص الماركسية . وهى تحاول أن تقيم ديكتاتورية البلوريتاريا ـ أو الطبقة الكادحة ـ بحيث تتجمع فى هذة الطبقة كل السلطات التى كانت للطبقة التى حلت محلها . وفى هذا تنكر الدولة بكل ما يميزها من سلطان . وهذه نقيصه أخرى من نقائص الماركسية المغالية . ثم إن غلاة الماركسيين ينكرون القطاع الخاص إنكارا تاما ، ولا يرون أن يكون للملكية الخاصة وجود إلى جانب القطاع العام ، وهذه ثالثة النقائص الأساسية عند الماركسيين . أما تطبيقنا

الاشتراكى فهو يمتاز بأنه نابع من حاجاتنا فهو يخلو من هذه النقائص . فنحن أمة تؤمن بالله تعالى وتحترم الأديان السماوية ، واتجاهنا فى النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية لا يؤيد طبقة على طبقة ولا يخلق دكتاتورية طبقية . أما عن القطاع العام فهو يسمح بنسبة خاصة للقطاع الخاص. ولم يكن الإجراء الذى اتخذته الثورة فى شأن امتلاك الأرض إلا إعادة لتوزيع الأرض على صغار الفلاحين ، ولم يتناول التأميم إلا شركات كانت تستنزف جهود الأمة بأسرها مثل شركة قناة السويس . ولا زالت حكومتنا حكومة الشعب بالشعب من أجل الشعب .

إذا أنت حكّمت برنارد شو فى كل هذه القضايا وجدت أنه يغلبّ هذا الذى اتخذته مصر الثورة فى كل ناحية من النواحى . وهذا الذى نقلت اليك من موازنة ماخوذ من أحاديث للسيد الرئيس جمال عبد الناصر . اقرأ هذا الكتاب وسترى أن منطق برنارد شو يكاد يتفق مع منطق ثورتنا الكبرى ، سترى أن معظم ما كتبه برنارد شو — فيما عدا بعض شطحاته الفكرية أو التمثيلية — مؤيد للاتجاهات التى نستوحيها من خطب السيد الرئيس وللافكار التى عكف الكتاب وقادة الرأى على تفسيرها وأسهبوا فى التعليق عليها .

* * *

ولست أريد أن أذكر هنا أن برنارد شو كان عدوا للاستعمار ، وأنه كان يعتبره استمرارا للرأسمالية الخبيثه ، فما استهزأ أحد بالامبراطورية البريطانية كما استهزأ برنارد شو ، ولا دافع أحد عن مصر فى أزمة دنشواى كما دافع برنارد شو . وقد حاولنا فى هذا الكتاب أن نلم إلماما ببعض أفكاره وآرائه فى هذا الصدد . ولكن الذى نريد أن نشير إليه هنا هو أن برنارد شو قد عكف على دراسة فكرة التطور من كل نواحيها ، وأنه ناقش نظرية دارون عن الاختيار الطبيعى خطوة خطوة ، وأنه انتهى إلى رأى عن « التطور

الخالق » و « قوة الحياة » هو الذى يتوافق مع ظروف الجمهورية العربية المتحدة فى سورة التغيير السريع التى نمر بها .

أشار أول باب فى ميثاق العمل الوطنى إلى « إرادة التغيير الثورى » . وإرادة التغيير أحد الاسس التى قامت عليها ثقافتنا . بل لقد سلفت أمة صالحة منا تردد الآيات التى نزلت فى الذكر الحكيم عن ضرورة التغيير . « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فهذه آية نزلت فى سورة الرعد . وآية أخرى نزلت فى سورة الانفال هى : « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله ليس بظلام للعبيد» .وإرادة التغيير هذه التى كانت بضعة من ثقافتنا الدينية والاجتماعية والسياسية هى التى تراها واضحة مفصلة فى منطق برنارد شو وعندنا أن كل كلمة قالها برناردشو عما أسماه قوة الحياة تؤيد الموقف المتطور المتغير الثورى السريع الذى تسير فيه النفحة الروحانية الخالدة التى أشاعت الحياة فى ثورتنا الكبرى. إن تفسير برناردشو للتطورو لارادة التغيير قد مدّ آمالا عريضة أمام الشعوب المغلوبة على أمرها ، ولا تزال أفكاره وآراؤه فى هذه النواحى منبعا للقوة والإصرار. فهذه اذن ناحيه فلسفية أخرى يتوافق فيها منطق برنارد شو مع منطق الثورة المصرية التى قامت فى الثالث والعشرين من يوليه سنة ١٩٥٢ .

واذا نحن قلبنا وجوه النظر فى اتجاهاته السياسية وجدنا أن كثيرا مما جاء به برنارد شـو يمثل اتجاهاتنا السياسية الخارجية والداخلية. وحسبنا ماذكرناه من الناحية الخارجية عن الاستعمار ، ولكن ينبغى أن نشير هنا إلى ما ذهب إليه برنارد شو من أن أشكال الحكومات النيابية يعتورها فى بعض أحيان كثير من الزيف . وأن الأحزاب السياسية تتناحر جميعا ويزعم كل منها أنه يمثل الرأى العام ، والحق أن الناس تحكمهم آراء عامة ، لا رأى عام واحد ، وأنه لا جدوى من النظام النيابى إلا إذا وجد فعلا هذا الرأى العام الواحد، وأن التربية والتوعية والاداب والمسرح كل ذلك كفيل بأن يكوّن هـذا الرأى العام الواحد . أما هذه الآراء العامـة التى يدعيها كل حزب أو فريق

فقد أدت الى اللجاجة والنفاق والى التكالب على السلطة . فاذا أنت حللت حاجتنا السياسية والاجتماعية فى بلادنا فستجد أننا فى أشد الحاجة إلى تكوين هذا الرأى العام الموحد . ونظمنا السياسية بما فيها الاتحاد الاشتراكى العربى تتجه الى هذه الناحية من تكتيل الجماعة وراء رأى عام واحد .

* * *

سترى أننا كتبنا فصولا بأكملها فى هذا الكتاب عن برنارد شو ككاتب مسرحى . ولقد كانت الكتابة عن مسرح برنارد شو أولى محاولاتنا لتأليف هذا الكتاب . ولكننا وجدنا كما سبق أن ذكرنا أن تاريخ برنارد شو الفكرى هو أهم ما يعنينا فى حياتنا القومية . لذلك اقتضبنا غير قليل مما كتبناه أول مرة فحذفنا فصلا بأكمله عن أثر ريتشارد ڤاجنر فى تأليفه المسرحى . كنا قد أخذنا عن الناقد الأمريكى اريك نبتلى بعض ماقاله فى هذا الصدد، وهو أن أثر ڤاجنر فى برنارد شو من الناحية الموسيقية والمسرحية يكاد يعادل أثر هنريك إبسن فى كتابته المسرحية . نحن نعتذر عن حذف هذا الفصل ويقوم اعتذارنا على أننا لا نعلم عن الموسيقى الا أقل من القليل . وحسبنا هنا أن نردد بعض ماقاله النقاد — ومنهم اريك بنتلى — من أن موسيقى ڤاجنر فتحت آفاقا بعيدة أمام خيال برنارد شو، وأن مسرحيات ڤاجنر وأوبراته كانت نماذج يحاكيها برنارد شو فى استخدام الأساطير وفى شطحات الخيال أو الفانتازيا التى عالجناها من جوانبها الاخرى فى الكتاب . وعلى المتخصصين فى الموسيقى بعد ذلك أن يدرسوا هذه الناحية فى كتب أخرى ألفها نقاد يعرفون الموسيقى

* * *

وبعد فان واجب الوفاء يقتضينى أن أشكر لبعض أخوانى الذين عاونونى فى طبع هذا الكتاب وتصحيح مسوداته وأصوله وأخص بالذكر منهم الاستاذ عدلى أحمد فريد ، كما أشكر لمنشأة المعارف تكفلها بنشره ولمطبعة م. ك. اسكندرية قيامها بطبعه .

الأسكندرية فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٦٦

احمد خاكى
وكيل وزارة التربية والتعليم

محتويات الكتاب

الباب الاول

(تاريخ حياته الفكرى)

صفحة

الباب الثانى

(أفكاره وآراؤه وفلسفته)

الباب الاول

(١) مولده

ولد برنارد شو في دبلن عاصمة أيرلنده في السادس والعشرين من يوليه سنة ١٨٥٦ من عائلة كريمة الأصل قليلة المال . وكان أبوه الابن الأصغر لبعض علية القوم الذين وفدوا إلى أيرلنده لكنه لم ينل من الإرث إلا ما يناله أمثاله من الأبناء الصغار حسب قوانين الغرب . وأسرة كريمة مثل هذه أخنى عليها الدهر ، كان لابد لها أن تلتزم على الرغم من فاقتها كثيراً من مظاهر الغنى والوقار . فكانوا على إملاقهم يتظاهرون بكثير من التعفف . وهكذا ولد برنارد شو في بيت يتظاهر أهله بما ليس في طاقتهم . وكان أبوه موظفا صغيراً لكنه أحال نفسه على المعاش ، واشتغل في تجارة القمح لكنه أفلس ، فلجأ إلى الخمر وأسرف في تعاطيها . أما أمه فكانت سيئة الطالع ، تحاول أن تصلح من شأن زوجها ولكن هيهات ! على أنها كانت موهوبة لها غرام عظيم بالموسيقى فكانت تلجأ إلى هذا الضرب من ضروب الفن ، لتخفف عن نفسها عبء ما في بيتها من الفاقة وسوء العشير .

وقد كان لكل ذلك آثار عميقة في حياة برنارد شو ، سواء أكان ذلك في نشأته الأولى أم في حياته وهو رجل فكهل ثم شيخ طاعن في السن . ذلك بأن هذا العبث الذي رآه من والده قد أنشأ عنده فكرة خاصة عن السخرية والدعابة. ففي مثل هذا الجو كان يبدر من أبيه السكير ما يبدر دائماً من السكارى ، فكان ذلك يثير عند الطفل الناشيء كثيراً من السخرية والعبث . وقد حكى برنارد شو عما كان يفعله أبوه في تلك الأيام ، ففي مرة يأتي أبوه إلى المنزل وقد تأبط أوزة تحت إحدى ذراعيه وتأبط لحماً ملففاً تحت الذراع الأخرى ، ثم يحاول أن ينطح باب البيت برأسه كي يفتحه ، لكن الباب لا ينفتح ، وينطح

برأسه ثم ينطح حتى تتبعج قبعته ، لكن الباب لا يزال مغلقاً . ثم يضيق ذرع الرجل من أثر الضرب ويفتح عينيه ليرى الباب وإذا البـاب على قيد خطوات وإذا هو واهم ينطح الحائط ويحسبها باباً وليست بالباب . ومثل تلك المنـاظر كانت أدعى إلى الرثاء ، ولكن جورج برنارد شو كان يضحك من ذلك ، وكان يتخذ منها وسيلة للسخرية ، فقد كان يرى الجانب الفـكه من أحزان أبيه وأمه ، وكان لا يرى فى حياة الفقـر والفاقه التى عاشهـا إلا صوراً من الصور الضاحكة التى رسمها فيما بعد . وهـو لم يكن من الأولاد الذين يرون المـآسى فى توافه الأمور ، بل لقد كان يرى المـآسى نفسها من توافه الأمور .

أهو بهلوان ذلك الذى تقمص روح هذا الفتى ؟ أم هو عفريت يحـاول دائماً أن يقهقه ؟ إن هذا الشعور الساخر هـو الذى يميز كـل ما كـتب برنارد شو . وكـأنما قد إستطاع وهـو صبي أن يكون لنفسه أسلوبا خاصاً يتخذه حين يكتب قصصه ومسرحياته ومقالاته . وسوف يشب هذا الصبي فتتفتح عيناه على أحزان وآلام مكدس بعضها فوق بعض . سينظر إلى الفقر والجهل والتعصب الأعمى ، وسيرى الظلم والعنت والإرهاق ، وسيكون لذلك أثر بالغ فى نفسه . لكنه سوف يتخـذ من الدعابة أداة تتصف بكل هؤلاء . سيسخر من أوهام العامة ، وسينكر على الخاصـة ما يحبون وما يكرهون ، وسيدب إلى مستتر النفوس فيكشف ما بها من عـداء للخـير وولاء للشر ، وسيكون كما كان الأنبياء الأولون ، غرضا لسوء الفهم وسوء التقدير وسوء القـالة .

* * *

لكن البيت الذى عاش فيه برنارد شو كانت تتجاوب فيه ألحان الموسيقى وهذا عامل آخر مخفف طامن من بؤس الأسرة وخفف من شقائها . وكانت أمه هى التى أغرمت بهذا الضرب من ضروب الفن . وكان للسيدة حلقـة من الخلان تضم النساء والرجال ، وكان كـل واحد منهم قد أشرب قلبه حب

ذلك الفن الجميل . ثم كان فى البيت فنان موسيقى إسمه جورج جون فاندليرلى[١] يتعهد الأم بدروس فى الغناء والموسيقى . وكانوا يكـّـونون من أنفسهم جوقة تعزف على مختلف الآلات : فهذا يضرب على القيثارة ، وذلك يعزف على البيان وأخرى تغنى وهكذا . وكان لا بد لبرناد شو أن يتأثر بهذا الجو أيضاً ، فنشأ وفى نفسه ميل إلى الغنـاء والموسيقى . وكان لهذه النشأة وزن كبير فى توجيهه لأنه كان ناقداً موسيقياً قبل أن يكون ناقداً مسرحياً ، ولأنه تكسب بالنقد الموسيقى قبل أن يتكسب بالنقدالأدبى والمسرحى . ثم إن ملكته الموسيقية نشـّأت أسلوبه النثرى ، وعـدّلت منه ، حتى أصبح واضحا منسقاً . زد على ذلك أن أمه نفسها قد أضطرت إلى أن تعوله بين العشرين والثلاثين ، وقد كانت تتكسب من تعليم الموسيقى فى هذه الفترة الطويلة . وكـأنما كان للنشأة الموسيقية أكـبر الفضل على برنارد شو فى حياته الخاصة .

ولكن كان لهذه النشأة المتواضعة أثر آخـر فى حياة الرجـل الكبير . فعلى الرغم من تلك الضحكات التى كانت تدوى فى أنحاء ذلك البيت المتداعى ، وعلى الرغم من دقات الموسيقى التى كانت تتجاوب بين جدرانه ، فقد نشأ شعور خبىء بالذلة فى نفس هذا الصبى اليانع . لقد تنكر لأهل البيت كل من كانوا يعرفونهم من علية القوم ، وبرم بهم الأثرياء من ذوى القربى : تنكروا لهم وبرموا بهم لأن رب البيت سكير أدمن الشراب ، ولأن ربة البيت لا تعنى بتدبـير الأمر كما كان ينبغى . لذلك شعر هـذا الفتى بالذلة والمسكنة وصغار النفس ، وعلم أن الناس يحتقرون أباه وأمه وعرف كذلك أن أسرته جميعا فى مركز إجتماعى متواضع . مثل هذا الشعور ولـّد فى نفس برنارد شو حيـاء ما زال يلازمه فى قرارة النفس حتى توفى . كان حيياً لأنه شعر بالحياء وهـو صبى يتأثر ، لكنه حاول بعد ذلك أن يعـّوض ذلك النقص النفسى فاذا هـو يتظاهر بالصلف والكبرياء . ولأنه كاتب أراد أن يعيش ، فقد حاول أن يعالج حياءه بمظاهر الغرور والصفاقه ، وربما تمادى فى كل ذلك حتى أصبحت

(١) George John Vandleur Lee

جرأته الظاهرة مضربا للامثال . وتستطيع أن تفسّر تصرفاته جميعا بأنه كان يختزن فى نفسه خليطا من الحياء والكبرياء .

* * *

وقد أرسل برنارد شو إلى المدرسة كما يُرسل غيره من الصبية ، ولكنه ما لبث أن تبين أنها لم تُخلق له ولم يخلق لها . لقد ذكر فى معرض حديث له أن نشأته الأولى كانت بمنزل أمه فى دبلن وأن تربيته الأخرى كانت فى شوارع لندن . أما حياته المدرسية القصيرة فلم تكن إلا فترة حالت قليلا دون نموه الطبيعى ، ولم يكن ينتبه فى المدرسة إلى مدرسيه ، ولم يكن يعبأ بتلك المعارف التى تنثال من أفواههم ، ولم يكن يُعنى بما تفرضه عليه المدرسة من واجبات. وكأنما خُلق هذا الفتى وقد أوحىَ إليه أن يعلم نفسه بنفسه. لذلك مالبث أن غادر المدرسة وهو لم يجاور الرابعة عشرة .

وعلى الرغم من أنه لم يُفد من المدرسة شيئاً ذا قيمة إلا أنه قد قرأ أكثر الكتب إتصالا بحياة الأطفال . وقد زعم فى بعض ما كتب أنه خلق وقد أوتى قدرة على الكتابة كما يؤتى السمك القدرة على السباحة ، فهو لا يذكر أنه مر به يوم لم يعرف القراة والكتابة . ويذكر لنا فرانك هاريس[1] أن برنارد شو قرأ ولما يبلغ العاشرة قصص ألف ليلة وليلة، وروبنسون كروزو، وروايات سكوت وديكنز وجورج إليوت ومارك توين ، وشعر سبنسر وبيرون ، وكل ما يغرس حب القصة والأدب فى نفوس الأطفال . وحينما شب وبلغ الرابعة عشر كان جل همه أن يقرأ أشياء من البحث العلمى المعاصر . فقرأ كتابا عن «بحوث العلم» ألفه تندال كما قرأ كتب تشارلز دارون . وكانت كتب تندال ودارون كفيلة بأن تتجه به إلى ناحية العلم الحديث ، لذلك ظل مغرما بالعلم ، مطلعاً على مستحدثاته ، وظل متعلقاً بالآثار الإجتماعية التى خلفتها الكشوف العلمية ، وبالعلاقات الوثيقة بين الحضارة والعلم .

---

(١) Bernard Shaw by Frank Harris

على أن قراءاته فى شبابه الأول لم تكن تقتصر على بحوث العلم التى ذكرناها بل لقد أولى السياسة قسطاً كبيراً من وقتـه ، فقرأ كل مؤلفات « جون ستيوارت مل » قراءة فاحصة. قرأ «حياة جون ستيوارت مِـلْ بقلمه» وقرأ « الحرية » وقرأ « الحكومات النيابية » واستطاع أن يتمثل المبادىء السياسية التى تضمنتها هذه الكتب الثلاثة ، ولاشك فى أنه كان لها أبلغ الأثر فى نفسه. فقد شكلت أفكاره عن حقوق الفرد واتجهت به إلى الناحية السياسية. وسنرى كيف كانت أفكاره السياسية نتيجة لهذه القراءات الأولى التى لمح فيها مبادىء الحرية السياسية فى القرن التاسع عشر تلك المبادىء التى عالجتها هذه الكتب . فقد كان جون ستيوارت مل فرديا : يدافع عن حرية الفرد وحقوقه فى المجتمع السياسى ، وكان يبشر بالحقوق السياسية والنيابية التى نالها الرجل والمرأة فيما بعد ، وكان فى كتبه الثلاثة التى ذكرناها يتجه بالتفكير السياسى إلى ناحيـة حقوق الفرد . وشبّ برناد شو على فلسفة جون ستيوارت مل السياسيـة . على أن إيمانه بحقوق الفرد أدى به إلى نتائـج تختلف إختلافا كبيرا عن النتائج التى وصل إليهـا جون ستيوارت مِـلْ . فهذا الفيلسوف كان يؤمن بالحياة النيابية وبالحكومات المنتخبة ، أما برنارد شو فلم يؤمن بذلك إلا بمقدار وكان يرى دائما الجانب السىء من الحكومات البرلمانية. وجون ستيوارت ملْ لم يكن اشتراكيا إلا بمقدار ، أما برنارد شو فقـد ناصر الاشتراكية فكان أحد دعاتها فى كل ما كتب ، وجون ستيوارت مِـلْ كان يتجه فى السياسة والاْقتصاد إتجاها فردياً ، لكن برنارد شو كان يتجه إتجاهاً جماعياً .

ولم يكفِ هذا الفتى أن يبدأ بقراءة ألف ليلة وليلة وأن ينتهى بقراءة جون ستيوارت مِـلْ ، بل لقد أحس فى نفسه التعطش إلى العلم . وكانت فى دبلن مدرسة ليلية أسمها « مدرسة الجمعية الملكية بدبلن » . فما كان من الفتى إلا أن حضر بعض المحاضرات التى كانت تلقى هناك . وبذلك ساير بعض كشوف العلم الحديث ، واستطاع أن يُلم ببعض مبـادىء التفكير العلمى وأن يكشف العلاقة الوثيقة بين الكشف العلمى والتقدم فى الحياة.

* * *

ولمثل هذه النشأة الحرة التي سردناها عليك حسنات ظاهرة كما أن لها سيئات ظاهرة . وإحدى حسناتها أن صاحبها يقبل على دراسة الحياة دون أن تعوقه تقاليد المدارس ولا مناهج الدرس. فيستطيع القارىء الحر أن ينقد كل شيء، وأن يقيس كل أمر بما عنده من البديهة الحاضرة. أما سيئاتها فهى أنه قد يبحث وقد يدرس ، وقد يسير فى بحثه ودرسه على غير هدى ثم قد يؤدى به البحث إلى نتائج معروفة لدى المتخصصين من العلماء وهو يحسب أنها لم تعرف بعد. لذلك كانت دراسة برنارد شو لا تعتمد على الأصول الأكاديمية بل كانت حرة أدى به إليها الاجتهاد المحض . وتستطيع أن تلمس أثر هذه الدراسة الحرة فى بعض المشكلات التي تعرض لها . فيروعك فى رأيه دائماً أنه يمتاز بالجدّة والأصالة لكن يروعك منه أحياناً أنه قد يذكر شيئاً وتغيب عنه أشياء وأنه يثبت آراء قامت على أسس خاطئة . وهنالك بعد ذلك ميزة أخرى لمثل هذه القراءات : فانه قد أنشأ لنفسه خيالا مازال يروح ويغدو فى مسرحياته ، ولعل قراءاته فى ألف ليله وليلة هي التي أنتجت شحطات خياله التي تبدر منه فى مسرحياته الخالدة ، بل لعلها هي التي دعته لكى يختلق بعض الأساطير .

* * *

لم يخرج برنارد شو من المدرسة التي التحق بها إلا وهو ساخط عليها أشد السخط ، وظلت ذكرياته الساخطة عن هذه المدرسة تروح وتغدو فى كتاباته. فهو يقول فى بعض أحاديثه أن المدرسة ليست فى الواقع إلا قبراً تدفن فيه العبقرية . فقد كان مكرهاً وهو تلميذ على أن يدرس مواد لا لذة له فيها ، وكان مضطراً إلى أن يستذكر معلومات لا شأن له بها ، لذلك لم يستطع أن يساير هذه الدروس ، ولم يتفوق فى علم من العلوم ما خلا الانشاء . وكان للمدرسين عذرهم فى إهماله وعدم الاهتمام به ، فقد علموا أنه لا يعنى بما يقال إلا قليلا . أما هو فقد كان حسبه أن يقول تعليقاً على ذلك : « لم أذهب إلى مدرسة فى حياتى عنى بى فيها المدرسون أو إهتموا بوظيفتهم الظاهرة

نحوى ، بل لم يحاول المدرسون فى المدارس التى ذهبت إليها أن يحيطونى بمثل هذه العناية ، لذلك فاننى لم أتعلم شيئاً فى المدرسة ولا تلك الأشياء التى كنت أستطيع أن أتعلمها لو أن أحداً عنى بأن يستثير عندى عامل الشوق . أما أنا فأهنىء نفسى بذلك ، لأنى مؤمن بأننا نسىء إذا نحن فرضنا نشاطا غير طبيعى على العقل كما نسىء إذا نحن فرضنا نشاطا غير طبيعى على الجسم . فاذا حاولنا أن نعلم الناس أشياء لا رغبة لهم فيها كنا كمن يريد أن يطعمهم نشارة الخشب : فكلا الأمرين بعيد عن الصحة والعافية » .

ويتجه برنارد شو فى هذا الرأى إتجاها حديثا ، وقد حاولت المدرسة الحديثة أن تخفف كثيراً من السيئات التى لقيها برنارد شو وغيره ممن نقموا على هذه المدارس البائدة . وتقوم المدرسة الحديثة على فكرة الفيلسوف الأمريكى « جون ديوى » من أنه لا بد أن يقوم التعلم على الرغبة أولا . أما الرهبة فانها تتنافى وفكرة التربية. والحق لم يستفد برنارد شو من مدرسته إلا قليلا ، ولولا هذه القراءات التى قرأها وهو فى المدرسة وظل يواليها بعد خروجه منها لما استطاع أن يتعلم شيئاً ذا قيمة فى نفسه .

ونحن نعلم عنه أنه كان ضعيفاً فى الرياضة ، فهو لم يحل مسائل حسابية فى حياته ، وإذا حاول أن يحل مسألة ذات أربعة أرقام كان يقضى نصف ساعة فى الجمع والطرح والضرب ، ولا بد بعد ذلك من أن يكون الناتج خطأ . وكان شأنه فى اللغات مثل شأنه فى الرياضة فهو لم يستطع أن يحفظ شيئا من دروس اللاتينية التى أتعب نفسه فى استذكارها ولم يعرف قليلا من الفرنسية إلا بعد أن كبر وزار فرنسا .

وصفوة القول أن برنارد شو كان يعتقد إعتقاداً جازما أن المدرسة ليست إلا سجناً تُوأد فيه المواهب والملكات . وهو يغلو فى ذلك غلوا ظاهراً حين يوازن بين المدرسة والسجن ، فيخرج من الموازنة بتفضيل السجن على المدرسة وهو يقول فى ذلك «أنت غير مضطر فى السجن أن تقرأ كتباً ألفها السجانون أو مدير السجن ... وأنت فى السجن لا تضرب ولا تعذب حتى تستذكر محتويات هذه الكتب ، وأنت فى السجن غير مكره على الجلوس والإنصات

إلى من يتحدثون فى موضوعات لا يفهمونها ولا يعنون بأن يفهموها ، إنهم فى السجن قد يعذبون الأجساد لكنهم لا يعذبون العقول »

طلب إليه مرة أن يسمح بأن يوضع فصل فى مسرحيته « جان دارك » فى بعض الكتب المقررة على المدارس فغضب لذلك أشد الغضب وقال : « كلا ! إنى لأستنزل اللعنة على كل من تسول له نفسه أن يجعل من مؤلفاتى كتبا دراسية ، ويعرضنى لكراهية الناس كما فعلوا بشكسبير . إننى لم أقصد بمسرحياتى أن تكون أدوات للتعذيب » . فقد كان يضع حرية الفرد فى مكان أسمى ، وكان يرى أن التربية تتأتى بالإقناع لا بالإكراه . ومن ذلك نستطيع أن نستنتج أى فتى ذلك الذى خرج من المدرسة فى سن الرابعة عشر من غير أن يفيد منها شيئا يذكر ، وأى فتى ذلك الذى تخفف من أسار المدرسة ليقرأ ويفكر ما شاءت له القراءة والتفكير .

* * *

ولم تكن ثقافة برنارد شو الفتى قاصرة على ما ذكرت من قراءات ، بل لقد كانت تشمل كثيراً من التجارب الأخرى . فقد خلقت له قراءاته عالما من عوالم الخيال كما أسلفنا ، على أنه كابد فى حياة دبلن كثيراً من التجارب التى نفعته وأنشأت خياله . وقد قيل إن الفن ليس إلا تعبيراً عن الإحساس بالجمال ، وإن هذا التعبير يزيد صدقا كلما كان الإحساس صادقا عميقا . وقد تعرض برنارد شو فى سن الصبا إلى هذه التجارب النفسية التى أنشأت عنده الإحساس بالجمال ، والتى دفعته اخيراً إلى التعبير عن هذا الاحساس . وإذا صادف فتى فى مدينة كبيرة مظاهر الفن الجميل فهو سعيد لا محالة . إذا استطاع فتى أن يرى مسرحية تمثل أو معرضا للصور أو أن يشهد بعض الأوبرات ، وإذا أقبل على هذه المسرحيات والصور والأغانى بشغف فلا شك فى أن هذا يعدل كثيراً مما فى بطون الكتب ، وكان هذا شأن برنارد شو وهو صغير . فقد كان موفقا لأنه عاش فى بيت يعشق أهله الموسيقى ، وكان موفقا لأنه شهد « لوهنجرين » وغيرها من الأوبرات على مسرح من مسارح دبلن ،

وكان موفقا ايضا لأنه شهد « بارى سليفان » وهو يمثل مسرحيات شكسبير وكل هذا مما زاد فى ثقافته كما أنمى عنده الشعور بالجمال .

وفى دبلن نفسها رأى الفتى « هنرى إرفنج » كبير الممثلين الانجليز فى ذلك العهد ، رأى الفتى هذا الممثل الشاب فرأى رجلا ذا قوام رائع يبعث الرهبة فى القلوب . كان هنرى إرفنج يختلف إختلافا بيّنا عن سائر الممثلين . كان ذا مشية هادئة وكان يختال على المسرح اختيالا ، وكانت نبرات صوته تبعث على التشاؤم . ولم يكن يعلم الفتى الذى جلس فى صفوف النظارة أنه سيكون كاتبا مسرحيا فى يوم من الأيام ، وأنه لابد أن يلتقى وهذا الرجل فى صعيد واحد ، وأنهما سوف يختلفان اختلافا شديداً : فقد كان الممثل يتمسك بالمسرحيات القديمة ، وسيتمسك هذا الفتى بما يسميه الفن المسرحى الجديد . وسيكون الاثنان نـدّين لا يلتقيان إلا على خصومة .

* * *

ذلك الاحساس بالفن هو الذى تغلغل فى نفس برنارد شو منذ شبابه . وقد نشأ على الاعجاب بالمحسات . كان يغرم ببدائع الفن الموسيقى وكان يعشق بدائع الفن المسرحى وإلى جانب كل ذلك كان شغوفا بالمناظر الجميلة الطبيعية ، وكذلك كان شغوفا بالمناظر الجميلة المرسومة او المصورة . وكان يزور المعرض القومى فى أيرلنده حيث يشهد روائع الفن الاوربى من صور ورسوم . وكذلك نشأ برنارد شو وهو صاحب مبادىء يميز بها بين الفن الزائف والفن الاصيل . ولا تخلو مسرحية من مسرحياته من هذا الشغف بالمحسات سواء أكانت طبيعية أم خيالية .

كان يأخذ بقلبه كل منظر طبيعى جميل وكان من حسن حظه أنه انتقل مع أمه وهو فى سن العاشرة إلى بيت صغير إسمه « نوركا كوتيج » على تل إسمه « دولكى هل » وكان التل يطل على مناظر من خليج دبلن : مناظر شاسعة يظهر فيها الأفق حائراً غامضا حين يلتقى الماء بالسماء ومن بيته الصغير فوق هذا التل كان يتطلع الفتى الصغير فيرى السحب والألوان تتغير فى كل

ساعة من ساعات النهار. وانطبع هذا الجمال الطبيعى الرائع فى نفس الفتى ، ويذكره وهو فى سن الثانية والتسعين ويذكر أنه قضى فى هذا المكان لحظات سعيدة بل يذكر أن هذه اللحظات هى التى أسعدته طول حياته فهو يقول عن ذلك فى اغسطس سنة ١٩٤٧ :

« ليست السعادة غرضى من الحياة فأنا مثل أنيشتين لست سعيداً ، ولا أريد أن أكون سعيداً . وليس عندى من الوقت ولا عندى من الذوق ما أسعى به إلى هذه الغيبوبة التى ينالها بعض الناس بنفحة من الافيون أو بكأس من الويسكى ، ولو أننى مارست غيبوبة أسمى من ذلك بكثير مرتين أو ثلاث مرات فى أحلامى . فلقد مررت بلحظة من أسعد اللحظات فى طفولتى حين أبلغتنى أمى إننا سنعيش فى دولكى . ما كان على إلا أن أفتح عينى هناك فأرى صوراً لم يكن يستطيع أى مصور أن يصورها لى . وكنت لا أعتقد أن فى العالم جميعه سماء أخرى مثل هذه حتى قرأت فى شكسبير هذا السطح المائل الذى يتشابك فيه لهب من الذهب ، وكنت أعجب أين رأى شيكسبير ذلك إذا لم يكن قد رآه من نوركا كوتيج . لقد ظل سرورى بكل ذلك ملازما لى طول حياتى » .

* * *

كل هذه التجارب هي التى أشبعت خيال ذلك الفتى . وإذا كان قد انبعث خياله لاول مرة من هذه الكتب التى قرأها ، فقد تثقف ذلك الخيال من هذه التجارب الجديدة التى تمرس بها . لقد خلق خياله من كل هذه التجارب ، وظلت آثارها تلازمه حيث كان . فقد أصبح ناقداً فنقد الموسيقى والغناء والصور والأوبرات ثم نقد الفن المسرحى وكتب مسرحياته ، وكان فى كل ذلك يعبر عن هذه الآثار النفسية التى أنشأت خياله وهو صغير .

* * *

(٢)

فى ايرلنده

١٨٥٦ - ١٨٧٦

آن لنا أن نبحث حياة أيرلنده السياسية والاجتماعية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، حتى نقرر الآثار التى خلفتها هذه الحياة العامةفى نفس هذا الصبي اليافع . وقد كانت تمتاز الحياة فيها بالفقر المدقع الذى شاع فى كل مكان. كانت البلاد قد رزئت بمجاعة فى سنة ١٨٤٠ وما بعدها أتت على الأخضر واليابس ، وكانت ما تزال ترزح تحت أعباء الفقر والفاقه بعد ذلك بثلاثين سنة . لقد انقضت المجاعة لكنها خلّفت الأرض عقما لاتنتج، وخلّفت الفلاح الأيرلندى فى حاجة إلى الماء الذى لا يجد ، وإلى البذور التى لا يستطيع أن يستصدر . حتى البطاطس الذى كان يعتمد عليه عامة الناس لم ينبت . ولذلك فقد هاجر من أيرلنده كثير من أهلها : قصد بعضهم إلى أمريكا وقصد آخرون إلى إستراليا ونيوزلند . وكان أهل هؤلاء وأولئك يعيشون على المعونة المالية التى توافيهم من تلك المهاجر .

وزاد هذه الحال بؤساً وضاعفها شقاء النظام الذى جرى عليه العمل فى أرض أيرلنده . ذلك أن أغلب ملاك هذه الأرض كانوا من الإنجليز . وكان هؤلاء يعيشون فى انجلتره نفسها لا يكادون يفكرون فى أملاكهم إلا إذا قصر وكلاؤهم فى جباية الإيجار . كان الأمر إذن فى أيدى بضعة من الوكلاء الذين لا يرحمون ولا يشفقون ، وكان هؤلاء إذا حاولوا إصلاحا فانما على حساب الفلاح البائس . وكذلك استنزف هذا النظام كثيرا من حيوية الزارع الأيرلندى ، وشر ما يصيب الفلاح أن يبتلى بمالك يريد أن يأخذ ولا يعطى ، وأن يستغل ولا يستصلح . لذلك كان الفقر الأيرلندى ظاهراً فى كل وجه من وجوه الحياة ، وكان لابد أن يتأثر فتى حساس مثل برناردشو بمظاهر الفقر التى تراءت أمام عينيه فى كل طبقة وفى كل مكان .

وكثير من الأيرلنديين في النصف الثانى من القرن التاسع عشر لم يرضوا عن هذه المظاهر البائسة : حاول بعضهم أن يثور بها فطالبوا بالاستقلال عن انجلتره ، واصطدمت حركتهم بقوة الامبراطورية الحاكمة . وكانت تنطوى هذه النهضة الوطنية على كثير من الإصلاحات الاقتصادية التى تتصل بفلاحة الأرض ونظم التملك ، أولئك هم الوطنيون الذين كونوا فيما بعد حزب « الشين فين » وثاروا بالحكومة وكانت نتيجة الثورة أن انقسمت أيرلنده فيما بعد إلى شقين .

إذن فنحن أمام رجل عرف الفقر فى البيت الذى نشأ فيه ، ورأى أباه السكير وقد تنكـَّـر له أهله ، وعاش مع أمه التى لم تكن تعنى بشئون البيت إلا بمقدار . ونحن أيضاً أمام رجل عرف الفقر فى المدينة التى عاش فيها ، وفى البلاد التى قضى فيها شبابه الأول . ولا بد أنه قد رأى الحقول وقد صوح نبتها ، ولا بد أنه رأى جماعات الأيرلنديين وهم يتهافتون على المال الذى يرد إليهم من أبنائهم واخوتهم وآبائهم المهاجرين فى أمريكا واستراليا ، ولا بد أنه قد سافر بين دبلن وغيرها من بلاد الجزيرة فتحمل وعثاء السفر على عربات تجرها الحمير ، ولا بد أنه قد سمع بالغارات التى كان يشنها المناسر على مواشى الأغنياء وممتلكاتهم . لا بد أنه رأى كل ذلك وسمع به . نخرج من كل ذلك وهو عدو للفقر لدود . وكان عداؤه للفقر هو المحور الذى دارت عليه كتاباته ومسرحياته ، فتكونت منذ ذلك الوقت أسس لأكثر آرائه الاقتصادية ، ونشأ اشتراكياً قبل أن يقرأ « كارل ماركس » .

والآن فلنخلـّف أيرلنده ولنركّز انتباهنا مرة ثانية على حياة هذا الفتى الناشىء . كان قد انقطع عن المدرسة فى سن الرابعة عشر ، وكانت حالة الأسرة تنحدر من سىء إلى أسوأ ، أما عمل أبيه فكان قد كسد ، وأما أمه فكانت قد يئست من إصلاح أبيه . وما وافت سنة ١٨٧٢ حتى كانت الأم قد باعت أكثر ما لديها من أثاث ، وهجرت بيت الزوجية إلى لندن . فقد حسبت أنها تستطيع أن تكسب رزقا ميسراً فى قلب هذه المدينة الكبيرة :

حسبت أنها تستطيع أن تعلم الغناء والموسيقى لبعض فتيات لندن . ولحق بها معلمها « فاندليرلى » وهو يحمل بين جنبيه آمال الشهرة والمجد . وكذلك استطاعت أم برنارد شو أن تهرب من ذلك البيت الذى كان يملؤه اليأس والألم والفاقة من كل جانب .

وعاش برنارد شو بعد ذلك مع أبيه ، وكان أن شعر بالإملاق ، وكان أن حاول أن يلتحق ببعض الوظائف الكتابية فانتهى به المطاف وهو فى السادسة عشر إلى شركة بيع الأراضى استأجرته كاتباً بأجر زهيد مقداره ثمانية عشر شلناً فى الشهر .

ولبث بين سن السادسة عشر والعشرين فى مكان ضيق من بناء الشركة ، ولعل أظهر ما تعلمه فى حياته الجديدة أن استطاع أن يحسن خطه وأن يتقن وضع الأرقام . وكذلك أنشأ لنفسه نوعا من الخط جميلا رشيقا ما زال يمتاز به حتى مماته . ومن هذه الفترة من حياته كان دائب القراءة ، كلفاً بزيارة المعارض ، مغرماً بالغناء والموسيقى ، شغوفا بحضور المحاضرات والمناظرات ، حريصا على متابعة العلوم . ثم كان قبل كل شىء آخر مغرما بحب النقاش : كان يناقش زملاءه فى الفروق بين العلم والدين . وقد ترامت أخبار هذه المناقشات إلى رئيسه فحذره من الخوض فى هذه الأمور . ثم ترامت إلى رئيسه بعد ذلك أنباء عن شغفه بالموسيقى والغناء وأنه يزاول الغناء والرئيس غائب عن مكتبه فحذره من ذلك أيضاً . ولم يكن يرضى برنارد شو بمثل هذا التحذير لا فى الحالة الأولى ولا فى الحالة الأخرى . فكأنما آذنت أيامه فى الشركة بالإنقضاء إذ لم يطق صبراً على هذا التحذير .

لم تكن هناك مندوحة عن أن يزيد كسبه من الشركة فبلغ أربعة وثمانين جنيها فى السنة ولما يبلغ العشرين ، ولكن لم تكن هناك مندوحة أيضاً عن أن يستقيل من هذه الشركة . كان المستقبل يبسم لهذا الشاب الصغير ، وكان الشباب من زملائه ينظرون إليه بعين الغبطة والغيرة ، لكن برنارد شو كان يزداد بوظيفته ضيقاً . فكان يرى أنه مقيد إلى صنف خاص من العمل لا يكاد

يتخفف من قيوده ، وكان يرى أن ميوله تتجه إلى الموسيقى والرسم والتصوير والكتابة وغير ذلك من الفنون . أما هذا الجحر الضيق فقد كان يراه مقبرة لكل هذه الملكات . ولعله لو استمر صرافا لشركة الأراضي هذه لاستطاع أن يكون ممولا عظيما فيما بعد . لكنه أبى أن يميت فى نفسه كل هذه الميول . وفى مارس سنة ١٨٧٦ بعث بكتاب استقالته لأصحاب الشركة .

وفى ابريل سنة ١٨٧٦ هاجر من دبلن إلى لندن .

ولم يعد إلى أيرلنده إلا بعد ثلاثين سنة فى سنة ١٩٠٥ حين زارها زيارة قصيرة قام بها إرضاء لزوجته .

* * *

ترى ما الذى دفع برنارد شو إلى هذه الهجرة ؟ فى الحق لم يكن هو الأول ولا الأخير من الأيرلنديين الذين هاجروا إلى إنجلتره . نشأ كثير من الأيرلنديين فى هذا المحيط القاتم المحزن الذى وصفناه فيما سلف، فهاجروا إلى إنجلتره باحثين عن الرزق والجاه فى وقت معاً . هاجر إليها أوسكار وايلد، وجورج مور ، وييتس ، وكونان دويل ، ولورد نورثكلف . كل هؤلاء وعشرات آخرون هاجروا من أيرلنده إلى انجلتره ، وأصبح لهم بعد ذلك مكانة كبيرة بين بناة الثقافة السياسية فى إنجلتره . وكان أن هاجر برنارد شو كما هاجر هؤلاء .

لم يكن لأيرلندة شخصية قومية فى سنة ١٨٧٠ ، ولم يكن فيها ملامح ثقافية تميزها عن سائر الجزائر البريطانية . ولم يكن لها مسرح قومى مثل الذى نشأ فيما بعد وكانت أفكار الأيرلنديين فى حاجة إلى التنظيم . لذلك درج الطامحون من أبناء أيرلنده على أن يغادروها إلى حيث يستطيعون أن يجدوا مجالا لما يحسنون من الكتابة أو الصحافة أو القيادة . وكانت إنجلتره هى صاحبة المكان الأول من حيث اللغة الانجليزية والثقافة الانجليزية ، لذلك اتجه كتاب اللغة الانجليزية من الأيرلنديين إلى قلب إنجلتره نفسه حتى يظهروا فى هذا المحيط الأدبى . ثم كانت لندن نفسها تجمع شيئا من الفن الأوروبى ولذلك فقد إجتذبت إليها خير كتاب أيرلنده فى ذلك الوقت . يقول برنارد شو فى

ذلك : « كنت واحـــداً من أتباع الفن الأوربى ، والفن الأوروبى يشمل الأدب الانجليزى ، والموسيقى الألمانية ، والتصوير الإيطالى والهولندى . فى سنة ١٨٧٦ لم تكن أيرانده قد ظهرت بأية صورة فنية .فاذا كانت قد ظهرت منذ ذلك الحين فان ذلك خير لها وأجدى » .

* * *

وسنرى عند حديثنا عن علاقته بأيرلنده فى فصل قادم كيف كون إتجاهاً معاديا نحو الأمبراطورية البريطانية ، وكيف صور علاقة الأيرلنديين بالأنجليز فى مسرحية « جزيرة جون بول الأخرى » ولكن حسبنا الآن أن ندرك أن حياة الفقر التى عاشها برنارد شو فى أيرلنده هى التى كونت الأساس الأول لآرائه الاقتصادية، وأن العشرين سنة التى عاشها فى أيرلنده ستبدو لنا طافية فى أحيان ومختفية فى أحيان أخرى فى مسرحياته وكتبه وقصصه ومناقشاته .

* * *

على أننا لا ينبغى أن نلاحقه إلى لندن من غير أن نفحص نشأته الدينية، أو أفكاره وعقائده التى تمُتّ إلى الدين بأسباب. نحس أننا فى حاجة إلى دراسة هذه العقائد الدينية فى تطورها لأننا سندرس عقائده الدينية فى فصل مستقل، ولسوف نرى أنه صاحب مذهب دينى يختلف عن المذاهب الدينية الأخرى .

ولد برنارد شو فى أسرة بروتستانتية ، وكانت أمه تعيش فى مبدأ حياتها مع عمة لها حريصة على أن تغذيها بمبادىء الدين المسيحى ، لكن أمه لم تعن أن تربى برنارد شو على ما تعلمته . بل لقد آثرت أن تعلمه الموسيقى، وكانت تحسب ذلك خير له وأجدى . وكان أبوه سكيراً لا يعنى بالدين إلا قليلا ، وكان له خال يصرح بعدائه للدين . ثم كانت أيرلنده — ولا زالت — منقسمة إنقساماً دينيا عنيفاً بين الكثلكة والمذهب البروتستانتى . وكان كل جانب يعتبر الجانب الآخر ملحداً أو كافراً مأواه جهنم ، فكان الكاثوليك يعتبرون البروتستانت دخلاء عليهم ، لا يمثلون فى نظرهم إلا الطبقة الانجليزية الحاكمة . وكان البروتستانت يترفعـــون عن الكاثوليك ويدعون لأنفسهم

إمتيازات وأوضاعا لا يشركونهم فيها . وكان هذا ظاهراً فىالأحياءالسكنية وفى الحياة الاجتماعية ، وكان ظاهراً بنوع خاص فى المدارس . وقد كابد برنارد شو كل ذلك فعلم أن الأمر فى عقيدة هؤلاء الدينية لم يكن مرتبطاً بالإيمان أو بعدم الإيمان ، بل كان الأمر متصـــلا بالمستوى الاجتماعى والاقتصادى . وتمرس بهذه التفرقة الدينية وبخاصة فى المدارس التى تبرز فيها هذه التفرقة ، فخرج وهو مؤمن بأنه كان فى دبلن تظاهر بالدين ولكن لم يكن هناك دين .

ولم يكد برنارد شو يبلغ الحلم حتى وقع فى المحنة التى يقع فيها الشبان من أمثاله . لقد فكر ملياً فى الدين الذى اعتنقه أسلافه ، وتدبر الأمـــور التى يثبتها هذا الدين ، والعقائد التى يفرضها على المؤمنين به ، فاذا هو يرى ألا سبيل إلى إعتناق هذه العقائد . لقد رأى أن القوم يعتنقونها من أجل الحاجة، وأنهم يعتنقونها من أجل إضطهاد بعضهم بعضاً ، ثم رأى أيضا أنها تتنافى وما ينطوى عليه ضميره . لذلك هجر الكنيسة وعزف عن أنواع الطقوس التى تقام بها.

كان ذلك فى مساء يوم من أيام الصيف فى « توركا هل » وكان يسير فى الغسق على التلال الجرداء . وكان الجو جميلا والسماء صافية ، وأضواء النجوم والكواكب تتألق . فظل الفتى يمعن فى التفكير كلما أمعن فى السير ، وجرد من نفسه حكماً على نفسه . كان إلى ذلك اليوم حريصاً على أن يصلى صلاته لله كلما إستقبل فراشه . لكنه وجد فى ذلك اليوم أن الصلاة لم تكن إلا عادة ، وأن بنفسه ضميراً يدعوه إلى التفكير العميق فى ذلك الدين الذى إعتنقه . إنها المحنة العقلية أيضا التى تعترى المفكرين والفلاسفة والثائرين . وهى المحنة العقلية التى خرج منها برنارد شو وقد ثار بدين آبائه وأجداده ، وتوجه إلى البحث عن دين جديد أرضى به فكره وضميره .

ومنذ ذلك اليوم الذى هجر فيه الكنيسة وتخلى عن الصلاة ، وهو يحاول أن يوفق بين نفسه وبين العقائد الأخرى . ولقد مر بما مر به المفكرون من الشك والضلال ، ثم ما لبث أن استقر على عقيدة أخرى إن لم تكن دينا فقد

جعلها هو نفسه دينا . ولكن لعلنا نصيب إذا نحن حللنا موقفه من المسيحية عندما كان صبيا يافعا ، فقد أنكرها وصارح نفسه بالتخلي عنها منذ تلك الليلة من ليالى الصيف حين كان يتنقل فى توركا هل .

لقد نشأ برنارد شو فى أيام كانت الخصومة بين الدين والعلم على أشدها وقد كان العلم واتته كشوف جاء بعضها فى أثر بعض . هناك تلك الكشوف التى وصل إليها دارون فى سنة ١٨٥٩ حينما كتب كتابه « أصل الأنواع » وهناك أيضاً تلك التى ذهب إليها أصحاب العلم من أمثال هيكل وسبنسر وهكسلى ، وهناك أيضا ذلك التقدم المادى الذى أنتجته الآلة فى كل مكان . وقد خرجت من بين أهل العلم أمة تحسب أن هناك اختلافا شديداً جداً بين الدين والعلم ، فقد حسبوا أن العلم يعتمد على مجرد الإلهام والإيمان ، وحسبوا بعد ذلك أن كشوف العلم قد برهنت على أخطاء كان يؤمن بها أهل الدين . وكذلك نشبت تلك الخصومة بين أفراد من الناحيتين . واضطرب شاب مثل برنارد شو فى هذا النقاش، وحاول أن يختط لنفسه طريقا ، وسيحاول بعد ذلك أن يمضى فى هذا الطريق ، لكنه سيقف فى العشرين عند حد الإنكار .

لقد كان الإنجيل من بعض ما قرأه وهو يافع . وتأثر بآيات الإنجيل تأثراً بالغاً ، ولعلها هى التى كونت ذلك الشعور الدينى العميق فى قرارة وجدانه ، ولكنه كره من المسيحية أنها محوطة بطقوس وتقاليد تتنافى والروح الدينى نفسه . فهو لا يرى أن كلمات الكتاب المقدس آيات يجب أن تحمل على ظاهر القول ، ولا هو يؤمن بأن العالم قد خلق سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد ، ولا أن الجحيم لهب من النار التى لا تفنى ، ولا أن التثليث ثلاثة رؤوس فى رأس واحد ، ولا أن الإنجيل كتاب علمى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا أن القصص التى فيه تاريخ دقيق لطور من حياة الإنسان ، ولا أن أوامره ونواهيه تعاليم يجب التقيد بها . كل هذه العقائد كان ينكرها برنارد شو إنكاراً شديداً ، ولم يكن يرى فيها إلا التواء للعقائد الدينية الأصلية أو تصويراً شعرياً خلابا . وهو يراها فى مجموعها مناقضة للدين الحق .

ذلك ما كان يعتمل فى صدر برنارد شو وهو يافع . على أنه كان مخلصا مع نفسه ومع الناس . فانه لم يبلغ هذه الدرجة من الإنكار إلا بعد أن قرأ الإنجيل . وقد واتته فرصة استطاع فيها أن يصرّح عما بذات نفسه . فأرسل لإحدى الصحف السيارة يتحدث عن الفرق بين «الدين الحق» وبين «التظاهر بالدين» وبشرح الاختلاف بين الوازع الدينى الصحيح والدوافع الأخرى التى يتظاهر بها المتدينون .

وكان فى التاسعةعشرة حين هبط دبلن فئة من جماعة الإنجيليين وقد كان هؤلاء ولا زالوا من أشد الدعاة إلى المسيحية . وعقدت الجماعة الوافدة اجتماعا صاخبا فى أحد معارض المدينة . وتوافد إلى الاجتماع جمهرة كبيرة من أهل المدينة . وعلقت الصحف فى الغداة فزعمت أن الاجتماع كان ناجحا ، وأكبرت من الشعور الدينى الذى دفع بهم إلى صالة الاجتماعات فى المعرض . لكن الفتى برنارد شو يخرج على الناس بخطاب فى إحدى الصحف يحاول أن يحلل فيه العوامل التى دفعت بالناس إلى هذا الاجتماع الدينى ، ويعزو الأمر جميعه إلى أسباب لا تمت بسبب إلى الدين . فهو يرى أن الناس قد اجتمعوا بدافع حب الاستطلاع أولا لأنهم كانوا قد سمعوا كثيراً عن طائفة الإنجيليين ، فأرادوا أن يروا أفراداً من هؤلاء الدعاة . واجتمعوا بدافع الفرجة على المعرض فقد كان هذا المعرض مغلقاً فانتهز الكثير منهم هذه الفرصة ليشهدوا المعروضات دون أن يستمعوا إلى الوعظ الدينى . ومثل هذه الواقعة تمثل لنا برنارد شو فى تحليله للدوافع وفى تفرقته بين الدوافع الظاهرة والدوافع الباطنة . وهى تمثل لنا أيضا حياة النقاش والنضال التى عاشها . وسيأتى وقت على برنارد شو يفكر ثم لايرى بأسا من أن يعارض بتفكيره العالم جميعه إذا اضطر إلى ذلك : سيجد متعته النفسية فى حياة الجهاد والمعارضة التى يعيشها .

* * *

وهكذا قصد برنارد شو إلى لندن فى سن العشرين وقد تحلل من كثير مما يعوق تطوره الفكرى وتخفف من قيـــود الدين الذى ورثه عن آبائه . وانطلق يسعى فى غمار الحياة العامة فى لندن ، فتنطبع فى نفسه آثار أخرى ويرى نفسه وهو يجاهد فى سبيل الفكرة . ونرجو أن نكون قد أسلفنا عليك الأصول التى قامت عليها أفكاره وعقائده فيما بعد . فهو لن يبلغ الذورة من تفكيره إلا وهو فى الأربعين ولن يبلغ الذروة من عقيـدته الدينية إلا وهو فى الستين .

(٣)

تسع سنوات عجاف فى لندن

١٨٧٦ - ١٨٨٥

حينما قصد برنارد شو إلى لندن فى سنة ١٨٧٦ لم يلق المجد الأدبى لقمة سائغة، بل ظل تسع سنوات مملقاً مقتّراً عليه فى الرزق. ولا تحسب أن هذه السنوات التسع كانت فترة من فترات الجهاد لكسب الرزق، لأن برنارد شو لم يبادر إلى الجهاد فى سبيل كسب المال كما فعل غيره من الأدباء وأصحاب الفن. بل لقد اعتمد على أمه أول الأمر. وكانت أمه تتقاضى جنيها فى الأسبوع من أبيه، وكان لها بعض العقار الموروث الذى يدر عليها رزقا يسيراً ثم كانت تعطى بعض الدروس فى الغناء والموسيقى. فلم يكن من برنارد شو إلا أن فرض نفسه فرضاً على هذه الأم المسكينة. وظل عالقاً بأذيالها طوال السنوات التسع حتى استطاع أن ينقذ نفسه من براثن الحاجة. وقد حسب المال الذى تكسّبه خلال هذه السنوات فلم يجاوز ستة جنيهات.

ويذكر فيما كتب عن تاريخ حياته أنه لم يحاول أن يساعد أمه ولا أباه فى تلك الفترة بل يزعم أنه إذا كان قد حاول ذلك فقد كان لا محالة مغموراً فى تيار الحياة الخاصة. ولو أنه فعل ما يفعله غيره من عامة الناس فى مثل هذه الظروف لكان قد أضاع نفسه وفنه ولما وجد فسحة من الوقت يعلم نفسه بنفسه أو يعبر فيها عن خياله وفنه ولظل فكره لا يعرفه أحد. وهذه السنوات نفسها كانت سنوات عجافاً فى انجلترا: فقد أبتليت بأزمة اقتصادية فى سنة ١٨٧٩ لم تبتل بأزمة مثلها إلا فى سنة ١٩٣١. كثر فى هذا العام عدد العاطلين وتفشت البطالة. ولم يأت ربيع هذه السنة إلا بقليل من المحصولات، وساءت حال صغار التجار فأفلسوا وأغلقوا متاجرهم. وهجر الناس المسارح والملاهى إلى الحانات الرخيصة. أما الأغنياء فقد استغنوا عن المآدب والحفلات وهم يتوجسون خفية مما يجيش فى صدور الفقراء من الحقد والضغينة. وشح الطعام والفحم والخشب والشمع، وأغلقت المصانع، وأضرب عمال الميناء فى ليفربول

وأفلست بعض المصارف الكبيرة . فلم يكن هنـاك إذن محل لهذا المهاجر المملق ، ولم يكن يستطيع أن يكسب من الرزق ما يقوم بحاجات أبيه وأمه إلا إذا وهب حياته جميعا لاستدرار بعض المال فى هذه الظروف التعسة ، وقد كان معنى ذلك ضياعه وضياع فنه .

حقاً لقد حاول فى تلك السنة أن يلتحق بوظيفة فى شركة « أديسون » للتلفونات وكان عليه أن يطوف بمنازل الناس ليقنعهم بضرورة استعمال هذه البدعة الجديدة ، واشتغل فى ذلك بضعة شهور ، لكنه لم يلبث أن عاف مثل هذه المهنة التى تعرضه لسخرية الناس واشمئزازهم . ولما انحلت الشركة بعد شهور لم يحاول أن يقوم بأى عمل آخر ، بل ظـــل بعد ذلك عبئاً على أبيه وأمه . وكانت أمه تضيق به فى بعض أحيان ، لكنه كان قد وطّـن النفس على أن يعيش ليكتب وألا يشغل نفسه بغير الكتابة والدرس . أما أمه فقد أحسن إليها كل الإحسان فيما بعد حينما اشترى لها منزلا بأكمله فى لندن عاشت فيه فى أخريات أيامها .

* * *

حاول فى السنوات الست الأولى أن يكتب روايات . واختط لنفسه منهجا وهو أن يكتب خمس صفحات فى كل يوم : خمس صفحات لا أقل ولا أكثر ، كان يدبجها بخطه الدقيق الرشيق ، آلى على نفسه ألا ينام إلا إذا كتبها . وبلغ من التزامه هذا المنهج أن كان يقطع جملة بعينها فى آخر الصفحة الخامسة ويؤجل الكتابة إلى اليوم التالى . وكان فى أيام يفوته أن يكتب الصفحات الخمس ، فيكتب عشرا فى الغداة يعوض بها ما فاته فى اليوم السالف . وكانت نتيجة هذه الجهود المتواصلة خمس قصص كبيرة أجهد نفسه فى كتابتها وعرضها على الناشرين وقد أراد بذلك أن يقتحم الحياة الأدبية فى لندن كما اقتحمها الكتاب من قبل .

لكن هذه الروايات الخمس[١] لم يتح لها أن تطبع فى سنوات الضنك. لقد عرضها على كثير من الناشرين فى أمريكا وإنجلتره ، لكنها كانت تُرد إليه بالبريد التالى . وكان لا ييأس فيعرضها من جديد على ناشرين آخرين حتى أصبحت المشكله عنده أن يدبر أجر البريد . وهكذا ظلت هذه القصص الخمس تقطع البر والبحر جيئة وذهوبا حتى أستقرت أخيرا فى مكتبة صاحبها كما تستقر العوانس فى بيوت آبائهن . وقد أحصيت المرات التى رفضت فيها هذه القصص فنيفت على الستين .

وهنا يبدو لنا سؤالان ينبغى أن نجيب عليهما حتى ندرك موقف برناردشو من حياة انجلتره الأدبية عند قدومه إليها سنة ١٨٧٦ . أما السؤال الأول فهو: لم اختار برنارد شو أن يكتب « الرواية » عند قدومه إلى لندن ؟ وأما السؤال الثانى فهو : لم فشل برنارد شو فى أن يجتذب إليه القراء بهذه الروايات الخمس التى كتبها ؟ .

وللاجابة عن السؤالين ينبغى أن نذكر أن العصر كان عصر الرواية ولم يكن عصر المسرحية ولا الملحمة ولا أية فصيلة أخرى من فصائل الأدب . وقد ظن شو أنه يستطيع أن يجارى الروائيين فكتب هذه الروايات فى ألف وستمائة صفحة . لكنه فى نفس الوقت لم يتبع من سبقه من الروائيين فى خيالهم ولا فى عاطفتهم بل حاول أن يكتب روايات تتحدث عن الحب فى نغمة الحقائق الواقعة ، ويصف العلاقات بين المرأة والرجل فلا يستحى أن يسميها بأسمائها . ويختلق شخصيات روائية جامدة لا تؤمن بالخيال ، وتسخر من الغرام

(١) والروايات الخمس هى :

(١) Immaturity (١٨٧٩)

(٢) The Irrational knot (١٨٨٠)

(٣) Love Among the Artists (١٨٨١)

(٤) Cashel Byron's Profession (١٨٨٢)

(٥) An Unsocial Socialist (١٨٨٣)

وتضحك من الخزعبلات . ثم إنه لم يعن بخطة الرواية بل اتخذ منها ندوة للنقاش والمناظرة والمحاجة . وكل ذلك أدى إلى أن ترفضها شركات النشر .

يقول « لورد مورلى » فى تقريره لشركة « مكملان » عن روايته « ما قبل النضوج »(١) :

« لهذه الرواية ميزة معينة لا أستطيع أن أقول إنها جذابة ولكنها غير عادية . إنها عمل رجل يخلط بين الفكاهة والواقعية ويجمع بينهما فى سلسلة من النقاش الأدبى وحده . وهناك غرابة تشدهك فى مواقف الرواية من حين إلى آخر ، أما شخصيات الرواية فلم يصاغوا قطعا من الأنماط العادية التى جرى بها العرف فى الفن القصصى . . . إنها بلا شك تدل على المهارة لكن سيجدها أغلب القراء جافة غير جذابة وخالية كل الخلو من أى نوع من أنواع الشعور ، ثم إنها طويلة جدا » .

من مثل هذا التعليق تستطيع أن تدرك سبب الفشل الذى حاق بهذه الروايات . والحق لقد أقبل برنارد شو على محيط أدبى لم يجد قيمة لآرائه وأفكاره . وقد كان عليه أن يزداد خبرة فى لندن حتى يجتذب إليه الناس . لقد جاء إلى لندن وعنده ملكة ممتازة هى البحث عن الحقيقة وقدرة ممتازة هى الكتابة بالأسلوب الجزل ، جاء وعنده جرأة على أن يواجه الحقائق المرة وجرأة على أن يعبر عنها ـ لكنه لم يكن قد عرف بعد الوسيلة التى يستخدمها فى التعبير عن هذه الحقائق . وقد فشل فى كتابة الرواية القصصية وسيظل مغمورا بضع سنين حتى يهتدى إلى وسيلة أخرى هى الرواية المسرحية .

كان يجب إذن أن يتعلم برنارد شو كثيرا عن حياة لندن ، وكان يجب أن يختلط بالكتاب والأدباء والنقاد حتى لا يلقى بحقائقه جافة وحتى يستخلص فريقا من القراء المعادين أو المعجبين . وقد كان ذلك . فقد قضى سنيه التسع وهو يتحسس طريقه ليجد لنفسه مدخلا إلى الحلقة الفكرية التى كانت تنشأ

---

(١) Immaturity

فى قلب العاصمة . كان عليه أن يجوب لندن ، ويذرع شوارعها ، ويجول فى طرقاتها وأزقتها وقد تعلم من ذلك الكثير . وكان عليه أن يزور صالاتها ومعارضها ومتاحفها ، وقد تعلم من ذلك الكثير . وكان عليه أن يغشى منتدياتها وأن يختلط بكتابها وأدبائها ومفكريها ، وقد تعلم من ذلك الكثير أيضا .

على أن لندن نفسها فى ذلك العهد كانت مثابة لثقافة سامية . وإذا كان برنارد شو قد استطاع ان يفيد من مقامه بدبلن، فانه كان لا بد أن يفيد من مقامه بلندن أضعافا مضاعفة . كان فى لندن كثير من المتاحف والمكتبات ، وكان فيها مجال للخطابة ، وكان فيها حلقات فكرية تتحدث عن مشكلات الحياة التى ظهرت بين العلم والدين، وعن الخصومة بين الاشتراكية والرأسمالية وعن الخلاف بين الفن المسرحى القديم والفن الجديد ، وعن حقوق المرأة وهل لها أن تشترك فى النيابة وأن تقحم نفسها فى الوظائف، وعن الامبراطورية البريطانية وهل هى على حق أو على باطل : كل هذه كانت من بين المشكلات التى تريد أن تُحل . وكان لا بد لمفكر عاش فى آخر القرن التاسع عشر أن يكون له رأى فى كل واحد من هذه الموضوعات . وكان لا بد لبرنارد شو أن يفكر فيها وأن يصل إلى رأى أصيل فى كل مشكلة من هذه المشكلات .

* * *

هذه القصص الخمس لم تجد وعيا عند الناشرين من أمثال شركة «مكملان» ولا عند قراء الناشرين من أمثال لورد مورلى لأنه لم يكن هناك تفاهم بين برنارد شو والبيئة التى أقبل عليها فى لندن . ويحلو لبعض مؤرخى الأدب أن يوازنوا بين اقبال شو على لندن سنة ١٨٧٦ وإقبال شيكسبير عليها فى سنة ١٥٨٠ . فان شو لم يجد الجمهور الذى يقرأ له ويستمع إليه أما شيكسبير فقد وجد هذا الجمهور. ولا بد أن تنعقد هذه الصلة بين الفنان والجمهور الذى يكتب. كان قد سبق شيكسبير شعراء مثل « مارلو» مهدوا له الطريق وأعدوا عقول الناس للاقبال على المسرحيات الخيالية ، والشعر غير المقفّى ، فما أقبل شيكسبير

على لندن حتى سدّ فراغا كان يحس به الناس ، وأشبع خيالا شعريا كان يملك عليهم عقائدهم . أما برنارد شو فقد حاول أن يفرض على جمهور لندن قصصا روائيا لم يألفوه ، فلم يكن هناك تجاوب بينه وبين الناشرين ولا قرائهم ، بل أغلب الظن أنه لم يكن واجدا أى تجاوب إذا قدّر لهذه الروايات أن تنشر فى هذا العهد . على أنه حاول نفس المحاولة بعد ذلك فى المسرحيات ووجد من التوفيق فى تأليفه المسرحى مالم يجده فى تأليفه الروائى ، لأن كثيرا من الكتاب المسرحيين كانوا قد سبقوه فى هذا الميدان وبعضهم كان قد مال إلى الناحية الواقعية ، وبعضهم كان قد مال إلى ناحية الفكاهة وقد استفاد هو من جهود أولئك وهؤلاء .

* * *

فاذا حاولت تصويره فى هذه الفترة من حياته فستجده شابا بين العشرين والثلاثين ، زرىّ الهيئة ، أشعث الملبس ، له كسوة واحـــدة سوداء لوحتها الشمس فأحالتها خضراء . أما أكمامها فلم تكن سليمة ، لأنها كانت قد تهالكت ثم شـذّبت بالمقص ، وأما قبعته فقد كانت عجبا بين القبعات : كانت بالية منبعجة . ثم هذان الحذاءان ، أكانا حذاءين حقا ؟ لقد كانا نعلين سميكين يصمدان لغدوه ورواحه بين المتاحف والمتنزهات ومعارض الفـن . وهذه اللحية التى كادت تنبت ، لقد أصبحت لحية حمراء لكنها لم تكن كثة . تلك هى صورة برنارد شو بين العشرين والثلاثين حينما كان يحاول أن يدرس وأن يكتب وأن يخطب وأن يقرأ .

وكان المتحف البريطانى هو المكان الذى يجد فيه الراحة والطمأنينة . كانت حجرة المطالعة فيه يومها مثابة كثير من الرواد ، كان يجلس فيهـا فى ذلك العهد رجال ونساء اتخذوها لأنفسهم دارا . فالى جانب تجلس أديبة تنسى نفسها فى غمار القراءة المتصلة ، وإلى جانب آخر يجلس مدرس قديم زرى الهيئة ، رث الثياب ، قبيح الوجه ، حيـل بينه وبين صناعة التدريس للضعف والعجز وإدمان الخمر ، لكنـه أوى إلى حجرة المطالعة لينسى حياته الأولى ولينسج

نظرية له عن مقطوعات شيكسبير . ثم إلى جانب من حجرة المطالعة ناقد اسمه « وليم آرتشر » . وكأنما ساقه القدر ليلتقي ببرنارد شو في حجرة المطالعة . وكان التقاؤهما وصداقتهما بعد ذلك هو الفتح المبين الذى هبط على برنارد شو. فقد كان وليم آرتشر متصلا بأصحاب المجلات وكان من دعاة التجديد فى المسرح ومن قراء « هنريك إبسن » — وهو الذى ترجم مسرحياته إلى اللغة الإنجليزية . وكان هو الذى أثر تأثيرا مباشرا فى برنارد شو وساعد على تكوين شخصيته كناقد ، ثم كان هو السبب فى اتصال شو باصحاب المجلات وفى اتجاهه إلى النقد الموسيقى ثم المسرحى . كان كل هؤلاء وعشرات من أمثال هؤلاء يترددون على حجرة المطالعة المتصلة بالمتحف البريطانى .

ثم كان هناك برنارد شو . لقد اتخذها هو الآخر موطنا ثانيا له ، فكان يدخل إلى هناك ليلتهم الكتب التهاما . كان يقرأ كل ما استطاع أن يقرأ من كتاب فى آداب السلوك إلى كتاب فى المنطـــق لجيفونز . وهنا فى حجرة المطالعة رأى نفسه وهو يندفع إلى تعلم ما فاته . وفى هذه الفترة من تاريخ حياته قرأ الكتب التى أكملت ثقافته الفكرية ، والمؤلفات التى شكلت آراءه الاقتصادية والسياسية . ولعلنا إذا حاولنا أن نتقصى ماقرأ ونحصى ما درس رأينا أنه قرأ أمهات الكتب التى كونت الحضارة الغربية ، ثم أضاف اليها كثيرا من الكتب التى كونت الحضارات الأخرى . اقرأ أى موضوع من موضوعاته أو أية مسرحية من مسرحياته فسترى أنه يتناول الإنجيل بنفس السهولة التى يتناول بها « رأس المال » لكارل ماركس . وسترى أنه يعلم عن سقراط وأفلاطون وأرسطو وسائر فلاسفة الأغريق مثل الذى يعلمه عن دارون وفولتير وروسو وسائر الفلاسفة فى أوروبا الحديثـة . وستجد أيضا أنه قد اطلع على فلسفات الشرق ودياناته فهو يعـلم الكثير عن بوذا وكونفوشيوس . وهـو قد درس الإسلام وأحاط علما بالقرآن الكريم . ثم تجد بعد ذلك أنه يعـلم الأساطـير القديمة حق العلم ويقدر الأدب القديم عند الإغريق والرومان ، ثم هـو محيط بما كان يكتبه معاصروه من الأدباء ، كما أنه مطلع على ما كان يبحث فيـه

معاصروه من العلماء ، فهو قد قرأ لهنريك إبسن وزولا وتولستوى كما اطلع على ما كان قد أنتج دارون ولامارك. ولم يكن هناك حد لقراءات برنارد شو، فقد كان يطالع كل ما يقع تحت يده من كتب العلم والفن والأدب والتاريخ .

* * *

ولنذكر مرة أخرى أنه عاش مملقاً يتحسس طريقه فى قلب هذه المدينة الكبيرة وحاولنا أن نرسم صورته التى تروح وتغدو أيام الإملاق ، فلنكمل هذه الصورة ببعض الخطوط الأخرى . ذكر مرة أنه كان يسير فى إحدى الطرقات فصادفه متسول يمد إليه يده ، وأقسم المتسول أنه لم يكن يملك بنساً واحداً ، فما راع المتسول إلا أن أقسم له برنارد شو هو الآخر أنه أيضاً لا يملك بنساً واحداً . وكاد الرجل يسأل برنارد شو هذا السؤال الطبيعى : إذن فلم لاتتسول معى ؟ .

وذكر مرة أخرى أنه كان يسير فى بعض شوارع لندن عند منتصف الليل فلقى فتاة من بنات الهوى . وما لبثت أن اعترضت طريقه محاولة إغراءه وطلبت إليه أن يناديها بعربة . وعبثا حاول أن يفلت منها . وعبثا حاول أن يقنعها أنه لم يكن يملك ولا درهما واحداً . وما زالت به حتى أخرج جيوبه جميعاً ، فانصرفت عنه لأن جيوبه كانت خاوية ! !

هذه الحوادث وأشباهها هي التى علقت بذهن برنارد شو من هذه السنوات العجاف التى حاول فيها أن يكتتب فلم يفلح ، وأن يؤلف قصصا روائيا فلم ينجح . وليست ذكرياته عنها إلا ذكريات رجل قليل المال ، قليل الإخوان. كان إذا أراد أن يقضى أوقات الفراغ فعليه أن يسير إلى ضواحى لندن ، أو يدخل إلى متاحفها أو معرض من معارضها ، أو يذهب إلى هايد بارك حيث يستمع إلى الخطب التى يلقيها خطباء الصدفة من فوق صناديق الصابون .

* * *

ولا يمكننا أن نتم هذه الصورة على ما نرضى إلا إذا تتبعنا أفكار برنارد شو الدينية فى هذه الفترة المبكرة من تاريخ حياته . لقد خلفناه فى سن العشرين وهو يغلو فى النقاش بين المتدينين من أصدقائه وغير أصدقائه . ولا ريب فى أنه مر بفترة من الضلال أنكر فيها وجود الله سبحانه ، ومال فيها إلى رأى الطبيعيين من حيث خلق العالم نفسه بنفسه وسنرى أنه سيؤوب مرة أخرى إلى نوع من التصوف ، وسنرى أن كل هذا النقاش سينقلب إلى عقيدة تتمثل فيها نفسه حين يهتدى . ولكنه فى قصصه ومسرحياته سيذكر كل هذه المناقشات ، وسيزيد منها بين شخوصه ، وسيجد لكل سؤال من الشك إجابة يريد بها اليقين .

إنه يذكر هذه المناقشات . يذكر مثلا أنه كان مرة فى حلقة من عارفيه فزعم بعضهم أن واحداً من العلماء الملحدين تحدى أهل الدين بأن أخرج ساعته وقال : لو أن هناك إلهاً فلينزل على صاعقة فى مدى خمس دقائق !! وتناقش الأصدقاء فيما إذا كان هذا الحديث حقا أم باطلا ! فاذا برنارد شو يخرج ساعته هو الآخر يريد أن يقوم بنفس هذا التحدى . وقد كان هو الآخر ملحداً لا يؤمن بأن القوى الروحية التى تسيطر على العالم تتدخل فى قوانين الطبيعة عند مثل هذا التحدى . على أن أصدقاءه من المتشككين والمؤمنين على السواء لم يريدوا أن يمضوا فى هذه التجربة السخيفة .

وهو يذكر ايضا أن بعض أصدقائه من أصحاب الدين الذين اشتبهوا فى إلحاده ، فوكّلوا به قسيساً ليجنبه عذاب النار . وكان الأب أليس قسيساً كاثوليكيا اشتهر بقوة الحجة وسلامة التفكير ، وأظهر برنارد شو أنه على إستعداد ليناقش كل ما يتصل بالدين . قال الأب أليس :

— إن العالم موجود فلا بد من وجود صانع له .

واجاب شو — إذا وجد هذا الصانع فلا بد من وجود صانع لهذا الصانع .

أليس — إننى أسلم بذلك جدلا . إننى أسلم لك أن هناك صانعا لله وأسلم لك أن هناك سلسلة طويلة من صناع الله !!

وإذا اتبعت هذا المنطق مضيت فى سلسلة لا نهاية لها ، ولا يمكن للعقل أن يفكر فى اللانهاية ، بل يكون هذا إسرافا فى التفكير . إنه أيسر علينا منطقيا أن نفكر فى الرقم الواحد ، من أن نفكر فى خمسين ألفا أو خمسين مليونا . ولذا لم لا نتقبل الرقم الواحد ، ونقف عنده ، حيث أننا لا نستطيع أن نحل هذه المشكلة المنطقية إذا نحن حاولنا أن نفكر فيما وراء الواحد ؟

شو — ولكن اسمح لى ! إنه أيسر على أن أعتقد أن العالم قد خلق نفسه من أن أعتقد أن هناك خالقا خلق نفسه !

وانتهى النقاش عند هذا الحد ، وأدرك الأب أنه لا جدوى من مناقشة هذا الصغير الطائش . وقال أليس وهو يودعه أنه لا يستطيع أن يعيش إذا فقد إيمانه بالله . أما هذا الشاب فانه خرج ليكتب قصته « ما قبل النضوج وكان بطلها أحد الملحدين من شباب ذلك الجيل . كان بطلها فى الواقع برنارد شو فى سن الخامسة والعشرين حين كان يجتاز فترة من الضلال . لكنه كما أسلفنا سيؤوب إلى الإيمان بأن الفكر الإنسانى محدود بحدود لا يستطيع أن يتخطاها . وفى مسرجيته الطويلة « عودة إلى متشالح » سينتهى بهذا المنطق الذى عرضه الأب الكاثوليكى أليس. فالفكر الإنسانى مهما سما فهو قاصر عن أن يدرك اللانهاية ، فحسبه من ذلك الإيمان بالله الواحد .

* * *

ماذا عسى أن يكون رأى الناس فى مثل هذا الشاب ؟ لقد كان يبدو مفتونا لبعضهم وغريبا لبعضهم الآخرين . هذا الشاب القوى الذى آلى على نفسه ألا يعمل لكسب الرزق ، هذا الشاب الذى ينتج خمس قصص لا تطبع ولا تنشر ، ثم لا يمنعه اليأس من المثابرة على الكتابة ، هذا الشاب الذى يناقش ويجادل ويستمع إلى خطباء هايد بارك — ثم هذا الزرى الهيئة الرث الثياب الذى يحاول أن يكون سيداً فى تفكيره ، لا بد أنه كان يبدو غريبا لأولئك الذين اختلطوا به وحدثوه وناقشوه .

لكنه كان يبدو غريبا من وجه خاص أيضا . ذلك أن قراءاته أدت به إلى أن يكون نباتيا فى سنة ١٨٨١ . كان فى هذه السنة يقرأ كل ما ألفه الشاعر الإنجليزى شللى، وخرج من قراءة شللى بإيمانه بالغذاء النباتى، وبتحريم أكل الحيوان ؛ كما كان قد حرم على نفسه الخمر وامتنع عن التدخين .

وهو يذكر ثلاثة أسباب دعته إلى أن يكون نباتيا . فهو يحب الحيوان والطير حبا جما ، ويرى أن بين الإنسان والحيوان علاقة من العطف والرحمة، فحرام أن نقتل أصدقاءنا من الحيوان — أما قتل الوحوش الضارية فهو واجب . ثم إنه يرى أن أكل الحيوان يستلزم استعباد الحيوان للانسان نفسه. إن الغذاء الحيوانى وإعداده يستدعى جهدا عظيما ينبغى — فى رأى برنارد شو — أن يبذل فى وجوه أنفع . فتربية الماشية والأغنام تستدعى كثيرا من المراعى وعددا كبيرا من الرعاة ، وتستلزم أن يكون لكل راع جيش من الصبيان والقصابين . وأجدر ببنى الإنسان أن يبذلوا هذه الجهود فى تربية أبنائهم والقيام على صحة شطر كبير من البشر لا يعنى بهم كما يعنى بالحيوان . كذلك كان يرى أن أكل اللحم فى نفسه ضار بالصحة. فالغذاء النباتى يزيد من حيوية الانسان ويجنبه الأمراض والعلل التى يسببها أكل اللحم. وظل من سنة ١٨٨١ حتى وفاته وهو وافر النشاط كثير الحيوية دقيق التفكير . ولم يذق لحما ولا خلاصة لحم حتى حينما اشتد به المرض يوما ورأى أطباؤه ألا مندوحة عن تغذيته بخلاصة من لحم العجل فأبى ذلك .

وهذه الحيوية الفكرية والجسمية التى تمتع بها برنارد شو والتى وصلت به إلى سن الخامسة والتسعين لم تكن ترجع إلى غذائه النباتى فحسب ، بل كانت ترجع أيضا إلى تجنبه الخمر والدخان والنساء ، وإلى اعتداله فى كل ما يتصل بالصحة العامة . أما من حيث الخمر فقد كان أبوه مثالا حيا ينذره بسوء العاقبة إذا هو قرب الخمر ، فقد أدى إدمان أبيه إلى ما أدى إليه من خراب الدار وفصم العرى بينه وبين زوجه ، لذلك كان يمقت الخمر فلم يذق لها طعما طول حياته. أما الطباق فقد تعاطاه وهو صبى لكنه ما لبث أن رأى أن التدخين

يرتبط دائما بالكسل الجسمى والهمود العقلى فأقلع عنه لغير رجعة . وأما من حيث علاقاته الجنسية فقد ظل حريصا لا تعرفه النساء وظل متطهرا فى تفكيره الجنسى قبل زواجه وبعد زواجه .

* * *

ذلك إذن برنارد شو فى شبابه من سن العشرين إلى سن الثلاثين، فقد ظل هذه الحقبة فى المدينة الكبيرة يحاول أن يقتحم حلقة الأدباء والمفكرين والمتفننين ولم يدرك من النجاح إلا قليلا . على أنه فى هذه الفترة نفسها قد أعد نفسه كمفكر. فقد تأثر بالاشتراكية فدرسها وتعلمها ودعا إليها ودافع عنها وأصبحت الاشتراكية فيما بعد هى المفتاح الذى فتح له باب المجد . ووجد نفسه موزعا بين الشك واليقين وبين الضلال والإيمان . وسنعالج فيما يلى تأثره بالاشتراكية ومجمل الأفكار العامة التى تأثر بها ، ثم سنعالج فى فصل آخر آراءه الاشتراكية لأن هذه الآراء هى أهم ما يميز تفكيره السياسى والاجتماعى فى حياته الطويلة ثم سنعالج فيما بعد تطور عقائده الدينية .

(٤)

دراسة الفقر والمال
فى السنوات التسع العجاف
١٨٧٦ - ١٨٨٥

كان الفقر هو الرذيلة الأولى التى قامت الاشتراكية لاستئصالها . فمنذ قامت الحركات الاشتراكية فى التاريخ حتى الساعة التى نكتب فيها، قام المفكرون الاقتصاديون والاجتماعيون والسياسيون ليحلوا مشكلة الفقر . بل قل إن الحضارات الزاهرة فى تاريخ الإنسانية لم تقم إلا على توفير الرخاء للناس . وقد قامت الحركات الاشتراكية فى أوروبا منذ مطلع القرن التاسع عشر وهى تحاول أن تستأصل هذه الرذيلة ، ولم تكن إنجلترة شذوذا لهذه القاعدة . بل قامت فئات من الناس منها تحاول أن تحل مشكلة الفقر التى حاقت بالناس فى كل ناحية من نواحى المجتمع . وكانت هذه الفئات قوما من رجال الدين حينا ، ومن رجال الأدب والاقتصاد والقانون والتربية والسياسة أحيانا . وحينما قدم برنارد شو على إنجلترة فى سنة ١٨٧٦ كشف لتوه أن مشكلة الفقر جاثمة فى كل مكان ، وأدرك أنه قد خرج من فقر وإعواز فى ايرلنده إلى مجتمع فقير معوز فى إنجلترة . ولم يبهره زخرف الحياة الخاصة التى كان يعيشها الأثرياء فى ذلك العهد . ومازال برنارد شو يدرس الفقر وأسبابه حتى وجد أن الاشتراكية هى الحل لهذه الحالة العامة من الإملاق . ولكن لقد قطع شوطا بعيدا بين المرحلة التى درس فيها الفقر وتمرس هو نفسه بالفقر ، والمرحلة التى استقر فيها على آرائه الاشتراكية . ونحن نزمع فى هذا الفصل أن نساير بعض إحساساته ومشاعره وأفكاره حينما قدم إلى لندن وفى التسع سنوات الأولى التى قضاها وهو معوز مغمور .

كان فريدريك إنجلز فيلسوفا اشتراكيا : هو نفسه الذى عاون كارل ماركس فى حياته . وإلى آراء إنجلز تنسب الفلسفة الاشتراكية التى ضمّنها كارل ماركس كتابه « رأس المال » وكان قد كتب إنجلز كتابا اسمه « أحوال الطبقة الإنجليزية العاملة » وأخرجه فى سنة ١٨٤٥ . وقد جمع

إنجلز بين دفتى هذا الكتاب وصفا لحالة البؤس والشقاء والفقر التى كانت تعيشها طبقة العمال . وكان الوصف فى هذا الكتاب دقيقا وواقعيا حتى قد قيل إن هذا الكتاب هو الذى اعتمد عليه كارل ماركس فى وصف حياة العمال فى غرب أوروبا جميعا . وقد شاعت آراء إنجلز عند مختلف الكتاب والمفكرين فى ذلك العصر حتى لقد رجع إليه الكثير منهم حينما كانوا يصورون هذا الفقر الذى كانوا يريدون استئصاله . وكانت كتابات إنجلز هى التى نبهت المشرعين والكتاب والأدباء إلى محاولة إصلاح أحوال الطبقة العاملة ، وكان برنارد شو أحد هؤلاء الذين قرأوا هذا الكتاب ، وصوروا الفقر دائما على الصورة التى أنشأها فى خيالهم الأول فريدريك إنجلز .

* * *

ماهى أعماق هذا الفقر الذى استكشفه فريدريك إنجلز ووصفه فى كتابه « أحوال الطبقة الإنجليزية العاملة » ؟ ما هى أوصاف الفقر التى تأثر بها كارل ماركس وبرنارد شو وغيرهما من الكتاب والمفكرين والروائيين ؟ إنها كانت ترجع جميعا إلى الانقلاب الصناعى وإلى ظهور طبقة من أصحاب المصانع تستأثر بالمال دون العمال. ولنضرب لذلك مثلين فى صناعة القطن وصناعة الفحم، فقد كان العمال فى هاتين الصناعتين من الشقاء والبؤس ما يكاد يتحدى كل وصف . وقد كان صاحب المصنع فى تلك الآونة شخصا يعتبر نفسه قد ارتفع بجهده ومهارته ، فلم يكن يتمسك ببعض القيم التى كان يتمسك بها كثير من ملاك الأرض . كان صاحب المصنع مغامراً يبذل أقصى جهده ليستكثر من ربحه ولم يكن يقف أمامه لبلوغ هذا الهدف ورع ولا تقوى .

أما فى صناعة القطن فقد كان يدخل هذه المصانع أطفال فى سن السادسة ويظلون فيها إلى سن الحادية والعشرين . وكان صاحب المصنع فى أى بلدة فى لانكشير يعتبر مالكا بالفعل لهؤلاء الأطفال. وكان المعمل فى غالب الأحيان يشتغل أربعا وعشرين ساعة ، وكان على كل طفل أن يعمل اثنتى عشرة ساعة . وكان كل طفلين يقتسمان سريرا واحداً : أحدهما ينام فيه بالليل والآخر ينام

فيه بالنهار . أما إذا كان المعمل ذا نوبة واحدة فقد كان يعمل الأطفال خمس عشرة أو ست عشرة ساعة بالنهار وأربع عشرة أو خمس عشرة ساعة بالليل ستة أيام فى الأسبوع بين الساعة الثالثة صباحا إلى الساعة العاشرة مساء وكان يستعمل أصحاب المصانع أشد انواع القسوة فى تشغيل هؤلاء، وكانوا يوقعون عليهم أشد أنواع العقاب البدنى إذا قصّروا أو أخطأوا ، وكانت صيحات البكاء والعويل لاتكاد تنقطع من المصنع ، ولاتكاد أصداؤها تتلاشى إلا لتتجاوب بعدها صيحات أخرى من المعذبين فى المصانع .

وكانت حال العمال فى صناعة الفحم أشد من ذلك قسوة . وكان أسوأ مافى هذه الصناعة أيضا استخدام الأطفال من سن الخامسة . كانوا يسمون هؤلاء « الصيادين » وكانوا بأجسامهم النحيلة الهزيلة يستطيعون أن يندسوا فى باطن الأرض ليستخرجوا الفحم من سراديبه الضيقة المنخفضة . ثم كان هؤلاء الأطفال لا يكادون يرون نور الشمس إذ كانوا يعيشون طيلة أيامهم فى ظلام المناجم . حتى إذا بلغ هؤلاء العشرين أو الحادية والعشرين ألقاهم أصحاب المصانع على التلال الجرداء يهيمون على وجوههم كما تهيم السوائم . وكانت النساء أيضا من العاملات فى هذه المناجم ، كانت تضطرهن الحاجة إلى أن يمشين فى باطن الأرض على أربع كما تمشى الدواب ، وكن يلقين من العسف والخسف ما لا يمكن أن يتصوره الخيال .

وكان العمال من رجال ونساء وأطفال يعيشون حياة غير كريمة : ساعات عملهم طويلة ، وأجورهم ضئيلة ، سكناهم فى سراديب مظلمة داخل الأرض ، وقباؤهم مزدحمة يملؤها الدخان وتتفشى فيها الأمراض ، يتهددهم فيها الكوليرا والدرن الرئوى والتيفوس .

* * *

ولم يكن يخلو المجتمع الانجليزى فى منتصف القرن التاسع عشر من كثير من أصحاب الضمائر الحية الذين كتبوا أو ألفوا وخطبوا محتجين على هذه الحال.

فقد قامت لجنة سادلر (١) تبحث حال العمل ، وتدرس حال الاطفال خاصة ، وامتدت أعمال هذه اللجنة فى لجان متتابعة حتى سنة ١٨٤٢ ، ولم تنجح فى إثارة الرأى العام على أصحاب هذه المصانع . ولكن تبارى أهل الدين والأدب والقانون والتربية والاقتصاد فى علاج هذه الحال : أى فى علاج هذا الفقر الذى رأوه يستشرى فى كل مكان ، ويكاد يلتهم أطفال الأمة . وكان لكل فريق منهم رأى ، ولكن لم تخرج آراؤهم جميعا عن الحيز الرأسمالى الذى كانوا يدورون فيه ، ولا يدركون أنه يمكن تجاوزه أو التحرف عنه .

ماذا كان إذن هذا الحيز الرأسمالى الذى حد من جهود هؤلاء المصلحين؟ لقد كان المجتمع فى نطاق من أفكار وعرف وتقاليد قيل إنها كانت تدعو إلى الحرية . كان هذا هو عصر الفرد ، وكان يخيل إلى هؤلاء المصلحين أن الفرد حر يستطيع أن يفعل ما يشاء فى حدود القوانين التى رضى بها المجتمع . وعلى هذا الأساس الفردى قامت النظم ، وأبيح للفرد أن ينشأ كما يشاء ، وأن يصارع غيره من الضعفاء والفقراء ، وأن يستولى على السلطة ، وأن يدخل المجالس النيابية : وكانت الفلسفة الخلقية تشجع الأفراد على صفات الطغيان وحب السلطة . بل كان رجال خلقيون مثل صمويل سميلز يحثون الشباب على أن يكون فرديا لا يكاد يحس إلا بنفسه . أما الفقراء والضعفاء فقد كان ينظر إليهم نظرة إشفاق لأنهم فى نظر هؤلاء الخلقيين لم يستطيعوا أن يفيدوا من الظروف التى حولهم . لذلك جاء كل إصلاح فى العصر الفكتورى وهو يؤيد الصفات الفردية ويحث على المغالبة والمصارعة والسيطرة . وقد دفع ذلك بهؤلاء إلى المستعمرات وانعكس ذلك جليا فى حب النفس والسير وراء شهوة المال التى رانت على المجتمع .

ماذا إذن فعل أهل الدين وأهل القانون وغيرهم من المفكرين ؟

أما أهل الدين فقد نظروا إلى الفقر نظرتهم إلى شىء يكاد يكون مقدرا على المرء فى حياته . ولجأوا إلى التخفيف بالحض على إطعام الفقير ، وإنفاق

---

(١) Sadler Committee

الصدقات . ولجأوا إلى التخفيف عن نفوس الفقراء بالحض على الصبر والتقوى في الحياة الدنيا لعلهم يصيبون الجنة في الحياة الأخرى . وكانت تتردد في عظاتهم دائما مقالة السيد المسيح : « لأن يدخل الجنة غنى أعسر من أن يدخل الجمل سمّ الخياط» . وأما أهل الأدب فقد حاولوا أن يصفوا هذا الفقر وصفا واقعيا . ونرى سخطا على هذه الحال في شعر رجل مثل أوليفر جولد سميث على الرغم من أنه يعتبر من شعراء القرن الثامن عشر، فهو الذى تنبأ في قصيدته « القرية المهجورة » بالحال التي كانت تتكدس فيها الثروة ويتلف الرجال . أما في كتابات تشارلز دكنز فان مظاهر هذا الفقر تروح وتغدو في دقائقها وحقائقها صور من الأطفال المعذبين في المناجم والملاجيء ، وصور السجون التي يسجن فيها المدينون ، وصور الأطفال المشردين الذين يتعلمون السرقة على أيدى رؤساء المناسر من الخطافين والنشالين ، وصور حياة الفقر المدقع التي كان يعيشها العمال في المصانع وأصحاب الحرف في حوانيتهم . أما أهل القانون فقد كانوا يزيدون القوانين قسوة على قسوتها حتى يحفظوا لأصحاب الغنى ما كانوا فيه من غنى ، ثم هم في نفس الوقت لايعدلون من قوانين الفقر إلا قليلا . فقانون الفقراء مثلا الذى وضع في عهد الملكة اليزابث في القرن السادس عشر كان هو القانون الذى يفك ضائقة الفقراء في القرن التاسع عشر ولم يعدّل إلا قليلا في أول القرن العشرين . وأما أصحاب التربية فقد كانوا هم الآخرين دعاة للقسوة في معاملة تلاميذهم . وكانوا يعتقدون ــ وبخاصة في المدارس العامة ــ أن التربية الخلقية لا تستقيم إلا بالضرب والجلد والتعذيب وغير ذلك من أنواع العقاب البدنى . وأما أهل السياسة فقد كانوا يسيرون وراء الاحتفاظ بحقوقهم كطبقة من السياسيين المحترفين سواء أكان في الداخل أم في الخارج .

وقد صاحبت جهود هذه الفئات جهودا لفئة من الفلاسفة ، كان تفكيرهم تفكيرا خالصا لايكاد يؤثر في الواقع إلا قليلا . أولئك هم طبقة الفلاسفة الراديكاليين، وقد كان منهم السياسى والاقتصادى ورجل الأدب ورجل الدين. وسنؤجل الحديث عنهم حتى نعالج فلسفاتهم حين نبسط الحديث في التفكير

الاقتصادى فى فصل قادم. ولكن حسبنا الآن أن نذكر أحدهم وهو «مالثوس» إذ أنه هو الذى جعل الفقر دراسة بمفردها . وقد توفّر مالثوس على دراسة الفقر وصوّر الهوة السحيقة التى كان يتردى إليها المجتمع الانجليزى فى عصره حتى لقد عرف مالثوس بأنه منشىء « علم الفقر » كما سمى آدم سمث منشىء « علم الثروة » .

والحق أن كتابات الأدباء وأصحاب السياسة والاقتصاد والدين لم تكن تستطيع أن تؤثر كثيرا فى حياة المجتمع الانجليزى فى منتصف القرن التاسع عشر ، لأن كيان هذا المجتمع كان قائما على الرأسمالية فى عنفوانها . ولم يكن يستطيع المفكرون والأدباء أن يعلموا أن الرأسمالية كانت تحمل فى أطوائها بذور هذا الفقر ، وأنه لا يمكن التخلص من الفقر إلا إذا قلمت أظفارها وخضدت شوكتها . وكان برنارد شو من أول المفكرين الذين وضعوا أصابعهم على موطن الداء حينما رأى أنه لاخلاص من هذه الحال إلا بالتحول إلى الاشتراكية . ووجد برنارد شو نفسه عدوا لكل هذه الجهود التى كان يبذلها أولئك المفكرون والأدباء والاقتصاديون ، لأنه لم يؤمن بأنها كانت خالصة ، ولا أن علاجهم للأمور كان يندس إلى صميم المسائل . وهذه العداوه نفسها هى التى أكرهته على أن يبحث عن حل فى الاشتراكية . لقد ذكر فى بعض حديثه أن أهل الاقتصاد لم يستطيعوا أن يعالجوا شيئا من الفوضى والبوار ، وأن أهل الفن لم يزيدوا على أن خلفوا للعالم كثيرا من القذارة والقبح . أما أهل القانون فان جهودهم لم تنتج إلا اختلالا فى موازين العدالة ، وأما الأطباء فانهم عاشوا على المرض ، أما أهل الدين فانهم عاشوا على النفاق والملق وعاونوا بذلك على ارتكاب الخطايا السبع المهلكة . وكونت هذه جميعا فى نفسه عداوات بلغت حد الموجدة وخلقت منه بوهيميا ثائرا ، وعدلت به إلى طريق النقد ، فانتحل قصصا وأساطير اتخذها سلاحا ينقد به الرأسمالية من جميع وجوهها .

* * *

ولندرس هذا الكيان الرأسمالى الذى التقى به برنارد شو عند قدومه إلى لندن ، ولندرس التطورات التى كانت تنتاب هذا الكيان الرأسمالى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والحقبتين الأوليين من القرن العشرين ، فان هذه هى الفترة التى شهدت إنتاج برنارد شو .

كان النظام الرأسمالى يقوم على الملكية الشخصية ،وقد وجد الناس أنفسهم أحرارا فى أن يستكثروامن الثروة ماشاءت لهم الفرصة ، وماسمحت به قدراتهم وذكاؤهم ،وماورث ابن عقارا أو أرضا أو مالا عن أبيه . وكانت السوق كذلك حرة تحركها المنافسة . وكانت هناك منافسة متقدة بين الفرد والفرد والبضاعة والبضاعة . وكان كسب المال هوأول دافع للانتاج ، وكان كسب المال حرا لاقيودله ولاحدود . ودخلت هذه الحرية إلى كل عمل من الاعمال، فكان للفرد مطلق الحرية فى أن يتخذ العمل الذى يختاره ، وأن ينتقل من عمل إلى عمل إذا أراد . وبلغت هذه الحرية حدا منع الحكومة من أن تتدخل فى عمل الأفراد أوالشركات .وكانت ضرورات الحياة كالطعام واللباس والدواء معتركا لهذه الحرية المطلقة لاتستطيع الحكومة أن تقربها . ثم إن عددا من الأفراد أو من الشركات انضموا إلى بعضهم البعض حتى يقضوا على ما بينهم من تنافس ، وقضوا فعلا على مابينهم من تنافس ولكنهم خلقوا احتكار الإنتاج وبخاصة فيما يتصل بالمواد الأولية ، واستطاعوا بذلك أن يرتفعوا بالاسعار كلما بدا لهم ذلك . وفى نفس الوقت استطاعت هذه الشركات الاحتكارية أن تتحكم فى أجور العمال وألا تسمح لهم إلا بالنزر اليسير الذى لايكاد يسد رمقهم . وكان يناهض شركات الاحتكار هذه بعض اتحادات العمال لكنها لم تكن قد قويت بعد . وكان يؤيد كل هذه النظم مبدأ الوراثة الذى كان ينقل الإرث جميعه من الأب إلى الابن الأكبر حتى تستمر كل هذه الأعمال الضخمة بما فيها من ثروات واستثمارات .

وفى هذه العجالة التى سردنا تكمن كل المشكلات التى كانت تواجه أى مجتمع رأسمالى .

والمشكلة الأولى التى تبدو من النظام الرأسمالى هى الهوة السحيقة فى الدخل بين الأفراد بعضهم البعض . فهناك تفاوت كبير فى الدخل بين الأغنياء والفقراء . ثم إن هذا النظام الذى يقوم على عدم المساواة ينتقل من جيل إلى جيل ، وتوزيع الثروة هذا التوزيع الظالم يستمر من سنة إلى أخرى ، بفضل مبدأ الملكية الشخصية الخاصة وبفضل قوانين الميراث . وهذا التفاوت فى توزيع المال وهو الذى يخلق الفقر هو أولى مشكلات النظام الرأسمالى .

ويدخل غول الاحتكار فى الأسواق فيقضى على كل أمل فى موازنة الأسعار . وحيث أنه لا ضابط ولا رقيب على شركات الاحتكار ، فقد استطاعت أن تتحكم فى الأسعار ، بل أن تتحكم فى إنتاج البضائع الرائجة ، وأن تقبض يدها إذا أرادت عن أن تنتج بعض السلع الأخرى. وقد نتج من ذلك ما ينتج فى هذه الحالة من زيادة الطلب على الإنتاج فيحدث تضخم فى الأسعار تقل فيه قيمة العملة وتذوب ثروات بأكملها ليحل محلها الفقر . وقد نتج من ذلك فترات من الكساد تجتاح الصناعة. فقد لوحظ أن حرية هؤلاء المنتجين فى الاحتكار وفى التحكم فى الأسعار أدت إلى كساد فى السوق وإلى تعطل العمال وإلى أزمات فى السوق تبلغ حد الكوارث ، إنها حلقة خبيثة من الأزمات رصدها بعض الاقتصاديين وحققوها . كانت تبدأ الكارثة بأن يزيد الانتاج على الاستهلاك فتقف المصانع ويقل الربح ويعطل العمال ، وتبدأ عند ذلك اضطرابات قد تبلغ حد الثورة المعلنة . وهذا هو الذى رآه برنارد شو حينما قدم إلى لندن فى سنة ١٨٧٦ . وهذه الحلقة المفرغة التى تبدأ بزيادة الإنتاج عن الاستهلاك وتنتهى باضطرابات العمال هى التى ستتكرر مرة أخرى فى سنة ١٨٨٧ ، ومرات أخرى خلال الحقب الأولى للقرن العشرين .

ثم إنه كان يكمن فى هذا النظام الرأسمالى حرب اقتصادية ما زالت تستعر بين طبقة وطبقة ، وبين فئة وفئة . فان هذا التوزيع الجائر قد خلق قوما يملكون ، وقوما لا يملكون . وهو قد خلق أيضا فريقا هم أصحاب المصانع ورؤوس الأموال وفريقا آخر هم المنتجون أو العمال الكادحون . لذلك كان

يبدوا الغنى والثراء والرفاهية فى ناحيــة ويبدو الفقر والإمــلاق والبؤس فى ناحية أخــرى ، ولم يكن ينخدع رجل حساس مثل برنارد شو بمظاهر الغنى هذه بل كان يحــاول أن يتعمق فى دراسة أسباب الفقر ، وينفذ إلى ما وراء الزخرف الذى ضرب على حقائق الحياة .

* * *

ويذكر برنارد شو حين تقدمت به السن فى هذه الأيام التى وجــد فيهــا نفسه وجها لوجه مع آثار الفقر المدقع من ناحية وآثار الغنى الفاحش من ناحية أخرى . لقد أسلفنا فألمحنا عند حديثنا عن نشأته أنه رأى الفقر يتجلى له فى أيرلنده وأنه وجد نفسه اشتراكيا قبل أن يقرأ كارل ماركس. وفى السنوات التسع العجاف التى قضاها فى لندن رأى الفقر مرة أخرى مما ذكّره بأيام طفولته وفى معرض حديث له عن التربية حين يصف وحشين : أحــدهما هو ما سماه « وحش القرن التاسع عشر » وهو فرد من أفراد الطبقة الوسطى يتخرج فى المدارس الخاصة الباهظة المصروفات وفى نظره أن هذا الوحش هو نتاج هذه الرأسمالية، أما الوحش الآخر فهو نتاج الانقلاب الصناعى، هو العامل الكادح الذى يكدح ويكد لكنه لا يزال فى درجة من الفاقة لا تكاد تميزه عن حياة الوحش واستمع اليه حين يصف ذلك فيقول :

« حين أصف أحد هؤلاء الخريجين (أى خريجى أفراد الطبقة الوسطى فى المدارس الخاصة) فأطلق عليه اسم « وحش القرن التاسع عشر » ــ وهذا ينطبق عليه انطباقا حرفيا ــ فلست أريد أن تظن بى أننى لا أعتقد أن النتاج الآخر للانقلاب الصناعى وهو نتاج الطبقــة الكادحة ، لم يكن وحشا هو الآخر فى بعض نواحيه . فقد يكون وحشا يسهم فى الإنتاج والخدمات ، لأنه يكدح فى طلب الرزق ، فهو ليس مضياعا ولا طفيليــا ، ولكنــه كمثل الوحش الأول أيضا مخلوق ملتو معوج . لست صديقــا للفقراء ولا أنا عدو للأغنياء كما يحسبنى الجاهلون ــ فهم يعتقدون ذلك فى كل اشتراكى . حــين كنت طفلا كانت تأخذنى إحدى الخوادم المربيات للتريض خارج المنزل كما

يؤخذ الكلاب ، وبدلا من أن تسير بى إلى الضواحى كانت تسير بى إلى الأحياء الفقيرة القذرة حيث كان لها أصدقاء . وكان من طبيعة الأشياء أننى كرهت هذه الأحياء وسكانها ، ولا تزال بى رغبة فى أن تهدم هذه الأحياء وأن يباد سكانها .

« وأنا أكتب هذا الكتاب فى طفولتى الثانية وما يزال هذا غرضى الذى أضعه نصب عينى . لقد مر بى زمن كنت أنتزع فيه رعوداً من التصفيق والتهليل حين كنت أتحدث إلى بعض السامعين من سكان هذه الأحياء الفقيرة القذرة ، لأننى كنت أعبّر عن هذه العواطف. على أننى ما أن كبرت وخرجت من بين يدى هذه الخادم واختلطت بمزيد من السيدات والسادة حتى وجدت أننى أضيق ذرعا بأخلاق هؤلاء أكثر مما كنت أضيق ذرعا بأخلاق أولئك » .

وبهذه العقلية ـ بل نستطيع أن نقول بهذه الموجدة ـ واجه برنارد شو العصر الفكتورى بكل آثاره وآثامه . وقد حاول أن يبحث فى علل المجتمع الذى يعيش فيه فوجد أن العلة الأولى لبؤس هذا المجتمع تكاد تتلخص فى كلمة واحدة هى « الفقر » وما يقوم عليه الفقر من سوء توزيع الثروة وما يتصل به من كفاح فى سبيل الكسب الحرام . ولعله كان قد كوّن آراءه عن هذه الموضوعات الثلاثة الأساسية فى هذه السنوات الكادحة من سنى حياته، أى فى الفترة بين ١٨٧٦ إلى ١٨٨٥ ، ولم يكن تأثره بالاشتراكية ولا تفكيره المنطقى فيما بعد ولا مؤلفاته ومسرحياته جميعاً إلا تطويرا لهذه الأفكار الأولى التى بذرت بذورها فى هذه الحقبة .

تلك كانت المرحلة التى قطعها برنارد شو فى سنواته العجاف عندما تمرس بالفقر ورأى آثاره ، وعندما تفتحت عيناه على الرأسمالية بما كان يكمن فيها من سوء توزيع الثروة والفقر ، وعندما درس هذا الفقر رآه قابعا فى النظام الاقتصادى نفسه ، وحينما نظر إلى الأغنياء من أهل الطبقة الوسطى فشهد مكسبهم الحرام ، لكن كل ذلك يظل ناقصا إذا لم نذكر أنه قد درس الاشتراكية فى هذه الحقبة أيضا ، فالاشتراكية كانت تتمة لدراسة الرأسمالية وهى التى أثارته على كل هذه الأوضاع .

(٥)

تأثره بالاشتراكية في السنوات العجاف أيضا

١٨٧٦ - ١٨٨٥

كانت الاشتراكية كشفا جديدا فى حياة الحضارة الجديثة . وفى تاريخ الحضارة الأوربية الحديثة حركتان ينبغى أن ندرسها حتى ندرك أساس الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى نحياها . أما الأولى فقد كانت حركة النهضة الأوربية : فى القرون الثلاثة التى تلت القرن الرابع عشر كشف العقل الإنسانى ، واندس نوره إلى الأركان المظلمة التى حاقت بالإنسانية ، فكشفت أسس العلم ، وتحلل العقل خلال هذه القرون من التعصب القديم ومن الجهالة العمياء التى تشبثت بآراء القدامى ، وقتلت روح البحث والتجريب والاستقراء . تلك كانت النقلة الأولى فى تاريخ الحضارة الأوربية الحديثة . أما النقلة الثانية فقد حدثت فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وهى حركة الحرية والإخاء والمساواة التى بدأت من القرن الثامن عشر ووصلت إلى ذروتها فى الثورات التى بدأت بالثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩ وكان لها آثار بالغة فى القرن التاسع عشر . فقد حاول الثوار خلال الثورة الفرنسية أن يعلنوا حقوق الإنسان ، وأن يشيعوا المساواة السياسية بين الأفراد والجماعات . على أن حركات ثورية أخرى قد حدثت فى سبيل هذه المساواة : ففى سنة ١٨٣٠ قامت ثورة دستورية فى سبيل المساواة السياسية ، وفى سنة ١٨٤٨ قامت حركة ثالثة فى سبيل المساواة الاقتصادية ، وكانت هذه هى الحركة الاشتراكية الكبرى ، وهى التى أثّرت فى فرنسا كما أثرت فى ألمانيا وكما أثرت فى غيرهما من بلاد غرب أوروبا ثم فى بلاد العالم جميعا . والأصل فى هذه الحركة الاقتصادية أن يشترك كل فرد بأقصى جهد يبذله لتحقيق الخير العام وأن تشترك الجماعة بأقصى جهد تبذله لتحقيق المساواة الاقتصادية بين الأفراد .

والأصل العلمى للمبدأ الاشتراكى هو أن تكون كل مصادر الثروة تحت

سيطرة الناس جميعا ، وأن يكون العائد من مصادر الثروة ومن نقل البضائع لصالح الناس جميعا . وأن تكون هناك عدالة اجتماعية فى توزيع الثروة وفى الانتفاع بهذه البضائع .

ولكن لم تكن الاشتراكية مبدأ جاء به كاتب واحد ولا مؤلف واحد ولا مفكر واحد ، بل كانت وما زالت اتجاها اجتماعيا واقتصاديا يميّز الحياة العامة . وقد غبرت فى الحضارات الأولى عصور كانت تسودها الاشتراكية ولو لم تعرف بهذا الاسم ، وجاء فى كتابات أغلب الفلاسفة تنظيم اشتراكى ولو لم يعلموا هم أنفسهم أن هذا كان هو النظام الاشتراكى . وقد حاول إفلاطون أن يقيم جمهوريته الفاضلة على أساس من توازن الطبقات فى المجتمع الذى خلقه خياله ، وجاء بعد إفلاطون فلاسفة آخرون تخيلوا مدائن فاضلة أخرى كان منهم توماس مور وسان سيمون . ولقد كانت اشتراكية هؤلاء خيالية أيضا ، تغاضوا فى تصويرها عن حقائق الحياة المرة . وعلى الرغم من ذلك فقد كان لسخط هؤلاء ولتخيلهم المجتمع الفاضل أكبر الأثر فى التفكير السياسى الاشتراكى الذى جاء فيما بعد .

فى سنة ١٨٤٠ وما بعدها ظهرت الحركة الاشتراكية التى كانت تدعو إلى المساواة الاقتصادية بين المنتجين وأصحاب العمل أو قل بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال ، فقد رأى « برودون » فى فرنسا ، و«هنرى جورج» فى أمريكا ،و «كارل ماركس» و «إنجلز» ، فى إنجلترة أنه كان هناك فجوة عميقة بين العمال وأصحاب العمل . فبينما كان العمال المنتجين الحقيقيين إذا الربح جميعه يذهب لأصحاب رأس المال . وبينما كان المنتجون هم الطبقة التى لا تملك شيئا كان الرأسماليون هم الطبقة التى تملك كل شىء . لذلك رأى بعض زعماء الاشتراكيين واسمهم « الاشتراكيون الفوضويون » أنه يجب على عمال العالم أن يتآلفوا ويقوموا بثورة جائحة ضد طبقة الرأسماليين وحكومتهم حتى ترد إليهم حقوقهم : ثورة مسلحة مفاجئة لا تبقى ولا تذر . ثم يسود بعد ذلك — فى رأيهم — نظام اشتراكى يسوى بين الأفراد جميعا ولا يعترف بأن شخصا

واحداً ، ولا أن طبقة واحدة يحل لها أن تحكم وتستغل جهود الآخرين من أجل صالحها الخاص .

وجاء كارل ماركس على رأس هذه الحركة وكان أكبر الداعين إليها وأول من كتب فيها على أسس علمية فى كتابه « رأس المال » . وقد ولد فى تريفيز بألمانيا فى سنة ١٨١٨ وتوفى فى سنة ١٨٨٣ . وكان أبوه ألمانيا يهوديا لكن كارل ماركس اعتنق النصرانية وقضى حياته وهو خارج على الطبقه الوسطى التى نشأ منها . وكانت ألمانيا فى أيام نشأته الأولى تضطرب بفلسفات تتجه كلها نحو الوحدة القومية . وتأثر كارل ماركس بكل هذه الفلسفات لكنه اتجه إلى التفسير المادى للحضارة والتاريخ . كان يرى كارل ماركس أن هناك فجوة سحيقة بين المثل العليا والحقائق المادية فى الحياة ،فجوة سحيقة بين الفكرة والعمل ، بين المساواة فى الحقوق السياسية والمساواة فى الحقوق الاقتصادية . وكان أصحاب الديمقراطية فى عهده ينظرون نظرة التقديس إلى المثل الأعلى وإلى الفكرة وإلى الحقوق السياسية ، لكنهم كانوا يغفلون الحقائق المادية ويغفلون العمل ويغفلون المساواة فى الحقوق الاقتصادية. وكأنما عاش كارل ماركس لينظر إلى الحياة الواقعة ويحلل حياة الأمم والطبقات المادية وليقيم مبادىء ونظريات من هذه الحياة المادية الواقعة . أما المثل العليا فقد تركها وشأنها إذ أنها عنده نتيجة للحياة العادية لا سببا لها .

وقد بلغت الاشتراكية عند كارل ماركس نضوجها الفكرى ، وفى رأى برتراند راسل أن كارل ماركس يمثل عناصر أربعة اجتمعت فى فلسفته ونشأته - وأنتجت هذا المفكر الاشتراكى الذى كان مسئولا عن الحركات الاشتراكية المعتدلة والحركات الشيوعية المتطرفة فى نفس الوقت . لقد اجتمعت فيه فلسفة المفكر الألمانى فريدريك هيجل صاحب نظرية المثُل وصاحب المنطق الجدلى وهذا أول هذه العناصر . وكانت تتحكم فيه نشأته الصحافية فى ألمانيا وميله إلى الكتابة سرا خشية الرقيب ، وفكرة الاعلان عن مبادئه على الرغم من هذا الرقيب، إذ كانت الرقابة فى نشأته الأولى فى ألمانيا سيفا مصلتا على رؤوس

رجال الصحافة وهذا عنصر ثان فى حياة كارل ماركس الفكرية. وكان متأثرا بالاشتراكيين الفرنسيين الذين قاموا بالثورة الاشتراكية فى فرنسا فى سنة ١٨٤٨، وقد صاحبت فكرة الثورة كارل ماركس فى كل ما كتبه عن الصراع بين الطبقات وهذا عنصر ثالث. أما العنصر الرابع الذى اجتمع فى تفكير كارل ماركس فقد كان كتابات صديقه وزميله الانجليزى فريدريك إنجلز عن «أحوال الطبقة الانجليزية العاملة» وهو كتاب أخرجه إنجلز فى سنة ١٨٤٥ ومنه استقى كارل ماركس كل معلوماته عن حياة الطبقات الفقيرة، فهو لم يكن قد خرج إلى وسط انجلترة ليرى بنفسه مدى هذا الفقر، ولم يكن قد رأى آثار هذا الفقر فى المصانع، لكنه كان يتحدث دائما بما كتبه فريدريك إنجلز — حتى لقد قيل إنه كان يكتب فى سنة ١٨٥٩ عن حياة العمال البائسة فى أول القرن التاسع عشر، ولم يلحظ أنه كان هناك تحسن فى أحوال هؤلاء العمال.

اجتمعت هذه العناصر الأربعة فى حياة كارل ماركس فى نشأته الفكرية، وأنتجت هذا النضوج الفكرى الذى ظهر فى كتبه «رأس المال» و «نقد الاقتصاد السياسى» و «فقر الفلسفة». واستطاع أن يلم فى هذه الكتب وفى مؤلفات غيرها بالفكرة الاشتراكية فى مجموعها. واشتعبت فئات من الاشتراكيين بعد ذلك، وكان منهم من ذهب إلى الاشتراكية المتطورة التى لا تعترف بحدة الصراع بين طبقة الكادحين وطبقة أصحاب رأس المال، بل ترى أنه ينبغى أن يكون ذلك متدرّجا، وأن يعوّض أصحاب رأس المال تعويضا مناسبا لكل ما يقع تحت سيطرة الطبقة الكادحة. وقد كان من هؤلاء فرديناند لاسال زعيم الاشتراكية الألمانية من سنة ١٨٦٣، وكان من رأيه أنه لابد من التعاون بين المنتج وصاحب رأس المال. واتخذت ألمانيا طريقا اشتراكيا معتدلا بفضل لاسال وأقبلت الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر وقد خلفه اشتراكى آخر هو ادوارد برونشتاين، وقد كان زعيم الاشتراكيين المنقّحين وهم الذين حاولوا أن يفحصوا آراء كارل ماركس وأن يطهّروها من اتجاهات العنف الفكرى، وأن يثبتوا أن التفسير المادى للتاريخ ليس هو كل شىء: إذ أن المجتمع مجموعة من هذه العناصر ليس الاقتصاد ولا المادة إلا

واحدا منها .على أنه كان من الذين تبعوا كارل ماركس اشتراكيون متطرفون هم « الشيوعيون » وكان هؤلاء هم خلفاء الاشتراكيين الفوضويين الذين دأبوا على القضاء على سيطرة رأس المال بالثورة والحديد والنار وسفك الدماء . وقد بلغت الثورة الشيوعية أوجها فى أعقاب الحرب الكبرى الأولى وفى الروسيا بالذات . يعنينا فى هذا المقام أن نذكر أن الشيوعية كانت تنفيذا حرفيا لما جاء به كارل ماركس من حيث الصراع الطبقى العنيف . ثم يعنينا بعد ذلك أن نذكر أن لينين ـ وهو أبو الثورة الشيوعية الروسية ـ كان مدينا لكارل ماركس وفريدريك إنجلز بآرائه الفلسفية ، وأنه لم تقم فلسفته الشيوعية إلا على أساس فلسفة « رأس المال » . وكانت الشيوعية تطبيقا عمليا صارما لما جاء فى هذه الفلسفة . وكان من ميزات لينين أنه حاول أن يطبّق العلم على العمل من غير تحرّج ولا تردّد ولا تدرّج ، لأن أحوال روسيا نفسها كانت تتطلب هذه الصرامة . وقد قال لينين قولته المشهورة : « إنه ينبغى على طبقة العمال أن تحطم أداة الدولة المعدة الآن ، ولا تقتصر على الاستيلاء عليها » . وفى هذه الكلمات مفتاح الثورة الشيوعية بأكملها .

* * *

لكن الاشتراكية فى انجلترا لم تتسم بالطابع الثورى الشيوعى بل لقد اتسمت بطابع الهدوء والتدرج والإصلاح الاجتماعى والسياسى ، كما اتسمت باحترام السلطة الحاكمة ، واتخاذ الدستور قاعدة للاصلاح ، وهذا هو الأساس الذى منع عن إنجلترا سيئات الثورة الشيوعية وجعل لها نظاما اشتراكيا خاصا يؤلف بين عناصر الإنتاج وأصحاب رأس المال . فقد كان أغلب الاشتراكيين الانجليز فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين يميلون إلى التطور البطىء والكفاح غير المسلح . ذهب أغلب الاشتراكيين من الإنجليز فى سنة ١٨٨٠ وما بعدها إلى أن خير طريق لنمو المبادىء الاشتراكية ليست هى الثورة المسلحة التى دعا اليها كارل ماركس وزميله إنجلز ، فلم يتخذوا طريق العنف بل طريق الإقناع . ولم تكن الطفرة تميز عملهم بل كان

يميزه التدرج . ولأن أغلب الاشتراكيين الإنجليز آمنوا بالتطور المتدرج فقد أنشئوا جماعات للبحث والمناقشة والمناظرة والدعاية والنقد . وكانت هذه الجماعات حلقات تعرض فيها المبادىء ، ويقوم الخطباء دونها معارضين ومؤيدين .

على أن جماعات البحث هذه لم تقتصر على بحث الاشتراكية أو الدفاع عنها ، بل لقد بحثت كل ما يتصل بالحكومة والإدارة ، وتوزيع الثروة ، وعوامل الصحة ، ووظائف المجالس المحلية ، وتنمية الأدب ووظيفة المسرح . كانت في الواقع حلقات فكرية مثل الحلقات الفكرية التي تجتمع في النوادي . وفي هذه الحلقات الفكرية كان يلتقي أصحاب المذاهب المختلفة ليتناقشوا ويتناظروا ومن هذه الجماعات كانت جماعة الزيتيتيين وجماعة الجدليين وجماعة الحلف الديمقراطي . ويدل اسم هذه الجماعات على التوجه إلى البحث المتدرج الهادىء ، أما أكبرها فقد كانت جماعة الفابيين التي تألفت سنة ١٨٨٤ وضمت أكبر المفكرين الاشتراكيين أمثال سدني وب وبياتريس وب . وكان لابد لبرنارد شو أن يتخذ سبيله إلى هذه الجماعات وأن يقحم نفسه في مناظراتها ، وأن يضطرب في الجموع الحاشدة التي تستمع إلى أفرادها حتى يمارس حياة الاشتراكية ويتبصر في كل هذه المشكلات التي ذكرنا .

* * *

في سنة ١٨٧٩ التحق برنارد شو بجماعة الزيتيتيين . ذهب إلى نادي هذه الجماعة هو وصديق له اسمه «جيمس لكي» ومالبث أن سمع من أفواه الأعضاء مناقشات طويلة عنيفة في أحيان أو هادئة في أحيان أخرى . كان الأعضاء يتحدثون عن كل وجوه الحياة العامة في صراحة أعجبت برنارد شو ، وكانوا يتبادلون القول في آراء جون ستيوارت مل وتشارلز داروِن وهربرت سبنسر وهكسلي ومالثوس . وفي إحدى المناظرات التي أقامها النادي قام برنارد شو ليتكلم لأول مرة في حياته . لكنه رأي السامعين وهم يموجون

بين ناظريه ، وأحس أن أعصابه المتوترة تكاد تنفجر ، وشعر بجبهته وهى تتفصد عرقا . وما إن قال كلمة أو كلمتين حتى أرتج عليه فجلس وهو يلهث . ولم يكن كل ذلك إلا نتيجة لحيائه الطبيعى وإلا أثرا من آثار ذعره من الجماهير . ثم رأى أنه لابد أن يتغلب على هذه الصدمات النفسية التى تعتريه حين يحاول الخطابة ، فأقحم نفسه فى كل مقام ، ولم يلبث أن اختير رئيسا لبعض هذه المناظرات . ثم لم تسنح له بعد ذلك فرصة للكلام إلا تكلم حتى استطاع أن يملك أعصابه وأصبح ثرثارا لبقا لايسدد إليه سؤال إلا رده بالجواب المسكت . كان يخطب فى كل مكان حتى يعتاد الخطابة . وكان يحس فى نفسه ذلك الضعف الخفى فيحاول أن يعالجه بكثرة الكلام . ثم إنه افتعل لنفسه أسلوبا من الدعابة والصلف فاجتذب إليه الجماهير وكذلك استطاع هذا الرجل الحيي أن يقف أمام الناس كما يقذف الجندى بنفسه فى معمعان الوغى ويظهر الشجاعة حيث يخفى الجبن .

وفى ليلة من ليالى سبتمبر سنة ١٨٨٢ — حينما كان فى السادسة والعشرين — كان يمر باحدى قاعات المحاضرات فدخلها . وكان المحاضر هو الاشتراكى الأمريكى « هنرى جورج » وكأنما ألقت الأقدار بهذا الرجل فى طريق برنارد شو . كان هنرى جورج قد رأى الفقر فى شكله المفزع وكان قد تمرس بالفقر المدقع المذل فى حياته التى عاشها وهو يجوب أصقاع الأرض . كان كاتبا وصحافيا واشتغل بمسح الأرض فخرج من شرق الولايات المتحدة حيث رأى الرخاء بعينيه وحيث عاش فى الفقر بجسده ، وحيث نشأ على الخلق المتطهر الصلد الذى تمتاز به هذه الجهات . على أنه ضرب فى الأرض فزار غرب الولايات المتحدة ورأى الغنى فى كاليفورنيا كيف يخفى من تحته طبقة ذات لون أسبانى من طبقات العصور الوسطى ، ثم جاب البحار السبعة فدعا إلى الاشتراكية لأنها تقضى بالعدالة بين الفقراء والأغنياء . وأصبح عدوا للفقر لدودا فكتب كتابا سماه « التقدم والفقر » واتخذ هذا الكتاب انجيلا يدعو إليه فى كل مكان ذهب إليه . وفى ليلة الخامس من سبتمبر سنة ١٨٨٢ كان

يحاضر هنرى جورج تحت إشراف « جمعية تأميم الأرض » وكان يرأس الاجتماع البروفسور ف. و. نيومان. وانتهت المحاضرة وخرج منها برنارد شو وقد تحول تحولا فكريا يكاد يكون مفاجئا ، وهو يصف هذا التحول فى هذه الكلمات : « لقد ومضت بنفسى فكرة عندئذ للمرة الأولى : وهى أنه لم يكن الكفاح بين الدين والعلم ، ولا التخلى عن الإنجيل ولا تعليم النساء تعليما عاليا ، ولا آراء مل عن الحرية ، ولا بقية هذه العاصفة التى هبت حول دارون وتندال وهكسلى وسبنسر وغيرهم من أولئك الذين ربيت نفسى تربية فكرية على آثارهم : أقول لم يكن كل ذلك إلا عملا من أعمال الطبقة الوسطى. ولنفرض أن كل ذلك كان قد أنتج أمة كلها رجال مثل ماثيو أرنولد ونساء مثل جورج اليوت ألم يكن هذا مما يبعث الرهبة فى النفس ؟ لقد طالعتنى عند ذلك أهمية القاعدة الاقتصادية . » فكأنما كان هذا التحول وحى الساعة ، ولعله أن يكون أحد المواقف القليلة التى تحول فيها برنارد شو تحولا تاما حين « ومضت » بعقله فكرة أساسية كما يتنزل الإلهام .

كان هنرى جورج فى تلك الليلة يتحدث حديثا شائقا سلسا فصيحا عن تأميم الأرض وعن الضريبة المفردة . إلى هذه الساعة لم يكن برنارد شو قد عنى كثيرا بغير الخلاف بين العلم والدين وكان قد رأى الفقر لكنه لم يكن الفقر المدقع المذل . لكن محاضرة هنرى جورج هذه أدت به إلى التفكير فى الاقتصاد . واعتقد أن فى الاقتصاد حلولا لمشكلات الفقر ، فاتجه إلى أن يقرأ الكتب التى كتبها الاشتراكيون من مختلف الأمم . فقرأ كتاب هنرى جورج عن « التقدم والفقر » . وحاول أن يتصل بالحلقات الاشتراكية التى كانت تخصصت فى شئون الاقتصاد . وفى اجتماع عقده الحلف الديمقراطى حاول برنارد شو أن يتحدث عن هذه الشئون ، لكن هندمان ـ وكان رئيس الحلف ـ أفهمه انه لا يستطيع ان يتحدث عن الاشتراكية إلا إذا قرأ كتاب « رأس المال » لكارل ماركس . وإلى حجرة المطالعة فى المتحف البريطانى قصد ، وعلى قراءة كتاب « راس المال » عكف ، ولم يكن هذا الكتاب قد ترجم

بعد إلى الانجليزية لكنه كان مترجما إلى الفرنسية . وبهذه الفرنسية القليلة التي لم يكن يحسنها شو قرأ « رأس المال » في غير عمق وخرج من هذه القراءة بفكرة عامة عن حقائق التاريخ وعن الأصل المادي للحضارة الحديثة ، وعن الأصل في الكفاح بين الطبقة المالكة والطبقة التي لا تملك . وانقلبت كل نظراته الأولى نحو الحكومة ، وصورت أمامه رسالة كارل ماركس وكأنها وحي تنزل عليه من السماء ، ورجع بعد ذلك إلى الحلف الديمقراطي ليبلغ هندمان أنه قرأ « رأس المال » وليناقش القوم في أصول الاشتراكية . فتبين أن أحدا من هؤلاء الاشتراكيين لم يقرأ كتاب « رأس المال » .

ويعلق برنارد شو على كتاب « رأس المال » في بعض أحاديثه فيقول : « لقد كتب هذا الكتاب للطبقات العاملة ، لكن الواقع أن الطبقات العاملة تحترم الطبقة الوسطى وتريد أن تكون منها . لم يكن الذين اعتنقوا الاشتراكية إلا أفرادا من أبناء الطبقة الوسطى نفسها ، ثاروا على مبادئها ، ومن هؤلاء لاسال ، وماركس ، وليبنخت ، وموريس ، وهندمان ، وباكس . كلهم مثلي ضاقوا بحكومة الوجهاء والأعيان فانقلبوا عليها وخضبوا رايتهم بلون الاشتراكية الأحمر . » وهو تعليق صادق ينطبق عليه وعلى من ذكر إلى حد كبير . لقد أراد كارل ماركس أن يثير طبقة العمال على الطبقة الوسطى ، لكن الحق أن أفرادا من الطبقة الوسطى هم الذين قادوا هذه الثورة في كل ما يتصل بالكفاح والجهاد والنضال من أجل توزيع الثروة توزيعا عادلا .

وكانت قراءة كارل ماركس ومنطقه الجدلي وتحليله للحضارة وتفسيره المادي للتاريخ : كل هذا مما أثر في برنارد شو تأثيرا عميقا . فقد اعتنق المذهب الجدلي واستخدمه في كتاباته ونقده ومسرحياته وأصبح بفضل هذا الجدل مفكرا محترفا . وانقلب بفضل دراسته كارل ماركس أيضا كاتبا اشتراكيا ومعلقا عنيفا وداعية من دعاة المساواة . ثم إن آراء كارل ماركس أثرت في تفكيره وفنه ودينه وبالجملة خلقت منه كما قال هو عن نفسه رجلا آخر غير الرجل الذي كان من قبل . وحينما تشبع بمبادئ كارل ماركس انطلق

يخطب فى كل مكان . كان يخطب على قارعة الطريق ، وكان يخطب فى الميادين العامة ، وكان يخطب فى المتنزهات والنوادى والمجتمعات والحانات . وظل يخطب اثنى عشر عاما بعد ذلك بمعدل ثلاث مرات فى الأسبوع ، ولم يفتر ولم يهن إلا حينما أصيب وهو فى نحو الأربعين بمرض أقعده عن مواصلة الخطابة . وكان يلذ للناس أن يسمعوه ، فكان يتوسل إليه أصحاب الصالات والنوادى أن يخطب فى الناس . ولم يكن يتقاضى عن ذلك أجراً ، فهو كان يتمتع بالقاء أحاديثه مثلما يتمتع الناس بسماعها . كان الناس دائما يتطلعون إلى ذلك المهذار المكثار صاحب اللحية الحمراء الذى يسخر من الأغنياء ويشرح الاشتراكية عمليا ، ويقربها إلى أذهانهم ، ويقحمها فى الدين ، ويستخدمها فى حديثه عن الصحة والغنى والعلم والطعام ، فكأنما الاشتراكية عنده دواء لجميع الأدواء .

* * *

وفى سنة ١٨٨٤ تألفت فى إنجلتره جماعة الفابيين (١) . وقد كانت بحق أرقى هذه الجماعات التى ذكرنا شأنا . كان أعضاؤها قوما من ذوى الثقافة العالية اجتمعوا على أن يؤلفوا حلقة فكرية فيما بينهم يناقشون فيها المسائل الجارية التى كانت تمس سياسة الناس واقتصادياتهم . وكان الفابيون أذكياء، يمتازون بكثرة القراءة ودقة البحث ، والحدب على الشئون العامة . وقد اتخذوا هذا اللقب نسبة إلى القائد الرومانى فابيس الذى حارب هانيبال . وقد كان فابيس - فيما ذكر إن خطأ وإن صوابا - يؤثر دائما الحرص على العجلة ، كان يفضل التأنى والتريث على الاندفاع لمهاجمة عدوه . ولذلك ظل يتربص لهانيبال حتى انقض عليه وهزمه حين أزفت الساعة . ولعل الفابيين أرادوا أن يبتعدوا عن فكرة كارل ماركس وأن يتجنبوا العنف ويتحاشوا الثورة على أصحاب رأس المال ، لذلك اتخذوا هذا العنوان . ولا شك أنه كان خير ما يعبر عن نشأة الحركة الاشتراكية فى إنجلتره . وقد استطاعت جماعة الفابيين بما نشرته

(١) The Fabian Society

من أصول الحكم والاقتصاد أن تطبع الاشتراكية الإنجليزية بطابع البحث والبطء والتحرى ، وأن تمنعها من أن تصبح شيوعية فوضوية عنيفة ، وأن تحفظ دراسة القانون وسلطان الدولة وأحكام الدستور. وظل الفابيون وبخاصة من سنة ١٨٨٤ إلى سنة ١٩٠٤ يكتبون عن الفقر والغنى ، وعن الإصلاح الاجتماعى ، ويبحثون القوانين والتقاليد التى تخفف من الفقر فى الحياة الإنجليزية حتى استطاعوا أن يجدوا حلا وسطاً يحل مشاكل الفقر ويتفق مع ما رأوا من أحكام الدستور وسلطان الدولة .

وكان سدنى وب ـ أو لورد باسفيلد فيما بعد ـ هو الدافع الأول وراء هذه الحركة الفابية . فقد درس سدنى وب تاريخ إنجلتره دراسة دقيقة ، ودرس تاريخ الفقر وتاريخ التطور وآراء جون ستيوارت مل ، والدستور الإنجليزى ، والإمبراطورية البريطانية . وبدأ حياته موظفا فى وزارة المالية وانتقل بعدها إلى وزارة المستعمرات. وخلال الحقبة التى قضاها فى الوزارتين صور لنفسه حكومة إنجلتره كما لو كانت شركة تعاونية ضخمة ورأى أنه لا بد من الاحتفاظ بالحكومة أولا ولا بد من أن تؤيدها الفابية حتى تصمد أمام غارات الشيوعية والفوضوية . ثم نادى بأن « التدرج مبدأ لا محيص عن اتباعه (١) » وأصبحت هذه أحد الشعارات التى نادى بها الفابيون أمام الغلاة من أتباع كارل ماركس الذين لم يكونوا يؤمنون إلا بهدم الحكومة ، وتنبأ بأنه إذا استطاعت الحكومة أن تأخذ من الغنى لتطعم الفقير ، وإذا استطاعت أن تنظم أمر البيع والشراء والدخل والخرج ، فسيختفى الفقر وسيحدث هذا التوازن فى المجتمع الذى كانت تبشر به الاشتراكية .

كان كارل ماركس ومن تبعه اتباعا أعمى من غلاة الاشتراكيين والشيوعيين لا يؤمنون بالدولة ولا بالسلطة الحاكمة ويعتبرون أن الدولة تتنافى وفكرة الاشتراكية ، بل منهم من كان يرى أنها كذبة من كذبات الرأسماليين . ولكن سدنى وب ووراءه الفابيون كانوا يعتقدون أن الدولة نعم الملجأ والملاذ

---

(١) Inevitability of Gradualness

من حياة الفقر المدقع والغنى الفاحش ، وكان للفابيين أثر كبير في حكومة إنجلتره . فقد قامت هذه الحكومة منذ أخريات القرن التاسع عشر بالإصلاحات التي فكر فيها الفابيون . فسنّت قوانين العمل والمعاش والبطالة ، واستطاعت المجالس البلدية في إنجلتره أن تنشيء المستشفيات والمكتبات والمتاحف العامة والمدارس والملاعب . ورصدت أموالا طائلة على الفقراء والمعوزين والعاطلين. ثم لما نشبت الحرب العالمية الأولى عدت هذه الوظائف من وظائف الدولة . أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد أصبحت الدولة هي محور الإصلاح الاجتماعي . وتكاد الدولة اليوم تقوم على كل الإصلاحات الاجتماعية التي نادى بها الفابيون في الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر . فاذا أنت درست مشروعات التعمير في إنجلتره في الساعة التي نحن فيها – ومنها تأميم الخدمات الطبية – فاعلم أن وراء كل ذلك هذا الطابع الإنجليزي الذي ألّف بين مبادىء الاشتراكية وأصول الحكم في إنجلتره ، ووفق بين أصحاب رأس المال وطبقة العمال والمنتجين ، وأنتج ما يسمونه في الإقتصاد « الديمقراطية الاشتراكية » .

ولعلك تسأل كيف استطاع الفابيون ومن ورائهم سدنى وب أن يكون لهم هذا الأثر في توجيه السياسة العامة في إنجلتره ؟ فاعلم أن معظم من ولوا الحكم في إنجلتره أو الذين شغلوا المناصب العليا في الحكومة أو الذين دخلوا المجالس النيابية كانوا من المتخرجين في جماعة الفابيين . لا نقصد بذلك الذين ألفوا حزب العمال فقط بل نقصد إلى جانب هؤلاء كثيراً من الأحرار والمحافظين أيضاً . كان لسدنى وب وزوجه بياتريس وب بيت يستقبلان فيه الفابيين وغير الفابيين من أصدقائهما . وما لبث أن أمّ البيت أكثر أهل الثقافة من أبناء ذلك الجيل . فكأنما كان منتدى يهرع إليه أصحاب المبادىء الجديدة. بل كان سدنى وب وزوجته يقصدان بعض المصايف في فترات الراحة فينضم إليهما بعض هؤلاء. ومن بين أولئك الذين كانوا يقصدون آل وب كثير من الذين تهيأت لهم الظروف فيما بعد ليكونوا من أصحاب المراكز العالية . بعضهم قد أصبحوا وزراء ، وبعضهم الآخرون قد أصبحوا نواباً أو لوردات .

فكان لا بد لهؤلاء حينما يخرجون إلى الحياة العامة أن ينفّذوا المبادىء التى تشبّعوا بها فى حياتهم الفابية الأولى .

* * *

تعرف برنارد شو بسدنى وب فى جماعة الزيتيتيين وأصبح صديقه الذى لا ينفصل عنه حينما تألفت جماعة الفابيين فى سنة ١٨٨٤ . وكان كلاهما يتفق فى الرغبة للاصلاح ولكن كان كل منهما يختلف عن الآخر فى كثير من الوجوه - أو قل كان كل منهما يكمل الآخر. وفى ذلك يقول برنارد شو : « كان يعلم سدنى وب كل ما لم أكن أعلم ، وكنت أنا أعلم كل ما لم يكن يعلم ، وما كنت أعلم إلا القليل . كان كفئا للعمل أما أنا فلم أكن كفئا ؟ كان إنجليزيا وأنا أيرلندى ، كان خبيراً بأمور السياسة والإدارة أما أنا فلم أكن إلا صبياً ناجماً يريد أن يتعلم ، كان قادراً قدرة تفوق الوصف ومحترما إلى أبعد حدود الاحترام ، أما أنا فقد كنت بوهيميا لا وزن لى ، كان بحّاثة لا يكل ولا يمل ، أما أنا فقد كنت من أصحاب اللقانة ، أوثر الظن على البحث . كنت متفننا أميل إلى ما وراء الطبيعة : وأحسب أنه كان يحسبنى مخلوقا غريبا على شىء من المهارة ... لقد كان قبل كل شىء بسيطا له رأى واحد لا يتحول عنه ، وكان أمينا مع نفسه ، أما أنا فقد وقفت من الحياة موقفا تمثيليا حينما أظهرت نفسى فى خمسمائة شخصية كما فعل شيكسبير وموليير ودوما وديكنز . كان فى كل شىء هو الشريك الذى أريد فما كان منى إلا أن اصطفيته لنفسى » .

واختلط برناردشو بالفابيين ، ودخل فى غمارهم ، وخطب وناقش وناظر مدافعاً عن مبادئهم ، واشترك فى كتابة رسائلهم الصغيرة وأعدّ لهم رسالتهم الثانية . فقد كان سدنى وب يحلل النظم ويستذكر القوانين ، وكان برناردشو يحلل الأفراد ويشجع المحسنين منهم ويسخر من الذين يسيئون . وكان بعد ذلك خطيب الجماعة وكاتبها وكاتم سرها . ثم كان هو الذى يؤلف بين

قلوب الأعضاء حين تتنافر ، ويهدىء من نزعاتهم الشاردة حين تتدابر. وكان حسبه أن يكون قريباً من سدنى وب فيفهم أصول الاشتراكيـة والحكومة . وقد أصبح بعد ذلك صديقا ملازماله بل أصبح بعد ذلك ضرورة من ضرورات المجالس والمناظرات التى تنعقد عند آل وب، وخرج هذا المعوز الفقير من عزلته، واستطاع أن يضرب فى هذه الحيـاة الجديدة ، ولقى قوما يختلفون عنـه فى الرأى وإن لم يختلفوا فى الغرض . واجتمع بكثير من أصحاب الفن والسياسة فعدّل من آرائه بقدر ما عدّل من آرائهم .

* * *

ولا تحسبنّ أن برنارد شو عرف سدنى وب وحـده ، ولا أنه عـرف الفابيين وحدهم ، فقد عرف إلى جانب هذا وهؤلاء كثيراً من حلقات الثقافة العامة التى كانت تنشأ فى لندن فى العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر. ومن بين هذه كانت حلقـة يتزعمها شيخ من شيوخ الاشتراكيـة هو وليم موريس . لقد أسلفنا عليك أن بين الجماعات الاشتراكية التى قامت فى لندن سنة ١٨٨٠ وما بعدها جماعة اسمهـا « الحلف الديمقراطى » وذكرنا لك أن زعيم هذه الجماعة كان اشتراكيا عتيقاً اسمه « هندمان » فاعلم أن من بين أعضائهـا الأولين زعيما اشتراكيا آخر هـو وليم موريس . وقـد كان وليم موريس شاعراً موسراً من شعراء إنجلتره ، وكان كبعض أفـراد الطبقـة الوسطى الموسرين يريد أن يقوم بحركة من حركات الاشتراكية . على أنه اختلف وهندمان وانشق عـلى الحلف الديمقراطى ليؤلف جماعـة أخرى اسمهـا « الحف الاشتراكى » .

كان هندمان من أولئك الذين اعتنقوا مبادىء كارل ماركس وآمن بها إيماناً أعمى . وكان يرى أن يقوم الاشتراكيون فى إنجلـتره بتطبيق الثورة الشيوعية التى نادى بها كارل ماركس ، وجمع حوله نخبة من المفكرين يذهبون هذا المذهب ، ولكن حركة هندمان العنيفـة هذه فشلت كل الفشل . فقـد كانت تخالف ما طبع عليه الإنجليز من الأناة ، ثم إنها كانت تخالف المذاهب

الفكرية الأخرى التى تؤمن بتدرج الإصلاح ولا تؤمن بالثورة المفاجئة على السلطة . وفشل حركة هنـدمان نفسها يدل المؤرخ الاقتصادى عـلى أن الشيوعية لم تنجح فى يوم من الأيام فى إنجلتره . ولم يكن انتقـال المفكرين من الحلف الديمقراطى إلى الحلف الاشتراكى بقيادة وليم موريس إلا علامـة من علامات تلك الأيام. فان الحلف الاشتراكى وجماعة الفابيين فيما بعد ثم حزب العمال المستقل هم جميعاً الذين انتقلوا بالاشتراكية فى إنجلتره من خطوة إلى خطوة من غير تلك الأعمال العنيفة التى قصد إليها الاشتراكيون الأولون .

كان لوليم موريس طابع خاص للاصلاح هو الرجعة إلى أصول الحياة السهلة الجميلة التى كانت تعيشها إنجلتره أيام الفروسية . وكان له خيال واسع طوع له أن يكتب كتابا عن « الجمهورية الفاضلة » أو اليوتوبيا التى دارت بخلده . وقد جمع فى كتابه الذى سماه « أخبار من مكان غـير موجود » كل ما تخيله من الحياة المستقبلة . ولعل وليم موريس وتفاؤله ، وآراءه تلك من بين ما أثـّر فى برنارد شو .

وكان لوليم موريس فى همر سمث ،من ضواحى لندن بيت اسمه كامسكوت. وكان له بيت آخر فى مقاطعة جلوستر شير . وكان البيت الأول منتدى لبعض أهل الفكر يؤمونه ليجلسوا إلى الشاعر العظيم ، وكان المعجبون بوليم موريس يحجّـون إلى هذا المكان ، وكان بعضهم يقصد إليـه من أمريـكا وأوروبا ، وكان يسود البيت نفسه جو من العـلم والشعر والحكمة ، وكان أثاثه ورياشه جميلا يعجب الناظرين . أما رب البيت فكان يجلس إلى زائريه يرتـّل شعره ويهتز اهتزازاً رتيبا حين يلقى هـذا الشعر ، وأما الزائرون من حوله فقـد كانوا يهتزون طرباً .

وإلى هـذا المكان كان يذهب برنارد شو لا ليناقش وليم موريس فى الاشتراكيه فحسب ، ولا لينضم إلى حلفـه الاشتراكى فحسب، بل ليتلقى أيضاً من الشاعر العظيم بعض الثقافـة التى تتصل بحياة العصور الوسطى والتـاريخ الوسيط وأصول النقد وقواعد الجمـال . ونشأت بين شو وموريس علاقة

من المودة ، وأصبح شو بين الزائرين الذين يأنس إليهم وليم موريس ، وعلى الرغم من الخصومة بين الحلف الاشتراكى والفابيين فقد كان برناردشو محبباً إلى آل موريس يلتفون به ويستمعون إليه ويدعونه إلى الطعام .

ولم تكن زوج الشاعر تهتم بكل ذلك . ولم تكن تبرز إلى المجتمعات إلا قليلا ، وقد وكلت أمر البيت لابنة لها اسمها ماى موريس . وكانت ماى جميلة ممشوقة القوام تبدو فى ثياب تذكّر الناظر إليها بروائع الفن ، ثم كان يحوطها جو من التصوف والبهجة . وماى موريس هى التى كانت تستقبل الضيف وتعد الطعام وتشترك فى مناقشات الزائرين . ولم يكن هناك بد من أن يقع برنارد شو فى حب هذه الفتاة .

كان برنارد شو متطهراً عفيف النفس ، وكانت علاقاته الجنسية محدودة . وقد أدرك فى هذه المرة أنه أحب هذه الفتاة ، وأدركت هى الأخرى أن هناك سراً من الأسرار يدفعها إلى هذا الشاب الذى يزور أباها ويتحدث إليه حديث الند للند ، وكأنها توقعت أن يتقدم إليها فيخطبها من أبيها ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . وظل هذا الحب المقدس فى نفس ماى موريس وبرنارد شو حتى تقدم لخطبتها شخص آخر اسمه هنرى سبارلنج . أما برنارد شو فقد تراجع لأنه كان فى نظر نفسه قليل المال غير مستقر الموارد .

وتعيش ماى موريس مع زوجها ثم تنفصل عنه وتمضى أربعون سنة لا يراها برنارد شو ولا تراه ، ويمر برنارد شو بعد هذه السنوات الأربعين بمنزل وليم موريس فى جلوستر ويحس أنه مسوق إلى بيت الشاعر ، ويدخل البيت وإذا هو أمام ماى موريس بعد أن كانت قد أصبحت حطاما تلوح عليها آثار الجمال الذاهب .

ويكتب لها برنارد شو بعد ذلك فيصور لها حبهما الأول فاعجب لحب ضائع بين رجل فى السبعين وامرأة فى الستين ! .

* * *

ثم هناك وجه آخر لحياة برنارد شو فى هذه الفترة من تاريخ حياته تلك هي أسفاره القصيرة إلى القارة الأوروبية . وكان يصحبه فى أسفاره هذه آل وب وبعض أصدقائه من الفابيين . فنى سبتمبر سنة ١٨٩٤ زار البندقية ، وفى طريقة إليها جال فى ميلان وغيرها من بلاد إيطاليا . ولم يعجبه البذخ ولا الإسراف اللذان رآهما فى الفن المعمارى حين تجلى له فى مدينة ميلان الجامعة ، وزعم أن كنيسة سان مارك فى البندقية لا تصلح إلا أن تكون محطة للسكك الحديدية . وتبين له فى رحلته هذه ، وفى رحلاته الأخرى ، أنه كان مخدوعا فى آيات الفن التى سمع بها كما خدع غيره . حتى الجندول فى البندقية لم يكن له وقع فى نفسه ، فقد ذهب إلى هناك وبنفسه شوق إلى أن يستمع إلى أصحاب الجندول وهم يغنون شعر تاسو — لكنه لم يسمع هناك شعر تاسو ولا غير تاسو . وبالجملة فقد أدت هذه الزيارات إلى أن يبدد برنارد شو أى شعور رومانتيكى كان يمكن أن يعلق بخياله من حيث الجو الإيطالى والعمارة الإيطالية .

أما المكان الذى كان يهرع إليه فى فترات فقد كان بلدة صغيرة اسمها « بايروت » حيث كان يعيش « ڤاجنر » وكانت تقام فى ذكرى ڤاجنر حفلة تمثل فيها وتغنى بعض أوبراته . وإلى هذا المكان كان يذهب برنارد شو ليشهد بعض منتجات الفنان العظيم الذى كان له أثر عظيم فى حياة برنارد شو .

* * *

ما كان لنا إلا أن نكتب ما كتبناه عن الاشتراكية وكارل ماركس والفابيين وسدنى وب والحلف الاشتراكى ووليم موريس حتى ندرك الأساس الذى بنى عليه برنارد شو أفكاره ومبادئه وآراءه . وسنرى أن أفكاره فى السياسة والاقتصاد والدين والاجتماع كلها تقوم على هذه الدراسات التى مارسها مع الفابيين . لقد ذهب إلى لندن وهو مغمور مجهول . ولعله كان

يجهل نفسه أكثر مما كان يجهله الناس . وقضى هذه الحقبة من العشرين إلى الثلاثين وهو يكشف الناس من حوله . على أن الكشف العظيم الذى مهّد له طريق الشهرة لم يكن إلا كشف شخصية عظيمة كان يحملها بين جنبيه : تلك هي شخصية برنارد شو .

(٦)

بين الصحافة والنقد

١٨٨٥ - ١٨٩٨

قضى برنارد شو الشنوات التسع العجاف في لندن وهو معسر قليل المال. ولولا جهد أمه لمات جوعا في قلب المدينة الكبيرة ، لكنه كما أسلفنا كان يخطب ويكتب : كان يتسقط بعض الرزق ،وكان يؤمن بأنه سيصيب هذا الرزق مها طال به المدى . ثم إنه كان قد اشترك مع الفابيين وأصبح علما من أعلامهم، فكان ينبغي أن ينقاد له الزمان : وقد انقاد له . فقد بدأ الرزق يتساقط عليه رذاذا ثم مالبث أن انهمر عليه مدرارا .

فقى سنة ١٨٨٨ استطاع « وليم آرنشر» صاحبه الذى التقى به فى مكتبة المتحف البريطانى أن يلحقه بجريدة مسائية اسمها « النجم [١] » ليكون ناقدا موسيقيا . وكان صاحبها «ت.ب. أوكنر» أيرلنديا أنشأ هذه الجريدة على مبادىء جلادستون الحرة . وظل شو سنتين بعد ذلك يكتب قطعة من النقد الموسيقى كل أسبوع تحت اسم ايطالى مستعارهو اسم « كورنودى باستو [٢] » عل أن يتقاضى جنيهين فى الأسبوع . وفى سنة ١٨٩٠ انتقل إلى صحيفة أخرى اسمها « الدنيا [٣] » فكان ناقدها الموسيقى والفنى ، لأنه جمع إلى نقد الموسيقى والأغانى نقدا آخر لمعارض الفن والتصوير . وزاد مرتبه فأصبح جنيهات خمسة فى الأسبوع .

على أن التحاقه بمجلة أخرى فى سنة ١٨٩٤ ليكون ناقدا مسرحيا كان فى حياته فتحا مبينا . وكان يعيش فى إنجلتره فى ذلك الحين جبار من جبابرة الفكر والعاطفة اسمه «فرانك هاريس» طاف بأمريكا وانتهى به المطاف إلى

---

(١) The Star

(٢) Corno di Bassetto

(٣) The World

لندن . وكان بوهيمى الطباع ، يحب الطعام والخمر والنساء ، وله اعتداد كامل بنفسه . وفرانك هاريس هو الذى التمس برنارد شو فى ندوات الصحافة ليستخدمه ناقدا مسرحيا لمجلته . كان يريد أن يدخل الجديد فى النقد المسرحى كما أدخل الجديد فى النقد السياسى والدينى فرأى أن خير من يستطيع أن يقتحم هذا الميدان هو برنارد شو . كان فرانك هاريس فى نفسه ثورة دفاعه، وكان يريد أن يجمع لمجلته فريقا من ذوى الثقافة الجديدة ليحدث ثورة دفّاعه .

وكان أن التحق برنارد شو بمجلة «السبت» أو «ستردى ريفيو»(١) على أن يتقاضى ستة جنيهات فى الأسبوع . وكان أن استفاد من فرانك هاريس مثل ما أفاده لأنه انتقل من النقد الموسيقى والفنى - وهو محدود - إلى النقد المسرحى وهو غير محدود . وقد ظل صديقا لفرانك هاريس على ما بينهما من تناقض فى الثقافة وفى الطبع وفى العقيدة ، ولكن جمع بينهما ولاؤهما لفكرة المسرح الجديد . وحبب فرانك هاريس إلى برنارد شو أنه كان أمينا وأنه كان يحاول إقحامه فى صنف آخر من حلقات الفكر تظهر فيها البوهيمية والعنف الفكرى والسخرية اللاذعة .

وكان برنارد شو من ناحيته قد تهيأ ليكون ناقدا صحفيا بارعا . هيأته نشأته الموسيقية لينقد الموسيقى ، ونشأته الفنيه ليكون ناقدا فنيا : ثم هيأه أسلوبه فى التفكير والتعبير ليكون ناقدا ممتازا . كانت له خلال أربع هى الخلال التى لابد أن تتوافر لكل ناقد : كان كلامه سائغا حلوا يفيض بالدعابة والسخرية فأقبل الناس على قراءته ، وهذه أول خلة ينبغى أن تكون للناقد . وكان لا يأبه للتقاليد ولا للعادات ولا للمبادىء الموروثة وهذه خلة ثانية . وكان ذا شخصية مستقلة ينظر إلى كل أمر من وجهة نظره فحسب وهذه خلة ثالثة . وكان بعد ذلك شجاعا لا يخشى امرءا ولا جماعة ويرسل آراءه لاعوج فيها ولا إبهام وهذه هى الخلة الرابعة . فهو يقرأ بلا ملل ، وهو

(١) Saturday Review

لايرى أن هناك شيئا مقدسا فى نفسه ، وهو يرى أنه صاحب فكرة خاصة يجب أن يعبر عنها فكان نقده نقدا ذاتيا ، وهو بعد ذلك شجاع . وبهذه الخلال الأربع استطاع برنارد شو أن يبرز كناقد ، وأن يبنى على النقد مجده الأدبى ، وأن ينشىء شخصيته القوية كناقد وصحافى ثم كمؤلف مسرحى . لقد سلف من قبله قوم آمنوا بأن النقد الأدبى يجب أن يكون مبرأ من الرأى الشخصى . سلف قوم مثل ماثيو أرنولد كانوا يرون أن النقد الأدبى يجب أن يكون نزيها خالصا من الهوى ، وأن الناقد الأدبى يجب أن يضع نفسه موضع القاضى العادل لايميل إلى هـذا ولا إلى ذاك من الكتاب أو الشعراء بل يجب أن يكون النقد الأدبى حسب الأصول والمبادىء التى يتواضع عليها جماعة الكتاب . وكان ماثيو أرنولد ينعى على النقاد الإنجليز أنهم لم ينشئوا لأنفسهم أصولا للفن والأدب حتى يكون نقـدهم نزيها . ولاشك أن ماثيو ارنولد كان متأثرا بالنقد عند الفرنسيين فى النصف الثانى من القـرن التاسع عشر . على أن برنارد شو الناقد كان يرى غير هذا الرأى . لقد كان يرى أن النقد لايكون نقدا إلا إذا برزت فيه شخصية الناقد ، وإلا إذا كان الناقد متحيزا لرأى من الآراء ، وإلا إذا حاول ما وسعه أن يعبّر عن رأيه الشخصى . وهو لايرى أن النزاهة والصدق يتعارضان وهذه الآراء الشخصية التى ينبغى أن تكون ملاك النقد .

كان كثير من رجال المدرسة القديمة ينعـون على برنارد شو أنه يقحم رأيه الشخصى فى كل ماينقد . كانوا يرون أن فى هذا خروجا على مبادىء العدل والنزاهة ، وكانوا يتهمونه بالتحيز والهوى فيما ينقد . أما هو فانه لم يكن ينقد قطعة الأدب أو قطعة الفن إلا بعـد أن يحس فى دخيلة نفسه ميلا إليها وتذوقا لها وعند ذلك يبرز محاسنها . فاذا هو أحس على العكس ميلا عنها واشمئزازا ونفورا منها فانه عند ذلك يبرز مساوئها . وهذا الإحساس نحو قطعة الأدب أو الفن هو الأساس الذى كان يتخذه فى نقده . فاذا هاجت فى نفسه مشاعر الرضى أو مشاعر السخط أحس أنه قد بلغ الحالة النفسية التى

يمكنه عندها أن يرسل رأيه صريحا . وعندما تهتاج نفسه فقط يستطيع أن يطلق نفسه من مرابضها ، وعند ذلك فقط يستطيع أن يعبر عن رضاه أو عن سخطه ، ويستطيع أن يبين ما أعجبه ومالم يعجبه ، ويستطيع أن يدل الناس على المواطن التى أرضته والمواطن التى أسخطته . فالنقد عنده أمر شخصى محض لاعلاقة له بمبادىء الناس ولا بالأصول التى يتواضع عليها الكتاب والشعراء والمتفننون الآخرون .

كتب برنارد شو فى ذلك : « إن الناقد الصحيح هو الذى يصبح عدوك اللدود إذا أنت أنتجت قطعة من الفن الردىء ،ولن تهدأ له ثائرة حتى ترضيه بقطع أخرى من الفن الجيد » . فهو لا يحتفى كثيرا بهذه الأصول التى أراد بعض أسلافه من النقاد أن يضعوها حتى يخرج النقد نزيها لاتحيز فيه . وإذا نحن حاولنا أن نميز بين نوعين من النقد : أولها النقد الذاتى وثانيها النقد الموضوعى فان برنارد شو ناقد ذاتى . إنه يرى أن الناقد يجب أن يكون مركز الدائرة التى تحيط به ، وتقديره لكل أمر من الأمور ينبغى أن يرجع إلى عواطفه وأفكاره لا إلى عواطف الناس وأفكارهم . فعذره أن لكل ناقد عاطفة يريد أن يرضيها . فاذا هو أرضى أحدا غيرنفسه فذاك ، وإلا فحسبه أنه قد أرضى هذه العاطفة التى تتأجج بين جنبيه .

كتب برنارد شو فى تفسير ذلك فقال « إن الذى يخلق من الكاتب ناقدا هو مقدرته على أن يتخذ من الفن الجيد أو الفن الردىء أمرا شخصيا يحسه فى دخيلة نفسه . حينما أرى أن بعض الناس يقصرون فيما ينتجون فلا يبذلون فى عملهم قصارى جهدهم ، ثم ينظرون إلى عملهم السىء وهم فى أشد ارتياح النفس : أقول حينما أرى أمثال هؤلاء فانى أكرههم وأبغضهم وأمقتهم بل بودى أن أمزقهم إربا إربا وأنثر أشلاءهم على المسرح أو المنصة .... كذلك أشعر باحترام شخصى عميق لأولئك المتفننين الذين ينتجون فنا جميلا أصيلا . حين تبلغ نزوة النقد عندى أقصاها فلست أسمى مايقوم بنفسى « شعورا شخصيا » وإنما أسميه « موجدة » . وهذه الموجدة تثور بنفسى

لأنها تريد أن ترى الكمال الفني فى كل شيء : فى أنبل مظاهر الجمال من صوت وضوء وعمل » .

* * *

ويستطيع بعض أصحاب الأدب أن يدلوك على مبلغ ما فى هذا الكلام من ضعف ، ويستطيع بعض مؤرخى الأدب أن يعددوا لك الأدلة على فضل النقد الموضوعى على النقد الذاتى . ويزعم هؤلاء وأولئك أن النقد الموضوعى لايزال فى بطون الكتب بينما كاد يمحى أكثر النقد الذاتى حين انقضت الساعة التى كتب فيها . لكن شو يرى على عكس ذلك أن النقد الموضوعى لاحماسة فيه ولا عاطفة ، فهو الذى يمحى ولا يبقى إلا قليلا ، أما النقد الذاتى فهو يمتاز بالعنف والأصالة والإحساس والعاطفة فهو منتج وهو صالح للقراءة حتى بعد أن تمر الساعة التى كتب فيها .

والحق أن برنارد شو لم يكن ناقدا فحسب ولا متفننا فحسب ، بل لقد كان صحافيا يتكسب من الصحافة قبل أن يكون ناقدا أو متفننا . والصحف مجال للنقد الذاتى وليست المجال الصحيح للنقد الموضوعى . فى الصحافة يحاول الناقد أن يبرز شخصيته حتى يجتذب إليه أكبر عدد من القراء . وفى الصحف التى كتب فيها برنارد شو حاول أن يفرض شخصيته على الجميع ، وأن يمضى إليهم بما يحب وما يكره ، وأن يخلق العداء بينه وبين الذين يسيئون فى نظره إلى أهل الأدب والفن ، وأن يبالغ كل المبالغة فى إظهار العيوب وإبراز المحاسن . ولم يكن يفعل كل ذلك إلا لأنه كان صحافيا يريد أن يجذب إليه جمهرة القراء .

كان برنارد شو يعلم أنه كان صحافيا قبل أن يكون ناقدا ، بل لقد كان يعتقد أن الأدب ليس إلا نوعا من أنواع الصحافة . أو قل إنه كان يعتقد أن الأدب هو الصحافة بكل ما تنطوى عليه من الدعاية ، وإثارة الشعور ، والعنف والنقاش واللجاجة والمهاترة . كان يعتقد أنه ينبغى أن يكتب الاديب للساعة التى هو فيها وللظروف التى تحيط به من كل جانب . وليس

الأدب إلا مرآة لنفس الأديب حين تتفاعل مع خلطائه وحين تتجاوب مع قلوب القارئين والسامعين . وليس الإنجيل عنده إلا كتابا كتب من أجل الدعاية ، فهو جهد صحافي قام به الحواريون من أنصار المسيح . وقد قص الحواريون قصص الإنجيل وأنذروا وبشروا وسخروا وتنبأوا لأنهم أرادوا أن يصلوا إلى قلوب بني إسرائيل لا لأنهم أرادوا أن يكتبوا كتابا فنيا جميلا. ولا يظن أن سليمان عليه السلام كان يتغنى بما تغنى به لو أراد أن ينال جائزة من جوائز الشعر ، بل لقد أطلق أهازيجه حتى يعطف قلوب الضالين من بني البشر .

ويحاول برنارد شو في بعض ما كتب أن يوضح العلاقة بين الصحافة والأدب وأن يثبت أنه صحافي قبل أن يكون أديبا فيقول : « . . . إن الصحافة تستطيع أن تدعى أنها أسمى أشكال الأدب ، لأن أسمى أشكال الأدب بأنواعه هي الصحافة . والكاتب الذي ينتج بديهيات لا تعنى عصراً من العصور ويحسب أنها تعنى كل العصور يكون جزاؤه أن يذهب بها نسيا منسياً لا يقرؤه أحد مدى العصور جميعا ... وأنا أيضا صحافي ؛ بل أنا فخور بأن أكون صحافيا . وأنا أقتطع من مؤلفاتي كل ما ليس بالصحافة لأنني أعلم حق العلم أن كل ما ليس بالصحافة فهو أدب زائل ، أو هو أدب لا يجدي إذا مكث في الأرض . لقد أعالج كل عصر من العصور ، ولكنني لا أدرس دراسة فاحصة إلا العصر الذي أنا فيه. ولا أزعم أنني قد أحسنت دراسة هذا العصر ولا أنني سوف أحسنها . وعلى ذلك فدع الآخرين ينشئوا ما يسمونه أدبا . أما أنا فحسبي « الصحافة » . » .

ومن سيئات مثل هذا الأسلوب الشخصي أن الناقد لا يرى إلا الوجهة الذي يتخذها ، ولا يكاد يعنى بالوجهات الأخرى التي يتخذها الآخرون . فكل أمرىء لا يتفق وإياه فهو خصمه، وكل أمرىء يسفّه رأيه فهو عدوّه اللدود . وربما امتدت اللجاجة به حتى أنكر على خصمه كل حق . فمثل هذا النقد لا يكون نزيها ولا عادلا إلا بمقدار. زد على ذلك أن النقد الشخصي

قد يبنى على أنصاف الحقائق جميعا ، وقد كان هذا يميز برنارد شو فى كثير مما كتب . فقد كان واسع الاطلاع وافر القراءة وكان يستطيع أن يسوق الأدلة على الرأى الذى يراه وفى نفس الوقت يغفل أدلة أخرى قد ترجّح الرأى الذى لا يراه . وفى ذلك يقول هو عن نفسه أنه كان صاحب لقانة يؤثر الظن على البحث . وقد اتبع برنارد شو مثل هـذا الأسلوب حينما نقد شيكسبير وهو فى عنفوان شبابه . ولعله كان متحـيّزا كل التحيز حينما حاول أن يلتمس أوجه الضعف فى أدب شيكسبير وحينما بالغ فى تصويرها حتى يحد بذلك من أدب شكسبير فى الوسـط المسرحى فى السنين الأخـيرة من القرن التاسع عشر .

على أن لهذا الأسلوب الصحافى الذى انتهجه برنارد شو كثيرا من المحاسن ، وأظهر هـذه المحاسن أن يكون حديثه سائغا يقبل عليه القـراء ، ويشتهون التزيد منه ، لأنه يجذب القراء إلى مواطن الخصومة ، فبعضهم يميل إلى أحد الجانبين وبعضهم الآخر يميل إلى الجانب الآخـر . وتحتدم الخصومة بـين أولئك وهؤلاء . فهذا النقد الذاتى وهذه المبالغة الكاريكاتورية وهذه الدفعة إلى إظهار المثالب ، وهذه السخرية ، وهـذه الحملات الصحافيـة التى تختص بالظروف التى هو فيها : كل أولئك مما كان يروق للقـراء . وأنت لا تقرأ له شيئا حتى يغريك أوله بآخره ويفتنك آخره عن أوله . فهـو تارة يغضب ويهزأ ، وهو طورا يحاول أن يقلب التقاليـد والعـادات التى جرى عليهـا الآخرون لمئات السنين . وهو ينكر الحقائق المفروضة ، وهو لا يطلعك إلا على أنصاف الحقائق . ثم هـو فى كل ذلك يحاول أن يدور حـول محور واحد لا يكاد ينحرف عنه ألا وهو شخصيته هى نفسها التى قضى سبعين سنة يتحدث عنها . فهو المجرّب ، وهو المفكر المحـترف ، وهـو أعظم من شكسبير ، وهو قديس بعث على ظهر الأرض كى يخرج الناس من الظلمـات إلى النور ، وهو أكبر ناقد للفن ، وهو أدق من يفهم الموسيقى ، وهو أكبر رواد الاشتراكية . ولا نهاية بعد ذلك لما كان يستطيع أن يدعيه أو أن يعدّه لنفسه

من الصفات . وهذا الأسلوب كما أسلفنا شخصى لكنه سهل سلس فيه كثير من الدعابة والسخرية والمبالغة .

ثم لهذا الأسلوب حسنة أخرى . فقد طوّعله أن يرى الدنيا عارية من التقاليد والعادات والعقائد التى درجت عليها . لقد أقبل عليها كما يقبل الغريب على قوم لا يؤمن بعقائدهم ولا بتقاليدهم فاستطاع أن يرى الرغبات والأهواء والأطماع التى تتدفع بين جنوبهم . واستطاع أن يدرك الأسباب الأولى التى خلقت الفقر والجهل والمرض والعرى ، فلم يخدعه زخرف الرأسمالية ولم تفتنه عقائد المتدينين من أهل الأرض ، ولم يجر وراء الأخيلة التى صورها الرومانتيكيون من أهل الفن، ولم يؤمن بالمبرّرات والمسوّغات التى اختلقها أصحاب العلم وأصحاب الدين وأصحاب المال . لكنه استقل بالتفكير فى كل أمر من هذه الأمور فوضع إصبعه على مواطن الداء حينما عرف أنه لا أمل فى إصلاح العالم حتى يكون هناك حد أدنى لدخل الفقير ، وحتى يقوم الأغنياء بعمل يسوّغون به ما يحوزون من ثروة ، وحتى تخلو الأرض من الحزازات والإحن التى تفرّق بين الغنى والفقير ، وبين الغنى والفقير ، وبين القوى والضعيف وبين العالم والجاهل .

وقد حاول أن يفرض هذه الشخصية القوية على النقد الفنى منذ أن التحق بمجلة « النجم » فى سنة ١٨٨٨ ، ثم على النقد المسرحى بين سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٩٨ . فقد ظل هذه السنوات الأربع وهو يرتصد المؤلفين والممثلين حركاتهم وسكناتهم . ظل هذه السنوات الأربع وهو يغشى المسارح فيهزأ بأكبر الممثلين من أمثال « هنرى إرفنج » ويسخر من أكبر الممثلات من أمثال « إلين ترى » . ثم وجد حول المسرح سياجا قويا أحاط بتمثال شامخ وهو تمثال شيكسبير فاقتحم هذا السياج ليحطم هذا التمثال . ثم حاول بعد ذلك أن يبنى تمثالا من الأنقاض ولم يكن هذا التمثال إلا هنريك إبسن .

* * *

وحينما كلف برنارد شو أن يكون ناقدا مسرحيا فى سنة ١٨٩٤ التحق بمجلة « ستردى ريفيو » وهو مقتنع بأن شيكسبير كاتب مسرحى ناقص التكوين . وكان النقد الأدبى فى تلك الحقبة مشبعا بسمو شيكسبير ، لذلك رأى أن يقوم بدعاية عنيفة يثبت فيها رأيه فى شيكسبير . وكانت هذه الدعاية ذاتية لأنه كان يريد أن يطبع الحياة الأدبية فى عصره بطابعه الخاص . ثم كانت هذه الدعاية كما أسلفنا ذات غرضين : فقد كان يريد أن يحطم تمثال شيكسبير وأن يقيم مكانه تمثالا آخر هو تمثال هنريك إبسن .

وقد أدى هذا النقد الذاتى إلى أن يوازن بين نفسه وبين شيكسبير وإلى أن يخرج من هذه الموازنة وهو يكاد يزعم أنه أحسن من الشاعر الخالد . أتراه كان يقصد ذلك حقا ؟ أم ترى أنه كان يريد المبالغة حتى يهز مشاعر الناس هزا ، وحتى يعلق أنفاسهم ويدفعهم إلى ترك القديم فى المسرح والاستزادة من الجديد .

إنه يقول كلاما فى مثل هذا : « إن أعظم الرجال عندى هم أولئك الذين يبلغون رسالة الأمل إلى الضالين من البشر ، هم أولئك الذين يستطيعون أن يبلغوا هذه الرسالة فيخرجوا الناس من الظلمات إلى النور . وعلى هذا الأساس تستطيع أن تتبين أى عظمة كانت لرجال مثل بنيان وإبسن وجوته وشيللى وميكا وغيره من أنبياء بنى إسرائيل . فهؤلاء جميعا أعظم من شيكسبير ، لأنه لم يكن إلا مؤلفا مسرحيا لا رسالة له — أو قل أنه كان ذا رسالة ظاهرة من التشاؤم والقنوط ، ورسالة مثل هذه فى حكم العدم . والآن فما شأنى أنا وكل ذلك ؟ إننى أنا الآخر مؤلف مسرحى ، وأنا صاحب رسالة ، وفى استطاعتى أن أبلغها . أيها السيدات والسادة لكم أن تستنتجوا من هذا ما تشاءون » . ولا شك أنه أراد بذلك أن تستنتج السيدات والسادة أنه أحسن من شيكسبير ، وأنه من صف أولئك العظماء من ذوى الرسالات الذين وضعهم فى هذه السلسلة الكريمة .

وهناك فروق واضحة بين شيكسبير وبرنارد شو سنعالجها فيما

بعد (١)، فان الاختلاف بينهما هو اختلاف بين الصنف والصنف وبين المعدن والمعدن. ولكن لعل هذه الحملة ضد شيكسبير لم تكن لتنشب لو لم يتخذ الممثلون والمخرجون مسرحيات شيكسبير نماذج لا يرضون بغيرها بديلا. كان كثير من مسرحيات القرن التاسع عشر منعزلة عن الحياة العامة، وكانت متأثرة أشد التأثر بالحركة الرومانسية. فرأى برنارد شو أن يتجه نقده إلى المسرحيات الممثلة — ومنها مسرحيات شكسبير. على أن يقيسها بمعايير عصره من فكرية واجتماعية وسياسية.

وإذا أنت نظرت إلى نقده لشكسبير من هذا الجانب رأيت أنه كان لبرنارد شو وجهة نظر جديرة بالتقدير. فقد أقبل على المسرح ومؤلفو المسرحيات والممثلون يتخذون من شكسبير صنما يعبد. ومعنى ذلك أنهم حاولوا تفسير الحياة العامة في آخر القرن التاسع عشر بنفس الأساليب التي كان يفسرها شيكسبير في آخر القرن السادس عشر، وكأنما لم تكن هذه القرون الثلاثة كافية لتخطو بالعالم خطوات إلى الأمام من الناحية الاجتماعية أو السياسية أو الدينية أو الاقتصادية. زد على ذلك أنهم كانوا يهملون بعض ما كتب شيكسبير في مسرحياته من روائع الشعر، ويثبتون بعض العناصر الأخرى التي كانت تثور لها الفضيلة. فلم يكن الخطأ في الواقع خطأ شكسبير نفسه بقدر ما كان خطأ المؤلفين والممثلين والمخرجين في الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر، وهم أولئك الذين أرادوا أن يفسّروا الحياة العامة بشعر شيكسبير.

ثم لا تحسبن أن برنارد شو كان الأول والأخير ممن نقدوا شيكسبير. فقد سلفت أمة من النقاد وأهل الفكر ممن كانوا يجدون في فن شكسبير ذلك القصور الذي وجده برنارد شو. وقد كان فولتير من أشد خصوم الشاعر الإنجليزي. أدخل دراسة شيكسبير في فرنسا، ثم لما رأى أن الشاعر الإنجليزي قد طغى على الأدب الفرنسي أقام على ذكراه حربا شعواء، وأصدر نشرة

(١) أنظر الفصل الرابع من الباب الثاني من هذا الكتاب عن حديثنا عن: «فنه المسرحي».

يحرّم فيها دراسته فى فرنسا!! رأى فولتير أن شيكسبير شاعر وحشى لا يتقيد بتقاليد الفن ولا بأوضاعه . ثم كان مازينى وتولستوى من أولئك الذين ضاقوا بشيكسبير فقد رأى مازينى أن مسرحياته تخلو من هذه الرسالة الخلقية التى عاش هو ليسديها لإيطاليا وللعالم أجمع . وكان تولستوى لا يرى فى شعر شيكسبير تلك الأمثلة العليا التى عاش هو من أجلها ـ فلم يكن كلام برنارد شو إذن غريبا على مؤرخى الأدب ، بل كان الغريب هو الأسلوب الذى نقد به شيكسبير . الغريب أنه أقام حربا عوانا متصلة فى المجلات والصحف ، وأنه استطاع أن يحول الناس عن عبادة شيكسبير . ولعله كان يتتبع خطى سلفه الساخر الفيلسوف فولتير .

* * *

كان هنرى إرفنج (١٨٣٨ – ١٩٠٥) على رأس الممثلين الإنجليز فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر . وكان الرجل عبقريا تقدمت به السن لكنه كان لا يزال يسيطر على المسرح الإنجليزى ، واقترن إسمه فى سنة ١٨٧٨ وما بعدها باسم ممثلة عبقرية هى الأخرى إسمها « إلين ترى » . وظلت الزمالة بينهما أربعا وعشرين سنة فى مسرح إسمه « الليسيوم » . وكان هنرى إرفنج مغرما بتمثيل مسرحيات شيكسبير ، لكنه لم يكن يمثل الشخوص التى اختلقها شيكسبير إذ أنه كان فى الواقع يريد أن يظهر شخصيته هو نفسه . كان كوكبا مسرحيا وكانت فكرة الكوكب طاغية على كل فكرة عداها . لذلك كان يقتطع من مسرحيات شيكسبير ماشاء له الهوى ، حتى يجعل من نفسه بطلا من الأبطال . وكانت تشاركه فى هذه البطولة إلين ترى ، أما سائر الممثلين والممثلات فلم يكونوا إلى جانبها شيئا مذكورا . وكان هنرى إرفنج هو نفسه مخرج مسرحياته : فكان يلجأ إلى ما كان يلجأ إليه المخرجين فى عصره من المبالغة فى الإضاءة والإسراف فى الزينة . ثم كان هو نفسه يلجأ إلى المبالغة فى التمثيل ، فخرجت من بين يديه هملت أخرى غير التى أرادها شيكسبير . ثم كان الفن المسرحى فى أيدى فئة من الرأسماليين ، وكان لا يهتم هؤلاء أكان التمثيل جميلا أم لم يكن ـ كان لا يهمهم من الأمر إلا أن تمتلىء خزائن المسرح

وإلا أن يقاسموا الممثلين والممثلات أرباحهم. وقد كان لهنرى إرفنج سمعة جذبت إليه رواد المسرح. فكان مطمئنـا إلى أن ما يؤديه على المسرح هو خير ما يمكن أن يكون.

وكان شو - وهو صبي صغير - قد رأى هنرى إرفنج وهو يمثل فى دبلن، ثم رآه هو وإلين ترى وقد تسنم الشهرة فى لندن. فظن أن هذا الممثل هو الجدير بأن يحمل عبء المسرحية الجديدة بعد أن يخلف تمثيل شيكسبير ولم يكن يعلم برنارد شو أن ذلك معناه قلب كل الأوضاع الاقتصادية التى سار عليها المسرح الإنجليزى خلال القرن التاسع عشر، أو قل لقد كان يعلم ذلك لكنه كان يود أن يحدث هذا الانقلاب. لذلك كان معظم نقده المسرحى موجها إلى شيكسبير: وموجها بنوع خاص إلى هنرى إرفنج حينما كان يمثل مسرحيات شيكسبير.

ففى سنة ١٨٨٦ - حتى قبل أن يحترف النقد المسرحى - رأى برنارد شو «جهد الحب الضائع [١]» وهى إحدى فكاهات شيكسبير. فكتب عنها ناقدا هذه الكلمات: «كان يمكن أن ينظر الإنسان إلى شخوص هذه المسرحية بما فيها من قوم أذكياء، وبما لهم من الوجاهة المفروضة، وبما يتفوهون به من سقط اللفظ، وبما يبدو من جانبهم من التهكم بالفقراء، ثم بسخريتهم الوقحة الشريرة بمن تقدموا فى السن أو بمن قعدت بهم العلة - أقول كان يمكن أن ينظر الإنسان إلى مثل هذه الشخوص منذ ثلثمائة سنة كأنها أمثلة عليا للجندى أو الأمير أو العالم. ولكننا لا نستطيع الآن أن ننظر إليهم تلك النظرة. فان قوما ممن أوتوا نصيبا من الثقافة فى هـذا القرن لا يستطيعون أن يعتبروا كل هؤلاء إلا أوغادا لا طاقة لنا بهم.»

وفى سنة ١٨٨٨ رأى «ترويض النمرة» (٢) فتسمّى باسم سيدة أمريكية

---

(١) Love's Labour's Lost

(٢) Taming of the Shrew

وأرسل إلى « البل مل جازيت » نقدا لتمثيلها . فهو يقول على لسان هذه السيدة الأمريكية: «إن ترويض النمرة ما هي إلا إهانة للأنوثة والرجولة من أولي كلماتها إلى آخرها . ولا ينبغى لسيدة محترمة أن تشهد مثل هذه المسرحية. إن معنى الرواية نفسه ماهو إلا تحقير للمرأة وقذف فى حقها . فبطل المسرحية يحاول جهده أن يفهم النظارة أنه ناقم على عروسه الجديدة ، وهو يعاملها معاملة جافة وينتهى إلى أن يضربها بالسوط. وكل ذلك إجحاف بالمرأة وتنقص من حقوقها . أما النظارة فانهم يقبلون على هذه المناظر راضين قانعين ، وهم فى الواقع يسخرون من الحياة الزوجية الواقعة ـ فى حين أنك ستجد إذا بحثت ، أن نصفهم يعتمد كل الاعتماد على إيراد زوجاتهم . »

وحينما التحق برنارد شو بتحرير «الستر دى ريفيو» فى سنة ١٨٩٤ كنا قد مسرحى واصل هذه الحملة على شيكسبير أو على هنرى إرفنج لسنا ندرى . فكان يزور مسرح الليسيوم ويكتب عن تمثيليات شيكسبير باستمرار ومن غير انقطاع . وهنا نراه يدلى بآرائه جلية واضحة من غير عوج ولا التواء. هنا ينبثق فيض من النقد المر اللاذع ، بعضه هراء لم يكتبه صاحبه إلا ليهزأ بهنرى إرفنج ، وبعضه نقد فى الصميم يتناول الموازنة بين عصر شيكسبير وعصره الذى كان يكتب فيه ، ويعالج الخطوات السريعة الواسعة التى خطاها العالم منذ أن مات الشاعر الكبير فى سنة ١٦١٦ . على أن هذه النقدات لم تزد هنرى إرفنج إلا اشمئزازا منه وترفعا عنه وعن أفكاره وعن مسرحياته . وقد قدّر لهنرى إرفنج أن يموت سنة ١٩٠٥ من غير أن يعنى بمسرحيات برنارد شو ، وقدّر لبرنارد شو ألا يبدأ انتصاره الفنى إلا على أيدى ممثلين أمريكيين لا على يدى الممثل الإنجليزى الكبير .

وسنعرض عليك فيما يلى مثالا مما كان يكتبه برنارد شو خلال السنوات الأربع التى قضاها فى «الستر دى ريفيو». وسترى أنه نقد لاذع ما يزال يذكر كأقسى ما عرف من نقد للشاعر العظيم. ففى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٩٦ شهد برنارد شو مسرحية سمبلين فكتب يقول : « إن سمبلين فى معظم أجزائها هراء

مسرحى فى أحط طبقاته. وقد أساء مؤلفها كتابة بعض أجزائها ، وأشاع فيها عقلية السوقة . فاذا أنت قدّرتها بمعاييرنا الفكرية الحديثة وجدت أنها سوقية وسخيفة ووقحة وجارحة تستفز الغضب . إنه لتمر بى لحظات أسائل فيها نفسى وأنا يائس : لم نزل بالمسرح الإنجليزى لعنة هذا الرجل الخالد الذى انتحل قصص الآخرين وأفكارهم ، وكيف فسد المسرح الإنجليزى بما أتى من بهرج القول ، ومن بديهيات لا تطاق ، ومن تبسيطه لمشكلات الحياة الدقيقة وإنزالها منزلة الشيء العادى ؟ ؟ ثم هذا الجمود المدهش الذى لا يوحى إلى الإنسان بشيء . . . . . . إذا استثنينا هومر فاننى لا أحتقر كاتبا شهيرا واحدا ـ حتى ولا سير ولترسكوت ـ كما أحتقر شيكسبير حين أقيس عقليته بعقليتى . وينفد صبرى بعض أحيان فأجد أنه قد يخفّف عنى بعض الشيء إذا أنا حفرت مقبرته ، وأخرجت منها جثته ، ورجمته بالحجارة . فانا أعلم أنه لاهو ولا عابدوه يستطيعون أن يفهموا معنى التحقير بغير هذا الشكل ».

ومثل هذا الكلام إن لم يكن هراء فهو غاية الإسفاف . ولكن قد يبرّره أن بعض أنصار المسرح القديم كانوا يهاجمون المسرحيات الجديدة ـ ومنها مسرحيات برنارد شو نفسه ـ بنفس اللهجة وبنفس الأسلوب ، وأن برنارد شو كان يريد أن يهزّهم هزّا وإن لم يكن يعنى من هذا الكلام إلا أقلّه . وقد أفلح فعلا فى أن يبعث ضجة حول هذه الكلمات وأفلح فى أن يخلق جوا من التلاحى وأن يثير حركة بأكملها من حركات النقد الفنى . وقد ذكر له النقاد ذلك وانبرى له أصدقاؤه وخصومه على السواء . وانظر إلى هذه القطعة التى كتبها كاتب آخر هو « هنرى آرثر جونز » فى سنة ١٩٣١ : « لقد يحلو لك أن تخرج جثة شيكسبير من جدثها وأن تدنس رفاته ، شيكسبير الذى مازالت كلماته تدوى فى سمع إنجلتره ، فتدعوها إلى تعرف قوته ، وتهيب بها أن تسحق الخونة المنافقين تحت أقدامها ! ! نعم لقد يحلو لك ذلك فان رجلا مثلك يجد كل لذة فى تدنيس كل شيء : كل ما هو ميت أو حى مما يقدسه بنو الإنسان. ولكن ألا ترى أنه قد يجتمع شمل أولئك الذين يفهمون شيكسبير ويغرمون

بكلماته فى إنجلترة ، قد يجتمع شمل هؤلاء فى عيد ميلادك القادم فيخرجونك أنت ويرجمونك بالحجارة ، ثم يطاردونك بعد ذلك حتى تنتهى إلى صخرة شيكسبير، ومايزالون بك حتى يلقوا بك من قمة هذه الصخرة إلى أغوار البحر فتتطهر منك أرض شيكسبير » .

* * *

كان ذلك بعض ما كتبه هنرى آرثر جونز فى سنة ١٩٣١، ولكن فلنعد الآن إلى سنة ١٨٩٦ ، أى إلى الفترة التى كان يحترف فيها برنارد شو النقد المسرحى . لقد قرأ الممثلون والمؤلفون هذا الكلام الذى كتبه برنارد شو عن شيكسبير ، فماذا تراهم فعلوا ؟ لقد أدركوا أن هناك قوة وافدة تهزأ بهم وبفنهم المسرحى ، وأن من الخير أن يكسبوا هذه القوة إلى جانبهم قبل أن تطغى عليهم . وكان برنارد شو قد كتب ثلاث مسرحيات حتى قبل أن يحترف النقد المسرحى(١) وكتب أربع مسرحيات أخرى وهو يتابع النقد المسرحى(٢)، فحاول بعض أصحاب المسارح أن يلجموا برنارد شو فقدم بعضهم له العطايا وكلفه بعضهم أن يترجم بعض المسرحيات إلى الإنجليزية. وكذلك إجتمعت قوة المسرح التجارية على برنارد شو لتعدل به عن هذا النقد اللاذع . ولكن هيهات !

أما هنرى إرفنج فقد تفتحت عيناه على كلام غريب. فقد اعتاد النقاد قبل برنارد شو أن يتعشقوا أدواره جميعا ، واعتاد هو أن يصرفهم عن الخوض فى نقائصه بما كان يجرى عليهم من الأرزاق . وتقدم برنارد شو باحدى مسرحياته وهى « رجل المقادير » إلى هنرى إرفنج وكان قد كتبها خصيصا لهنرى إرفنج وإلين ترى ، وقرأها إرفنج فرأى أنها تختلف اختلافا

---

[١] أطلق على هذه المسرحيات الثلاث عنوان مسرحيات غير سارة وهى : (١) منازل الأرامل (٢) المغازل (٣) مهنة مسزورن .

[٢] أطلق على هذه عنوان مسرحيات سارة وهى: (١) الأسلوب والرجل (٢) كانديدا (٣) رجل المقادير (٤) ما لاتستطيع أن تدرك You never can tell

كبيرا عن المسرحيات التي أبرزته في مكان البطولة ، وأنها لم تكن فرصة للظهور بالزخرف والبذخ والبهرج ، تلك الأمور التي كانت تميز المسرحيات التي كان يمثلها . لذلك أراد أن يرفضها لكنه وجد من الحكمة أن يشتريها من صاحبها — وجد ذلك من الحكمة حتى يلجمه أولا وحتى لا يتيح له فرصة تمثيلها ثانيا .

ومعنى ذلك أن مسرحية مثل هذه كانت تعتقل في ركن من أركان مسرح « ليسيوم » وتموت على رف من رفوفه ، وكل ذلك في نظير خمسين جنيها . وقد أبى برنارد شو أن يشترى بهذا القدر فالتقى بهنرى إرفنج لأول مرة في يوم من أيام سنة ١٨٩٧ ، وحاول الممثل أن يفرض نفسه على برنارد شو فرأى من الناقد صلفا لم يكن يتوقعه ، ورأى أنه لم يكن أمام رجل صغير من رجال الصحافة ، بل أمام فنان مطلع له رأى في فن المسرح ، ولا ينثنى عن رأيه بالقليل ولا بالكثير من المال . وحينما عرض عليه إرفنج أن يدفع له الخمسين جنيها سأله شو عن موعد التمثيل ، لأنه كان يريد التمثيل أولا وقبل كل شيء : أما المال فلم يكن له عنده وزن .

وكان هنرى إرفنج مشتغلا في ذلك الحين بتمثيل مسرحية أخرى لشكسبير هي «ريتشارد الثالث» وشهدها برنارد شو فلحظ أن إرفنج لم يكن ثابت الخطى بل كان كشارب الخمر يتعثر في مشيته . وكتب في نقده للمسرحية شيئا يشير به إلى ذلك ، وكان إرفنج في تلك الليلة ثملا حقا لا يكاد يعى ما يقول ولا يكاد يعرف ما كان يمثل، وقد أصاب برنارد شو كبد الحقيقة في كل ما قال . لكن هذا أغاظ إرفنج وأثار ثائرته فرد إلى شو مسرحيته وكذلك انفصمت هذه الشركة التي لم تكد تتصل . وكان فراق بين أكبر الممثلين وأكبر مؤلفى المسرح في ذلك العصر .

على أن ذلك لم يكن فراقا بين برنارد شو وإلين ترى ، فقد كانت العلاقة بين هذين قصة غريبة أخرى من قصص الحب والتقدير . كان برنارد شو قد رآها على المسرح وأعجب بجمالها وقوامها وتمثيلها ، وكان يرجو لو يستطيع يوما أن يشهدها في إحدى مسرحياته. وكتب لها فكتبت له . وظلت الرسائل تروح وتغدو بينهما حتى أصبحت سجلا كريما من سجلات

العواطف الكريمة ، كل ذلك وهى لاترى برنارد شو ولا يراها برنارد شو إلا على خشبة المسرح فقد كانت علاقة أفلاطونية لا أكثر ولا أقل. وكانت رسائلها تدور حول المسرح وما تبذله هى من الجهود وما يبذله هو فى سبيل المسرحية الجديدة وقد جمعت هذه الرسائل جميعا وأصبحت جزءا من الأدب الإنجليزى فى أعقاب القرن التاسع عشر .

ولعل هذا كان تعويضا عن نقص فى نفس برنارد شو ، وكان قدجاوز الأربعين ولم يتزوج . وكان لايحس للمرأة بتلك الدفعة العنيفة التى يحسها الشباب المتوفز ، فكانت رسائله واليين ترى تعويضا عن ذلك الشباب الذاهب ، وتنفيسا عن نفس كبتت العواطف وحاولت أن تظل مبرأة طاهرة .

* * *

لعلنا أكثرنا القول فى نقد برنارد شو لشيكسبير ، لكنه لم يقتصر على نقد شيكسبير فى السنوات الأربع التى قضاها وهو ينقد المسرح . والواقع أن برنارد شو يعتبر بحق من أعظم النقاد المسرحيين : بل بعضهم يضعه فى المرتبة الأولى مع « هازلت » و « لى هنت » و « تشارلز لامب » و « وليم آرنشر » . ذلك بأنه يمتاز عن كل هؤلاء بأنه كان يكتب أسبوعيا من غير انقطاع لمدة تقل قليلا عن الأربعة أعوام . ثم إنه كان يكتب عن اقتناع شخصى بلغ عنده حد « الموجدة » التى تخلق اللذة من الفن الجميل كما تخلق النقمة على الفن الردىء . كذلك كان يمتاز برنارد شو بأن نقده كان فيضا من نفسه فكان يعلم كل شىء عن كل شىء .

وقد جمعت نقداته هذه فى مجموعة لاتزال تقرأ إلى اليوم الذى نحن فيه(١). فاذا أنت تصفحتها راعك منها موضوعات عن التمثيل والممثلين ، وعن النقد والنقاد ، وعن الرقابة ، وعن لغة المسرحية ، وعن القصص الروائى ، وعن المجتمع ومشاكله ، وعن المسارح ومبانيها واقتصادياتها ووظيفتها ، ثم عن النساء . كذلك تمر بين ناظريك فى تلك النقدات أسماء شعراء وكتاب معاصرين منهم ديكنز وإبسن وهنرى آرثر جونز وبيزو وساردو ، وفاجنر

(١) Our Theatres in the Nineties (3 volumes)

وشيكسبير وأوسكار وايلد . وتلمح كذلك أسماء كثير من الممثلين والممثلات في عهده مثل سارة برنارد ومسز باتريك كامبل وفوربز روبرتسون وهنرى إرفنج وإلين ترى . فليست هذه النقدات إلا سجلا للمسرحية الانجليزية في ذلك العهد . على أن أظهر ما فيها جميعا كان هذا النقاش الذى دار حول شيكسبير أولا ثم كان الإشارة إلى المسرحية الجديدة التى كان يتزعمها هنريك إبسن ثانيا .

* * *

وبعد فلاتحسب أن برنارد شو ــ حينما نقد شيكسبير كل هذا النقد ــ كان يعنى كل مايقول ، ولاتحسب أنه كان جادا حينما أشار إلى أنه أحسن من شيكسبير فهو سيعود إلى نقد شيكسبير مرة أخرى وسيكون نقده أكثر هدوءا وأقل لغوا ومهاترة . ولنذكر دائما أن برنارد شو كان يميل إلى الدعابة والإغراق والمبالغة وبخاصة وهو صحافى ناقد . ولنذكر أيضا أن شيكسبير لم يكن مسرحيا فحسب بل كان شاعرا قبل أن يكون مسرحيا . فاذا أنت تقمصتك روح تسخر من الخيال الرومانسى كروح برنارد شو فلا سبيل إلى تقدير هذا الشعر السامى الذى كتبه شيكسبير . والذى يصدق على المسرحيات لا يصدق كله على الشعر ، وكأنما أراد برنارد شو الكاتب الناثر أن يبلغ شيكسبير الشاعر مالم يكن يستطيع أن يبلغه من نفسه شيكسبير .

(٧)

الفلسفة الراديكالية وكارل ماركس

تفكيره الاقتصادى بين الفرد والجماعة

١٨٨٥ - ١٨٩٨

كان لابد لمفكر محترف مثل برنارد شو أن يلمّ بالآراء الاقتصادية التى كانت تدور على أقلام الكتاب وألسنة الخطباء فى عصره. وبالأسلوب الجدلى الذى اتبعه برنارد شو حاول أن يقرّب كل المشكلات الاقتصادية والسياسية التى واجهها مع أصحاب الفكر والرأى فى الخمس والتسعين سنة التى عاشها من القرنين التاسع عشر والعشرين. لذلك كان لابد لنا أن نفصّل القول بعض التفصيل فى الآراء التى سلمت له من قراءاته ومناقشاته الاقتصادية فى الرأسمالية والاشتراكية. وحينما نقرب مثل هذا الموضع من بحثنا ينبغى أن نذكر ما أسلفنا من أنه كان مغرما بأن يضع كل نقيض إلى جانب نقيضه وبأنه كان فى أحيان يستخدم أنصاف الحقائق وكان فى أحيان أخرى يستخدم المبالغة والدعابة والفكاهة. ولكن علينا أن نحمل الأمر محمل الجد هذه المرة أيضا فنرى آراءه متبلورة ونحاول ماوسعنا أن ندرس مصادر هذه الآراء وكيف استخلصها وآمن بها وعبّر عنها فى مؤلفاته ومسرحياته.

ولا يمكن أن ندرك حركة الإصلاح فى إنجلترة إلا إذا درسنا الانقلاب الصناعى أو الثورة الصناعية التى حدثت فيها فى أوائل القرن التاسع عشر، فحركة الانقلاب الصناعى هذه هى التى خلقت مجتمعا صناعيا. وفى هذا المجتمع الصناعى حدثت تغييرات جوهرية، وقامت الطبقة الوسطى بجهد عظيم فى تقدم الصناعة، وتركز رأس المال فى أيدى أفراد منها، وبرز منها مفكرون ينقدون نفس هذا النظام الرأسمالى وما تبعه من تغييرات اجتماعية، ووصل هؤلاء المفكرون إلى حلول لقضاياهم تتفق مع الكيان الرأسمالى نفسه الذى نشأوا فيه. فكانت فلسفتهم السياسية مصالحة بين النظم الانجليزية القديمة وبين

ما يستجد من النظم الحديثة. كان أولئك هم الفلاسفة الأصوليون أو الراديكاليون من أمثال بنتام وآدم سمث وريكاردو وروبرت أوين ومالثوس وجيمس مل وجون ستيورت مل، وقد ألمّ برنارد شو بآراء هؤلاء جميعا وكانت قضاياهم من بين ما يروح ويغدو فى كتاباته سواء منها تلك الكتيبات(١) التى ألّفها وهو أمين لجماعة الفابيين أم تلك التى شكّلها فى مسرحياته وكتبه ومقالاته.

وما انتصف القرن التاسع عشر حتى نمت فئة أخرى تختلف عن هؤلاء الفلاسفة الراديكاليين، كانت هذه فئة تحمل لواء الاشتراكية. وكان أول من دعا إلى نظام يشبه الاشتراكية روبرت أوين ثم تبعه فريق سموا أنفسهم « أصحاب الميثاق »، وجاءت الدفعة الاشتراكية الكبرى حينما كتب إنجلز كتابه « أحوال الطبقة الانجليزية العاملة» فى سنة ١٨٤٥، وبلغت الاشتراكية نضوجها الفكرى فى كتاب « رأس المال » الذى أخرجه كارل ماركس سنة ١٨٦٩. وقد طغى هذا الفيضان الاشتراكى على أفكار الفلاسفة الراديكاليين الأولين، وظل العنصران يصطحب الواحد منهما الآخر فى أحيان، ويصطرعان فى أحيان أخرى طيلة القرن التاسع عشر. وكان من أول الذين حاولوا أن يصالحوا بين هذين العنصرين الفكريين جون ستيورت مل الذى ألّف كتب: « الحرية » و « الاقتصاد السياسى » و « الحكومات النيابية » وكان له أبلغ الأثر فى اتجاهات الفابيين. فهو الذى شكّل آراء سيدنى وب وهو الذى استقى منه برنارد شو أغلب آرائه الفابية – بل كان له أبلغ الأثر فى اتجاهات إنجلترة السياسية والاقتصادية حتى هذه الساعة التى نكتب فيها.

إذن فقد وقع برنارد شو بين فئتين من المفكرين، وكان لا بد له أيضا أن يعقد الموازنات بين آراء من هؤلاء وآراء من أولئك. كان لا بد له أن يدرس الانقلاب الصناعى، وكان لا بد له أن يدرس آراء هؤلاء الفلاسفة الراديكاليين الذين ذكرنا أسماء بعضهم، وكان لا بد أن يؤيد بعض هذه

(١) جمعت فى كتاب سماه Essays on Fabian Socialism وطبعت فى لندن سنة ١٩٣٢.

الآراء أو ان يعارض بعضها أشد المعارضة ، وكان لا بد له أيضا أن يدرس الآراء الاشتراكية التي كانت تطوف بهذا المجتمع المتطوّر الجديد .

وإذا أنت جمعت الآراء الاشتراكية التي تنتشر في كتبه وجدت أن بينها وبين أفكار المفكرين في عصره وقبل عصره صلات وثيقة ، بل وجدت أنه قد يجمع بين المتناقضات فيرى في أحيان رأيا يراه جون ستيورت مل، ويرى في أحيان أخرى رأيا نقيضا للأول يراه فريدريك إنجلز وكارل ماركس . فبرنارد شو جماع عصر بأكمله ، ولا يمكننا أن نفهم آراءه على حقيقتها إلا إذا نحن تناولنا بعض التفصيل الأفكار الأساسية التي كوّنها من دراسته للرأسمالية كما عالجها آدم سمث، و«مذهب المنفعة» كما صوره بنتام وجيمس مل و « فكرة القيمة الفائضة في الاقتصاد » التي أخذ بها ريكاردو ، والاشتراكية كما صورها إنجلز وكارل ماركس، والحرية كما صورها جون ستيورت مل. ثم ينبغي أن نذكر دائما أنه توفي وقد بلغ الخامسة والتسعين وقد غيّر بعضا من آرائه خلال تلك السنين فلم يكن ينبغي له أن يبقى على كل آرائه من غير تعديل أو تغيير في هذا المدى السحيق من العمر .

على أن أهم هذه النقائض التي تميّز تفكير برنارد شو في الناحية الاقتصادية والسياسية هو أنه وجد نفسه في المحنة الفكرية التي وقع فيها جون ستيورت مل من قبل ، فقد كان هؤلاء الفلاسفة الراديكاليون يؤمنون بالفرد ، وكانت كتاباتهم جميعا تنبثق من إيمانهم بالفرد ومن سخطهم على الجماعة التي تريد أن تكبل حرياته . وكانت هذه الفردية في التفكير لهي المسئولة عن الإصلاحات التي قامت بها الحكومات في القرن التاسع عشر، أما كارل ماركس وفريدريك إنجلز ومن لف لفهما من الاشتراكيين فقد كانوا يفكرون في صالح الجماعة العاملة قبل صالح الفرد . لذلك يتسم تفكير برنارد شو بهذا التأرجح بين الفردية والجماعية . فهو يبدو في أحيان فرديا يؤمن بحق الفرد في حرية العمل والتفكير والتعبير ، وهو يبدو في أحيان أخرى اجتماعيا أو اشتراكيا أو جماعيا ينكر على الأفراد حقوقهم ويؤمن بصالح الجماعة الذي يتفانى فيه صالح الفرد .

* * *

وقد ورث الفكر الأوربي في مطلع القرن التاسع عشر ذلك العنصر الفردى عن فلاسفة القرن الثامن عشر . فقد خرج الفكر السياسى من القرن الثامن عشر وهو يؤمن بالفردية فى ذروتها . وليست مؤلفات الفلاسفة السياسيين من أمثال جون لوك وجان جاك روسو إلا تمجيدا للفرد ودفاعا عن حريته، ولم تكن الثورة الفرنسية فى نفسها إلا دفاعا عن حرية هذا الفرد . فلم ينظر الثوار الفرنسيون إلى حرية الجماعة بقدر ما نظروا إلى الحرية والإخاء والمساواة بين كل فرد وفرد ، ذلك بأنهم كانوا يدافعون عن حقوق الإنسان أمام طغيان أمراء الإقطاع ، وأمام استبداد الملوك . فكان الفلاسفة والمفكرون يحرصون على حقوق الإنسان السياسية معتقدين أن هذه الحقوق نفسها ستؤدى إلى حرية الفرد . وكانوا يحسبون أن التوسّع فى استرداد هذه الحقوق هو نفسه تطبيق للديمقراطية فى أحسن صورها .

وكان من أقدس الحقوق التى دافع عنها فلاسفة القرن الثامن عشر حق الملكية الفردية، والحق أن الدفاع عن هذا الحق والتمسّك به ، وتقديسه فى القانون، كان ضرورة فى الكفاح بين اغتصاب الملوك وأمراء الإقطاع وبين القوات الشعبية الناشئة . فقد كان هؤلاء الملوك والامراء فى أيام الإقطاع لا يقرّون حق التملك عند الأفراد ، وكانوا يغتصبون كل شبر من الأرض وكل عقار إذا رأوا ذلك . وقد قامت الفلسفة السياسية خلال القرن الثامن عشر وتوّجت بالثورة الفرنسية حتى يسترد الأفراد حقوقهم من الأمراء . وكان لا بد أن يكون لحق الملكية المكان الأعلى فى ما يكتبه المفكرون ، لأن الفرد نفسه كان قد خرج من عصر الإقطاع وهو مهيض الجناح مهضوم الحقوق .

قام المفكرون فى أول القرن التاسع عشر وهم مايزالون يتشبثون بتلك الفكرة ، وكان العنصر الفردى مسئولا عن الكفاح فى سبيل الحرية السياسية ممثلة فى حق الانتخاب . وكذلك كان مسئولا عن الرعاية الصحية والتربوية التى سمح بها المجتمع للفرد . بل هو مسئول عن نشاة المذهب القومى كمذهب

سياسى خلال القرن التاسع عشر. فقد كان ظاهرا أن الأمم كانت تريد أن تسترد استقلالها كما كانت تريد أن تعنى بأفرادها. بل من هنا أيضا نبعت المذاهب الخلقية الفردية، ومن هنا صدرت مذاهب التربية التى كانت تعنى بالفرد عناية خاصة.

وقد شملت هذه الفلسفة الفردية الاقتصاد فيما شملته من شئون السياسة والحكم والاجتماع. ومادمنا قد كفلنا الحرية للفرد فقد كان للفرد أن يقتنى ما شاء من مصادر الثروة، ولم يكن من غير المألوف أن تعود مصادر الثروة بالربح أو مكسب على بضعة أفراد بعينهم. وهنا تنشأ المشكلة الأولى. فيمن هو الفرد؟ هل هو الفرد صاحب رأس المال أو الإقطاع، أم هو الفرد العامل فى المصنع أو المزرعة؟ ثم أليس للفرد العامل فى المصنع أو المزرعة نفس الحقوق التى لصاحب رأس المال؟ قال الفلاسفة الخلقيون عند ذلك، وتبعهم الاقتصاديون أن الأمر فى ذلك رهين بكفاءة هذا الفرد على الإنتاج. ولكن هل كان الأفراد الذين يتمتعون بالأرباح والمكاسب من الكفاءة والنشاط بحيث يستحقون مايعود عليهم من فائض الثروة؟ وماذا يقال فى أولئك الذين يرثون أموالا طائلة عن آبائهم وأجدادهم ثم يعيشون بعد ذلك أغنياء متعطلين لايكادون يبذلون جهدا فى سبيل كسب قوتهم. ثم لقد كان أصحاب المذهب الفردى يحرصون على ألا تتدخل الدولة فى أعمال الصناعة والتجارة، زعما بأن أى تدخل فى أعمال أصحاب رؤوس الأموال سينتقص من الحافز الشخصى ويعطّل تشغيل الأموال.

وكان مبدأ حرية التجارة هو الذى أخذت به الدول الصناعية إبان الانقلاب الصناعى. ولكن هل يمكن أن تقف الدولة مكتوفة الأيدى أمام مايشهده المجتمع من الاستكثار من الثروة عند القلة ومن العوز والفاقة عند الكثرة؟ هل يمضى الأمر من غير تخطيط شامل؟ هل يكون أمر الإنتاج متروكا لأهواء أصحاب رؤوس الأموال وما يحسّون أن فيه مصالحهم هم أنفسهم من غير صالح المستهلكين؟ كل هذه ومئات من الأسئلة تثور حينما نعرض

للتفكير الاقتصادى وتراوحه بين الفردية والجماعية، بل لعل الإجابة عن هذه الأسئلة جميعا تشكل تاريخ الاقتصاد السياسى فى المائة والخمسين سنة الماضية.

فاذا نحن ركّزنا الفكر الآن على الناحية الاقتصادية بالذات من حيث الإنتاج والاستفادة منه تبينت لنا القضية التى ثار عليها الجدل فى السنوات المائة والخمسين التى ذكرت. فالاقتصاديون يحدّدون عوامل الثروة بأنها الأرض والعقار أولا، والعمل ثانيا، ورأس المال ثالثا، وإدارة رأس المال رابعا. ولم يكن الجدل الذى ثار بين الرأسمالية والاشتراكية إلا حول هذه العوامل الأربعة، هل تكون ملكيتها والإشراف عليها والتصرف فيها لفرد من الأفراد أو لطبقة من الطبقات أم تكون ملكيتها للشعب أو المجتمع نفسه؟ فهل كان حتما أن تختص فئة قليلة بخيرات الأرض والعقار أم ينبغى أن تعود هذه الخيرات لأعضاء المجتمع جميعا؟ ثم إذا كان العمل من بين العوامل الاساسية لإنتاج الثروة، فهل يكتفى بأن يتقاضى العمال أجورا ضئيلة يحدّدها صاحب العمل وتحدّدها حاجة العمال إلى إمساك الرمق، أم أن للعمال حقوقا أكثر بكثير جدا مما يقدر لهم من هذه الأجور الضئيلة؟ ثم أليس عمل هؤلاء العمال هو الذى ينتج ثروة تضاف لرأس المال ويسمونها القيمة الفائضة؟ ثم أليس الشطر الأكبر من رؤوس الأموال هو من هذه القيمة الفائضة؟ أفلا يكون رأس المال إذن فائضا لقيمة العمل الذى يقوم به العمال؟ فلِمَ يجب أن يتمتع برأس المال أفراد قلائل نسميهم أصحاب رؤوس الأموال أو أصحاب المصانع، مع أن جهد العامل سبب فى نمو رأس المال؟ وهل ينبغى أن توكل إدارة رؤوس الأموال وأعمال الصناعة والتجارة لأفراد من الرأسماليين أو من المديرين؟ أم تستطيع الدولة أن تستبدل بهؤلاء أفرادا آخرين يعملون باسمها، وتعود الأرباح أخيرا لا إلى جيوب أولئك ولا هؤلاء بل تعود إلى خزانة الدولة لصالح الجميع؟

هذا هو الجدل الأعظم الذى تناوله رجال الاقتصاد. وهذه هي الأسئلة

التي ترددت في كتاباتهم منذ أخريات القرن الثامن عشر إلى اليوم الذي نحن فيه فإذا أنت حاولت أن تدرس التحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية وجدت أن الأمر لا يعدو أن يكون تحولا من الفردية إلى الجماعية ، ووجدت أن سان سيمون وشارل فوريبه ولا سال وكارل ماركس وغيرهم من المفكرين الاشتراكيين لم ينتجوا ما أنتجوا إلا لأن تفكيرهم الاقتصادي كان يعتبر الجماعة أولا قبل الفرد . ولكن لقد بدأ الفلاسفة الأولون وهم يعتبرون أن هناك أسسا لا يمكن أن يتحولوا عنها ، وأنهم مهما فكروا أو كتبوا فلا بد أن يتبعوا أصولا خاصة لا يمكنهم أن ينحرفوا عنها . وكان من هذه الأصول مبدأ الملكية الشخصية ، وكان منها مبدأ الحرية ، وكان منها الإيمان بسمو الخلق الإنساني. ولأنهم داروا حول هذه الأصول فقد سموا «الأصوليين» أو «الراديكاليين» وقد فكر الراديكاليون هؤلاء ما فكروا وألّفوا ما ألّفوا ولكن في دائرة التفكير الفردي وهي دائرة لم يعدوها إلا قليلا .

* * *

وجيريمي بنتام (١٧٤٨ — ١٨٣٢) من أكبر الفلاسفة الذين تأثروا بهذا العامل الفردي ، وهو أيضا من أكبر المفكرين الذين أثّروا بدورهم في التفكير السياسي في إنجلترة وفي غيرها . وكان بنتام يؤمن أن السعادة هي الهدف الأسمى للجميع ، وأن الحرية ليست في نفسها هدفا ولكنها وسيلة إلى السعادة. وكل فرد يسعى لإسعاد نفسه ولكن الشرائع والقوانين توفق بين سعادة الفرد وسعادة المجموع ، والحافز الأول لكل سلوك إنساني في نظر بنتام إنما ينبع من « منفعة الفرد » وينبغي أن يكون هناك ارتباط بين منفعة الفرد ومنفعة الجماعة حتى تسري في المجتمع تلك السعادة المنشودة .

كان بنتام يرى أن الإنسان يسعى بطبيعته إلى اللذة ، ويتجنب بطبيعته الألم . ولكنه يتمتع بالعقل الراجح والذكاء الواعي الذي يمكنه من التفرقة بين ما هو صالح وما هو غير صالح . ونتيجة لهذه الرجاحة التي يتمتع بها الإنسان فان له حاسة خُلقية خاصة تصدّه عن الإضرار بالغير، كما تحضّه على

الأخذ بأسباب المتعــة لنفسه . وليس بين الموقفين تعارض عند بنتــام ، لأن الهدف النهائى للحياة إنما هو الخير العــام ، وليس الخير العام إلا متعة من متع الفرد ولذة من لذاته . ففى الخير العام والسعادة الوافرة أكبر لذة يجدها الفرد . فهى لا يجد تعارضا بين سعادة الفرد وسعادة الجماعة ، بل هو يجدهما كلا واحدا لا يكادان ينفصلان .

كان لآراء بنتام أكبر الأثر فى التفكير السياسى فى إنجلتره ، بل لقد كان له حتى فى حياته أكبر الأثر فى فرنسا نفسها . وقد بلغ بنتام مبلغا عاليا من التفكير الفلسفى حين فكر فى المستعمرات الجديثة، وحين نصح حكومة الثورة فى فرنسا أن تتخلى عن مستعمراتها لأن الحصول على مستعمرات كان لا يتفق فى نظره مع مبدأ المنفعة . وسنرى أن فلسفة بنتام لم تَعْدُ أن كانت مقدمة للعناصر الطيبة الخيّرة التى جاءت فى فلسفة آدم سمث وهو المفكر الرأسمالى الأول . كما كانت مقدمة لبعض العناصر الطيبة التى جاءت فى كتابات مؤرخين وفلاسفة آخرين كان منهم برنارد شو .

ويتعرض بنتــام لوظيفة الحكومة فى هذا التوازن السعيد ، فلا يراها إلا مصلحة ذات كفاية خاصة من مصالح الشرطة ، تؤيدها قوانين سنّها العقل الراجح، وسرت فيها العدالة السريعة الناجزة . وعلى ذلك فينبغى أن تكون قوانين الجنايات قوانين ديمقراطية بنّــاءة ولا ينبغى أن توضع للاضرار بقوم دون آخرين . بل لقد ذهب بنتام بعد كل ذلك إلى أن العالم سوف تسوده السعادة يوما ما حين يتساوى الأفراد جميعا فى الدخل ، وهذه جميعا أفــكار سنراها متبلورة فى المذاهب الاشتراكية وسوف تمضى فى طريق التطــوّر عند فلاسفة آخرين مثل ريكاردو ومالثوس وجــون ستيورت مل ، وبغير كل هؤلاء حتى نستقر عند الفابيين ـ ومنهم برنارد شو ـ وهنــا يستطيع هؤلاء أن يحيلوها إلى قوانين ونظــم ودساتير تجمــع بين العنصر الفردى والعنصر الجماعى .

* * *

ثم نريد أن نبسط الحديث بعض البسط فى آدم سمث لأنه من أكبر الفلاسفة، ولأنه يمثل القرن الثامن عشر بما خلفه من إيمان بالعقل الإنسانى والحرية الفردية، ولأنه كان يجمع بين إنسانيات القرن الثامن عشر واقتصاديات القرن التاسع عشر، ولأنه هو الفيلسوف الأول الذى خطّ للرأسمالية من الخطوط ما التزمته بعد ذلك حتى الساعة التى نكتب فيها. فقد كان آدم سمث مسئولا عن التخطيط النظرى والخلقى للنظام الرأسمالى، وكتابات آدم سمث هى التى أضفت على هذا النظام كثيرا من التفاؤل، وسوّغته للطبقات والأمم على الرغم من النقائص التى كانت تعتوره والبلايا التى جرّها على الجماهير.

وقد ولد آدم سمث فى سنة ١٧٢٣، وتوفى فى سنة ١٧٩٠، ودرس فى جامعة جلاسجو ثم انتقل إلى أكسفورد، وحاضر فى المذاهب الإنسانية والخلقية، وزار باريس والتقى بفولتير، واختلط بالطبيعيين، وهم فريق من العلماء الفرنسيين آمنوا بأن الأرض هى مصدر الثروة، وكان لآرائهم هذه أثر كبير فى الثقافة الفكرية التى صاحبت الثورة الفرنسية الكبرى. وكتب كتابه «بحث عن ثروة الأمم» فى سنة ١٧٧٦، وأصبح الكتاب مرجعا يهتدى به الاقتصاديون فى القرن التاسع عشر. ولعله كان يصف ما ينبغى أن تكون عليه الرأسمالية فى أحسن أحوالها كما كان يبصّر قرّاءه فيما يكمن فى طريق الرأسمالية من مواطن الزلل والضعف، وهو بعد ذلك مثل من أمثلة التفاؤل الذى كان يذهب إليه فلاسفة الاجتماع فى القرن الثامن عشر.

كانت الأرض عند آدم سمث، كما كانت عند علماء الفيزيوقراط الفرنسيين مصدر الثروة. وكان آدم سمث يحسّ كما أحس الفيزيوقراط من قبل أن إنتاج الأرض فى زمانهم كان قاصرا، وأن كنوزها وذخائرها مازالت كمينة فيها لم تستثمر بعد. لذلك دعا لمعالجة هذا النقص إلى الزيادة فى استغلال الأرض وإلى التفنّن فى استخلاص مواردها بأى سبيل. وكان يرى أنه لا بد من تقسيم العمل بين الأفراد حتى يتم استغلال الأرض استغلالا تاما، بل كان يرى أن يقسّم العمل بين أمم الأرض: فتختص كل أمة فى فرع من فروع

الإنتاج وتتفنن فى ناحية من النواحى. ولكن إذا تمكّن فرد من الأفراد أن يستغل مصادر الثروة فى الأرض فالى من تئول مثل هذه الثروة ؟ هل كان الفرد حرا فيما يصيبه؟ أم هل يترك الأمر لكل فرد يستثمر ما يستثمر وليجمع ما يجمع من المال؟ ثم هل كان لكل أمة أن تختص نفسها بما استثمرت من ذخائر الأرض وكنوزها ؟ أم كانت تقسّم هـذه جميعا على أمم الأرض جميعا، ولا حاجة بعد ذلك للرسوم الجمركية التى أقيمت كالسدود بين الأمم ؟

لقد أجاب آدم سمث على كل ذلك بلهجـة التفاؤل التى امتاز بها فلاسفـة القرن الثامن عشر . لقد كان مؤمنا بالإنسان ، كان يرى أن للانسان عقلا يميّزه عن سائر المخلوقات، وأن عقله سيدفعه إلى الصواب فيما يأخذه وما يدعه من أمور الاقتصاد .

يقول آدم سمث : « إن الإنسان بطبيعته مخلوق اقتصـادى . فاذا ترك وشأنه فسوف يستخدم عمله وقدرته بطريقة يضاعف بها رأس ماله وصالحـه الخاص إلى أقصى حد» لكنه يقول فى موضع آخر« إن الفرد يمضى فى عمله لمكسبه الخـاص، ولكن هناك يداً خفية معينة ، هناك قانون طبيعى يشير إلى الصالح العام حتى ولو كان الأفـــراد يحسبون أنهم إنما يعملون لصالحهم هم أنفسهم » وأنت ترى أنه فى الوقت الذى كان آدم سمث يبـّين حق الفرد ، ويوضّـح أن كل فرد يسعى لمصلحته الخاصة ، فقد كان ينسب للانسان هذا الرشاد أو ذلك العقل الذى يمنعه من الشراهة فى جمع المال . وكان يزعم هذا الفيلسوف المتفائل أن الأمر جميعه سوف ينتهى إلى توازن فى المجتمع لصالح الجميع . كانت هذه هى اليد الخفية التى أشار إليها آدم سمث والتى كانت عنده تدفع الأفراد وتمشى فى الأسواق حتى لا يكون بين الناس جشع ولا جور ولا تطفيف . ! !

ومادام الإنسان خـيّرا بطبيعته ومادامت الحياة الطبيعية أدنى إلى الاتزان فى ميدان الاقتصاد ، ومادامت هناك تلك العلاقة الوثيقة بين الخلق وكسب المال فقـد أورد آدم سمث مبدأ اجتماعيا وخلقيا هاما وطبّـقه فى ميدان المال.

وذلك هو مبدأ حرية العمل الصناعي والتجاري (١) . وكان المقتضى الأول لهذا المبدأ هو ألا تتدخل الدولة ولا الحكومة في عمل الأفراد سواء من الناحية الصناعية أم من الناحية التجارية . وفي ذلك يقول آدم سمث « إن النظام الاقتصادي يعمل على حسب قوانين طبيعية، كما تعمل قوانين التكوين الفيزيائي نفسه ، وعلى الإنسان أن يكشف هذه القوانين ويطلق لها العنان . وأي تدخل من جانب الحكومة أو أي احتكار يفسد هذه القوانين كما تفسد الآلة سواء من الناحية الصناعية أم من الناحية التجارية إذا أنت أدخلت فيها حفنة من الرمال » .
وقد ظل هذا المبدأ ساريا طول القرن التاسع عشر وهو لا يزال مختلفا عليه بين الاقتصاديين المحدثين حتى هذا العصر الذي نعيش فيه. وفي ظلال هذا المبدأ تطورت الرأسمالية الفردية تطورا بلغ الذروة من الإنتاج في بعض النواحي ، والثراء عند بعض الأفراد، والرخاء عند بعض الأمم لكنه لم يبلغ الذروة في كل النواحي، لا الذروة في الثراء عند كل الأفراد ، ولا الذروة في الرخاء عند جميع الأمم . ذلك لأن الاتجاه الخلقي لم يكن كما قدّر آدم سمث ولا اليد الخفية التي أشار إليها استطاعت أن تحدث هذا التوازن المنشود الذي قدّر أن سيكون مآل الاقتصاد الرأسمالي .

* * *

وكان مبدأ العرض والطلب من بين القوانين الطبيعية التي كادت تماثل القوانين الفيزيائية عند آدم سمث . وهذه اليد الخفية التي تحدث عنها كانت هي التي تعمل في الأسواق لتحد من جشع المنتجين وتحمي طبقة العمال والمستهلكين. كان يرى آدم سمث أن هنالك نظاما رتيبا للأسعار ينظم نفسه بنفسه : هو نظام العرض والطلب. فاذا قام منتج من المنتجين بصناعة سلع تباع في الأسواق فيقبل الناس على هذه السلع ، لكن منافسين آخرين سينتجون مثل هذه السلع، وإذ تكثر هذه السلع من الناحيتين يكثر العرض فتنخفض الأسعار انخفاضا يكاد يكون طبيعيا . وعلى هذا الأساس رأى آدم سمث أن العرض والطلب

---

(١) Laissez faire laissez passer

رهين بهذه المنافسة الشديدة التي سوف تحدث بين المنتجين بعضهم البعض ، بل هذه المنافسة الشديدة التي تنبع من الخلق الفردى الحر هى أساس قويم من أسس الرأسمالية الفردية ، بل يقول آدم سمث فى بعض حديثه أنها هى العلاقة الطبيعية بين الرجال ، ويصفها بأنها الشرطى الآلى الذى يحافظ على النظام فى الأسواق .

ولم يكن آدم سمث غافلا عما قد يطغى على السوق من الاحتكار ، بل كان يؤكد أن الاحتكار ليس إلا الشرير الأول فى هذه المسرحية الاقتصادية ، وأنه إذا اتفقت مجموعات من المنتجين على أن يختزنوا السلع أو يطرحوها فى السوق حسب مايتوقعون من كسب فان هذا سوف يرتفع بالأسعار ارتفاعا يبهظ المستهلكين. ولعله لم يكن يدري وهو يكتب فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر أن الاحتكار سيكون سمة من سمات هذه الرأسمالية ، وأن شرير هذه المسرحية سوف يمضى على مسرحها فى غفلة عن عين الرقيب الأول الذى سماه رجل الشرطة فى السوق وهو التنافس المحمود .

* * *

وعلى هدى من كل هذه المبادىء والآراء خرجت النظريات الأولى للرأسمالية الفردية ، وهى نظريات متخذة من الواقع ، وكانت فى نفس الوقت تبرر هذا الواقع وتسوغ العمليات الاقتصادية الضخمة التي قامت فى الغرب وامتدت إلى البلاد غير النامية التي كانوا يسمونها مستعمرات . فلنشهد إذن هذا المعرض من معارض الفكر الاقتصادى كما نظر إليه برنارد شو ، ولنفحص كل تطور لهذه النظريات الرأسمالية التي قامت أول ماقامت على الحرية والخلق واحترام الملكية والتفاؤل بالخير العام .

* * *

كان توماس روبرت مالثوس (١٧٦٦-١٨٣٤) هو الآخر أحد هؤلاء الفلاسفة الراديكاليين الذين اتجهوا إلى إرسال النظريات بحسب اتجاههم الفردى . وقد خرج مالثوس ـ وهو قسيس ـ يبحث عن العلاقة بين تضاعف

عدد السكان وتزايد الإنتاج فى سنة ١٧٩٨ وأتبعه ببحث آخر فى سنة ١٨٠٣. وملاك البحث عند مالثوس أنه إذا كانت الأرض هى مصدر الإنتاج فان هذا المصدر لا يزداد سنة بعد أخرى إلا بقدر معلوم فى متوالية عددية محدودة ، أما السكان فانهم يتضاعفون كل عشرين سنة فى متوالية هندسية لانهاية لها كما أثبتت ذلك أبحاثه فى الروسيا والسويد وألمانيا . ومعنى ذلك أنه فى خلال مائة سنة لن تزيد رقعة الأرض إلا قليلا فى حين أن السكان يتضاعفون ٣٢ ضعفا ، وفى خلال المائة سنة التالية سيزداد عدد السكان ١٠٠٤ ضعفا ، أما فى خلال المائة سنة التالية فانهم سيزدادون ٣٢٧٦٨ ضعفا . وهنا أرسل مالثوس نظريته عن أن هذا التفاوت بين نسبة زيادة الإنتاج ونسبة تضاعف السكان لا بد أن يكون مآله إلى الجوع والقحط والموت وغير هذه من ألوان البؤس والشقاء حتى لقد سمى مالثوس بين الفلاسفة صاحب « فقر الأمم » كما كان آدم سمث صاحب « ثروة الأمم » .

وكان فى رأى مالثوس أن هذه الفجوة المروعة بين القصور عن زيادة الإنتاج وتضاعف عدد السكان لا يمكن التغلب عليها بانتظار الحرب ولا بالوباء ولا بالاعتماد على الجوع والفناء ، بل ينبغى التغلب عليها بزيادة إنتاج الأرض إلى أقصى حد ، ثم بعوامل خلقية وعرة ينبغى أن يتمسك بها الأفراد فى سلوكهم . وقد بشّر ، وهو قسيس كما أسلفنا ، بضبط النفس وحضّ الناس — وبخاصة الفقراء — على الامتناع عن الزواج . فهذه كلها صفات خلقية فردية كانت تحدّ من النسل ، وتقلل من تضاعف عدد السكان الذى أقضّ مضجع مالثوس ورجال السياسة الاقتصادية بعده .

* * *

وكان لديفيد ريكاردو (١٧٧٢ — ١٨٢٣) وهو أحد هؤلاء الفلاسفة رأى فى الاقتصاد تأثّر به كارل ماركس وتأثّر به برنارد شو أشد التأثر . ذلك هو مبدأ القيمة الإيجارية الفائضة فانك — فى رأيه — إذا اشتريت أرضا برأس مالك الخاص فانك وأولادك وأولاد أولادك ستستفيدون من هذه

الأرض أضعافا مضاعفة للحد الأقصى المفروض لهـذه الاستفادة . فاذا أنت دفعت مائة جنيه لرقعة الأرض هذه وتسلمت منها أنت وأولادك وأحفادك إيجارا على مدى مائة عام مقداره خمسون جنيهـا فى السنة فتكون قد تسلمت خمسة آلاف جنيه فى حين أنه كان مفروضا أن تتسلم منها أنت ذريتك خمسمائة فقط . أى أن فى هذه الصفقة إيجارا فائضا مقداره أربعة آلاف وخمسمائة جنيه. وقد تلقى كارل ماركس هذه النظرية فأحالها إلى نظرية عامة عن فائض القيمة فى العمل ، وتأثر بها برنارد شو وكانت محورا لتفكيره حين كان ينقد نظرية رأس المال .

* * *

وكان جيمس مل (١٧٧٣ - ١٨٣٦) من أولئك الفلاسفة الذين أيـدوا بنتام فى كل ماذهب إليه . كان يؤمن هو الآخر بالفرد وكان يرى أن الفرد نفسـه هو منبع الثروة الطبيعى وعلى الفرد بعد ذلك أن يسعى لإسعـاد نفسه وسوف يسعد الناس جميعا بعد ذلك .

ويبرز اسم روبرت أوين (١٧٧١ - ١٨٥٨) بين هؤلاء الفلاسفة لا لأنه صاحب نظرية خاصة فقط ، بل لأنه كان إلى جانب ذلك رجـل أعمـال ، وكان عمليا فى اتجاهاته . فلم يقتصر أمره على أنه كتب أو خطب أو ألـَّف بل لقد قام بتجربة توائم بين العنصر الفردى والعنصر الاشتراكى . وكان فى تجربته هذه يهدف إلى تحسين الإنتـاج عن طريق تحسين الظروف التى كان يعيش فيها العامل . وعلى الرغم من أن تجربته لم تلق النجاح الكامل إلا أنها خلفت أثراً كبيراً فى محيط الاقتصاد الإنجليزى وكان لها أعمق الوقـع عند الاشتراكيين الذين قاموا فى النصف الثانى من القرن التـاسع عشر . بل لقـد كانت مرجعا يرجع إليه الكتاب والفلاسـفة والمفكرون من أمثال أولئـك الذين التحقوا بالجمعية الفابيـة فى أخريات القرن . ويكفى روبرت أوين أن كان أول من ذكر كلمة اشتراكية(١) فى سنة ١٨٢٧ ، وأول من أوَّل حقوق

(١) Socialism

الفرد وحريته على أنها حقوق العامل وحريته وكسبه وكرامته وتربيته.

كان روبرت أوين كما كان غيره من الفلاسفة الراديكاليين الذين أسلفنا ذكرهم من الطبقة الوسطى. ورث عن أبيه مصنعا كبيرا فى بلدة لانارك. وكان يؤمن كغيره من الفلاسفة الراديكاليين أيضا بمركز الفرد. لكن عبقرية روبرت أوين تمثّلت فى أنه فكر فى العامل كفرد له حقوق، وحاول أن يجمع بين الفضيلة والعمل. لذلك كان أول صاحب مصنع يعنى بالعامل صحياً وخلقياً وتربوياً. فقد قاوم السرقة وشرب الخمر بين العمال، فحرم المخمورين من العمل، وشجع المجدين، وحض العمال على أن يلتزموا أصول النظافة فى ملبسهم ومسكنهم، وبذل لهم المال فى سبيل ذلك. وقلّل ساعات العمل ورفع أجور العمال، وامتنع عن أن يستخدم الأطفال دون سن العاشرة، وأنشأ مدرسة إلى جانب مصنعه يتعلم فيها صغار العمال، وأقام لهم حفلات ترفّه عنهم. ولكل ذلك أصبحت لانارك جنة للعامل، يحج إليها الزوار من كل حدب حتى لقد بلغ عدد هؤلاء عشرين الفا فى العشر السنوات الأولى. وعلى الرغم من أن روبرت أوين كان ناقص الخبرة من الناحية الإدارية، إلا ان تجربته كانت هى التى لفتت أهل الفكر الاشتراكى فيما بعد إلى أن للعامل الفرد حقوقا مثل ما لأفراد الطبقة الوسطى، وأن النظام الرأسمالى لا بد أن يتطور إلى ناحية نظام عام يعترف بحقوق الفرد قبل كل شىء، ومنها حقوق العامل.

وفى سنة ١٨١٤ أخرج روبرت أوين كتابا اسمه «نظرة جديدة إلى المجتمع» (١) تحدث فيه عن هذا الذى كان يحاوله فى لانارك، من رفع مستوى العامل. وما أقبلت سنة ١٨١٥ حتى كان قد قدّم مشروع قانون للبرلمان الإنجليزى للحدّ من ساعات العمل وبخاصة فيما يتصل باستخدام الأطفال. فهو قد كان لا يجد سبيلا إلا سلكه فى سبيل نشر مبادئه وتطبيقها. وقد كان أول مفكر أوضح أن العمل هو وحده مصدر الثروة الطبيعي وأن للعامل

(١) " A New View of Society "

حقوقا يجب أن تصان له ، وأن التربية وحدها هى الكفيلة بأن تصلح من شأن هذا العامل وأن تهذّب من طباعه حتى لا تكون بعد ذلك حروب ولا جرائم ولا سجون .

وانتكست حال روبرت أوين فى إنجلتره لسوء الإدارة فرحل إلى أمريكا وقضى بها أربع سنين من ١٨٢٤ إلى ١٨٢٨، وأقام فى بلدة اسمها نيوهيفن تجربة أخرى تشبه تجربة نيو لانارك . وحاول فى هذه المرة أيضا أن يثبت حقوق العمال ، وذهب فى ذلك إلى أنه من حق العمال أن يؤلفوا فيما بينهم اتحادا . لكنه انتكس فى هذه المرة لا لسوء الإدارة ولكن لأن البيئة التى أحاطت به أشاعت أنه ملحد إباحى ، وأنه يحضّ العمال على اتخاذ الأخدان والخليلات وينتقص من قيمة الزواج ـ وبذلك انتهت تجربته الثانيـة كما انتهت تجربته الأولى . لكنه كان صاحب فضل فى هـذه المرة أيضا لأنه كان أول من أشار إلى تأليف اتحاد للعمال يدافع عن حقوقهم ويطامن من الجور والإجحاف الذى كانوا يعيشون فى جحيمه . وهكذا نرى أن روبرت أوين كان يفكر فى الفرد العامل لكنه انتهى إلى التفكير فى العمال وتلك أولى مراحل الاشتراكية.

لقد كانت جهود روبرت أوين فريدة فى بابها ، غريبة عن الوسط الذى نشأت فيه . ولعلها فشلت من أجل ذلك . لكنه خلف آثارا عميقة فى التفكير الاقتصادى والسياسى فى إنجلتره ، كما أن جهوده من ناحيـة إنشاء « اتحاد العمال » وإشاعة التعاون بينهم فشلت فى سنة ١٨٤٠، لكنها عادت بعد موته فى سنة ١٨٨٥ وكان لها اكبر الأثر فى حياة إنجلتره السياسية والاقتصادية .

* * *

ويقف جون ستيوارت مل (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣) فى مكان وسـط بين هؤلاء الفلاسفة الراديكاليين وبين المفكرين الاشتراكيـين الذين ظهروا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . كان جون ستيوارت مل يتفجّر منذ الطفولة عن ذكاء ، وكان أبوه جيمس مل قـد عنى بتربيته السياسية عناية دقيقة فائقة وأقرأه اللاتينية وهو فى السابعة ، وعلمه العلوم الكلاسيكية جميعا

ولما يبلغ الرابعة عشر – حتى لقد قيل أن الفتى لم يجد شيئا يتعلمه بعد ذلك .
وكان جون ستيوارت مل هو الصلة بين هذه النزعة الفردية التي تحدثنا عنها والاتجاه الاشتراكي الذي سنتحدث عنه فيما بعد . وكان له أكبر الأثر في تشكيل الجمعية الفابية، كما كان عاملا في تكوين التفكير السياسي والاقتصادي عند برنارد شو .

كتب مل في حياته كتبا أهمها في هذا المجال: كتاب «الاقتصاد السياسي» وكتاب « الحكومة النيابية » وكتاب « خضوع النساء »، وهي جميعا تهتدي بما سلف لنا ذكره من الناحية النفعية التي أصّلها جيريمي بنتام في مطلع القرن التاسع عشر ، وما ثبّته جيمس مل من حقوق الفرد . وكلها تدافع عن حرية الفرد ، وعن حقه الانتخابي ، وكلها تمتلىء بهذا التفاؤل الذي شاع في كتابات من قبله من الفلاسفة الراديكاليين ، ولكن شيئا واحدا اختلف فيه جون ستيورت مل عن سائر هؤلاء الفلاسفة هو أنه نظر إلى الجماعة بوجه عام ، ووجد في القوانين والشرائع مايحدّ من حرية الفرد فآلى على نفسه أن يعمل مصالحة بين صالح الفرد وصالح الجماعة . ثم إنه لم يجد – وبخاصة في أخريات أيامه – بدّا من أن تتدخل الدولة في اقتصاديات البلاد ، وأن تقوم الحكومة بقسط كبير من الخدمات العامة ، ثم أن يسمى نفسه اشتراكيا لأنه كان يرى أن للجماعة حقوقا ينبغي أن يقوم بها كل فرد من الأفراد .

ظل اتجاه مل العقلي فرديا طول حياته لكن آراءه تطورت تطورا اشتراكيا . فقد كان يؤمن باطلاق العنان للعمل الحر ويعتقد أن التنافس حافز شريف من حوافز العمل لكنه وضع قيودا تحدّ من التنافس وتجنب الاحتكار وتقلل من شأنه كحافز من حوافز العمل . ووضع تشريعا يحدد ساعات العمل ويلزم أصحاب المصانع أن يبذلوا جهدا لتحسين حال العمال في المصانع وفي خارجها ، لكنه في نفس الوقت كان يقوى اتحاد العمال حتى يقوم حارسا على الحقوق التي حصل عليها العمال ، وكان يرى أن وجود روح الجماعة بين العمال كفيل بأن يزيل التنافس البغيض بين العمال على الأجور ، ويحفظ مستواها .

وكان يدعو إلى تأميم القنوات والسكك الحديدية ، بل كان يدعو إلى تأميم الأرض التى لم يكسبها أصحابها نتيجة لجهودهم الخاصة، ثم يدعو فى نفس الوقت إلى فرض ضرائب تصاعدية على الدخول الموروثة . وكان يدعو إلى التعاون ويعتقد أن التعاون هو الحل الأوفى لهذه المحنة التى وقع فيها الاقتصاد الإنجليزى فى منتصف القرن التاسع عشر، لكنه كان يرى أنه إذا التحق فرد بجماعة تعاونية فلا ينبغى أن تضيع فرديته ولا أن يتنازل عن حقوقه ومنها حق الاستقالة . وهو يرى أنه ينبغى أن تتجه السياسة فى إنجلترة إلى خلق حكومة تعاونية ضخمة، وأن هذا للأسف لن يمكّن الفرد من مزاولة حقوقه كاملة، لكنه فى نفس الوقت يرى أن التاريخ يتجه إلى أن الخلق لازمة من لوازم التطور الحديث ، وأن على الخلق سوف تبنى هذه المصالحة بين الفرد والمجموع . وهو يتحدث عن نفسه فى تاريخ حياته فيسمى نفسه اشتراكيا لأنه كان قد درس كل كلمة عن الاشتراكية ، لكنه كان يتطلع إلى اليوم الذى تطبّق فيه الأصول الاشتراكية فى ظل الديمقراطية السياسية وبالوسائل الدستورية ، وكان يحلو له دائما أن يردد كلمتى « الديمقراطية الاشتراكية » . فجون ستيورت مل من كل وجه كان شخصية وصلت مبادىء الفلاسفة الراديكاليين بالمبادىء الاشتراكية كما استقبلتها إنجلترة . وقد كان له أكبر الأثر فى الانتقال من الرأسمالية الفردية فى أول القرن إلى الديمقراطية الاشتراكية فى آخره .

* * *

ونظرة عجلى على هذه الآراء جميعا توضّح لنا أن أصحابها إنما أرادوا حل مشكلات الثروة والقحط التى جبهتهم . وليس من شك أنه كان لجهودهم على الرغم من طبيعتها الفردية أكبر الأثر لا فى التفكير السياسى والاقتصادى فحسب ، بل لقد كان لها أكبر الأثر فى تعديل القوانين أيضا . فقد تحوّلت إنجلترة من مجتمع إقطاعى فى أول القرن التاسع عشر إلى مجتمع ديمقراطى اشتراكى فى أخريات القرن بفضل نظريات هؤلاء ، ثم بفضل جهود الاشتراكيين ـ وقد أفادوا منهم ـ ولم تكن النظم الإنجليزية الحديثة عند بعض

الكتاب أفكارا خيالية يفكر فيها مثل أولئك الفلاسفة بل لقد كانت محاولات لحل مشكلات الانقلاب الصناعي في إنجلتره في حدود الديمقراطية الإنجليزية.

والحق أن طابع الحياة السياسية والاقتصادية في إنجلتره كان يأبى التمسك بالنظريات، بل كان يهبط دائما إلى الحلول العملية القانونية حتى قبل وفود الاشتراكية. وهذه المبادىء التي أسلفنا عليك هي التي تحكمت في إنجلتره لأكثر من قرنين من الزمان. وكانت نتائجها ظاهرة في الإصلاحات السياسية والقانونية التي تدرج بها المجتمع الإنجليزي في القرن التاسع عشر.

وبدأت أولى هذه الخطوات بالتوسع في حق الانتخاب، ثم بإقامة اتحادات العمال، ثم بتعميم التعليم، ثم بالمطالبة بحقوق العامل في الإنتاج، ثم بالمطالبة بحقوقه في أن يعيش على مستوى خاص من الحياة الكريمة. فلاشك أن كل ذلك قد نتج عن كثير من آراء هؤلاء الفلاسفة، ولاشك أن الحركة الراديكالية كانت أساسا للتفكير الاشتراكي في إنجلتره في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فان حركة المساواة في الديمقراطية الفردية التي نادى بها الفلاسفة الراديكاليون أدت إلى الديمقراطية الاشتراكية التي تحولت إليها النظم الاقتصادية في إنجلتره خلال القرن الماضي.

كان في مذهب بنتام وأتباعه وبخاصة جون ستيورت مل ما مهد الطريق للتفكير الاشتراكي. فقد علمت أن هؤلاء كانوا يعتقدون أن الإنسان خير طيب بطبيعته، لكن الظروف والقوانين هي التي تحيله إلى مخلوق شرير. وكان هؤلاء المفكرون يجاهدون في أن يغيروا من أحوال الإنسان حتى يستقيم هو نفسه. لذلك كان التفكير السياسي في انجلتره ومن القرن التاسع عشر يرمي دائما إلى تغيير القوانين، وقد رأيت كيف تدرجت بعض هذه القوانين في حياة إنجلتره. ولم يكن هذا في الواقع إلا تمهيدا للغمرة الاشتراكية التي حاولت أن تغير من أحوال الناس من الأساس. ثم إنه لاشك أن جهود المفكرين الراديكاليين هي التي طوعت للفابيين أن ينشأوا وأن يجنبوا إنجلتره ويلات الشيوعية، لأن الشيوعية حين قامت لم تجد أرضا خصبة

فى النظم السياسية والاقتصادية التى كانت قد بلغت مبلغا كبير من الإصلاح .

* * *

رأيت كيف ظلت هذه الأفكار تسيطر على الحياة الاقتصادية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وكيف أنها أرادت أن تحول فى كتابات رجل مثل جون ستيورت مل . والحق أنه حدث انقلاب فكرى ضخم فى منتصف القرن هو الانتقال من التفكير الفردى إلى التفكير الجماعى . إنه الانتقال الذى يتمثل فى الحركات الاشتراكية التى قامت فى فرنسا والمانيا ونادى بها ودعا إليها مفكرون مثل لاسال وسان سيمون ومؤداها أن يكون صالح الجماعة مفضّلا على صالح الفرد : أو أن يبدأ باصلاح الجماعة اولا وسينصلح حال الفرد تبعا لذلك .

وقد ننساق إلى بحث بعيد إذا نحن حاولنا أن نتتبع نشأة الاشتراكية فى فرنسا وألمانيا ، ولكن حسبنا أن نوجز قليلا من المبادىء التى أتى بها ممثل الاشتراكية الأول وهو « كارل ماركس » ، ذلك لأنه كما أسلفنا فى بعض فصول هذا الكتاب كان له أكبر الأثر فى آراء برنارد شو . وسنرى أن كثيرا من آراء برنارد شو نبعت أول مانبعت من قراءته كارل ماركس . ثم أن كارل ماركس — فى نظر الاقتصاديين — أول من فصّل الاشتراكية تفصيلا علميا ، وأول من أشار بمبالغاته وغلوائه الحركات الاشتراكية التى فاضت على غرب أوروبا. ثم إنه هو المنبع الذى استقى منه لينين مبادئه الشيوعية، فهو جدير بالدراسة حتى ندرك تطور برنارد شو الفكرى وتأرجحه بين الفردية والجماعية من جانب ، وبين الديمقراطية والاشتراكية من جانب آخر ، وبين حكومة الفرد المطلق وحكومة الشعب من جانب ثالث . فى كل ذلك سنرى أن برنارد شو لم يكن إلا مفكرا محترفا كما أسلفنا ينقد كل أصل بأصول مضادة ، ولا يتورع فى أحوال كثيرة عن المبالغة والإغراق وإيراد أنصاف الحقائق .

* * *

لقد أسلفنا فى فصل سابق حينما تحدثنا عن برنارد شو المفكر المحترف فقلنا كيف تأثرا بالمنطق الديالكتيكى أو منطق النقائض ، وأنه أخذه عن كارل ماركس ، وأن كارل ماركس نفسه كان متأثرا فى ذلك أشد التأثر بفيلسوف ألمانى آخر هو فريدريك هيجل . وهنا ينبغى أن نبسط الكلام بعض البسط فى اتجاهات كارل ماركس المادية ، فان كارل ماركس قد استخدم المنطق الجدلي الذى ورثه عن فريدريك هيجل فى إثبات نظرية كفاح الطبقات من أجل المادة ، وقد أثّر هذا فى برنارد شو كل التأثير.

كان فريدريك هيجل يرى أن الحياة ترتكز على بضعة من المعنويات أو المثل العليا ، يتميز بعضها عن البعض لأنها تتناقض وتتعارض ، بل هى لا تكاد تحيا إلا إذا تناقضت وتعارضت . فتقدم الإنسانية رهين بقوة التناقض التى تنشأ من اختلاف المثل العليا أو قل من اختلاف هذه المعنويات . ونشأ كارل ماركس كما أسلفنا على هذا المذهب الجدلى ، وآمن بقوة التناقض هذه التى ذهب إليها هيجل وفلاسفة آخرون من قبله، لكنه أنكر أن يكون للمثل الأعلى هذا الوزن فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، بل ذهب إلى أن حياة الإنسان ترتكز على أحواله المادية قبل كل شىء ، وأن هذه العوامل المادية هى التى تخلق عند الإنسان الفكرة أو المعنى أو المثل الأعلى ، وأن الناس لا يعتنقون الفكرة ولا المعنى ولا المثل الأعلى إلا إذا تهيأت لهم ظروفهم المادية .

وهكذا استطاع كارل ماركس أن يفسّر التاريخ وأن يفسر الحضارة الانسانية بأجمعها تفسيراً ماديا على أساس النقائض . ويعرف مذهبه فى تاريخ الفلسفة باسم المادية الديالكتيكية . وعنده أن الإنسان تاريخه وحضارته هو ما يأكل وما يشرب . وما يمارس من عمل وما يسكن فيه من منزل . وليست الفكرة هى التى تسيطر على معيشة الإنسان ، بل إن معيشة الإنسان هى التى تسيطر على الفكرة : فلاجدوى للدعوة للحرية إذا لم تكن البيئة الاقتصادية قد تهيأت لتقبل هذه الفكرة . وغذاء الجماعة وكساؤهم وتجارة الناس وزراعتهم، وتوزيع الثروة بينهم سواء أكان توزيعا عادلا أم غير عادل . كل هذا مما

يؤثر فى حياة الجماعة الفكرية والسياسية . وليس التاريخ ولا الحضارة إلا سلسلة لتقلّب هذه الظروف من عصر إلىعصر ومن مكان إلى مكان.

وكل عصر من عصور التاريخ — عند كارل ماركس — يمتاز بحياة اقتصادية خاصة ، وهو فى نفس الوقت يحمل فى أطوائه نقيضا لهذه الحياة الاقتصادية . ويكافح رجال من الجانبين ،وينتهى الكفاح بينهاإلى حل وسط يؤلف بينها . فكانت فى عهد الإقطاع ظروف اقتصادية معينة ، وكان فى عهد الإقطاع فى نفس الوقت عناصرالرأسمالية التى كان يمثلها أفراد الطبقةالوسطى وكان لابد أن يقع كفاح بين أصحاب الإقطاعات القدامى وأفراد الطبقة الوسطى المحدثين . وخرجت من هذا الكفاح النظم الرأسمالية التى صاحبت نشأة الديمقراطية السياسية . على أن هذه الرأسمالية الحديثة مازالت تحمل فى أطوائها عناصر الاشتراكية . وحدث كفاح بين الجانب الرأسمالى والجانب الاشتراكى . وهكذا يرى كارل ماركس أن التاريخ ليس إلا حلقات من الكفاح بين عناصر اقتصادية خاصه متضادة .

كان كارل ماركس يرى أن الطبقة الوسطى قد خرجت من العصور الوسطى وهى ذليلة مهيضة الجناح . لكنها مازالت تكافح فى سبيل الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية حتى اتحدت مع طبقة الإقطاع وتغلبت الطبقتان معا على الطبقة العاملة . وما أن استولت الطبقة الوسطى على المال حتى انقادت لها السلطة ، واستغلت كل ظروفها فاستبدت بطبقة المنتجين . وقد بقى على طبقه المنتجين فى كل أنحاء العالم أن تقوم بثورة ضد هذه الطبقة الوسطى فهى ماتزال تتشبث بالمال والسلطة ، وتستعبد العمال لمآربها الخاصة، فاذا مضت فترة هذه الثورة فسيخرج الناس على عصر من السلام فى عالم لاطبقات فيه .

* * *

لقد استطاعت الطبقة الوسطىأن تستولى على مصادر الثروة فى كل بلد من بلاد غرب أوروبا . واستطاعت أيضا أن تتحكم فى توزيع هذه الثروة ، ثم في نقلِ البضائع من مكانٍ إلى مكانٍ . وفي نظرة عامة إلى المجتمع يرى كارل

ماركس أنه لا بد للطبقة الكادحة أن تقوم بثورة مسلحة ضد الطبقة الوسطى حتى تعيد مصادر الثروة والتحكم فى نقلها إلى الجماعة نفسها . وهنا يبدو ذلك العنصر الجماعى الذى يختلف اختلافا بيّنا عن العنصر الفردى الذى بدأنا به هذا الحديث . وفى سنة ١٨٤٨ يظهر البيان الشيوعى الذى يعلن فيه كارل ماركس الثورة على أهل هذه الطبقة الوسطى . والبيان الشيوعى مكون من أربعة إجزاء : أولها يتناول نشأة الطبقة الوسطى وما أنجزته وما لم تتمكن من إنجازه ، والثانى يعالج الكفاح الذى يجب أن تقوم به الطبقة الكادحة من الوجهة النظرية ، وثالث أجزاء البيان الشيوعى هو شرح واف لهذا الكفاح من الوجهة العملية . أما الجزء الرابع فهو نقد لبعض مدارس الفكر الاشتراكى التى قامت فى غرب أوروبا . فالبيان الشيوعى خلاصة للاشتراكية فى منتصف القرن التاسع عشر ، وهو إعلان لثورة الطبقة الكادحة على الطبقة الوسطى . وكان له أكبر الأثر فى الفكر الاشتراكى ، كما أنه كان مقدمة لكتاب « رأس المال » الذى ظهر فى سنة ١٨٦٩ .

ولكن ماهو الأساس الاقتصادى الذى بنى عليه كارل ماركس هذه الثورة التى أراد الطبقة العاملة أن تشعل نارها ضد أصحاب الإقطاع وأصحاب المصانع وملاك الأرض. إن أساسه الاقتصادى فى هذا الموضوع هو ماسمّاه « فائض القيمة » . إنه يرى أن الأصل الجوهرى فى الرأسمالية هو مبدأ الملكية وأن ملكية وسائل الإنتاج جميعا قد آلت لهذه الطبقة الوسطى . وهم كما قدمنا طبقة قليلة العدد تحاول أن تستكثر من الثروة بما يؤول إليها من دخل وإيجار وفوائد وأرباح ، أما طبقة البروليتاريا ، وهى طبقة العمال الكادحين فانها لا تكاد تصيب ما يمسك رمقها إلا بالعمل المتصل. لقد نشأ ذلك فى نظر كارل ماركس من أن القيمة الحقيقية للسلعة التى ينتجها مصنع من المصانع إنما هى بمقدار العمل الذى بذل فيها . ولكن صاحب رأس المال الذى تخرج هذه السلعة من مصنعه هو الذى يصيب أكثر الربح ، أما العامل الذى أنتجها فهو لا يحصل على نصيبه كاملا . إنه لا يصيب منها إلا أقل من القليل

بل لا يصيب منها إلا ما يحفظ عليه حياته، وصاحب رأس المال لا يحصل على قيمة الأجور فقط ولا على كفاءة نظير إلا دارة فقط ، إنما يحصل كذلك على مبلغ فائض يجنيه فى صورة أرباح وفوائد وأجور وامتيازات . وإذن فالعامل ينتج من السلع ما قيمته أكثر بكثير من الأجر الذى يدفع له ، وتظهر هذه الحقيقة واضحة فى البون الشاسع بين قيمة بيع السلعة فى السوق والأجر الذى يتقاضاه العامل الذى أنتجها .

ولعل فائض القيمة هذا والنظريات التى لفّها كارل ماركس وأتباعه حوله كانت المحور الذى قامت عليه الاشتراكية الماركسية ، بل لقد كان هو المحور الذى قامت عليه الحركة العمالية فى كل أنحاء الأرض . ويذهب بعض الكتاب الإنجليز إلى أن هذه النظرية نفسها استقاها كارل ماركس من الفيلسوف الراديكالى الإنجليزى ريكاردو . وقد أسلفنا فألمحنا إلى نظرية ريكاردو عن فائض القيمة الإيجارية . ولعل الذى حدث هو أن كارل ماركس انتحل من ريكاردو ونظرية فائض القيمة الإيجارية (أى ما يستفيده مالك العقار من فائض الإيجار) فأطلقها على فائض القيمة فيما يتصل بالسلع المصنوعة . وسنرى أنه كان لهذه النظرية بشعبيتها أعمق الأثر فى تفكير برنارد شو ، فقد اتخذها أساسا لمناقشة الاشتراكية وسندرس فيما بعد بعض آرائه فيها .

حينما اتخذ كارل ماركس نظرية « فائض القيمة » استطاع أن يكشف عن كثير من السيئات التى صاحبت قيام الرأسمالية ، واستطاع كذلك أن يتنبأ بكثير من السيئات التى تضاعفت عند تطور الرأسمالية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر . فقد كان فائض القيمة عند كارل ماركس هو الذى طوّع لأصحاب رءوس الأموال أن يستغلوا مالهم الفائض فى شراء الكماليات ، أو إلى تحويل أموالهم إلى استثمار فى داخل بلادهم أو فى خارجها . ومن هنا برزت إحدى نقائض الرأسمالية : إذ كانت هناك وفرة فى الإنتاج فى حين أنه كانت هناك قلة فى الاستهلاك عند الطبقة العامة . وكأنما كانت هناك دائما زيادة فى الانتاج وتناقص سيء فى الاستهلاك .

ويتطور النظام الرأسمالى ويدخل فى مراحل التوسع ، فيزيد التصنيع بفضل الآلات التى تحل محل الأيدى العاملة . ويزيد الإنتاج فى فترات زيادة خاصة يعجز عنها الاستهلاك . وعند ذلك يرى المجتمع نفسه فى تضخم يعتور الحياة الاقتصادية فى حلقات من تاريخها . وفى نفس الوقت يجد العمال أنفسهم وقد تعطلوا عن العمل . وهذه جميعا هى مظاهر التهافت والاضمحلال اللذين كانا يعتوران النظام الرأسمالى — كما رآه كارل ماركس . وهذا هو الذى شطر المجتمع إلى شطرين : أحدهما يتكون من طبقتى الملاك وأصحاب المصانع ، والآخر يتكون من طبقة العمال وهى الطبقة الغامرة . ومن المحتّم أن يحدث الصراع التاريخى بينهما طبقا للنظام الديالكتيكى الذى آمن به ، ومن المحتم أن تنطوى كل موارد الثروة بما فيها من قيمة فائضة تحت سيطرة المجموع ولفائدة المجموع . فليس الفرد فى نظر كارل ماركس هو المبدأ أو المعاد للنظام الاقتصادى، بل المبدأ والمعاد هو الجماعة ولا يأتى الفرد بعد ذلك إلا عفوا .

لقد يحاول بعض المفكرين أن يحللوا موقف كارل ماركس بين الفرد والجماعة ، بل يحاول بعضهم أيضا أن يثبتوا أن كارل ماركس — ومن بعده لينين — لم يكن يفكر فى صالح الجماعة إلا لصالح الفرد . ولكن الواقع أن كارل ماركس والاشتراكيين من قبله ومن بعده كانوا يفكرون فى الجماعة أولا . وهم يختلفون فى ذلك عن فلاسفة القرن الثامن عشر وعن الفلاسفة الراديكاليين فى أول القرن التاسع عشر . وفى حين أن إنسان الثورة الفرنسية كان يفكر فيه كفرد، فقد كان إنسان الثورة الاشتراكية يفكر فيه كجزء من الجماعة . فمصادر الثروة لم تكن لتقتصر على فرد دون آخر ، وحرية نقل البضائع من مكان إلى آخر لم تكن ميزة يمتاز بها من يملكون ولا يتمتع بها الذين لا يملكون ، فاتجاه كارل ماركس كان اتجاها جماعيا بعكس اتجاه الفلاسفة الراديكاليين فقد كان فرديا .

الاشتراكية الفابية
وجهوده في نشر مبادئها
١٨٨٥ – ١٨٩٨

إنها إذن وجهتان من وجهات النظر حاولنا أن نبسطها لك فيما مر من هذا الحديث : الوجهة الأولى هي هذه الوجهة الفردية التي درسناها في عرضنا للفلسفة الراديكالية ، والوجهة الأخرى تلك الوجهة الجماعية التي وجدناها بارزة في تفكير كارل ماركس . وقد رأينا أنه قد بدأت المصالحة بين الوجهتين في كتابات روبرت أوين في مبدأ القرن التاسع عشر وفي كتابات جون ستيورت مل في منتهاه . والحق أن هذه المصالحة قد تمت أو كادت على أيدي الفابيين. والفابيون هم الذين درسوا الوجهة الأولى ونقدوها ، وهم الذين بحثوا الوجهة الأخرى واتخذوها لهم اتجاها . وعلينا أن نتأثر الفكر الاشتراكي الفابي في نشأته ونموه في الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وأن نتتبع جهود برنارد شو عندما أسهم في الاشتراكية الفابية في هذه الفترة العاصفة من تاريخ حياته أي من سنة ١٨٨٥ إلى سنة ١٨٩٨ .

* * *

اجتمعت الجمعية الفابية سنة ١٨٨٤ وتألفت لجنتها التنفيذية الأولى – وكان من أعضائها برنارد شو – سنة ١٨٨٥ ، وكانت مناقشاتها تدور حول المذاهب التي أسلفنا فبسطنا بعضا منها . وإلى جانب الخطابة والمناظرة والكتابة دأبت الجمعية على نشر كتيبات صغيرة في الموضوعات التي شغلت أعضاءها في تلك الفترة من تاريخ إنجلترة الفكري ، ولهذه الكتيبات أو النشرات قيمة كبيرة جدا إذ منها يستطيع الباحث في تاريخ الاشتراكية أن يشهد التطور الذي اعتور الحياة الفكرية الاشتراكية في إنجلترة . وقد كان برنارد شو من أبرز الأعضاء الذين أسهموا في كتابة هذه النشرات . أتقن هذا العمل وبخاصة في العشرين سنة الأولى من حياة الجمعية حتى أنه كان المسئول الأول عن أهم هذه النشرات. أما المسئول الثاني فقد كان سدني وب – لورد باسيفيلد فيما بعد .

والنشرات الأولى التى كتبها برنارد شو مليئة بنظريات كارل ماركس ومن تقدّمه أو تأخّر عنه من المفكرين الاشتراكيين . ثم إنها تمتاز بالدعابة أيضا والسخرية والمبالغة فى تصوير الواقع ،والاعتماد على أنصاف الحقائق مما يميّز كتابات برنارد شو . والواقع أن الدعابة والسخرية كانتا قد ملكتا عليه زمام الأمر حتى أن كثيرا من الناس وبخاصة فى المجتمع الإنجليزى فى ذلك العهد كانوا لا يحملون كلامه محمل الجد : بل كانوا إذا سمعوا نكتة عنه أو حديث دعابة يهزّون رؤوسهم ويقولون « أوه ! إنه برنارد شو ! ! »

ويذكر له مؤرخوه مثلا أنه غداة اختياره عضوا فى اللجنة التنفيذية للجمعية الفابية فى سنة ١٨٨٥ قام يحيي الحاضرين فى هذا الاجتماع فأنشأ يقول: « أبدى رئيس هذا الاجتماع رغبته فى ألا يقال شيء هنا يمس بعض أفراد من طبقة معينة . وأنا على وشك أن أشير إلى طبقة حديثة هى طبقة اللصوص . فاذا كان بين الحضور لص فاننى أرجو ألا أشير بسوء إلى مهنته فلست أجهل مهارته العظيمة ولا جرأته عند مزاولة عمله ،فان المخاطر التى يتعرّض لها أكثر بكثير مما يتعرض له أكبر الرأسماليين الذين يخاطرون بأموالهم فى المضاربات، فقد تمتد مخاطرته إلى الجود بالحرية والحياة . ثم إننى لست أجهل تمسّكه بمظاهر الوقار ، ولست أنكر قيمته للمجتمع : فهو صاحب عمل كبير لأنه مسئول عن تشغيل أصحاب القانون الذين يدافعون عن الجريمة ورجال الشرطة والحراس وبناة السجون ، وكذلك هو مسئول فى أحيان عن تشغيل الجلادين من أصحاب المشانق. هؤلاء جميعا مدينون له ولأعماله الجريئة بأسباب الرزق. »

« إننى أرجو أن أؤكد للحاضرين فى هذا الاجتماع من أصحاب الأسهم والسندات وملاك الأرض،أننى لا أبغى من كلامى هذا أن أجرح إحساسهم أكثر مما أجرح إحساس اللصوص. وما أريد إلا أن أشير إلى أن الطبقتين تحدثان أضرارا بالمجتمع ذات طبيعة واحدة . »

وبهذه الروح الساخرة ثم بهذا المنطق الذى ساقه فى كثير من أحاديثه كتب برنارد شو كثيرا من النشرات . وكانت ثانى نشرات الجمعية الفابية

بيانا أرادوا به أن يضارع البيان الشيوعى. فقد نشرت الجمعية «البيان الفابى» بقلم برنارد شو. والبيان الفابى كان يجمع فى أطوائه كل الأفكار التى طافت بعقول جماعة الفابين وكل المشاعر التى تدفقت فى أفئدتهم. وهى أفكار كان يعوزها النضوج والدراسة والبحث. فالبيان فى مجموعه خليط من أفكار الفلاسفة الراديكاليين ملفقة فى أثواب اشتراكية شفافة، وتلمح فيها أيضا طبيعة برنارد شو البوهيمية الثائرة وهى على حد قوله برهان على أنه لا يمكن التمتع بالثروة إلا عن طريق غير شريف. ثم إن البيان الفابى يعد تفكيرا عنيفا ضاربا فى الزمن الذى خرج فيه، ولم يكن سدنى وب قد طامن بعد من تفكير برنارد شو، فجاء البيان حوشيا طليقا عنيفا لا هوادة فيه. بل هو يجد نفسه فى أحيان بين آراء يتفق عليهـا كارل ماركس وجون ستيورت مل فى وقت معا، فيغلّب جانب الأول على جانب الأخر.

والبيان من ثمانية أجزاء ويظهر فى كلمات تحس فى كل منها الحبكة اللغوية التى اشتهر بها برنارد شو وإليك ملخصا لهذا البيان:

(١) على كل إنسان: ذكرا كان أو أنثى أن يعمـل حتى يرضى حاجاته هو نفسه ولا كسب للمال بدون عمل.

(٢) إن الانتفاع بأرض الأمة ورأسمالها حق من حقوق كل فرد يولد فى أكنافها.

(٣) إن أكثر التنافس الذى نشهده فى المجتمع الذى نعيش فيه يعتمد على أمور ثلاثة: الغش والخيانة والوحشية.

(٤) لقد فرضنا أن التنافس بين المنتجين يحدث إنتاجا يرضينا أكثر الرضا وعلى ذلك ينبغى أن تدخـل الدولة بكل قوتهـا فى منافسة حرة مـع هؤلاء المنتجين جميعا حتى يصبح الإنتاج أقرب إلى الكمال.

(٥) ينبغى ألا يكون هنالك احتكار يعطل التنافس الحر كما حدث مثلا عند احتكار البريد.

(٦) لا يحتاج الناس فى عصرنا هـذا إلى بضعة من الأفراد لهم امتيـازات

خاصة برغم أنهم يقومون بحماية الجماعة عند وقوع الحرب . وينبغى أن يتمتع الناس بحقوقهم السياسية سواء بسواء .

(٧) ينبغى ألا يتمتع الفرد بأى امتياز لخدمات سابقة قدمها والداه أو بعض ذوى قرباه .

(٨) يجب على الدولة أن تؤمّن التربية والتعليم لكل الأفراد على قدم المساواة.

حاول ناقد أمريكى هووليم إرفن فى كتابه « عالم ج . ب . ش » (١) أن يحلل هذا البيان وقد استطاع أن ينسب كل جزء من هذه الأجزاء الثمانية إلى أصل راديكالى أو إلى أصل ماركسى: أو قل إنه استطاع أن يبرهن على أن هذه الأفكار الثمانية تنبع من الأصلين فى وقت واحد . فالفكرة الأولى وهى أن كسب الإنسان يجب أن يكون رهينا بما يقوم به من عمل مستقاة من الكاتب الاشتراكى الفرنسى سان سيمون ، وقد جاءت فى بعض قراءات جون ستيورت مل . والفكرة الثانية وهى أن الانتفاع بالأرض والمال حق للأفراد جميعا مأخوذة عن هنرى جورج حين قال إن تأميم الأرض واجب عام، وقد جاءت فى كتاب مل عن « الاقتصاد السياسى » . والفكرة الثالثة عن التنافس جاءت فى مقال كتبه مل ايضا ورجع فيه إلى الكاتب الاشتراكى الفرنسى «لوى بلان» والفكرة الرابعة وردت فى كتاب مل عن«الحرية» والخامسة فى كتاب«الاقتصاد السياسى»والسادسة عن كارل ماركس. اما السابعة والثامنة فقد كانتا مما كان يجرى دائما فى كتابات الفلاسفة الراديكاليين، وأخذه عنهم كارل ماركس وبعض المفكرين الاشتراكيين .

وكذلك ترى أن هذه الأفكار كانت مما وقع فى بعض كتابات الأصوليين الأولين وفى كتابات الاشتراكيين ، وأن برنارد شو والفابيين معه لم يزيدوا على أن رددوا هذه الأفكار فى ثورتهم التى أسموها « الثورة الفابية » .

ويمضى شو فى كتابة النشرات فيخرج النشرة الثالثة وفيها يتنبأ بمجتمع يختلف اختلافا كبيراً عن المجتمع الذى كان يعيش فيه. لقد كان يصوّر لنفسه ولقرائه مجتمعا يعمل فيه أفراد الطبقة العليا بأيديهم ليكسبوا رزقهم بأنفسهم.

(١) The Universe of G. B. S. by William Irvine

وهو يرى فيه أن الأرض الأقل قيمة ينبغى أن توزّع على المعدمين من مستأجريها . وقد كان يذهب فى نشرته هذه إلى أن توزيع الارض سوف يجنّب البلاد شر كارثة محققة ، لأن هذه الطبقات المعدمة كانت تتحفّز للثورة التى كانت فى نظره لابد واقعة إذا ظل الأمر فى أيدى قلة تملك كل شىء دون كثرة لاتملك شيئا . ثم ماذا ؟

ثم إن هذا جميعه خلا ما كان فيه من دعاية ملخص للفصل الثانى من كتاب الاقتصاد السياسى « لجون ستيورت مل » وهو متأثر كل التأثر بنظرية كارل ماركس عن آلام الطبقة الكادحة وحقها فى الثورة ومصيرها المحتوم .

* * *

وكان من الفابيين عناصر أخرى ، أعضاء لهم آراء أخرى غير هذه التى كان يروجها برنارد شو فى مثل هذه النشرات. كان منهم سدنى وب وزوجه بياترس وب، وقد أخرج نشرات مليئة بالإحصاءات . ولكن لقد واجه الفابيون جميعا أزمة من أزمات الفكر بين سنة ١٨٨٥ إلى سنة ١٨٨٧، جدير بنا أن ندرسها بعض الدراسة وأن نرى موقف برنارد شو منها . ففى هاتين السنتين بلغت الرأسمالية ذروتها من نتائجها السيئة . فقد حدث ما توقعه كارل ماركس من زيادة الإنتاج على الاستهلاك، وأغلقت بعد ذلك المصانع وانتشرت البطالة وتفاقم أمرها. وكان سدنى وب يستطيع أن يعد الإحصاءات تلو الإحصاءات عن هؤلاء العمال الذين وجدوا أنفسهم متعطلين ، وكان الفابيون يدرسون هذه الإحصاءات فيتوقعون حدثا من الأحداث قد يحيق بالمجتمع بطبقاته جميعا . وفريق منهم رأى أنه قد حان الوقت للقيام بثورة مسلحة تقضى على الطبقة الموسرة ، وفريق منهم كان أكثر رشادا رأوا أنه لابد من علاج الأمر بطرق دستورية .

وتراوح برنارد شو مرة أخرى بين هذين الفريقين. لقد سمّى نفسه غير مرة « بوهيميا ثائرا » ، وفكر مع غيره من الأعضاء أن يقودوا مظاهرات العمال الصاخبة، لكنه باء بالفشل ــ بل باء الفابيون بالفشل ــ فى كل مرة خرج

فيها للقيام بهذه الثورة المرتقبة . والحق أن تكوين الجماعة الإنجليزية وتكوين التفكير السياسى فى إنجلترة ، وطباع الإنجليز أنفسهم ، كانت كلها ضد أية ثورة مسلحة . لم تنجح تجربة الثورة الاشتراكية فى إنجلترة كما نجحت فى فرنسا فى منتصف القرن التاسع عشر وكما نجحت الشيوعية فى الروسيا لأن طبيعة المجتمع نفسه كانت تختلف كل الاختلاف فى هذه البلاد .

فى سنة ١٨٨٦ نشر سدنى وب كتيبا فيه حقائق وإحصاءات عن العمال فى إنجلترة . وقد قال برنارد شو عن هذا الكتيب إنه كشف بالأخطاء الرسمية التى ترتكبها الحضارة الرأسمالية . وجاء فى الكتاب من إحصاء للمتعطلين ومن وصف لوجوه الظلم والقسوة التى يعانيها العمال ما أثار الفابيين وغير الفابيين . وفى ٨ فبراير سنة ١٨٨٦ خرجت مظاهرة ضخمة من العمال العاطلين بقيادة هندمان إلى ميدان « طرف الغار » بلندن ، ومرت المظاهرة بحى سان جيمس فحطمت نواديه الخاصة وتلاشت المظاهرة عندما وصلت إلى الميدان الكبير ولم يكن لها إلا صدى تردد فى صيحات هندمان الذى كان ينادى بأن الناس مقبلون على مجاعة مهلكة .

وانقسم الفابيون فريقين تجاه هذه المظاهرة . ففريق منهم ـ عرف فيما بعد باسم الفوضويين ـ حبّذها ورأى أن تقوم الجماعة الفابية بمثلها وبأشد منها ، وفريق آخر لم ير هذا الرأى . وفى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٨٧ حدث اجتماع آخر ، وسارت مظاهرة أخرى أكثر صخبا وأعلى ضجيجا وأقدح تدميرا . كان اليوم يوم أحد ، واسمه فى تاريخ الاشتراكية الإنجليزية « يوم الأحد الدامى » ، وانضم الفابيون والاشتراكيون بعضهم إلى بعض ، وسار الاشتراكيون فى الطليعة ، يتقدمهم وليم موريس تدق حوله الطبول وترفرف الأعلام ، وبينهم العمال والرعاع فى المؤخرة . وعرف رجال الشرطة بالأمر فاستقبلوا المظاهرة الضخمة بالهراوات والعصى الغليظة . وحاول بعض أبطال الاشتراكيين أن يصبروا لهذا البلاء ، لكن تيار المظاهرة الجارف تراجع جميعه ، كما تنحسر موجات البحر الهائج حين تسكن ، وتفرق المتظاهرون أيدى سبا بعد ما أثخنتهم الجراح . ووقف برنارد شو يشهد كل ذلك وقد اصابته رعدة من

الخوف . لقد جاء في المظاهرة مشتركا لكنه انتهى منها بأن كان متفرجا . وهكذا قضى على « البوهيمى الثائر » أن يكون ثائرا من ثوار الفكر فحسب، لاثائرا من ثوار الحديد والنار .

ويعتبر يوم الأحد الدامى حدّا فاصلا بين طورين من أطوار التدرّج فى تاريخ الاشتراكية الفابية ، فقد أحس شو كما أحس غيره من الفابيين أى امتهان حاق بهم من هذه المظاهرة ، ورجع شو إلى داره وقد فقد ثقته فيمن سماهم الرعاع . وتعلم الفابيون درسا ظل فى وعيهم إلى مدى طويل : تعلموا أنه لابد من أن يكون للثورة مكان لكنه لابد أن يكون لاحترام النفس مكان إلى جانب مكان الثورة . وأعلن شو وآخرون فى هذه الفترة أنه أولى بالفابيين أن ينظموا أنفسهم فى حزب سياسى يهدف إلى بناء الاشتراكية ، بل إلى تحويل الدولة إلى دولة اشتراكية بالطرق الدستورية المعروفة . وعرض هذا الأمر على جماعة الفابيين ، فقررت الجماعة ألا يلجأوا إلى العنف والمظاهرات ، وأن يتخذوا سبيل الاشتراكية عن طريق التعديلات الدستورية . وصوّتوا على اتباع الطرق الدستورية دون طريق العنف ، وأقرّ هذا الرأى سبعة وأربعون عضوا ، وعارضهم فيه تسعة عشر هم الذين أطلقوا عليهم اسم الفوضويين . والعجيب أن هؤلاء كانوا بقيادة سيدة اسمها مسز واسون .

وفى سنة ١٨٨٨ أخرج برنارد شو نشرة أخرى تنعكس فيها اتجاهاته الجديدة . كان عنوان النشرة « مستحيلات الفوضويين » (١) . وهى فى الواقع نقد يشعر الإنسان فيه بأن برنارد شو متأثر تأثرا شديدا بمبدأ المنفعة من جانب ، وبآراء جون ستيورت مل فى آخر ايامه من جانب آخر . وهو يعالج فى هذه النشرة مرة أخرى موضوعا شائكا هو : هل الإنسان بطبيعته مجبول على الشر أم على الخير ؟ وهو لايثق فى الطبيعة الإنسانية كما رآها حوله لكنه يجد عزاءه فى المستقبل . ويرى أنه لامناص من أن نكوّن ضميرا خلقيا عند الناس حتى لايستسلموا لأنواع الظلم والخسف التى يتعرضون لها ، بل وقد يفرضها

(١) Impossibiletics of the Onarchists.

عليهم حكم الأغلبية . وهو فى نفس الوقت يسخر من الثورة المسلحة ولا يرى أنها السبيل لكسب حقوق فرد من الأفراد ولا طبقة من الطبقات .

* * *

وكأنما ثاب الفابيون ومنهم برنارد شو إلى الرشد ورجعوا إلى طريقة سدنى وب من البحث والدراسة والاستقصاء . وكأنما استطاع سدنى وب أن يكبح جماح غيره من الفابيين ، وأن يقودهم فى طريق دستورى ميسر . فاعتزله الفوضويون والبوهيميون والشيوعيون ، ولكن لم يعتزله برنارد شو . وأصبحت صيحة الفابية أنه لابد من التدرج . وهنا نؤكد ما أسلفنا فقلناه غير مرة من أن أفكار سدنى وب كانت مصالحة بين التفكير الراديكالى والتفكير الاشتراكى ، وأنه كان له الفضل كل الفضل فى تعديل القوانين بحيث تصالح بين الديمقراطية الإنجليزية و الاشتراكية الماركسية .

كان أبو سدنى وب من أتباع جون ستيورت مل ، وكان أبو زوجه وأمها من اتباع بنتام . ونشأ الزوجان على قراءة كل الفلسفات التى جاءت فى كتب الأصوليين من بنتام إلى مل . لذلك فقد عالج سدنى وب الأمور على أساس الدراسة العلمية ، كان يؤمن سدنى وب أن المجتمع فى تطور ، وأنه لابد أن يتطور هذا المجتمع الرأسمالى الذى كان يعيش فيه إلى مجتمع اشتراكى فى الحدود التى خطتها الديمقراطية الإنجليزية . وكان يرى أن هذا بعض ماجاء فى كتابات جون ستيورت مل . وكانت زوجه بياترس وب تؤمن بهذا هى الأخرى كل الإيمان ، وكانت ترى أن هذا يتفق وماجاء فى كتابات بنتام . وكان للزوجين أكبر الأثر فى الكتابة عن وجهة النظر هذه ، وفى الخطابة لها ، وتأييدها والوصول بها إلى أذهان الناس . فكأنما كانت تتفاعل أفكار الراديكاليين وأفكار الاشتراكيين فى عقل وب ، وكأنما كان يرى أن نتيجة هذا التفاعل هى أن تتطور هذه الرأسمالية إلى ديمقراطية اشتراكية تطورا متدرّجا بطيئا لايكاد يحسه الإنسان .

كان هذا هو السبب الذى امتلأت له صحف الفابيين وكتاباتهم بعد ذلك

بآراء بنتام وأفكار جون ستيورت مل . أخرج سدنى وب نشرة عنوانها « حقائق للاشتراكيين » بيّن فيها بالأرقام والإحصاءات أن الثروة موزعة توزيعا فاضحا . وتلت بعد ذلك نشرات أخرى من الفابيين : بعضها كان يصور المدن الفاضلة التى يتطلع إليها الجناحان من أعضاء الجماعة ، لكن أكثرها شيوعا وأحقها بالدراسة كانت الدراسات التى يقوم بها سدنى وب وزوجه ، وتمتاز جميعا بهذا الذى أسلفنا عليك ، لكنها تمتاز فى نفس الوقت بأنها كانت لاتزال تعبّر عن آمال الطبقة الوسطى ، كانت تهزأ بقيم الجمال ، وكانت تدعو إلى التشكك فى الدين . وعلى الرغم من ذلك فان أكبر حسنة لهذه النشرات هى أنها برهنت لبرنارد شو ولغيره من المفكرين أن الشر لايكمن فى نفوس الناس ، ولكنه يقيم فى الجو الاجتماعى الذى يحيق بهم ، فاذا رأيت أن تصلح من الناس فأصلح أولا من القوانين والنظم التى تتحكم فيهم ، ومهد لهم طريق الإصلاح بأن تنقى الجو الذى يعيشون فيه ، وهذا هو نفسه رأى يروح ويغدو فى أغلب مسرحيات برنار شو .

وكان من آثار هذا الاتجاه الفابى أننا لانكاد ننتقل من القرن التاسع عشر إلى العشرين إلا وقد بذرت بذور إصلاحات ضخمة فى محيط النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى إنجلتره . ففى سنة ١٨٩٨ تمت إصلاحات الجامعات الإنجليزية وكان هذا مقدمة لإصلاح التعليم العام بعد ذلك بخمسة عشر عاما . اما فى محيط الاقتصاد فقد تأكدت قوة اتحادات العمال وقوة الهيئات التعاونية التى قامت لصالحهم ، وكذلك دخل التعاون الإدارة المحلية وأنشئت البلديات على أساسه ، ووضعت قيود وحدود على سلطة أصحاب العمل بحيث تضمن حرية الفرد . ودخلت إصلاحات فى النظام النيابى فدخل المجلس النيابى نواب يمثلون القوى الاقتصادية الجديدة . وكان كل ذلك على أساس الإيمان بالديمقراطية وبالتحول الدستورى وكان صاحب الفضل الأول فى كل ذلك سدنى وب .

* * *

ماذا كان موقف برنارد شو من كل ذلك ؟ لم يكن برنادر شو يؤمن بالتعليم ، ولم يكن يهتم بما كتبه سدنى وب عن البدء باصلاح التعليم . والحق أنه يكاد يكون الفابى الوحيد الذى فقد الثقة فى المدارس جميعا . لكنه فى سائر النواحى كان يأخذ كتابات سدنى وب ويضعها فى نسق منطقى ، ويدافع عنها ويستخدمها فى مناظراته ومحاضراته . فكان هو الداعية المتحرك الذى ينشر هذه الأفكار . ثم أنه كان فى فترة العشرة السنين الأخيرة من القرن التاسع عشر يعد نفسه ليكون مسرحيا . وسنرى أن هذه الأفكار جميعا أصبحت من الموضوعات التى يتناقش فيها شخوصه المسرحية . ولا ننسى أنه فى نفس الوقت كان ناقدا فنيا ، ومفكرا محترفا ، وداعية من دعاة التقدم ، وهادما للرأسمالية . ولا نظن أنه كتب كلمة واحدة يعترف فيها بفضل النظام الرأسمالى على الرغم مما كتبه من ملايين الكلمات .

* * *

وفى سنة ١٨٨٩ أخرج برنارد شو نشرة خاصة به من النشرات الفابية عنوانها « أساس الاشتراكية الاقتصادى » . ويكرر فى هذه النشرة مرة أخرى ماسبق أن تحدث عنه من ضرورة التزام التدرّج والعزوف عن العنف ، ويدعو إلى الانتقال إلى مجتمع يعود فيه الأجر والربح إلى الدولة لا إلى الأفراد .

ونحس فى هذه النشرة أن برنارد شو يريد أن يستخدم الاستقراء المنطقى دون أية وسيلة أخرى ، ويحاول أن يبرهن على أصالة آرائه بهذا الاستقراء المنطقى الذى كان قد كسبه من «جفونز » ، وكان قد طبقه «جفونز» نفسه على أمور الاقتصاد. يذهب برنارد شو مرة أخرى إلى أن حالة المجتمع الاقتصادية فى أيامه كانت حالة غير عادلة وسخيفة ولا يمكن العمل بها . وأن كل ذلك يظهر للمفكر إذا هو فكّر مليا فى فائض القيمة . وهنا تبرز لنا آثار مما انعكس فى كتابات برنارد شو من تأثره بكارل ماركس وبجفونز وريكاردو على السواء . فهو يعرض أولا لفائض القيمة الإيجارية بنفس التفكير الذى

عرض به لها ديفيد ريكاردو وبنفس الاستقراء المنطقى الذى عالجها به جفونز، فيذهب إلى أن كل إيجار يدفع لأرض أو لعقار فهو فائض لا ينبغى أن يقتصر على صاحب الملك الشخصى . ثم هو يخرج من ذلك إلى دراسة قيمة العمل وهل هناك فائض لهذه القيمة ؟ ولمن يعود هذا الفائض ؟ فيثبت - كما أثبت كارل ماركس من قبل - أن فائض القيمة للعمل كثير جدا ، وهو يتراكم ، ثم إنه يصيبه أصحاب العمل دون العمال أنفسهم . وعنده أن فائض القيمة الذى يسميه الناس عائدا أو مكسبا ليس إلا فائضا للعمل . وكلما تراكم العمل من ناحية تراكم الربح من ناحية أخرى . وكان الربح الأكبر للرأسمالى دون العامل الكادح . ولا ينتج هذا لأن الملاك أصحاب كفاية خاصة أو وظيفة اقتصادية معينة ولكنه ينتج بفضل مركزهم الخاص فى مجتمع ينقسم إلى قسمين: فئة من الذين يملكون وفئة أخرى من الذين لا يملكون .

كان برنارد شو فى هذه النشرة وفى شبيهاتها من النشرات يفكر تفكيرا مكتوبا ، أو قل إنه كان يقوم بمغامرات فى الكتابة يعلّم فيها نفسه بنفسه . وسيظهر سخطه على هذه الفئة « التى تملك » فى مسرحياته فيما بعد . ففى مسرحية « الإنسان والإنسان الأسمى » يردّد كلمات برودون « الملكية هى السرقة » وفى مسرحيات أخرى مثل « منازل الأرامل » و « مهنة مسز ورن » يؤكد هذا الذى ذهب إليه من نقد عنيف للملكية الشخصية. لكن بذور كل هذه الآراء كانت قد بذرت فى هذه الفترة من تاريخ حياته أى قبل أن ينقضى القرن التاسع عشر .

واستمع إليه وهو يصف طبقة الملاك وجمعها للثروة إذ يقول فى نشرة أخرى عن الاشتراكية : « إن الملك الخاص لينقلب أمامنا صورة من التمويه والزيف. فان أصحاب الأملاك الخاصة يفخرون دائما بأنهم يجمعون ما يسمونه ثروة نتيجة لما يزعمونه لأنفسهم من قوة يعذبون بها الرجال والنساء ؛ إنهم يسومونهم طيلة نهارهم العمل الطويل المضنى . هناك ذلك النشاط الذى تتوفر به الملكية الخاصة ، وهناك أصول قيل إنها خلقية تحضّ على السعى فى سبيل

الذات ، وصفها خلقيون مثل صموويل سميلز ، . وهناك ما يدعون من أنهم يملكون إمرة التجارة بما تنطوى عليه من حب المغامرة ، وهناك من الأعمال الشاقة ما تتفصد له جباه الرجال ممن يساقون إلى أشق الأعمال كما يساق العبيد، وهناك إسراف فى بذل الدم والعرق والدمع ـ ولكن ما الذى أفاد كل ذلك خلا ما كدّسوه من شقاء على هؤلاء العبيد؟ لم يكدّسوا إلا أكواما من التوافه التى تتزين بها النساء، وإلا أدبا وفنا يمتازان بزخرف ملوّث ، ثم دسّوا فى كل ذلك كثيرا من السم الزعاف والعبث الباطل » .

* * *

وجرت مناظرة بينه وبين مفكر اسمه مُلُك(١) فى سنة ١٨٩٤ . كان موضوع المناظرة أن الأرباح والفوائد التى يجنيها صاحب رأس المال ما هى إلا جزاء له على قدرته الخارقة . وكان مستر مُلُك يؤيد هذا الرأى ، وكان برنارد شو يعارضه . فهل كان حقا أن الأرباح التى تعود على صاحب رأس المال تتطلب قدرة خارقة على العمل ، وصبرا وجدا ، وخلقا وعرا كما ذهب إلى ذلك الرأسماليون ؟

وقد بدأ مُلُك بأن أيد هذه القضية ضاربا الأمثال بأصحاب المصانع ورؤساء الشركات الذين أبدوا كفاءة ممتازة فى إدارة مصانعهم وشركاتهم .. ويرد برنارد شو على ذلك فيقول إن أرباح أسهم السكك الحديدية مثلا تعود على قوم لا يعرفون كيف يصنعون لا قاطرة السكة الحديد ولا حتى عربة من عربات اليد ! ! بل إن أغلب الناس الذين يستثمرون أموالهم لا يعرفون أنّى تأتيهم أرباحهم آخر العام ، ولا يشترون ولا يبيعون شيئا إلا كما يشير عليهم به سماسرة الأوراق المالية .

ويناقش مستر مُلُك القضية بحجة أخرى فهو يقول إنه لو أن العمال تساووا جميعا فى الأجور فان كلا منهم سوف يتطلع إلى أن يكون رئيسا للعمل . وستمتد المساواة إلى صفوف العمال فلا يكون هناك رئيس ولا مرءوس . ويرد على

---

(١) Moloch

ذلك برنارد شو أن ذكاء مستر مُلك الذى اشتهر به قدخانه هذه المرة . فلم يفترض مستر مُلك أن العمال المرءوسين سيتطلعون إلى أن يكونوا رؤساء ولا يفترض ألا يتطلع الرؤساء ليكونوا مرءوسين مادام الأجر قد أصبح متساويا ؟ .

ويزجى مستر مُلك حجة ثالثة هي أنه إذا أصبحت المصانع والشركات تابعة للدولة فانه لن يكون هناك ذلك الحافز الشخصى الذى يدفع العامل إلى العمل ويشجعه على زيادة الإنتاج . ورداً على ذلك يقول برنارد شو أن أن أغلب العمال يعملون فى الصعيد الرأسمالى لفائدة الملاك وأصحاب رأس المال ، فلم لا يستمر هؤلاء فى العمل لصالح الدولة نفسها إذا كانت الفوائد والأرباح تعود إليهم هم أنفسهم فى النهاية ؟ . وكذلك يقرع برنارد شو كل حجة بحجة مثلها ويمضى بحديثه بروح الدعابة والتهكم اللذين اشتهر بهما ، ويختتم هذه المناظرة التاريخية بأن يقول إن مستر مُلك قد خلط بين طبقة المنتجين ، وبين أصحاب المقدرة والكفاءة وأصحاب الأرض ورأس المال ، وبين رجال اللهو من الأغنياء المتعطلين ورجال الأعمال ممن يعملون حقا .

* * *

وبمثل هذا الكلام يختتم برنارد شو حقبة من عمره قضاها وهو يقرأ عن الاشتراكية ويدرسها ويدافع عنها . وقد رأيت أن هذه الحقبة كانت طورا من أطوار حياته ، لكن لنذكر أنه كان طور البوهيمية والثورة . وستمضى الأيام بعد ذلك ، وستنضج كل هذه الأفكار وستبرز متناقضة متصارعة فى مسرحياته ومقدماته ومؤلفاته .

أما مصير الإقتصاد الانجليزى فقد ارتبط بهذه البحوث التى قام بها الفابيون فى تلك الحقبة . وإذا رأيت أن إنجلترة قد أدخلت الاشتراكية الديمقراطية فى اقتصادها ، وتدخلت حكومتها فيما كان يسمى حرية الفرد وحرية التجارة ، وأممت بعض موارد الإنتاج ووسائل النقل ، وأممت الخدمات الطبية ، ورفعت سن الإلزام إلى السادسة عشرة ، وزادت اتحادات العمال قوة حتى خرج منها

حزب العمال نفسه ، وزادت فيها الحركات التعاونية ، فاعلم أن هذه الاشتراكية الديمقراطية لم تكن لتنمو فى تلك البلاد إلا على أساس من الفكر الاشتراكى الذى أعمله الفابيون ومنهم برنارد شو .

* * *

لقد خرج برنارد شو من هذه المحنة الفكرية بأن اتّبع فى تفكيره الاقتصادى الجانب الجماعى دون الجانب الفردى ، وتأثر تأثرا شديدا بما جاءت به فلسفة كارل ماركس من ارتباط الحالة الاجتماعية بحالة الاقتصاد ، ومن التقدم المادى للتاريخ ، ومن انقسام الناس إلى طبقات ، ومن استئثار الطبقة الوسطى بأكثر الخير . ولكن ألم يكن فيما كتبه برنادر شو من كتب ومسرحيات أى أثر للفلاسفة الراديكاليين الذين كانوا يمجدّون الفرد كما أسلفنا؟ الحق أن برنارد شو فى كثير من كتبه ومسرحياته يعالج الإنسان كفرد . فاذا هو ذكر « قوة الحياة » فقد كان دائما يصوّرها فى شخصية من شخصياته المسرحية . وليست جان دارك وليس دون جوان وليس تابع الشيطان : ليس كل واحد من هؤلاء وعدد غفير من شخوص مسرحياته إلا أفرادا يتمتع كل منهم بهذا الذى أطلق عليه « قوة الحياة » . وكان برنارد شو متأثرا فى تصوير هذه الشخصيات بالفكرة السامية عن الإنسان كفرد . بل هو فى أخريات حياته لايخفى إعجابه بأفراد من الطغاة مثل ستالين ، وهنا نرى أنه قد تراوح فى تفكيره بين الفردية والجماعية . وتأثر بالفلاسفة الراديكاليين على الرغم من أنه كان دائما ينقدهم ويتنكّر لهم. الفرد عنده يواجه نظما وأساليب حتمتها الحياة الاقتصادية والسياسية والدينية . ولا تخلو هذه النظم من القيود الشديدة التى تكبّل الفرد وتلاشى حريته ، وليس على الفرد بعد ذلك إلا أن يستمسك بقوة الحياة ويغالب هذه النظم حتى يستطيع أن يعيش . وهذا فى الواقع هو النهج الذى اختطه برنارد شو فى أغلب مسرحياته . ولعله أن كان يفكر تفكيرا عميقا جماعيا حين كان يكتب عن الاقتصاد ، وكانت حينئذ تتقمصه روح كارل ماركس ، ولكن لعله كان يفكر تفكيرا فرديا حين

كان يؤلف مسرحياته وكانت تتقمصه حينذاك روح موليير . فبرنارد شو في مسرحياته يقف في موقف يجمع بين التفكير الفردي والتفكير الجماعي .

* * *

ثم لقد أفاد برنارد شو في تفكيره الاقتصادي بما أسلف الفلاسفة الراديكاليون . فلم يكن تأثره بكارل ماركس ولا بغيره من الاشتراكيين تأثرا خالصا . لقد تأثر بمبدأ المنفعة الذي تأصل في فلسفة جيريمي بنتام ، وهي الفلسفة التي تقضي بأن يكون معظم الخير لأكبر عدد من الناس ــ وهو قد تأثر أيضا بجزء آخر من هذه الفلسفة ، إذ أنه دأب على أن يصور شخوص المسرحية وكل منهم يعمل على إصلاح حاله حتى يتمتع بأكثر ما يمكن من المتع في هذه الأرض . وقد تأثر كذلك بآراء ريكاردو عن فائض القيمة الإيجارية ، وبآراء مالثوس عن ظاهرة الفقر ، وآراء جون ستيورت مل حين اقترح حلولا دستورية للموازنة بين الاشتراكية ونظم الحكم . وقد رأينا أنه كان اشتراكيا فابيا ، فلم يجنح في فترات تفكيره الهادىء المبالغات التي كانت تتفجر من قلمه ساعة الموجدة أو الغضب .

تلك محنة فكرية مضى فيها برنارد شو ، وهي كما رأيت مغامرة في التفكير أعانة على خوضها منطق الجدل أو النقائض الذي اتخذه أساسا لتفكيره . ومثل هذا المنطق يحتمل نقيضا كبيرا مثل الجماعية والفردية ونقيضا أكبر مثل الاشتراكية والرأسمالية .

المسرحية الجديدة
هنريك إبسن

اصطلح مؤرخو الأدب على أن أوروبا قد مضت فى قرن كامل من الأدب الرومانسى بين سنة ١٧٦٠ الى سنة ١٨٦٠ ، وأنها عاشت على بعض أنقاض هذا الأدب حتى غاية القرن التاسع عشر . لكن تحوّلا ظاهرا ألمّ بالأدب الأوروبى فى الأحقاب الأخيرة من القرن التاسع عشر : تحوّلا فى الشعر والقصص والموسيقى: تحوّلا إلى ما يسمونه الناحية الواقعية . وقد ألمّ نفس هذا التحول بالمسرحية فانتقلت نقلة كبرى من الطابع الرومانسى إلى الطابع الواقعى . وحدث هذا التحول فى النرويج ثم فرنسا وايطاليا وألمانيا وروسيا وقد حدث متأخرا فى إنجلترة. وكان هنريك إبسن المسرحى النرويجى العظيم من ألمع الأسماء التى أنتجت هذا التحول . فمسرحياته مترجمة فى كل هذه البلاد كانت من الأسباب التى بعثت الثورة الواقعية وخلقت ماسميناه «المسرحية الجديدة»، وقد كان هذا هو الشأن فى إنجلترة أيضا، إذ أن المسرحية فى انجلترة قد انتقلت من الطابع الرمانسى القديم إلى الطابع الواقعى بفضل برنارد شو الذى دعا إلى فن هنريك إبسن وكتب عنه وألف مسرحيات على نسقه ، وظل خمسين سنة أو تزيد يكتب مسرحيات على الأسس الواقعية التى بدأ بها هنريك إبسن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

على أننا ينبغى أن نذكر أن انقلاب المسرحية من الطابع الرومانسى إلى الطابع الواقعى لم يكن الا شعبة من ثورة أصيلة قام بها أصحاب المذهب الواقعى ضد المذهب الرومانسى فى كل وجه من وجوه الحياة : فى الأدب والاجتماع والسياسة وحتى فى الدين . كان أدباء الرومانس ومن تبعهم يحتفلون بالشعور دون العقل ، وبالوجدان دون الفكر ، وبالخيال دون الواقع ، وبالمحال دون الممكن. ثم كانوا يهربون من الحياة الواقعة فيتشبثون بأخيلة لا أساس

لها، وينسجون رؤى وأساطير يعيشون فيها، ويخلقون لأنفسهم وللناس أمثلة عليا وتقاليد وشعارات لاتمت بصلة الى الحياة الواقعة.

ونشأ جيل من الأدباء فى أوروبا عامة وفى انجلترة خاصة بعد سنة ١٨٦٠ يعارض هذه الحركة الرومانسية فى كل مظاهرها . فقد بدأ الشعراء يختطون طريقا وسطا بين الخيال والواقع ، وبدأ كتاب القصص ينزلون إلى تحليل الواقعة بدلا من أن ينساقوا وراء الخيال ثم بدأ الأدب يتأثر بالانقلاب الصناعى الذى حدث فى انجلترة حيث حلت الآلة محل الإنسان ، وقام جمهور مفكر وجه الشعراء والكتاب والأدباء إلى الكتاب عن الحياة الواقعة وهذا الجمهور هو الذى كان يقرأ القصص ويتزوق الشعر ،ويشترى المجلات ويقبل على قراءتها ، وأغلب هذا الجمهور القارىء كان من العمال الذين تخرجوا فى المدارس فانتبهوا إلى ما كانوا فيه من فاقة وشقاء . فكان على الكتاب والشعراء فى إنجلترة أن يسايروا هؤلاء إلى حد كبير . كان عليهم أن يتحدثوا عن المنزل الإنجليزى أولا ، وعن الحياة الإنجليزية الواقعة بما فيها من خير وشر . فكان لهذا الجمهور أكبر الأثر فى تطور الأدب الانجليزى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وقد يطول بنا الحديث إذا نحن حاولنا أن نبسط هذا الانقلاب الذى حدث بعد سنة ١٨٦٠،ولكن حسبنا أن نوجز ذلك كل الإيجاز فقد مرت بانجلترة فترة طويلة بعد حروب نابليون وهي تحسب أنها سعيدة بما ظفرت به من رخاء ونجاح. وكان شعراء الرومانس وحكماؤهم يقولون مالا يفعلون: لقد كانوا فى واد من الخيال البعيد، وكان المجتمع الإنجليزى فى واد آخر. وتقدم العلم وتقدمت الصناعة ، واحتاجت الصناعة إلى أيد عاملة ،استبدت بالنساء والأطفال والرجال فاستعبدتهم الآلة . ونشأت طبقة من العمال والعاملات يعيشون فى بطن الأرض فى ظروف أسوأ من ظروف العبودية الأولى . أحسن أهل الأدب أن فى أعناقهم أمانة قبل هؤلاء من الصناع والعمال، وأحسوا قسوة الحياة الصناعيه الجديدة. لذلك حاول الشعراء والكتاب والأدباء أن يجعلوا مركزا اهتمامهم انجلترة نفسها

المجتمع الإنجليزى فى القرية وفى المدينة وفى المصنع وفى المدرسة: أى انجلترة فى الواقع لا فى الخيال ،انجلترة بما فيها من منازل تكاد تتداعى، وجدران تريد أن تنقض ، وسيدات تمشين على أربع فى بطون المناجم ، وأطفال يشتغلون اثنتى عشرة ساعة فى جوف المعامل المظلمة. فلا غرو أن طافت بانجلترة حركة إنسانية كانت هى الدافع للشعراء والكتاب إلى تحليل الحياة الواقعية تحليلا دقيقا ، ولا عجب أن تلون الأدب بالألوان الاشتراكية التى وفدت إلى انجلترة من كارل ماركس والتى تنظـرت بها أبحاث الفابيين.

وقام كتاب محترفون يحللون هذا المجتمع، كان أولهم كتّاب القصص الروائى. وكان أول هؤلاء تشارلز ديكنز فقد استطاع ديكنز أن يصف المجتمع الإنجليزى كما رآه . فصور حال الفقراء والمعوزين وأبناء السبيل، ووصف حياة الشقاء التى كان يعيشها الأطفال والعجزة فيما كانوا يسمونه الإصلاحيات . و بالغ فى تصوير شخصياته مبالغة طريفة حبّبته إلى الجماهير. كذلك استطاع ثكرى أن يصف ألوان النفاق التى رآها فى تنقله بين الطبقات الدنيا والطبقات العليا . ثم كان هناك نقاد مثل ماثيو أرنولد رأوا بأن الأمر فى صلاح المجتمع الإنجليزى كان رهينا بألوان من الثقافة الأجنبية وأنه لا سبيل الى التقدم الفنى فى إنجلترة إذا قامت فئة من الانجليز بدراسة الثقافات الفرنسية والألمانية والشرقية إلى جانب ثقافتهم الانجليزية. وكان هناك قوم آخرون مثل كارليل معجبون بحياة البطولة التى عاشها أبطال التاريخ ، ويرون أن إنجلترة تنقصها البطولة فى ذلك العصر . ثم كان هنـاك كتابا سياسيون مثل « جـون ستيورت مل » و ماكولى » : وكل أولئك كانوا يعالجون الإصلاح الاجتماعى فى إنجلترة من وجهاته السياسية والعلمية والتاريخيـة . ويعنى ذلك أن كتاب العصر الفكتورى (١) الأخير فى إنجلترة كانوا قد تنبـّهوا إلى أنه ينبغى أن يكون للكتابة أثر عميق فى حياة المجتمع ،وأن الكلمة هى الأداة الأولى من أدوات الاصلاح . وهذا

---

(١) The Late Victorian age

ماعبّر عنه بعض النقاد من أن الأدب قطعة من الحياة وأنه أكبر دعاية فى العصر الحديث .

* * *

أين تكون المسرحية من كل ذلك ؟ أين موضع المسرحية فى هذا الانقلاب من مذهب الرومانس إلى المذهب الواقعى ؟ الحق أن المذهب الواقعى كان يريد أن يغزو أوروبا الغربية ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. والحق أنه طاف بأوروبا بعد سنة ١٨٦٠ فبدأ هنريك إبسن الذى ألّف أولى مسرحياته فى النرويج فى سنة ١٨٥٠ ، لكن مسرحياته اخترقت أوروبا فى سنة ١٨٧٥ وظلت عشرين سنة بعد ذلك وهى الأنماط التى يرجع إليها المسرحيون المجدّدون فى فرنسا وإنجلترة . وكانت تجمع هذه المسرحيات بين الطريقة الواقعية ونقد اجتماعى عميق وفلسفة أصيلة من فلسفات الحياة . وبذلك اشتهر هنريك إبسن بأنه الكاتب الذى أخرج المسرحية من نطاق الزينة والبهرج والخيال الجامح إلى نطاق الحياة الواقعية والفكر الواقعى . فهو قد فعل فى المسرحية ما فعله كتاب القصص الروائى فى إنجلترة حينما سلطوا كتاباتهم على مشكلات الحياة التى أنتجها الانقلاب الصناعى . وكان لإبسن هذا الأثر العميق فى كل أنحاء أوربا حتى لقد قيل إنه حينما أغلقت الباب « نورا » فى مسرحية « بيت الدمية » فى سنة ١٨٨٠ تجاوبت أصداء هذا الباب فى كل أنحاء أوروبا. كذلك مثّلت مسرحية « الأشباح » فى كل بلد من أوربا الغربية وكان يعقب تمثيلها دائما نقاش حاد فى الفن المسرحى الجديد .

وهذه الموجة التى بدأها هنريك إبسن فى النرويج لم تصل إلى مسارح إنجلترة إلا متأخرة فى سنة ١٨٩٠ ، وكان وصولها على يد برنارد شو . وهنا ينبغى أن نقف قليلا فندرس المسرح قبل ظهور برنارد شو أولا ثم لندرس وظيفة برنارد شو فى التحول إلى مذهب إبسن والتفكير الواقعى ثانيا .

* * *

والحق ان المسرحية الإنجليزية فى ذلك العصر لم تكن متجاوبة كل التجاوب

مع الحياة الجديدة . فلم يقم مؤلف مسرحى قبل برنارد شو نستطيع أن نضعه إلى جانب القصصيين او الأدباء الذين ذكرنا . وظلت المسرحية طول عصر الملكة فكتوريا وهى متمسكة بأوضاعها الرومانسية إن كانت هناك أوضاع رومانسية ، وظلت بعيدة عن حياة المجتمع الإنجليزى كل البعد . وكان المسرح الانجليزى نفسه مثابة للكماليات يذهب إليه الأغنياء من القوم للمتعة الحسية واللذة وقضاء أوقات الفراغ. وقليل منهم أولئك الذين كانوا يذهبون إلى دور التمثيل وعندهم دافع أدبى أو روحى أو فكرى . وفى حين أن الشعراء والروائيين انتبهوا إلى التطور الجديد، إذا المسرحيون والممثلون لا يتطورون مع الزمن . وعلى الرغم من أن منتصف القرن التاسع عشر شهد انقلابات كانت جديرة بالتسجيل فى المسرحيات، إذا كتاب المسرح يلجأون إلى بعض المسرحيات الخفيفة من المسرح الفرنسى أو إلى بعض المسرحيات الرومانسية من آثار شيكسبير . فاذا ألّف مسرحيون منهم مثل بيزو وجونز وأوسكار وايلد فانما كانوا يدورون فى حلقة الطبقة الوسطى بما لها من وجاهة ، وبما كان يدور فى حياتها من دسائس من أجل المرأة او المال أو المجد . أما المجتمع الجديد ، والكفاح بين الطبقات ، والخصومة بين الجيل القديم والجيل الجديد ، فلم تلق عناية إلا من قليل من كتاب المسرح وممثليه .

زد على ذلك أنه لم يكن للمؤلف المسرحى وزن كبير عند الممثلين . وقد رأينا الخصومة بين هنرى إرفنج وبرنارد شو . والحق أن العصر الفكتورى كان عصر الممثل لاعصر المؤلف المسرحى . فقد طغى الممثل فى ذلك العهد طغيانا يكاد يكون تاما . كذلك كان المخرج تابعا الممثل ، فتعاون الممثل مع المخرج على أن يخرجوا مسرحيات تستثير الفزع أو الرغبة ، ولا تحاول أن يكون بينها وبين الحياة الواقعيه إلا أسباب واهية .

ولذلك فقد فشلت المسرحيات التى ألفها بعض المؤلفين المسرحيين فى أن تفسر الحياة العامة فى إنجلترة فى ذلك العهد . قام عدد غير قليل من هؤلاء المؤلفين وكان أشهرهم ه . أ . جونز و أ . و . بيزو لكن محيط هؤلاء

المؤلفين كان ضيقا . فلم يفسروا حياة انجلترة نفسها بقدرما فسّروا حياة الطبقة الأرستقراطيه والطبقة الوسطى من الإنجليز . ثم إنهم كانوا مايزالون تحت حكم الممثل مرتبطين بما يمليه عليهم، لايستطيعون أن يجدوا لهم الشخصية المستقلة التي تملى على المسرح ماتريد . وقد ترك كل ذلك لبرنارد شو الذى استطاع أن يحدث ثورة فى سبيل « المسرحية الجديدة » .

ولاتحسبن أنه لم يجد عنتا فى جهاده فى سبيل مسرحية المناقشة هذه . فقد كان التمثيل — كما هو اليوم — تجارة رابحة . وكان على رأس الممثلين كما قدمنا سير هنرى إرفنج ، وكان من بين أصحاب المسارح قوم ماليون يريدون الكسب . وكان هؤلاء وأولئك يعيشون على مداهنة الجماهير حتى يظل كسبهم متصلا موفورا . لذلك بدأ نقد برنارد شو ثقيلا جدا حين بدأه فى «الستردى ريفيو » ، ولذلك أزوّر عنه الكثير حين كتب المسرحيات ، وضاق به سير هنرى إرفنج أشد الضيق .وعلى الرغم من ذلك العنت الذى لقيه هذا المولف الناقد فقد أفلح أخيرا فى لفت الأنظار إليه . وقد بدأ وهو لايجد مخرجا أو صاحب مسرح يرضى باخراج مسرحياته ، لكنه انتهى بأن غزا المسارح فى إنجلترة وأمريكا والمانيا وفرنسا والنمسا واليابان . ثم إنه انتهى أخيرا بأن جعل للمسرحية ما للقصة من وزن فى الحياة العامة . وتبعه بعد ذلك قوم من أمثال « جلزورثى » ممن ربطوا بين المسرح والسياسة والاجتماع والاقتصاد. ومن ذلك خرج هذا المولود الجديد وهو « المسرحية الجديدة » .

وفى هذه المسرحية الجديدة خروج على الأوضاع التى ألفها الناس فى عصر والرومانس. فيها خروج عما ألفه المسرحيون من أوضاع المسرحية القديمة ، فلم يكن يعنى كتاب المسرحيات القدامى بالنقاش والجدل بل كانوا يعنون بحل المشكلة التى تتأزم عند منتصف المسرحية أما كتاب المسرحيات الجديدة فقد كانوا يعنون بالمناقشة وبالجدال.وكانوا يفردون الجزء الأكبر من القصة لهذه المناقشة . لذلك اندفعت المسرحيات إلى المناقشات الطويلة التى تعالج مشكلات الحياة العامة وتزخر الأفكار الواقعية فى تفاصيلها ، فبين مسرحيات برنارد شو مايعالج العلاقة بين الخلق والمال ، ومنها مايعالج البطالة والتعطل والكسب

الحرام ، ومنها مايعالج الدعارة وأسبابها الاجتماعية ، ومنها مايعالج المشكلات الدينيه والروحية ، ومنها مايعالج السياسة والحكومة وقضية الحرب والسلم ، وفي كل ماكتب برنارد شو شواهد للأوهام الرومانسية التي سادت انجلترة والعالم في القرن التاسع عشر ، كل هذه تختلط بالدعابة والفكاهة ، والإغراق في المبالغة ، والجرأة في التعليل والتحليل .

* * *

وكذلك كان شو عاملا من عوامل انقلاب المسرحية في أخريات القرن التاسع عشر وقد استطاع أن يجعلها تفكيراً في الحياة . ولنذكر أن دراسته للمسرحي النرويجي هنريك إبسن هو الذي واتاه بكل ذلك . ولا يمكننا أن نفهم برنارد شو على مانرضى إلا إذا درسنا هنريك إبسن وأثره في المسرحية الجديدة وفي برنارد شو . فقد درسه برنارد شو دراسه وافية أثرت في تفكيره وفي فنه المسرحي ، بل أثرت في اتجاهاته الاجتماعية والفلسفية بوجه خاص .

* * *

كان هنريك إبسن من أكبر الشعراء المسرحيين الذين ظهروا في القرن التاسع عشر . ولد في سكين وهي بلدة في جنوب النرويج في العشرين من مارس سنة ١٨٢٨ . وبدأ يروض الشعر في سنه ١٨٤٩ ، ثم ألف أولى مسرحياته في سنة ١٨٥٠ . وعين مديرا للمسرح القومي في كريستبانيا في سنة ١٨٥٧ . وبدأ وهو في هذه الوظيفة يؤلف مسرحيات ليخرجها . وقد استطاع أن يخرجها جميعا ، إلا أنه كان شديدا في هجائه وسخريته فانفض الناس عن المسرح وكسدت سوقه ، وحاولت الحكومة النرويجية أن تمد له يد المعونة ، فوهبته مالا استطاع أن يطوف به حول الأرض ، وتوفي في سنة ١٩٠٦ بعد حياة أدبية حافلة .

وليس يعنينا من هنريك إبسن شعره في دراستنا هذه بقدر ما يعنينا تفكيره وفنه المسرحي . ومن أشهر مسرحياته « عدو الشعب » و « بيت الدمية »

و « البطة البرية » و « كبير البنائين » و « الأشباح » و «سيدة من البحر» ، وهذه جميعا أمثلة لما كان يمتاز به فن هنريك إبسن . ولعله ينبغى أن نبسط القول كل البسط فى مميزات هذا الرجل . لأن برنارد شو قد اتخذه مثلا أعلى فى تفكيره وفى فنه المسرحى . فليس من سبيل إلى دراسة برنارد شو إلا إذا درسنا هنريك إبسن نفسه وإلا إذا حلّلنا فنه بعض التحليل ، ولن نفهم برنارد شو التلميذ إلا إذا فهمنا هنريك إبسن المعلم .

على أنه ينبغى أن نقف بعض الوقفات عند بعض النقط التى تبدو لنا من حياة إبسن . فهو يمثل المسرحية الجديدة حقـا ، لكننا نسيء إلى الواقع إذا حسبنا أنه قد نعم فى حياته بذيوع الذكر أو بمثل ذلك الإقبال الذى كان ينعم به فى حياته رجل مثل شيكسبير . وقـد علمت أن الجمهور النرويجى كان قـد انفض عنه لأن الناس أنكروا أن يباديهم إبسن بذلك الهجاء وتلك السخرية اللتـين اصطنعهما فى مسرحياته . كان الناس فى النرويج — كما كانوا فى إنجلترة — يحسبون أن المسرح مكان للهو والمسرة ، فما بال ذلك الفنان الذى عين قيّـما على المسرح القومى يرميهم بألوان من الهجاء والنقد لم يكن لهم بها عهد ؟ ثم مابالهم يلمون بالمسارح وفى خيالهم بعض الأمثـلة العليا ، فاذا هذا المسرحى الجرىء يحاول أن يحطم كل مثل أعلى ؟ وما بالهم يختلفون إلى دور التمثيل وهم يريدون أن يطمئنوا على العرف والقانون والتقاليد ويسكنوا إلى حياتهم اليسيرة السهلة ، فاذا هو يعقّـد حياتهم فيخرجون من أمكنة اللهو وفى أفئدتهم هم مقيم ؟ ما باله يتخذ من أمثلتهم العليا لهوا ؟ وما باله يسخر من العلاقات بين المرأة والرجـل ؟ ثم ما باله يتخذ إلى كل ذلك أسلوبا رمزيا فعّـالا يثبت الواقع وإن كان يرمز إليه كما ترمز الحكمة لما وراءها من الفضائل وحميد السجايا ؟ .

ثم يجب أن نقف وقفة أخرى عند مكانة هنريك إبسن فى إنجلترة . فلا تحسبن أنه كان ذا مكانة ممتازة إلا عند بعـض ذوى الثقافة من المحدثين ، ولا تحسبن أنه ـ حتى منيّـته ـ كان ذائع الصيت في إنجلـترة . فانه لم يكن

معروفا إلا لدى حلقات من الأدباء والمثقفين من أمثال برنارد شو . فهو لم يكن رجلا محبوبا عند الجماهير لا فى النرويج ولا فى إنجلترة ولا فى غيرهما من بلاد القارة الأوربية .

لكن حلقات من الأدباء فى إنجلترة هى التى عرفت ذلك الفنان العظيم . عرفه هنرى آرثر جونز فى سنة ١٨٨٢ لأنه مثّل مسرحيته « بيت الدمية » ، وعرفه وليم آرتشر لأنه بدأ بترجمة مسرحياته من سنة ١٨٧٧ ، وعرفته إليانور ماركس إفلينج ابنة كارل ماركس ، فقد ترجمت له مسرحيتين إلى الانجليزية هما « عدو الشعب » و « سيدة من البحار » . ثم عرفه برنارد شو وأعجب إعجابا شديدا ببيت الدمية وكتب لها تتمة تخيّل فيها شخوص القصة فى مواقف أخرى . ثم عرفه برنارد شو كناقد لأنه أخذ فى تحليل أدبه وفنه المسرحى ، وأخذ يدعو الناس إلى الايمان به وإلى إنكار شيكسبير . وقد حاول فيما كتبه أن يوازن بين شيكسبير وإبسن ، وأن يظهر للقارئين والمتفرجين أى رجل كان إبسن وأى فنّ كان فنّه . ولعل الكتابة عن إبسن كانت خير ما أتى به برنارد شو من ضروب النقد . فقد كانت حملته على شيكسبير ـ كما رأينا ـ حملة ساخرة أقرب إلى المهاترة منها إلى النقد الرصين . أما كتابته عن إبسن فقد كانت جادة غير هازلة . كانت حملة فى سبيل التفكير الحر . وكانت مقدمة لحياة برنارد شو ككاتب مسرحى .

وفى الثامن عشر من يوليه سنة ١٨٩٠ ألقى برنارد شو محاضرة فى جماعة الفابيين عن « خلاصة مذهب إبسن » (١) وكان الفابيون كما قدمنا يمثلون أقصى ما بلغته الثقافة الجديدة فى إنجلترة ، وأرقى ما بلغه التفكير الحر فى السياسة والعلوم والاقتصاد والأدب . فلم يكن غريبا إذن أن يقوم برنارد شو باعداد هذه المحاضرة وإلقائها تحت لوائهم ، لأنها كانت تتناول واحدا من المفكرين الأحرار الذين تخرّجوا فى نهاية القرن التاسع عشر . وكان إبسن عند برنارد شو هو رجل الساعه لأن فنّه كان يصلح لأن يكون مقدمة للانقلاب الفكرى

(١) The Quintessence of Ibsenism

الذى كان ينبغى أن يكابده المسرح الإنجليزى فى تلك الآونة . فكان لا بد لشو أن يفرد له هذه المحاضرة التى كانت من خير ما كتبه فى النقد الأدبى . وقد تناول فيها أفكار هنريك إبسن كناقد للحضارة الحديثة . ولا تزال هذه المحاضرة مع فصول ثلاثة عن إبسن وفنه المسرحى من المراجع التى يرجع إليها عند دراسة هنريك إبسن وعلاقته ببرنارد شو.

وقد كانت هناك أكثر من علاقة بين الكاتبين . كانت علاقة فكرية وروحية أكثر منها علاقة مادية. يقول وليم آرتشر فى بعض أحاديثه بعد أن لقى هنريك إبسن : «إن هنريك إبسن فى صميم نفسه روح تتصل اتصالا وثيقا بروح برنارد شو. فهو شخص يميل إلى الجمع بين المتناقضات ، وفيه شىء يميز المدافعين عن الشيطان نفسه . . . . وقد يكون إبسن أسوأ من برنارد شو . فان شو يدرك من أمره ما يدرك ، ويعلم أن الأشياء تتميز بأضدادها. فاتجاه الاثنين إذن كان واحدا، ولكن شو كان قد بلغ من العلم بالثقافة الاشتراكية ، وبالنقد الأدبى الجديد ، وبقواعد المسرح مالم يكن قد بلغه إبسن . كان إبسن شاعرا ومسرحيا من ذوى اللقانة ، وكان يؤلف مسرحياته فتنبثق كما لو كانت فيضا من النفس ، وتتلقاها حلقات البحث الحديث فيفسّرها المعجبون بها على ما يرون، ويستخرجون منها عبرا تلائم الاشتراكية، ويؤيدون فيها المدافعين عن حقوق المرأة ، ويستعين بها أصحاب المذاهب الجديدة التى اجتمعت فى الحياة السياسية فى أخريات القرن التاسع عشر على الدعوة لمذاهبهم . أما شو فقد كان هو نفسه الداعية لبعض هذه المذاهب الجديدة. وكان يؤلف مسرحياته عن قصد ، ويضم إلى مسرحياته مقدمات حول هذه المذاهب التى يدعو إليها . كان هنريك إبسن مفكرا قبل أن يكون شاعرا مسرحيا ، وقد كشف أن فى الحياة العامة بعض الأمثلة العليا الزائفة ، وأن المجتمع فى عصره كان يؤمن بهذه الأمثلة العليا ليفرّ بها من الحقائق الواقعة ، وأن بين طبقات المجتمع قوما من الخياليين الذين لا يرضون عن حياة الجماعة كما هى، لكنهم يفرون إلى خيالهم البعيد فيصوّرون لأنفسهم حياه مثالية من الوهم والتصوّر . أولئك وهؤلاء يخدعون أنفسهم ، لأنهم يغمضون

أعينهم عن حقائق الحيـاة . يسمون تصوراتهم أو خيـالاتهم أو أوهامهم أو أمثلتهم العليا دينا أو عقيـدة أو عرفا أو تقليدا أو مذهبا ، لكن هذه جميعا ليست إلا شعارات جوفاء لأنهـا ليست فى الواقع إلا ذرائع لتبرير نوع من أنواع السلوك . ويكاد يكون لكل عمل ولكل سلوك ـ عند رجل مثل هنريك إبسن ـ علّتان: إحداهما ظاهرية وهي تلك التى تتناول العقيـدة أو العرف أو التقليد ، وثانيتهما باطنية وهي تلك التى تنتج من نوازع النفس مثل حب المال وحب المرأة وحب السلطة . والعلة الظاهرية هى التى يضفيها الأفراد والطبقات على سلوكهم ، والعلة الباطنية هي التى يسدلون عليها ستارا كثيفا . العلة الظاهرية تبدو منبلجة وهاجة فى النزعـة الرومانسية ، والعلة الباطنية هى التى يحـاول أصحـاب المذهب الواقعى أن يظهروهـا فيهتكوا ذلك الستار الكثيف الذى أسدله أصحاب الخيال الرومانسى على هذه النوازع المادية الحقيقية.

وهنريك ابسن فى ذلك يكاد يتبع نيتشه فيما ذهب إليه حين قال إن قواعد الخلق وهذه التقاليد والأوضاع المعروفة ، وتلك الأمثلة العليـا التى نتخيلها ؛ ماهى إلا اصطلاحات تواضعت عليهـا فئة خاصة من الناس لـكى تبرر بهـا سلوكها . رأى هنريك إبسن أن العالم فى عصره كان مسوقا إلى الإيمان ببعض المبادىء الخيالية ، وأن الناس لا يقفون عند كل مبدأ ليقيسوه بمعاييرهم الخاصة، وليختبروه ويجرّبوه ، وليوازنوا بينه وبين المبادىء الأخرى ، لذلك يؤخذ الناس فى نشوة من نشوات الخيـال ، وينساقون إلى التعلق ببعض المبـادىء يحسبون أنها قد هبطت عليهم من السماء ، ويشفقون أن يجددوا فى أوضاعهم السياسية والاجتماعية لأنهم مرتبطون بما يسمونه عرفا أو عادة أو تقليدا. لذلك أراد إبسن فى مسرحياته أن يبصّر الناس بالفروق بين العلل الظـاهرية وبين العلل الباطنية ، بين الوهم والواقع، بين القول والعمل، بين النفاق والأمانة .»

* * *

ولنضرب مثلا لتمثيليات هنريك ابسن مسرحية « عدو الشعب » . فهو فى هذه المسرحية يصوّر لنا ماوراء الديمقراطية ومذاهبها البراقة من حقائق الحياة.

إنه يعلم أن الناس فى عصره كانوا مسوقين إلى نظم من الحكم سموها « ديمقراطية » وأنهم عاشوا من أجلها ودافعوا عنها لأنها كانت عندهم المثل الأعلى . ثم هو يعلم أن قوما يعيشون وهم يحسبون أن النظام الديمقراطى البرلمانى هو أحسن نظام أخرجته الحياةالسياسية العامة ، وأن كثيرا منهم ينظرون إلى حياة المدينة الجديدة كما ينظرون إلىالجمهوريات الفاضلة منحيث الأمانة والنظام وحسن التدبير . نقول إنه يعلم كل ذلك . لكنه فى مسرحيته « عدو الشعب » يحاول أن يبصرنا بالحقائق التى تضطرب فى بلدة ظاهرها آمن مطمئن ، وباطنها غير آمن ولا مطمئن . فهو يبصرنا بنفسية المسيطرين على هذه المدينة ، وهو يكشف لنا عن مثالبهم وسيئاتهم ، فاذا نحنأمام سلسلة من الإجرام والأنانية وحب النفس وإذا أمر الحكومة فى هذهالبلدة موكول إلى الأقوياء ممن لاذمة لهم ولاضمير ، وإذا جمهور المثقفين ينقادون وراء الدهماء ، وإذا حياة الديمقراطية ملأى بالرشوة والفساد ، وإذا الناس جميعا يسمون المصلح الذى أراد الإصلاح « عدو الشعب » .

لقد حدثت حوادث المسرحية فى بلدة من بلاد النرويج ، وهى حوادث صغيرة دقيقةخاصة لكنها تحمل رمزا لتفكير عالمى عام . نقول إنها بلدة من بلاد الجنوب فى النرويج يقصدها الناس للاستشفاء لأن بهاماء يتفجر من ينابيع حارة . ويحسب الناس أنفى ماء الينابيع شفاء للجسم فيقبلون عليها من كل فج يريدون أنينعموا بمائها . لكن الطبيبالذى يوكل على هذهالحمامات يكشف أمرا ذا خطر . يكشف أن ماءها ملوث وأنها مستمدة من نبع اسن عطن تملؤه الجراثيم ، وأن فى بقاء هذه الحمامات خطرا على الصحة العامه . ثم إنه يحاول الإصلاح فيكتب تقريراً عن طرق إصلاحها وعن تكاليفه ، فيعارضه أخوه الأكبر وهو عمدة المدينة ورئيس بلديتها وصاحب أكبر نصيب مالى فى المشروع . وتشتد المعارضة ويؤيد أخاه الموظفون وأعضاء المجلس البلدى لأنهم يخشون أن ينفض الناس عن مدينتهم إذا هم عرفوا أن مياهها ملأى بالجراثيم ، وبذا تسوء سمعتها وتكسد سوقها . ويحدث الكفاح بين

الأخ الأكبر والأخ الأصغر أى بين العمدة والطبيب . ويستثير العمدة الجماهير ويقلّب عليه كل عوامل الدس والفتنة، فتنقلب عليه الصحف، ويقلب له العمال ظهر المجن بعد أن كان قد وعده كبيرهم بمعاونته ، ويستهزىء به الموظفون ويلقبه الناس « عدو الشعب » .

ويتجلى لنا فى هذه المسرحيه الأساس المسرحى عند هنريك إبسن . فهناك رمز واضح : فقد أراد أن يشبه الحضارة الحديثه بهذا الماء الآسن العطن الذى كانت تقوم عليه هذه البلده الطيبة الوادعة المطمئنة . وهذا الطبيب قد كشف اخيرا أن هذه الحياة الوادعة تخفى وراءها هذا الماء الآسن الذى تملؤه الجراثيم، كما تخفى بعض المثل العليا فى السياسة والأدارة حقائق الحياة المريرة. وليست الحياة العامة عند هنريك إبسن إلا كمثل ذلك . فهى مظهر خلّب ، لكنك إذا بحثت وراءه روعك منه أنه يخفى هذه الحقائق المريره .

* * *

وإذا أنت حاولت أن تحلل مسرحية « الأشباح » وجدت أنها قد كتبت على هذا النسق : فنحن فى هذه أيضا فى بلدة نرويجية هادئه . ونحن أمام سيدة نعلم أنها قد فقدت زوجها ، وأنها تحرص كل الحرص على أن تحتفل بذكراه ، بل لقد شيدت ملجأ لليتامى احتفالا بهذه الذكرى ، ونعلم بعد قليل أن لها ولدا فى باريس وأن فى بيتها تابعا وابنته . ويخيم الهدوء أمامنا ونطمئن إلى هذا الوقار الذى يسود ذلك البيت ، ونطمئن أيضا إلى ذكرى رب البيت الذى توفى وهو ينعم بحسن الذكر وباحترام جميع أهل البلدة .

ثم تمضى المسرحية فماذا ينكشف لنا من وراء كل ذلك : أما أول ما نفجأ به فهو أن رب البيت ـ غفر الله له ـ لم يكن إلا عربيدا ينزو على الخوادم ويستحل لنفسه المال الحرام . ثم نفجأ أيضا بأن ربة البيت كانت تعلم من أمره كل ذلك لكنها حاولت فى حياته وبعد مماته أن تدعى أنه كان رجلا فاضلا كريما متطهرا حتى لا تؤذى أسرتها ولا تؤذى ولدها . ثم إنها كانت تعلم أن كل مال تركه زوجها فهو مال حرام فأنفقته فى سبيل البر وبنت بالبقية الباقية

منه ملجأ لليتامى . ونفجأ أيضا بأن ولدها ، وقد تعلم فى باريس بعيدا عن جو أبيه ، مصاب بداء سرى عضال ورثه عن أبيه ، وأن الأطباء فى باريس قد شخصوا هذا المرض السرى ، وأنه لا بد أن يلقى حتفه بعد قليل . ثم تنكشف لنا حقيقة أخرى وهى أن الخادمة التى فى البيت لم تكن إلا ابنة غير شرعية للزوج الراحل . وتنتهى المسرحية بعد ذلك بأن يحترق الملجأ ويحترق معه كل المال الحرام .

الأصل فى هذه المسرحية هو التمسك بالوقار أو الحـــرص على حسن السمعة (١) وهو ما يتكلفه أبناء الأسر الفاضلة ، ويسدلون به ستارعلى الحقائق المريرة التى تعتمل فى الأسرة . وليست نزوات هـذا الزوج ولا المرض السرى الموروث الذى انحدر إلى ابنه ولا كسبه الحرام إلا الأشباح التى ظلت تطوف بهذا البيت عدة سنين . وهذا هو الرمز الذى توحى به مسرحية الأشباح. وهذا مثل آخر للطريقة التى اتبعها هنريك إبسن فى الإنتاج المسرحى .

* * *

وتلحظ نفس هذا الأسلوب المسرحى الذى يجمع بين الواقعية والرمزية فى « بيت الدمية » . فقد اعتادت النساء فى النرويج أن يتخذن لأنفسهن دمى . وقد تقتنى هذه الدمى فتيات صغيرات لكنهن يحتفظن بها بعد أن يكبرن ويدخلن بها إلى بيوت أزواجهن . وتدلـل هذه الدمى وتبتنى لهـا بيوت صغيرة ذات سرر وأستار ، وتحرص الفتيات أو السيدات على العناية ببيوت الدمى ويعاملنها معاملة العرائس ويناغينها بمختلف الألحان . وهذه الدمى الصماء تتحرك بارادة الإنسان . فهى بطبيعتها لا تدرك شيئا ولا تعى شيئا . وهذا هو الرمز الذى أراده هنريك إبسن حينما كتب « بيت الدمية » . فانه لم يرد إلا أن يصور المرأة بين يدى الرجـل وكأنما هى دمية لا تعى شيئا ولا تدرك شيئا . إنها كالدمية تتحرك وتروح وتغدو لا بارادتها ولكن بارادة الرجل .

* * *

(١) Respectability

كذلك تستطيع أن تدرك الواقعية والرمزية في مسرحية أخرى لإبسن هي « كبير البنائين » فهذا رجل أصاب شأوا عظيما في « فن البناء » . وقد بدأ حياته وهو يتطلع إلى المثل العليا ، فكان يبني الكنائس ويجد في بنائها رضاء نفسيا عظيما وتقربا إلى الله تعالى . ثم إنه لما بلغ دور القتوة رأى أنه يستطيع أن يعمل عملا مثمرا ، فبنى للناس منازل يأوون اليها ، وأعد لهم كثيرا من وسائل الراحة ، وأسباب الطمأنينة والسلامة . وأصبح منزله موطن القصاد يلجأ اليه الناس حينما يودون أن يبتنوا منازل صغيرة جميلة منعزلة . وأصبح طيب السمعة محترما مرموقا يعتبره القوم مثلا أعلى في الأمانة والإخلاص .

وتتقدم بالرجل السنون ويصبح « كبيرا للبنائين » وهو مركز عظيم . لكنه يحس وهو كهل أن بنفسه عاطفة أو شعورا أو نزوة تلح عليه . لقد أصبح رجلا ذا كبرياء ، ويتلفت وراءه فيرى أنه لم يفعل شيئا يرضى كبرياءه ، بل يجد أنه قد أضاع عمره وهو مقيد إلى زوج ثاكل لا تعنى إلا بالدمى ولا تحرص إلا على راحته ، ثم يتعرف بفتاة تضفي عليه من شبابها أملا حلوا وتبعث في نفسه ما كان يفتقده في زوجه من الحرارة والنشوة . ثم هو يفكر في إرضاء كبريائه وفي كسب إعجاب هذه الفتاه فيشيد صرحا شامخا ليدلل به على قدرته العظيمة في فن البناء .

ويجتمع الناس ومنهم فتاته في حفل عام حين يفتتح هذا الصرح ، ويصعد هو إلى أعلى درجات برجه الشامخ . ويمسك بعلم من الأعلام يريد أن يلوح به لفتاته من أجواز الفضاء . ثم ماذا تكون الخاتمة؟ تكون الخاتمة أن يهوى كبير البنائين فيسقط إلى الأرض مهشما ، ويجتمع حوله الناس فاذا هو جثة هامدة . تلك نهاية التشبث بالمثل الأعلى عند رجل مثل هنريك إبسن ! فان كبير البنائين يمثل عصورا ثلاثة في حياة كل شخص . أولى هذه العصور أن يكون صاحب مثل أعلى يكرس له حياته ، وثانيها أن يكون منتجا يريد أن يخدم من حوله ، وثالثها أن يرضى كبرياءه الشخصي . ولكن كل ذلك ينتهي إلى الضياع والبوار .

ولا تحسب أن محاضرة شو فى سنة ١٨٩٠ ولا دعايته لهنريك إبسن قبل هذه السنة وبعدها قد مرت من غير تعليق عليها. فقد قامت فئة كبيرة من أنصار القديم تدافع عن الفن كما أنتج شيكسبير وكما مثّله هنرى إرفنج . وقد مثلت مسرحية « الأشباح » مثلا على مسرح خاص بانجلترة فى سنة ١٨٨٩ فكان نقدها فى الصحف عنيفا صاخبا خرج فى أحيان عن جادة العرف الصحفى. وانظر إلى هذه الكلمات التى سطرها أعداء « المسرحية الجديدة » من النقاد . « إن مسرحية الأشباح ليست إلا خرارة مفتوحة وقرحة كريهة ناغرة لم تضمد . . . . كريهة إلى أبعد حد . . . داعرة تمد للناس طريق الضلال . . . قمامة وحثالة . . . إنها خليط من الوسخ والقذارة مما لم يسمح له قبل الساعة أن يدنس خشبة المسرح الإنجليزى . » أما المعجبون بفن هنريك أبسن فقد وصفوا بأنهم « قوم مغرمون بكل رجس . . . يحاولون إرضاء ميولهم الفاسقة بما يسمونه فنا . . . ولا يكاد يوجد من يهتم بهذا الزيف الاسكندناوى إلا شرذمة صغيرة العقل سخيفة التفكير . . . » وهكذا ندرك إلى أى حد كان أنصار القديم يحاولون أن يصدوا هذا التيار الجديد. وتدرك كذلك أن برنارد شو كان يكيل الصاع صاعين حين كان ينقد شيكسبير بمثل ما أسلفنا عليك من كلماته . والحق لقد ذكر برنارد شو فيما بعد أنه لم يكن ليقوم بهذه الضجة حول شيكسبير لو لم يرد أن يقاوم نقد أنصار القديم لمسرحيات هنريك إبسن .

* * *

ماذا كان أثر إبسن فى المسرحية الأوروبية بوجه عام ؟ نريد أن نقف وقفة قصيرة للاجابة على هذا السؤال حتى نقدر الآثار التى خلفها إبسن فى المسرحية الواقعية بوجه عام لتكون هذه مقدمة لحديثنا فى فصل مقبل عن أثر إبسن فى قواعد الفن المسرحى عند برنارد شو بوجه خاص . فى خلال المائة الماضية : أى من سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٩٦٠ حدثت حركات فى الفن المسرحى بدأت جميعا بمسرحيات هنريك إبسن ولم تنته إلى الساعة التى نحن فيها . وهذه

الحركات يتداخل بعضها فى بعض ويتوالى بعضها إثر بعض ، كل منها خارجة عن سالفتها ومقدمة للاحقتها فى دورة تذكر الإنسان بدورة الجدل عند هيجل . فقد اقترنت الحركة الواقعية(١) الأولى بالحركة الطبيعية (٢) ثم مضت الحركة الطبيعية الواقعية فى سبيلها واقترنت بحركة أخرى هى حركة التعبير (٣)، ثم مضت هذه الحركة أيضا فى سبيلها واقترنت بالحركة الرمزية (٤) ، ومضت هذه أيضا فأصبحت سيريالية (٥) . وليس معنى هذا أن كل واحدة من هذه الحركات كانت محدودة الزمان والمكان ، أو انها كانت مستقلة قائمة بذاتها ، بل لقد كانت كل واحدة متداخلة فى الأخرى. وتكاد هذه المبادىء أو الحركات الخمس تجمل لك اتجاهات المسرح فى السنين المائة الأخيرة

وحينما نقول اتجاهات المسرح فاننا نعنى الفن المسرحى ولا نقصد سقط الكلام ولا سقط اللفظ ولا سقط الفن الذى ملأ الدنيا وشغل الناس بمسرحيات عابثة صاخبة لا قيمة لها . لا نقصد هذه التمثيليات التى يكتبها بعض المؤلفين ليرضوا أصحاب المسارح ، وليدروا على أنفسهم مكسبا خالصا متصلا ، لا نقصد هذه الاستعراضات البراقة التى تضج بموسيقى الجاز والتى اشتهر بها المسرح الأمريكى فى فترة من الفترات ، وانما نقصد سلسلة كريمة من كتاب المسرح ومخرجيه من امثال إبسن فى النرويج وإميل زولا فى فرنسا وأوجست ستر ندبرج فى السويد وبيراندللو فى ايطاليا ثم جان بول سارتر فى فرنسا . فهؤلاء وكثير غيرهم يمتازون بأنهم اتجهوا الاتجاه الواقعى، ثم يمتاز بعضهم بأنه مال إلى الإخراج الطبيعى ، أو إلى التفنن فى التعبير ، أو إلى استعمال الرمز ، أو إلى هؤلاء جميعا . وليس تاريخ المسرحية الأوروبية فى المائة سنة الأخيرة الا تقلبا بين هذه الاتجاهات .

ثم يجبهك من تاريخ المسرحية فى هذه السنين المائة أنها ادخلت فى الفن

Realism (١)
Naturalism (٢)
Expressionism (٣)
Symbolism (٤)
Surrealism (٥)

المسرحى تمثيليات الفكر ، فأصبحت الأفكار والآراء والفلسفات التى تتصل بحياة المجتمع مما تفيض به المسرحيات . وأصبح المؤلف القدير هو الذى يستطيع أن يختار هذا الكفاح الفكرى وأن يعرضه على المسرح ، وأن يلفت إليه الناظرين ويعلق به خيالهم . وكانت الموضوعات المطروقة تتناول ثلاثا : العلاقات الجنسية والدين والاقتصاد . وهذه السلسلة الكريمة من المسرحيين الذين أشرت إليهم قد استطاعوا أن يثيروا التفكير فى كل هذه الموضوعات . فأصبح المسرح مكانا يؤمه الناس لا للمتعة المادية فحسب بل للمتعة الذهنية أيضا . وقامت فى الفن المسرحى معايير تعنى بهذه المتع الذهنية ، وتقيس مقدار نجاح المسرحية باثارتها الموضوعات التى تمت بأسباب لحياة المجتمع الذى ألفت فيه . وقد قيل إنه يجب أن تتوافر عناصر ثلاثة فى كل مسرحية جديدة حتى تكون ناجحة . وأول هذه العناصر أن يؤلف المؤلف قصة معقولة تستقيم وأصول المنطق ، وثانى هذه العناصر أن يكون حوارها حول موضوعات لها خطر فى نفوس السامعين أو الناظرين ، وثالثها أن يشترك السامعون والناظرون فى الأفكار التى تروح وتغدو وتعلو وتهبط فى هذا الحوار . وهذه العناصر الثلاثة هى التى تتوافر فى مسرحيات هؤلاء الكتاب العظماء من المسرحيين من أمثال الذين أشرنا إليهم .

* * *

ظل برنارد شو ناقدا للسترداى ريفيو من سنة ١٨٩٤ إلى سنة ١٨٩٨ رأيت وقد كيف أجهد نفسه فى الدعاية لنفسه ، وفى نقد شيكسبير ، وفى الدفاع عن هنريك إبسن . وكان قد بلغ الثامنة والأربعين ، فأحس ثقل هذا النقم الذى آلى على نفسه أن يمحو به مدرسة من مدارس المسرح وأن يثبت به مدرسة أخرى . لكنه كان قد أجهد نفسه وأتعب أعصابه . وفى أخريات سنة ١٨٩٧ ، وقع من على دراجة فلزم الفراش ردحا من الزمن . وفى ٢١ من مايو سنة ١٨٩٨ ظهرت له مقا فى الستر دى ريفيو يودع فيها النقد الأدبى بهذه الكلمات :

« إن الإنجليز لا يعلمون ما يجب أن يفكروا فيه إلا إذا تولى الناس تعليمهم الرأى الصواب بمثابرة لا تعرف الملل . لقد مضت على سنون عشر وأنا أدوى فى سمع الجمهور بعناد وصفاقه ليس لهما مثيل . لقد طالما قلت إننى رجل خارق للعادة من حيث الذكاء ، وصفاء العزيمة ، والمهارة ، وقد أصبح هذا فى هذه الأيام بعض ما يؤمن به الرأى العام فى إنجلترة ، ولن تغير من ذلك قوة فى السماء ولا فى الأرض . لقد أستطيع الآن أن أنقد وأن أهوى ، وأستطيع أن أطبخ الكلام طبخا وأن أقول البديهيات ، وربما أصبحت غرضا للنقد عند ذوى النفوس الزكية من أبناء الجيل القادم ، لكننى أعلم أنهم لن ينالوا من سمعتى ، فقد بنيت ثابته صلدة ـ كما بنيت سمعة شيكسبير ـ على قوائم من التكرار ...

« ... إننى لا أستطيع أن أسوغ لنفسى كيف قضيت أربع سنوات من حياتى وأنا ناقد مسرحى ، والآن فاننى أقسم أننى لن أحتمل ذلك بعد اليوم ، فلن أخطو عتبة المسرح . لقد أجهدت هذا الموضوع فأفضت فيه ، وكذلك أجهدت نفسى » .

* * *

ولكى ندرك جانبا من حياة برنارد شو الخاصة فى تلك الفترة التى قضاها وهو ناقد ينبغى أن نطلع على حياته الخاصة حتى نقدر أى انقلاب حدث فى حياته فيما بعد . ولقد كان يعيش خلال هذه السنين مع أمه فى ميدان فيتزروى رقم ٢٩ بلندن . كان يعيش فى ظروف وأحوال لا تعرف النظام ولا النظافة . فقد كان يشتغل فى حجرة صغيرة جدا تتسم بالقذارة وقلة النظام . وكانت نافذة الحجرة مفتوحة ليلا نهارا ، صيفا وشتاء ، تتجاوب فيها أصداء الريح ، وتبدو فيها آثار الغبار والصماخ والأوساخ . وكان التراب يعلو كل ما فى الحجرة من كتب وأثاث وأوراق ، وكان على المنضدة أكداس من الرسائل والجرائد والظروف والخطابات والأوراق والأقلام والمحابر والزبد والسكر والتفاح والشوك والسكاكين ، فقد كان برنارد شو يقرأ ويكتب ويأكل

وينام فى هذا الحيز الضيق ، فاذا هو قرأ وكتب وأكل ونام ، خرج يجوب طرقات لندن بنعليه السميكتين . حتى إذا بلغ به الجهد مبلغه من طرقات لندن ومتنزهاتها ومتاحفها ومندياتها رجع إلى هذا الركن الضيق من أركان لندن ليقرأ ويكتب ويأكل وينام مرة أخرى .

وكان يقرأ : كان يقرأ وهو جالس يطعم الطعام ، وكان يقرأ وهو قائم يرتدى ملابسه . أو يخلعها وكان يفتح الكتاب أمامه على المنضدة ومايزال به حتى يكاد ينتهى منه ، ثم يأتى بكتاب آخر فيكدس هذا فوق ذاك ويقرأ الكتابين معا . ثم مايكاد ينتهى من الكتاب الثانى حتى يضم إليها كتابا ثالثا فرابعا فخامسا حتى تعلو المنضدة أكداس من الكتب القيمة ، وحتى يتجمع التراب والصماخ عليها ، كل ذلك وهو قانع بأن يقرأ حيث يأكل ويأكل حيث ينام .

أما أمه فلم تكن تلقاه إلا قليلا ، وأما خادم البيت فكانت قد يئست من تنظيف هذا الجحر الضيق الذى يأوى إليه برنارد شو . لقد وصف نفسه فى هذه الفترة بهذه الكلمات : « إننى أسلمت نفسى منـــذ زمن طويل للتراب والقاذورات والفاقة فى كل مايتصل بالمظاهر . فلو أن سبعا من الخوادم أوتين سبعا من المكانس ثم قضين سبع سنين فى كنس هذا الجحر الذى أجلس فيه لما استطعن أن يبدلن من معالمه شيئا » . ووسط مظاهر الفاقة التى كانت تخيم على هذه الدار كان يعيش برنارد شو ، ولم يكن يزوره فيها أحد إلا خال له كان طبيبا اعتزل صناعته وأصبح مثل برنارد شو مثلا للفاقة والإملاق .

ومن هذا الجحر الضيق القذر الذى وصفنا كان يكتب برنارد شو مقالاته التى تنشرهــا الستردى ريفيو ، وكان يخرج ليجوب أنحاء لنــدن ، ويرى معارض الفن فيها ، ويغشى مجتمعات الفابيين وفى هذا الجحر الضيق أيضا بدأ يؤلف مسرحياته الأولى . وقد ألف سبع مسرحيــات من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٨٩٨ (١) . وهذه المسرحيات التسع هى التى حاول أن يطبق بها شهرته

(١) أسلفنا فعددنا هذه المسرحيات . أنظر ص .

فى النقد المسرحى وحاول أن يغزو بهـا عالم المسرح فى لندن ، ولم تأت سنة ١٨٩٨ حتى بدت بوادر هذا الغزو . لكن هذه البوادر لم تأت من إنجلترة ولا من لندن ، لكنها جاءت من أمريكا ومن نيويورك . وكان أول ظاهرة لهـا ألفان من الجنيهات انتقلت ببرنارد شو من هـذا الجحر الضيق إلى شقة جميلة فى عمارة من أحسن العمارات فى لندن يومذاك .

(١٠)

مسرحيات الفكر

وموضعه من تاريخ التأليف المسرحي

نريد في هذا الموضع من حديثنا أن نفصل بعض التفصيل موقف برنارد شو من الكتابة المسرحية : ذلك بأننا سنمضي بعد هذا الفصل في إيراد كثير من مغامراته في الكتابة ، فلنعتبر هذا الفصل إذن مقدمة للكلام عن مسرحيات برنارد شو . ثم إننا وقد تحدثنا عن هنريك إبسن ، فينبغي أن نتحدث بقليل من التفصيل عن موضع برنارد شو في تاريخ الكتابة المسرحية . وقد يعتبره بعض النقاد رائداً آخر للمسرحية الجديدة ، ويعتبره غيرهم آخر كتاب العصر الفكتوري في التأليف المسرحي . والحق أن برنارد شو في نظرنا ـ يعادل هنريك إبسن في زيادته للتأليف المسرحي فبرنارد شو يحتل في تاريخ «الكوميديا» أو الملهاة ما يحتله الكاتب النرويجي في تاريخ «التراجيديا» أو المأساة . فاذا تبعهما بعد ذلك كتاب متأخرون اتجهوا إلى أطوار أخرى من الكتابة المسرحية فلايزال الاثنان يمثلان مركز الريادة بالنسبة لكتاب القرن العشرين .

ثم ينبغي قبل أن نمضي في هذه المقدمة أن نسارع فنضع برنارد شو في موضعه من حيث الرومانسية من ناحية والواقعية من ناحية أخرى . وفي هذا نعود إلى ما أثبتناه حين تحدثنا عن برناد شو كمفكر محترف . فالحق أن برنارد شو يحتل مكانته لأنه عدل بالمسرحية عن الخيال الرومانسي إلى الخيال الذي يؤدي الى التفكير الواقعي . فعلى الرغم من أن مسرحيات برنارد شو ملففة في خيال تمثيلي إلا أن أفكاره كانت دائما واقعية . لقد يمضي في طريق طويل من الخيال والنكات والسخرية والعبث ، ولكن كل ذلك كان ينتهي أخيرا بأن كان له أفكار وآراء بعينها يريد أن يدافع عنها ويثبتها في طيات هذا التمثيل . وهذا التفكير الواقعي الذي يلفه هذا الخيال وتلك الفكاهة . .

هو نفسه التفكير الواقعي الذى كان يميز مسرحيات هنريك ابسن لولا أن خيال إبسن كان ملفغا فى الأسى والحزن وكثير من التشاؤم .

* * *

وفى حديثنا عن مسرحيات الفكر التى شاعت فى أوروبا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والتى أسلفنا فقلنا إن أول رائد لها كان هنريك ابسن لا بد لنا أن نعالج كيثرا من الموضوعات العامة التى تتصل بالمسرح وبالفن المسرحى الموضوعات هى بعض النقائض التى كشفها برنارد سو فى حياته كناقد ، وهى تشبه كثيرا نقائض الجدل عند فريدريك هيجل وكارل ماركس. وقد كانت هذه النقائض مسرحا جال فيه ذلك المفكر المحترف الذى درسنا بعض أفكاره فيما سلف . وأول هذه النقائض هو الفن التمثيلى وهل يكون له قيمة اجتماعية أولا يكون ؟ وثانيها : أيكون أجدى على كاتب المسرح أن يتبع الأصول القديمة أم يبتدع أصولا أخرى جديدة ؟ وثالثها هو الاختلاف بين اتجاهات المسرح فى اول القرن التاسع عشر واتجاهاته فى منتهى هذا القرن . نقول إن حديثنا عن برنارد شو الناقد والكاتب المسرحى لابد أن يتضمن كل هذه النقائض لأنه هو نفسه كان يمثل وجهة عامة ، ولأنه حين فكر فى هذه النقائض وازن بين كل أمر ونقيضه ، ثم إنه كان يريد أن يهدم الفن المسرحى من قبله ليقيم فنا مسرحيا جديدا .

نحن إذن مقبلون على دراسة لا لبرنارد شو وحده ، ولا لنقدات برنار شو وحدها ، وانما نحن مقبلون على دراسة فترة من تاريخ الأدب المسرحى بوجه عام ، فسوف يقتضينا هذا الحديث أن نذكر شيئا عن أصل المسرحية ، وعن مقامها ، وسوف يقتضينا أن نذكر شيئا عن شيكسبير ، وسوف يقتضينا أن نرجع إلى ما أسلفنا عليك من اتجاهات هنريك ابسن . فقد كان برنارد شو من بعض وجوه ظاهرة أدبية تحولت فيها المسرحية من أدب يشبه أدب شيكسبير إلى نوع آخر من الأدب يشبه أدب هنريك ابسن .

* * *

أما الموضوع الأول الذى نريد أن نتحدث عنه فهو العلاقة بين الأدب والفكر ، ثم بينه وبين الإصلاح الاجتماعى . هل يكون للتمثيل وزن فى التفكير وفى الإصلاح الاجتماعى أولا يكون للفن ولا للتمثيل صلة بمشكلات الفكر ولا المجتمع ؟ ذهب كثير من النقاد إلى أن الفن يجب أن يكون خالصا لوجه الفن ، وأنه ليس للفنون غرض فكرى ولا خلقى ولا دينى ولا علمى . وإنما الفن عند هؤلاء تعبير عن حياة الإنسان ، ويستوى عند ذلك الخبيث والطيب . ويذهب هؤلاء إلى أن التعبير عن حياة الإنسان يجب أن يكون تعبيرا حرا كاملا بحيث لا يتقيد بهذه الحدود الفكرية ولا الخلقية ولا الدينية ولا الاجتماعية التى يراها غير أصحاب الفن . لذلك بلغ التعبير الفنى مبلغا من الحرية فى أحيان لا ينطبق مع ما ينبغى أن يتبعه المجتمع من نظم وخلق وأوضاع. ولذلك خرجت من ايدى المتفننين آيات من التهتك والفجور لا يقرها أهل الخلق ولا أهل الدين .

يذهب أصحاب نظرية الفن للفن - ويؤيدهم فى ذلك النفسيون المحدثون - إلى أن نفس الإنسان تنطوى على غرائز ورغبات ودوافع ، وأن هذه جميعا تصطخب فى نفس الأديب أو المتفنن تريد أن تعبر عن نفسها . أو قل إنها تجارب لابد أن تلقى شكلا من الأشكال أو وضعا من الأوضاع ولا حرج بعد ذلك إذا كانت هذه الرغبات تختلف وما تواضع عليه أهل الفكر ، أو دعاة الاصلاح الاجتماعى ، ولا حرج إذا كان التعبير عنها نابياً لا يتفق وأصول الدين ولا مبادىء الخلق . وبعض المتفننين فى بعض عصور الفن للفن كعصر النهضة يسلكون سبيل إلا باحة المحض يريدون أن يعبروا عن هذه التجارب النفسية ولا شأن لهم إذا كانت ضارة بالمجتمع أو غير ضارة به . وهم فى هذا لا يحاولون أن يحلوا مشكلة احتماعيه فى ذاتها ، ولا أن يخلقوا جوامن التفكير العلمى أو الخلق ولا أن يهيئوا المجتمع للاصلاح الاجتماعى .

ننتقل الآن إلى الأدب الانجليزى بوجه عام . ففى الأدب الإنجليزى تقاليد خاصة تميل إلى الناحية الخلقية ، وتتجنب التهتك والفجور الذى قلت إنه من

لازمات نظرية الفن للفن . يقول فى ذلك الاستاذ أيفور إيفانز: «ثمة عنصران قد بقيا فى الشعر الانجليزى ، ولقد يبدوان متناقضين ولكنهما مرتبطان ارتباطا وثيقا بهذه العاطفة : عاطفة الاهتمام بالفرد . أحدهما الشعور الدائم بالواجب الاخلاقى ، وهو شعور ماثل فى أذهان الشعراء الانجليز ، والآخر هو روح الفكاهة . وقد ظل هذان الباعثان مسيطرين على الشعر الانجليزى مايقرب من ألف سنة ، فلابد من الاعتراف بأنها جزء من الخلق القومى الانجليزى » .

ويمضى الاستاذ إيفانز فيذكر أن بعض أصحاب الأقلام من الإنجليز قد حاولوا أن يتحللوا من الواجب الأخلاقى ، متابعين فى ذلك الحياة الفنية التى تنادى بنظرية الفن للفن فى فرنسا ، ولكنهم أخفقوا ، وضرب لذلك مثلا الشاعر سوينبرن الذى بدأ وهو يريد أن يعنى بالشعر لذاته ، لكنه انتهى بأن اصطبغ شعره بالصبغه الأخلاقية .

وهذا الذى لحظه الاستاذ ايفانز عن الشعر الانجليزى نستطيع أن نلحظه نحن عن المسرحية الانجليزية فلاشك فى أن المسرحية الإنجليزية تتضمن معنى خلقيا منذ أن نشأت فى انجلترة . فكما أن المسرحية الإغريقية قد نشأت بعد الحروب الفارسية وهى ذات مغزى دينى فكذلك نشأت المسرحية الانجليزية على المعانى الدينية منذ المبدأ . وقد بدأت فى القرن الثالث عشر « بمسرحيات المعجزات [1] » ، ومثلت فى الكنائس أمام المصلين قصص من التوراه والإنجيل . وكان العامة يشهدون قصة المسيح وقصة نوح وقصة ابراهيم وموسى ، وكان الشيطان يخرج إلى المسرح وهو غرض للهزء والسخرية . وكانت شخوص المعجزات دائما تنقسم قسمين : فمنها شخوص خيرة تمثل الأنبياء والشهداء والقديسين والمؤمنين ، ومنها شخوص شريرة تمثل الكافرين وغير المؤمنين . ولاشك فى أن مسرحيات المعجزات هذه هى الأصل فى الأدب المسرحى فى إنجلترة . أما الشيطان فقد تطور بعد ذلك فأصبح شرير الرواية ،

(١) Miracle Plays

وأما المؤمنون فقد أصبحوا هم الأبطال، وأما الكافرون فقد أصبحوا ضحايا الشر من عباد الشهوة أو المرأة أو المال .

على أن مسرحيات المعجزات هـذه قد انتقلت خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلى مرحلة أخرى بدأ فيها الرمز ، وتطورت درجة قربت فيها من الأدب الدنيوى . ذلك بأنها درجت إلى عصر آخر سميت فيه « مسرحيات الخلق (١) » . فقد رأى أهل الكنيسة أن يمثلوا الفضائل والرذائل على مسرح الكنيسة . فكانوا يختلقون شخوصا تمثـل الإيمان والصبر والعفة وغير هـذه الفضائل . وكانوا يختلقون شخوصا أخرى تمثل الكفر والشهوة والغيرة وغير ذلك من الرذائل . وفى هـذه المسرحيات الخلقيـة كانت تصطرع الفضائل والرذائل ، وكانت تخرج الفضيلة دائما منتصرة مزدهرة أما الرذيلة فكانت تخرج مدحورة مهيضة الجناح .

ذلك إذن عنصر هام من عناصر المسرحيـة الإنجليزية ، وهو العنصر الذى نشأت منه فى القرنين الثـالث عشر والرابع عشر ، وهي فترة فى تاريخ الأدب الإنجليزى جديرة باهتمامنا : لأن الأدباء الإنجليز سوف يتلفتون دائمـا إلى تلك الفترة من تـاريخ أدبهم يستلهمونها الوحى . وسوف ينحدر ذلك الأصـل الخلقى حتى يجعله ناقد مثل الاستاذ ايفانز عنصرا من عناصر التقاليد . وإذا صح ما قاله برونتيير من أن عنصر الأدب تتأثر دائما بعوامل التطور ، فان نظرية التطور فى الأدب تنطبق على أدب المسرح الإنجليزى كل الانطباق . فقد طبع الإدب المسرحى فى إنجلترة بهـذا الطابع الدينى الخلقى فى أغلب عصـوره . انحرف فى أحيان إلى الحرية والإباحة والتحلل من قيود الدين والخلق، لكنه كان يستقيم ثانية وما تمليه تقاليده الأولى . بل قل إن الأدب الإنجليزى جميعه كما ذكر الاستاذ ايفانز عن الشعر ـ قد تأثر مثل هذا التأثر لأنه كان ينطوى على عناصر دينية حتى فى أشد أيامه تهتكا. فلا عجب إذا قدمنا حديثنا عن برنارد شو الكاتب المسرحى بكل هذا الكلام فسنرى أنه كان من بين الذين تلفتوا إلى

(١) Morality Plays

الأدب المسرحي أيام الكنيسة ، وسنرى أنه أول من دعا إلى إحلال قصصه التمثيلي محل الوعظ الكنسي في العصر الحديث .

* * *

حينما ساد فن المسرحية الحديثة أوروبا وبلغ شواطيء إنجلترة ، وحينما درس هنريك إبسن في لندن كانت هناك إذن تقاليد قد نسيت في المسرحية الإنجليزية تتقبل مثل هذا الفن الجديد . وحينما نافح برنارد شو عن هذا الفن كان يستطيع أن يرجع إلى بعض التقاليد الخلقية في تاريخ المسرح الإنجليزي . وهذا عندنا هو أهم الأسباب التي هيأت السبيل لنجاح مسرحيات المدرسة الجديدة التي تزعمها برنارد شو . لقد وجد برنارد شو نفسه أمام متناقضتين من وجهات الأدب المسرحي . أولاهما وجهة الفن للفن هذه التي لا تؤمن بأن للأدب غرضا حقيقيا : اجتماعيا أو فكريا ، ثانيتهما هذه الوجهة الخلقية أو الاجتماعية أو الفكرية . وقد استطاع شو أن يمد ببصره إلى تاريخ المسرحية الإنجليزية القديمة ، وأن يستمد من هذا التاريخ تأييدا للفن المسرحي الجديد . كذلك استطاع أن ينقد شيكسبير على هذا الأساس . فقد رأى أن شيكسبير يمثل عنصر الفن للفن . فلم يكن عند بعض النقاد ــ ومنهم برنارد شو صاحب فكرة فلسفية عامة ولا صاحب مذهب سياسي . بل لقد كان عند هؤلاء النقاد شاعرا من شعراء النهضة . اصطنع أداة للتعبير عن مشاعره ، وحاول أن يرضي العقيدة الشعرية عند الجماهير . وقد حاول كثير غيرهم من أنصار شيكسبير أن يضموا مواعظه الخلقية بعضها إلى بعض ، وأن يخرجوا بفلسفة خاصة عن مآسيه ، لكن الواقع أنه لم يكن يقصد أن يكون صاحب مذهب خلقي ولا صاحب فلسفة خاصة . فنظراته الفلسفية ، وحكمه الدينية مبعثرة هنا وهناك لا يكاد يجمع شواردها إلا ناقد يتعب نفسه . أما برنارد شو فهو نقيض شيكسبير في أكثر هذه الصفات . ففي حين أن شيكسبير لم يتقيد بمذهب خاص ، فان برنارد شو صاحب مذهب اقتصادي هو الاشتراكية ، وصاحب مذهب ديني هو التطور الخالق ، وصاحب مذهب عالمي هو العمل على السلام ؛ ثم إنه صاحب رأي في كل المشكلات

التى تنطوى عليها حياتنا المضطربة الحديثة . وهو يرى أنه لابد أن ترجع المسرحية الإنجليزية كأول ما بدأت فتصبح وسيلة من وسائل الدعاية لكل هذه المذاهب والآراء التى رآها ، وليس الأدب عنده إلا دعاية . فبرنارد شو لايؤمن بمذهب الفن للفن ، ولا يرى أن المسرحية مجرد تعبير عن عواطف الإنسان ودوافعه وغرائزه ، بل يرى أن المسرح كالكنيسة تماما : مكان للدعاية للمذاهب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية . ويخرج شيكسبير من هذه الموازنة وهو مصور صادق عبر عن حياة الناس وعن تجاربهم ، ويخرج برنارد شو وهو داعية صاحب مبادىء يريد أن يمليها على الناس . وهذا يفسر ما أسلفنا عليك من قبل من أن برنارد شو أرادأن يرجع بالمسرحية الإنجليزية إلى حيث كانت فى عهدها القديم .

* * *

لم يكن الناس فى العصر الفكتورى ينظرون إلى المسرح نظرة جدية ، فقد كانوا يعتبرونه إحدى الكماليات . وكان فيما عدا قليل من المسرحيات التى كتبها هنرى آرثر وجونز وبينرو وغيرها يهتم ببهرج القول وبهرج المظهر وبهرج العمل . ولم تكن هناك علاقة واضحة بين الحياة العامة والمسرح . فعلى الرغم من أن القرن التاسع عشر شهد تحولا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا إلا أن المسرح الإنجليزى لم يتأثر بهذه الحركات إلا قليلا . وقد استمرت العناصر الرومانسية تطغى على المسرح ، وظل الذاهبون إلى المسارح يلتمسون المتعة أو اللذة أو الفرجة ، ولا يتوقعون فيها شيئا يتصل بالفكر أو بالدراسة . وكان على المسرح موضوع طغى على كل ماعداه هو موضوع « الحب » فالعلاقة بين المرأة والرجل كانت دائما هى الموضوع الأول والأخير ، وزاد هذا الموضوع وضوحا أن كتاب المسرح من الفرنسيين المعاصرين مثل ساردو كانوا لا يفكرن فى موضوع عداه .

ثم ماهو ذلك الحب الذى شاع على المسرح الإنجليزى والفرنسى على السواء . لم يكن ذلك الحب فى الواقع إلا الدعارة بعينها لولا أنها كانت دعارة

مستترة . فهناك تلك الخدع التى يلجأ إليها الرجال فى تصيد النساء ، وهناك تندر أشخاص القصة بالعلاقات الاجتماعية بين الزوج وزوجه ، وهناك بعد ذلك كلام معسول يخفى أفكارا تمت إلى الغريزة الجنسيـــة بكل سبب من الأسبـاب ، ثم هنـاك ذلك الجو الرومانسى الذى يخلق من المرأة أما ملاكا رحيما أو شيطانا رجيما ، والذى يحوط القصص جميعا بستار خادع لا تكاد تظهر من ورائه حقائق الحياة . تلك كانت المسرحيات الشائعة حينما كان برنارد شو ناقدا لمجلة « الستردى ريفيو » ، وهى مسرحيات كما ترى تشبه إلى حد كبير هذه الأفلام التافهة التى نراها بعض أحيان على الشاشة البيضـاء ، فليست هى فى الواقع إلا فرصا ينتهزها المرتزقة ليظهروا فيها نساء متفتّيات يغازلهن رجال مخنثون . وسينتهى الأمر بهذه الأفلام كما انتهى الأمر بتلك المسرحيات . كلها تذهب هباء .

وخاصم شو هذه الوجهة الرومانتيكيه ونصب نفسه عدوا لهذا « الحب » ، وصرح أنه لم يكن هناك فرق بين هذا الذى يسمونه حبا فى المسارح وذلك الذى يسمونه جريمة الزنا فى المحاكم ، وثار بهـذا التهتك الذى بدا له من فوق المسرح . واتخذ وجهـة تكاد تشبه وجهة المتطهرين حـين ثاروا بالمسارح وأغلقوها . فقد أنكر على المسرح أن يكون دارا للدعارة يذهب إليه الناس ليروا أجســادا نصف عارية ، وليسمعوا كلمات تثير فيهم الغرائز الدنيـا . وأنكر على كتاب المسرحية أن ينساقوا وراء الجماهير ودعا إلى اعتبار المسرح نفسه دارا مقدسة من دور الدعاية الكريمة .

وحينما يريد أن يحدد وجهته نحو المسرح وما فيه من موضـوعات الحب وما يتصل بهذه الموضوعات يقول : « أظن أننى كنت دائمـا كالمتطهرين فى وجهتى نحو الفن . فاننى كلف بالموسيقى وبالأبنية الجميـلة كما كان ملتون أو كروموبل أو بنيان ، على أننى إذا رأيت أن الموسيقى أو العمارة سوف تصبح دعارة حسية منظمة فاننى أجد من الحكمة أن أعد الديناميت لأحطم الكنائس جميعا ، فأذروها من على ظهر الأرض بما فيها من آلات الموسيقى ، من غـير

أن ألتفت إلى صرخات النقاد المسرحيين أو المتهتكين من ذوي الثقافات الخاصة . وحينما أنظر إلى حالة الفن في القرن التاسع عشر ، فأرى أن دعارة الفن قد اجتمعت إلى تأليه الحب ، وأرى أن كل شاعر قد نفذ إلى قدس الأقداس حينما تعلق بموضوع الحب وسماه « الحب السامى » أو « الحب الكافى » أو «الحب الكلى» ، فانى أشعر أن مثل هذا الفن جدير بأن يحطم، وأشعر أننى أستطيع أن أفعل به أكثر مما فعله المتعصبون من جنود كروموويل. إننى أستطيع أن أشترك بشعورى في الملذات الحسية ، لكننى أرى في المتاع الحسى وإحلاله محل النشاط الذهنى والأمانة الفكرية شيئا من عمل الشيطان نفسه » .

وينم هذا الكلام عما كان يتدافع في قلب برنارد شو من تقديره المسرح وسمو رسالته ، فينبغى أن نذكر دائما أن برنارد شو قد جاهد جهادا عظيما في سبيل النشاط الذهنى والأمانة الفكرية اللتين ذكرهما في هذا الحديث . فالنشاط الذهنى والأمانة الفكرية هما أكبر المميزات التى يمتاز بهما فنه المسرحى .

* * *

كتب الناقد الأمريكى المعاصر اريك بنتلى كتابا قيما واسمه « كاتب المسرحية كمفكر (١) » عالج فيه المسرحيات التى كتبت في أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وهو يرى أن الكاتب المسرحى في هذه الفترة قد استطاع أن يثور بالموضوعات المسرحية القديمة ، وأن يختط موضوعات جديدة يظهر فيها الفكر . والكتاب في نفسه سجل قيم للحركات الواقعية والطبيعية والرمزية والتعبيرية التى تداخلت كل واحدة منها في الأخرى خلال المائة سنة الأخيرة ، إنه سجل رائع للاتجاهات الفكرية التى اتجه إليها هنريك إبس في النرويج وبرنارد شو في إنجلترة واميل زولا في

(١) "The Playwright as Thinker" by Eric Bentley. Meridian Books.

فرنسا وبيراندللو بيراندفى ايطاليا. ولكن الذى يعنينا الآن هو كيان المسرحية وكيف انقلب من كيان قديم يرعى الحبكة المسرحية وبُعد لها على أن تنتهى بحل من الحلول، إلى كيانها الجديد الذى لا يعنى بالحل كما يعنى بالجدل والنقاش .

كان القدماء ومن تبعهم من المحدثين يرون أن كل مسرحية ينبغى أن تقع فى ثلاث مراحل : كل مرحلة تأتى وراء الاخرى . كانوا يرون أنه لا بد أن تبدأ المسرحية بالعرض أولا ثم بموقف من المواقف أو أزمة من الأزمات ثانيا ثم بحل لهذا الموقف أو تلك الأزمة ثالثا (١) . أما كتاب المسرحيات الفكرية ومنهم شو فانهم كانوا يؤلفون مسرحياتهم على أن تكون فى ثلاث مراحل حقا : أولها العرض وثانيها الموقف أو الأزمة أو المشكله لكن مرحلتها الثالثة هى الجدل أو النقاش (٢) . فالمسرحيون المفكرون لم يعنوا بأن يجدوا حلولا للموقف ولا للمشكلات التى ساقوها على المسرح بل كل عنايتهم كان تنصب فى هذا النقاش الذى يعقب الموقف. بل لعل المناقشة كانت تكون أطول ما فى المسرحية وأهم ما فيها من مراحل .

ويعلق ايريك بنتلى على هذه المسرحيات الفكرية ، وعلى اهتمام المسرحيين بالجدل والنقاش فيقول إن المسرحية الجديدة تمتاز بأنها موضوعية غير ذاتية وأنها واقعية غير خيالية وأنها طبيعية غير مصطنعة وأنها رمزية غير عامة وهذه الصفات جميعا هى التى تميز نقدات شو للفن المسرحى ثم اتجاهاته فى الكتابة المسرحية . وقد أسلفنا عليك أنه كان مفكرا محترفا ، وأنه كان يتبع نظاما للجدل يناقش به كل أمر من الأمور حتى يصل إلى الحق ، ثم إذا هو انتهى إلى هذا الحق أبدى لك من ضروب الجدل ما يبعث اليك حتى فى هذا الحق

(١) أ ــ العرض أى Exposition

ب ــ الموقف أى Situation

ج ــ الحل أى Unravelling

(٢) الجدل أو النقاش Discussion

الذى انتهى إليه . إنه هو الأسلوب الذى تعلمه من فريدريك هيجل ، بل نستطيع أن نقول إنه الأسلوب الذى أتقنه سقراط من قبل . وقد اتخذ هذا الأسلوب فى كتابة المسرحيات . فهو يحاول أن يضع كل أمر من الأمور موضع الجدل والمناقشة بين شخوص المسرحية . حتى إذا انتهى كل واحد منهم إلى رأى ، حاول الآخرون أن يأتوا بما يدحض هذا الرأى وما يشكك الناس فيه . فاذا أنت بحثت هذا الجدل راعك فيه غرابة الحجة أو مبالغتها وأدهشك منه مفاجآت لم تكن تتوقعها ، بل لقد يروعك من المسرحية أفكارها البعيدة أو وقائعها الدقيقة الكريهة . وبهذه الطريقة وحدها استطاع برنارد شو أن يعلق خيال القارئين أو السامعين أو الناظرين ، وبهذه الطريقة ملأ هذه المرحلة الثالثة من كل مسرحية من مسرحياته : مرحلة النقاش والمحاجة والتفكير والتدليل والسخرية والاستهزاء .

* * *

ما الأفكار التى نلم بها إذا نحن ألقينا بنظرة عجلى على المسرحيات التى كتبها برنارد شو ؟ ما انواع النقاش التى كانت تدور فى هذه المسرحيات ؟ شىء مثل ذلك الذى تراه إذا أنت ألممت ببعض مسرحيات هنريك إبسن ، شىء ينزل « بالمثل الاعلى » إلى الواقع الكريه الذى نمقته ، ويعف بعض الروائيين والمسرحيين عن ذكره . ويجمل بنا أن نعجل بذكر بعض أمثلة لهذه الحقائق التى دارت عليها هذه المناقشات : أمثلة لهذه الحقائق التى أراد أن يحللها . فسنرى هوة سحيقة بين الخيال الواقع ، وسنرى نقدا للحضارة الحديثة والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية وللعقائد الدينية . وسنرى هجاء شديدا لكل ذلك ، وسنرى دعاية يراد بها هذا النقد وذلك الهجاء .

* * *

فبعض أصحاب رءوس الأموال يعيشون حياة البذخ ، ويرثهم ابناؤهم ليعيشوا حياة البذخ أيضا . ولكن أنّى لهم أموالهم التى يعيشون عليها ؟ إنها تنحدر اليهم مما يرثون من منازل صغيرة قذره ليس فيها شىء من وسائل الراحه

ولاسبب من أسباب الصحة . وأصحاب رءوس الأموال وذراريهم يعيشون على أموال الفقراء والمساكين ممن يستأجرون هذه الكهوف القذرة ويعيشون فيها كما يعيش الذباب على القاذورات . فهذه إذن احدى الوقائع الكريهة التى تنطوى عليها مسرحية من مسرحيات برنارد شو ، وهى موضوع تدور عليه المناقشة فى تلك المسرحية (١) .

والنساء والرجال يتزاوجون . وتختلف وجهات النظر إلى شريعة الزواج. والزواج فى نفسة ضرورة سياسية فى نظر البعض ، وشريعة إلهية فى نظر البعض ، ومثل أعلى رومانسى فى نظر البعض ، ومهنة منزلية فى نظر البعض، وهو نظام اجتماعى فى نظر البعض الآخرين . وكل امرىء من دعاة التقدم ينظر إلى هذا النظام الاجتماعى نظرة من يريد أن يتجنبه ؟ لأنهم يرون أن كل اجتماع يجب أن يساير المجتمع الجديث ، والزواج فى نظر أصحاب التقدم لم يساير المجتمع الجديث فى تطوره ، بل هو حيث كان من حيث أنه ذريعة من الذرائع السياسية أو الدينية أو الرومانسية أو الاقتصادية - فهذه لمحه ثانية فى إحدى مسرحيات برنارد شو (٢) .

وكل امرأة لاتستطيع أن تعيش إلا إذا تعلقت برجل . بعض النساء يستطعن الزواج من الرجال الذين يلتقين بهم، وبعضهن لا يستطعن هذا الزواج، ولذلك تصبح العلاقة بينهن وبين أصحابهن علاقة غير مشروعة ، ويطردهن المجتمع من حلقاته المحترمة ويطلق عليهن لفظ مومسات أو داعرات ، وينظر إليهن نظرة المستكبر . ولكن هؤلاء يشتركن مع كثير من الرجال المحترمين فى طريقة كسب العيش . فالمحامون والأطباء والقساوسة وكتاب المسرح ، ورجال الصحافة وبرنارد شو نفسه : كل هؤلاء يشتركون مع بنات الهوى فى طريقة الكسب الحرام التى يسلكنها . كل هؤلاء مكرهون على أن يظهروا من العواطف ما لا يبطنون ، وهذا فى نفسه إثم لايقاس به جريمة المومس . فهى

(١) Widowers ' Houses. « منازل الأرامل»

(٢) The Philanderer « المنازل »

الأخرى مكرهة على إظهار العواطف والميول التى لاتبطنها حتى ترتزق ببيع جسمها فى ساعات قليلة من ليل أو نهار . وهذه لمحة ثالثة فى مسرحية ثالثة من مسرحيات برنارد شو (١) .

ما علاقات الغرام التى تقوم بين المرأة والرجل؟ وأى الجنسين يبدأ بمطارحة الحب ؟ وما قيمة أسطورة دون جوان التى ورثها الأدب الأوربى ؟ وهل كل رجل هو دون جوان الذى صورته تلك الأسطورة ؟ هل هو الذى يسعى وراء المرأة ويبحث عنها ويختطفها أو يغتصبها كما جاء فى القصص ؟ أم هل تقوم المرأة بدور العنكبوت والرجل بدور الذبابة ؟ المرأة تنسج حول الرجل خيوطها ، ويحسب الرجل أنها ساكنة هادئة لكنها فى الواقع تنتظر أن يقع الرجل فى شباكها وعندئذ تلتف به التفافا لامهرب منه . إنها تقف موقفا سلبيا من الرجل ، حتى إذا ما وجدت ضعفا منه أو استهانة تحركت من ذلك الموقف السلبى ثم انقضت عليه والتهمته التهاما. فلا سبيل إذن إلى تخيل الحب الرومانسى الذى تخيله الشعراء والكتاب الخياليون من قبل ، وهذه لمحة رابعة فى مسرحية من مسرحيات برنارد شو (٢) .

لايقوم الأطباء بواجبهم نحو الفقراء ، وهم يحاولون أن يستنزفوا كل درهم من المرضى الأغنياء. إنهم يخلقون لأنفسهم طقوسا خيالية مثل الطقوس البدائية التى مارسها المشعوذون فى القبائل الأولى . ثم إنهم يشجعون المرض ، لأنهم يرتزقون من المرضى ، ولاسبيل إلى إكراههم على أن يحاربوا هذا المورد من موارد الرزق . كان الأجدى لو استطاعت الحضارة أن تجعل الطب نظاما من النظم البلدية ، لامهنة خاصة يقوم بها فرد لايسعى إلا إلى تكديس المال. وهذه لمحة خامسة فى مسرحية خامسة من مسرحيات برنارد شو (٣) .

---

(١) Miss Warren's Profession « مهنة مسز ورن »

(٢) Man & Superman' « الانسان والانسان الأسمى »

(٣) The Doctor's Dialemma « ورطة الطبيب »

الخلق الكريم يرتبط ارتباطا تاما بمقدار ما يملكه الإنسان من المال. ويستطيع الغني – إذا أراد – أن يكون كريم الخلق سمحا حلو الشمائل ، ولكن لا يستطيع الفقير أن يكون شريفا عفيف النفس ، فليس عنده من المال ما يمكنه من ذلك. كذلك يستطيع الغني أن يتخير ألفاظه ، ويحسن نطق كلماته ، ولكن أنى للفقير ذلك ، وقد عاش في بيئة خشنة نابية اللفظ ، ولا سبيل إلى التعلق بالخلق الكريم ولا باللفظ الحسن إلا إذا رفعت مستوى المعيشة في طبقة الفقراء . وهذه لمحة سادسة في مسرحية سادسة من مسرحيات برنارد شو (١) .

كانت جان دارك مؤمنة إيمانا قويا . كانت على يقين من أن الوحي يتنزل عليها ، وكانت تسمع أصواتا من السماء تدعوها فلبت النداء. لكنها في جهادها ارتطمت بكثير من أنواع السلطة، فماتت شهيدة وهي تجاهد في سبيل الإيمان . ارتطمت بسلطة الكنيسة من ناحية وبسلطة النفعيين من ناحية ، وبسلطة الأمراء الأقطاعيين من ناحية ثم بسلطة القومية الإنجليزية من الناحية الأخرى وعلى الرغم من أن هذه السلطات كانت متضاربة متخالفة إلا أنها اجتمعت عليها فخرت الفتاة صريعة . وهنا موجدة على رجال الدين وسخرية بأنواع الذرائع التي افتعلتها هذه القوى . فقد كانت جان دارك تمثل نفحة من نفحات الحق والحكمة ، لكن هذه السلطات ادعت انها خارجة على الدين ، وفي الحق أن هذه السلطات لم تكن تحرص على الدين بقدر ما كانت تحرص على ما بين يديها من السلطة الدنيوية . أما الدين فلم يكن عندها إلا ستارا – وفي سبيل هذه السلطة الدنيوية أحرقوا الشهيدة جان دارك . فتلك لمحة أخرى في مسرحية سابعة من مسرحيات برنارد شو (٢) .

كان الرومان يضطهدون المسيحيين الأولين ويتعقبونهم في كل مكان، لا لأن الرومان كانوا قد درسوا المسيحية فرأوا انها تخالف دينهم ، بل لأن أصحاب السلطة من الرومان خشوا أن تنتقل السلطة من بين أيديهم . لم يكن هناك كفاح بين دين ودين ولا بين عقيدة وعقيدة كما جاء في الأساطير ، بل لقد

(١) Pygmalion « بيجماليون »
(٢) Saint Joan « جان دارك »

كانت محاولة لحفظ نظام خاص يحرص عليه المستفيدون من أصحاب السلطة، والسياسيون ممن ينتهزون الفرص. وقد حاول أولئك وهولاء أن يؤلبوا أهل روما على المسيحيين وأن يضطهدوا المؤمنين منهم باسم الدين حتى يحتفظوا بسلطاتهم، وحتى تظل لهم اليد العليا فى السياسية والحكومة. فلم يكن الدين حين اضطهد الرومان « أندروكليز » إلا ستارا للسلطة السياسية، وقد كان الدين فى العصر الحديث أيضا ستارا لهذه السلطة. فهذه لمحة ثامنة فى مسرحية ثامنة من مسرحيات برنارد شو (١).

يتولى الوزارة فى إنجلتره أفراد عندهم رغبة أكيدة فى الاصلاح، ولكن تحول دون ذلك النظم السياسية والاجتماعية فى الحضارة الحديثة. ورئيس الوزارة فى إنجلتره قد يكون اشتراكيا نال الوزارة باسم المبادىء الاشتراكية لكنه قد لا يعلم عن الاشتراكية شيئا. إنه يجهل هذه المبادىء ولعله لم يقرأ كارل ماركس. وما تزال به النظم الحكومية المعقدة حتى تجهده وتجهد زملاءه وينقضى عهده من غير أن يكون قد عمل شيئا. النظم الحكومية العتيقة هى التى تحكم، وهذه لمحة فى مسرحية تاسعة من مسرحيات برنارد شو (٢).

إن الحكومات لا تفهم بعضها البعض مطلقا. ولو أنها فهمت بعضها البعض فى سنة ١٩٣٩ لاجتنبت المجزره البشرية التى حدثت بعد ذلك. كان للطغاة وجهة نظر، وكان للحلفاء وجهة نظر أخرى، ولو أن هؤلاء وأولئك اجتمعوا فى محكمة خاصة لتجنبوا الحرب. وهذه المسرحية العاشرة التى نريد أن نضربها مثلا للافكار التى تروح وتغدو فى مسرحيات برنارد شو (٣).

* * *

تلك بعض الأفكار والمعانى التى يجلوها لنا برنارد شو فى مسرحيات عشر، وهى كما ترى حقائق لا يستطيع أن يواجهها الكثيرون من المؤمنين

---

(١) Androcles & The tion « اندروكليز والأسد »

(٢) Apple Cart « عربة التفاح »

(٣) Geneva « جنيف »

بالأمثلة العليا فى حياتنا العامة . كان أصحاب المذاهب الرومانسية يلفون كل هذه الحقائق فى أثواب خيالية وكانت كتاباتهم عنها تزيدها غموضا وإبهاما. أما شو ونظراؤه من كتاب المسرحيات الفكرية فقد أخذوا فى تحليل هذه المعانى وفى السعى إلى ادارك أسبابها الحقيقية .ولكن هل ترى أن مثل هذا التحليل كان سائغا حين أورده برنارد شو ؟ هل ترى ان كثيرا من اهل الرأى كانوا يقرّون برنارد شو على ما قاله من حيث كسب المال ؟ هل ترى أن الكثير من أصحاب رءوس الأموال كانوا يستسيغون ماذهب إليه من حيث أساس الدعارة الرأسمالى ومن حيث ارتزاق المرأة بجسدها ؟ ثم هل ترى أن أهل السياسة وأهل الدين كانوا يقرونه على ماذهب اليه من تحليل الحكومة وأمر السلم ؟ ثم مابال الأطباء مايزالون يتجاهلون كل ماقاله برنارد شو عن النظام الذى سار عليه الطب فى الحضارة الحديثة؟

هى حقائق تمس الحضارة الحديثة مسا شديدا : إنها آلاف الحقائق التى ناقشها برنارد شو ؛ بل هى الحضارة الجديثة ممثلة على المسرح . إنها الحقائق الكريهة المريرة وقد اتخذت سبيلها إلى دار التمثيل : يحسب الناس أنها أشياء غريبة لأنهم حاولوا دائما أن يتناسوها فى سورة التمسك بما سموه «المثل الأعلى » . ولكنها الآن وقد مر عليها جيل أو جيلان فانها تبد وعادية لاغرابة فيها . وكذلك ترى أن برنارد شو قدامتد ببصره إلى المستقبل وكشف أن وراء المُثُل السياسية والديمقراطية والاجتماعية هذه الأسباب التى جهلها الناس حينا وتجاهلوها أحيانا ، وكانت مسرحية الفكر هى الوسيلة المثلى التى اتخذها فى هذا المجهود الفكرى .

* * *

وإذا كان هذا الفصل ــ كما أردنا ــ مقدمة لما سندرسه بعد من الفن المسرحى عند برنارد شو فسوف ترى أننا فى الفصول القادمة سنعنى عناية خاصة بآراء برنارد شو ومناقشاته . سنعالج فيما نمضى فيه آراء برنارد شو ومذاهبه وأفكاره

من النواحى العلمية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وسنرى أن وراء كل هذه النواحى فلسفات بأسرها كل واحدة تتطلب دراسة . ولعلنا ما نبذل الجهد فى كل الذى نعالج إلا بغية أن نتفهم مسرحياته، وأن نستقر على قرار فيما يتصل بهذه الأفكار التى تنبثق من فلسفات يستروح نفحة فيها أو نفحات فى كل مسرحياته .

ثم هل كان ربط هذه الأفكار عقائد راسخة عند هذا المفكر المحترف ؟ والى أى حد تطورت هـذه الأفكار الأساسية عنده من جيل الى جيل ؟ ذلك ما نزمع أن نعالجه فى الصحائف التاليـة من هذا الكتاب . وسنأخذ كل هذه الأمور مأخذ الجد فلن يغرينا برنارد شو بعبثه ودعابته .

* * *

وبعد، فقد بدأنا حديثنا هذا عن برناردشو الناقد والكاتب المسرحى فقلنا أنه كان يهـدف إلى تطوير المسرحية . وقلنا أو قال هو عن نفسه ـ إنه كان كالمتطهرين القدامى يرى أن للتمثيل وجهة خلقية خاصة . ولكن هل كانت وجهته الخلقية هذه هى الوجهة العادية التى يجرى بها العرف أو تجرى بها التقاليد التى تواضع عليها الناس . كلا ! بل إن وجهته الخلقية وجهـة خاصة لأنها تثور على العرف ، وتنقلب على التقاليد والأوضاع ، فهو يحاول دائما أن يتشكك فيمـا تواضع عليه الناس ، لأنه يدرك أن كل ما يتواضع عليه الناس يصبح فاسدا فى يوم من الأيام ، ولابد له أن يتغير ويتطور الى ناحية الإصلاح .

كل نبي وكل صاحب مذهب عنده قـد حاول أن يثور بالتقـاليد التى تحجرت وأصبحت تسمى « أخلاقا » ، وشأن النبي أو المصلح أن يثور بهذه « الأخلاق » وأن يوجه الناس إلى ناحية أخرى من الخلق الجديد الصالح . ثم تمضى السنون فيصبح هذا الخلق الجديد عتيقا غير صالح ، فيقوم نبي آخر أو مصلح آخر ليوجه الناس ثانية إلى ناحيـة من الخلق الأصلح ، وهكذا

يسير العالم من مستوى خلقي إلى مستوى خلقي أعلى. فالخلق عند برنارد شو حالة خاصة تبدو فيها الأمانة الفكرية إلى جانب قوة العمل .

* * *

قال بعض نقاد برنارد شو إنه كان يحاول أن يرتزق بأن يسير على رأسه. فقد كان يحاول دائما أن يبدو غريبا ، ليضحك القراء والناظرين . وفي الحق أنه كان يبدو غريبا لأنه كان يرى موضع الضعف في التقاليد التي تصطنعها لنفسها الحضارة الحديثة . على أن برنارد شو وإن أضحك الناس فقد كان جادا غير هازل . لقد كان صاحب دعابة ، ولكن وراء دعابته دائما ذلك الخلق المتطهر الوعر الذي جمع إلى النشاط الذهني أمانة الفكر والعمل .

(١١)

مغامرات فى الكتابة المسرحية

١٨٩٢ - ١٨٩٨

ألف برنارد شو وهو يشتغل بالنقد تسع مسرحيات من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٨٩٨ ليست فى نظرنا إلا مغامرات فى الكتابة المسرحيـــة . كانت محاولات جديدة جريئة نحو الاتجاه الفكرى فى التمثيل . وتقبلها بعض المجددين بقبول حسن ، ونقدها بعض أنصار القديم نقدا مرا ، لكن قليلا من أولئك وهؤلاء هم الذين حملوا محاولات برنارد شو محمل الجد فى هذه الفترة . فقد كانت جمهرة الناس فى العشر سنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر يعتقدون أن برنارد شو رجل غريب الأطوار متعصب لرأية ، مبالغ فى تصوير كل شىء ، بل كان يعتقد بعضهم أنه مهرج صاحب دعابة ، ويحسن إرسال النكتة . وقد ساعد على ذلك ما كان يتناقله الناس من دعاباته وحكاياته وأجوبته المسكتة حين يخطب أو يتكلم أو يتناظر .

كانت السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر هى السنوات التى كان فيها شو بين الرابعة والثلاثين والرابعة والأربعين ، أى فى الفترة التى يحاول فيها المفكر أن يستقر على بضعة من نظم الفكر ، أو قل إنها الفترة التى يحاول فيها الأديب أن يستجمع أفكاره الأساسية ويدعو إليها . وهو قد فعل ذلك . فكوّن فى هذه الفترة أفكاره الأساسية ودعا إليها فى الصحافة . ثم دعا إليها فى هذه المسرحيات التسع التى كتبها فى تلك الفترة .

وقبل أن يخلف برناردشو حياة النقد المسرحى كانت مغامراته فى الكتابة المسرحية هذه قد آذنت بنجاح . فقد ظل يؤلف المسرحية بعد المسرحية حتى جاءت سنة ١٨٩٨ فاذا هو ينتقل من ناقد مملق إلى مسرحى واسع الثراء . ونريد فى هذا الفصل أن نبحث فترة الانتقال هـذه . فانه ما وافى القرن العشرون حتى كان برنارد شو قد أعد نفسه ليكتب أروع مسرحياته . وألف

فى الخمسين سنة التى عاشها بعد ذلك ثمانى وثلاثين مسرحية ، وعددا من القصص القصيرة ، وكتابين ، عدا الخطب والمقالات والرسائل التى دبجها .

كان قد قضى أربع سنوات وهو يبشر بالمسرحية الجديدة . وكان قد حاول فى نفس الوقت أن يكتب بعض هذه المسرحيات الجديدة . وحدث فى سنة ١٨٩٨ حادث يدل على ماسيكون له من شأن مالى . إذ مثلت مسرحيته « تابع الشيطان » فى أمريكا : أخرجها له مخرج اسمه « ريتشارد مانسفيلد » على أحد مسارح نيويورك . وكانت نتيجة ذلك أن كسب برنارد شو ألفين من الجنيهات . ومعنى ذلك أن انقلابا عظيما جدا قد ألمَّ بحياة هذا الأدب . معنى ذلك أنه سيصبح فى مدى قصير صاحب ثروة طائلة ، ومعنى ذلك أنه يستطيع أن يتزوج ، ثم معنى ذلك أيضا أنه سيصبح مستقلا يستطيع أن يقول مايشاء من غير أن يعتمد على مروءة أصحاب الصحف أو يخشى غضب الرقباء ، ومعنى ذلك أنه سيصبح أديبا عالميا بعد أن كان خامل الذكر .

* * *

لقد رأيت حينما عالجنا المسرحية الإنجليزية فى منتصف القرن التاسع عشر أن الفن المسرحى فى إنجلترة تأثر تأثراً شديدا بالفن المسرحى فى القارة الأوربية. وهذا الذى تحدثنا عنه من حركات المسرح من حيث ظهور النزعات الواقعية والطبيعية ومن حيث إستخدام الرمز والتعبير قد انعكس على المسرحية الإنجليزية . وقد رأينا أن أثر هنريك إبسن كان يسير إلى المسرحية الانجليزية وئيدا وئيدا ، وأن موجته النرويجية تأخرت عن شواطىء إنجلترة فلم تغمرها إلا فى سنة ١٨٩٠ ، وكذلك رأينا أن برنارد شو كان أكبر داعية لهذه الواقعية الفكرية الجديدة . ونريد أن نعالج المراحل التى سار فيها برنارد شو حتى نجح ككاتب مسرحى . والواقع أن مسرحيات برنارد شو بما فيها من مقدمات وتعليقات ليست إلا سجلا للاثنين وخمسين سنة الأخيرة من تاريخ حياته . فالدارس لهذه المسرحيات إنما يدرس تاريخ حياته الفكرى والاجتماعى والاقتصادي والديني والسياسي .

وكانت قد قامت فئة قليلة من كبار الكتاب والنقاد فى إنجلتره تؤيد برنارد شو وتدعو إلى « للمسرحية الجديدة » . ثار هؤلاء – كما ثار برنارد شو – بالمسرحيات الرومانسية التى تخلفت من أيام شيكسبير ، وثاروا – كما ثار برنارد شو – بالمسرحيات التى كتبت على غرار الملاهى الفرنسية الرخيصة ، واتجهوا – كما اتجه برنارد شو – إلى فن هنريك إبسن يحاولون أن يدخلوه إلى مسارح إنجلتره . وكان أمام هؤلاء وليم آرتشر الذى لقى برنارد شو فى المتحف البريطانى ، وصحب برنارد شو بعد ذلك ، ودفعه إلى عالم النقد والأدب حين ألحقه ناقدا فى مجلة « النجم » وكان وليم آرتشر قد اطلع على فن هنريك إبسن وترجم بعض مسرحياته وتشبع بروحه فأقام مدرسة بأسرها تؤمن بالتجديد فى تأليف المسرحية والتجديد فى إخراجها كان وليم آرتشر وغيره من الكتاب المجددين يحاولون إحداث هذا الانقلاب من المسرحية القديمة إلى المسرحية الجديدة بأن ينشئوا مسرحا قوميا جديدا فى إنجلترة . لكنهم فى الواقع لم يستطيعوا إنشاء هذا المسرح القومى من أول الأمر ، ولم يستطيعوا أن يجتذبوا إلى المسرحية الجديدة إلا قليلا من النظارة . لذلك لجئوا إلى المسارح الخاصة والأندية الصغيرة ، ولم يستطيعوا أن يخرجوا إلى الحياة الفنية العامة إلا بعد أن نجحت بعض مسرحيات برنارد شو فى أمريكا . وكانت مواردهم وأرباحهم فى أول الأمر تافهة ، وكانت خسارتهم فى بعض الأحيان فادحة ، لأن المسارح الخاصة ، ولأن هذه الأندية الصغيرة ، كانت عاجزة عن أن تنافس البذخ والزينة والضخامة التى كانت تمتاز بها المسارح العامة القديمة ، ولأن الذاهبين إلى المسرح لم يكونوا يريدون إلا المتعة الحسية ، وإلا لذة السماع والأضواء والمناظر وهذه جميعا لا تتوافر فى المسرحيات الفكرية التى حاول إخراجها أصحاب المسرحية الجديدة .

وعلى الرغم من قلة الموارد فقد بدأت الحركة الجديدة فى التمثيل حين مثلت مسرحية « بيت الدمية » لهنريك إبسن فى السابع من شهر يونيو سنة ١٨٨٩ . فهلل لهذا أنصار الجديد وقامت بين صفوفهم ضجة يريدون أن

يمثلوا كل مسرحيات هنريك إبسن جميعا . وأقام أحدهم ، وهو ممثل هولندى اسمه ج . ت . جرين ، مسرحا سماه « المسرح المستقل [١] » ظل ثلاث سنوات يخرج فيه مسرحيات هنريك إبسن والقليل من مسرحيات برنارد شو . لكن النقاد القدامى كانوا لكل هذه المسرحيات بالمرصاد . ثم لم يكن هذا المسرح يؤمه إلا قليل من الرواد . ولو لم يستطيع صاحبه أن يعتمد على بعض الإعانات التى كان يتبرع بها أنصار الجديد ، لأفلس جرين قبل أن تمضى السنوات الثلاث بوقت طويل .

وكان برنارد شو قد كتب « منازل الأرامل » ولم يتح لها أن تمثل ، فاستطاع جرين أن يخرجها فى ديسمبر سنة ١٨٩٢ ، واستطاع شو أن يبدو للناس كاتبا مسرحيا بعد أن كان ناقدا فحسب يقرأ له الناس فى « الستر دى ريفيو » . فى ليلة التاسع من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٢ ازدحم أخلاط من الناس فى مسرح « رويالتى » بلندن ليشهدوا « منازل الأرامل » . وكانوا خليطا من الاشتراكيين والمستقلين والأحرار ، وصادفت كل أجزاء المسرحية تصفيقا حادا وتهليلا متواصلا من جانب ، كما أثارت اشمئزازا عنيفا وصفيرا صاخبا من الجانب الآخر . وأحدثت المسرحية بين رواد المسرح انشقاقا ظاهرا ، وأثارت بين الجانبين خلافا فى الرأى ونقاشا فى الموضوع . وطلب الناس إلى المؤلف أن يتحدث إليهم من على المسرح ، فخرج إليهم برنارد شو ليخطب فيهم . وحينما هدأت ثائرتهم ألقى عليهم كلمة أجمل فيها فكرته عن « المسرحية الجديدة » ، وقال إنه لم يحاول فى مسرحيته إلا أن يظهر صورة مسرحية للحياة الواقعة ، ووصفا دقيقا لحياة الموسرين من الطبقة الوسطى الذين يعيشون فى الوقع على فاقة الطبقة الدنيا .

وأصبح الصباح فى اليوم التالى فاذا برنارد شو كاتب مسرحى ذو شهرة عند المجددين ، وإذا النقاد من أنصار القديم يحاولون أن ينالوا من هذه المسرحية الجديدة . بل ذهب بعض أصدقائه من أنصار الجديد إلى أنها مسرحية

(١) Independent Theatre

فاشلة . ونصحه صديقه وليم آرنشر أن يوجه وقته وأنشاطه إلى شكل جدى من أشكال الفن ، لأنه ـ فى نظر وليم آرنشر ـ كان لا يملك القدرة على التأليف المسرحى . على أنه لم تمضى سنة حتى كان شو قد ألف مسرحية أخرى هى « المغازل » ولكن لم يكن لهذه شأن مثل ما كان للمسرحية الأولى .

وفى سنة ١٨٩٤ ألف شو مسرحيته « مهنة مسزورن » ولكن لم يتح لها أن تعرض على المسرح إلا فى « نادى جماعة المسرح » فى سنة ١٩٠٢ . وكان تمثيلها فى هذا النادى الخاص شأنا لا تنطبق عليه قيود المسرح العام . فقد منع الرقيب تمثيلها فى المسارح العامة ، ولم يزل أثر هذا المنع إلا فى سنة ١٩٢٤ حيث كانت المسرحية نفسها قد درست وبحثت وقرئت وعرفت لدى الجميع . وفى الحق لقد كانت مسرحية « مهنة مسزورن » جريئة فى أول عهدها حين ألفت ، وهى لا زالت جريئة فى قضيتها وفى طريقة العرض والحوار . فهذا اشتراكى مؤمن بحرية المرأة وبحقوقها المهضومة ، ويحاول فى هذه المسرحية أن ينقد الرسمالية من أساسها ، وأن يسلك المرأة الداعر فى عداد الرأسماليين ، وأن يعتبر الدعارة نفسها نوعا من أنواع العمل الرأسمالى .

وقد كان ثقيلا على الرقيب فى سنة ١٨٩٤ وما بعدها أن يسمح بمثل ذلك ، وكان ثقيلا على الجماهير أن تتقبل مثل ذلك ، وكان ثقيلا جدا أن يتهم الأطباء والمحامون وأصحاب العمل والمؤلفون بأنهم يشتركون وأهل الدعارة والإثم فى وسيلة الكسب . كان ذلك كله ثقيلا على البيئة الرأسمالية فى الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وقد سمعت أمريكا بهذه المسرحية الخطيرة ، وذهب الناس فيها إلى أنها خارجة على العرف والعادة وأصول الخلق ، وفى سنة ١٩٠٥ حاول ممثل أمريكا أن يخرجها فى نيويورك ، فلم يكن جزاؤه إلا أن قبض عليه رجال الشرطة . وظل هو وممثلوه وممثلاته وراء القضبان والأقفال حتى قرأها قاضى المحكمة . ولم يجد القاضى فيها ما وجده الرقباء الإنجليز ، ولم يقرأ فيها إلا حقائق يعلم أنها تقع فى الحياة العامة ، لكنها لا تمثل على المسرح ،

وقضى القاضى بتسريح الممثلين والممثلات . لكن المسرحية لم تمثل فى ذلك الحين ولم تمثل بعد ذلك إلا قليلا .

درج برنارد شو على أن يكتب مسرحيات بعد ذلك بمعدل مسرحية كل سنة (١) . لكنها لم تدر عليه من الربح إلا قليلا . حتى كانت سنة ١٨٩٨ حين مثلت « تابع الشيطان » فى أمريكا . لقد كان من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٨٩٨ كاتبا مغامرا . ولم يكن يعوقه عن مغامراته فى الكتابة ما كان يلقاه من قلة الاقبال ، ولكنه كان يستلهم الشجاعة والعزم مما كان يلقاه من أنصار الجديد من التأييد . وكان يكتب النقد فى الستر دى ريفيو ، وكان فى نفس الوقت يغامر بالكتابة المسرحية حتى يطبق ما يراه فى النقد . فخرجت مسرحيات التسع فى هذه الفترة وهى محاولات سنوية يحاول بها أن يقتحم الحلقة المسرحية التى كانت قد ضربت بسجفها على المسرح الإنجليزى . وحين استطاع مانسفليد أن يخرج « تابع الشيطان » فى سنة ١٨٩٨ ، وحينما عادت بربح مقداره ألفان من الجنيهات على برنارد شو ، كان ذلك إيذانا بنجاح هذه المغامرات أو المحاولات ، فقد استطاع هذا الناقد المملق أن يتحرر من إسار المادة ، وأن ينطلق بعد إلى حيث يريد ، وأن يتخفف من قيود الحاجة ، وأن يودع وظيفته كناقد ، وأن ينظم حياته ، وأن يتزوج من إحدى الفتيات الموسرات .

* * *

أما قصة زواجه فهى تتمة لهذا الذى ذكرته من باكورة نجاحه ككاتب مسرحى . كان برنارد شو كما ذكرنا صديقا لسدنى وب وزوجه بياتريس وب . واعتاد الاثنان أن يلجآ فى الصيف إلى ناحية من نواحى الريف يقضيان فيها أيام الصيف ، واعتاد كثير من الفابيين أن يختلفوا إلى هذا المصيف يقرأون ويكتبون ويتناقشون وينظمون الشعر . ولم يكن يمضى صيف إلا

---

(١) الى جانب المسرحيات السبع التى ذكرناها انفا ألف بين سنة ١٨٩٨ وسنة ١٩٠١ المسرحيات : (١) تابع الشيطان (٢) قيصر وكليوباترة (٣) وهداية كابتن براسباوند .

ويكون برنارد شو فى هـذه الناحية من الريف يجتمع بأصـدقائه ويناقشهم ماشاءت له المناقشة والمداعبة .

كان آل وب يقضون صيف سنة ١٨٩٦ فى ناحية من نواحى الريف اسمها « ستراتفورد سانت أندرو » . وكان المـكان الذى يسكنون فيه دارا قديمة على الطراز الفكتورى ، وكانت الدار لاتمتاز إلا بأنها كانت تتوسط مروجا خضراء كثيفة النبت والكلأ . وإلى هـذا المكان قصد كثير من الفابيين فى صيف تلك السنة ، وكان منهم تشارلز ترافليان ، وجراهام ولاس ، وبرنارد شو وفتاة أخرى اسمها « مس شارلوت بين تاونز هند » .

كانت شارلوت فتـاة موسرة ، ورثت عن أبيها الأيرلندى ما لا طائلا ، لكنهـا خلقت ولهـا ضمير اشتراكى ، وأغرمت بالمبـادىء الاشتراكية غراما شـديدا ، والتحقت بجماعة الفابيين ، واختلطت ببياتريس وب وتعلقت بهـا وبزوجها ، واشتركت بمالها فى إنشاء مدرسة لندن للاقتصاد السياسى ، وفى سنة ١٨٩٦ كانت ضيفا على بياترتس وب . كانت تقضى الصيف مع زملائها الفابيين : تشاركهم الكتابة والقراءة والمناقشة وركوب الدراجات . وفى هذا المكان ، وفى هذا الصيف أحب برنارد شو هذه الفتاة الأيرلندية . وكتب لصديقته إلين ترى يبلغها الخبر ويقص عليها من أمر المرأة التى أحبها من كل قلبه .

واتخذها لنفسه صديقة ، ووجد أنه يتجه إليها بنفسه وفؤاده . أتراه قد اطمأن أخـيرا الى أنه قد أصبح صاحب مال ؟ أم تراه قـد تردى فى هوة سحيقة اسمها الحب بعـد أن قضى الشطر الأكبر من شبابه وهو يهزأ بالحب وبغيره من نواحى الخيال ؟ هذه هي الأسئلة التى تواجه الباحث حين يبحث أمر هذا الزواج المتأخر . لكن الحق أن هـذا الزواج قد انعقد على أساس من الألفة والانسجام ، فقد كان هو اشتراكيا وكانت هى اشتراكية ، وكان هو حرا وكانت هي حرة كذلك ، ثم انها قرأت له موجزا عن آراء ابسن وفنه

المسرحى ، فوجدت فى كلماته ذلك الأمل الحلو الذى ينمو فى صدور الفتيات ، وأعجبت بعبقريته ، وعاشت بعد ذلك فى كنف هذه العبقرية .

ويقول الرواة إنه كان يزورها وإنها كانت تزوره . ويقولون إنها قامت بتمريضه والإشراف عليه حين كان قد أشرف على هلاك ، وإنها عنيت به عناية شديدة حين سقط من على الدراجة فكسرت ساقه . وفى اليوم الأول من شهر يونية سنة ١٨٩٨ - وكان لايزال عاجزا يتوكأ على عكازين - اشترت شارلوت خاتما واستصدرت رخصة بالزواج ، وأصطحبت خطيبها العليل مع صديقين من أصدقائهما إلى مكتب تسجيل الزواج فى وست ستراند ، وهناك عقدا زواجهما .

ويقول برنارد شو أنه كان فى ملابس رثة ، وإنه كان يتراوح فى مشيته على عكازين حين دخل وعروسه وشاهداه على مسجل العقود . وكان قد بلغ الشاهدان حدا كبيرا جدا من الأناقة وحسن الهندام ، فحسب مسجل العقود أن الزوج لابد أن يكون واحدا منهما ، ولم يخطر على باله أن يكون هذا المقعد الأشعث هو العريس المرموق ، وكاد يعقد الزواج بين العروس وأحد الشاهدين لولا تدخل برنارد شو نفسه.

وهكذا تزوج هذا الأعزب الكهل وكان موفقا فى زواجه . وكان أول ما فعلته زوجه أن قامت على صحته خير قيام . فانتقلت به إلى بيت منظم جميل الموقع فى إحدى عمارات لندن ، وأخذت على نفسها أن تضمد قدمه المعتلة . لكنه كان قلقا كثير الحركة ما يكاد يرى بشائر الشفاء حتى ينتقل من مكان إلى مكان فتنتكس صحته مرة أخرى . حاول أن يخطو بقدمه وعكازيه على سلم ، فزلت قدمه وهوى إلى قاع السلم ، والتوت رسغه ، وكسرت ذراعه فلم يأت شهر أغسطس من سنة ١٨٩٨ الا وهو عليل مقعد . وحاول الأطباء أن يعالجوه بتغذيته باللحم أو مستخرجاته لكنه أبى ذلك مفضلا الموت على أن يقرب لحم الحيوان أو مستخرجاته . وله فى ذلك حديث ظريف إذ

يقول : «إن موقفى موقف خطير جدا ، فقدوهبت لى الحياة بشرط أن آكل شرائح من لحم البقر . وأفراد أسرتى يزدحمون حول فراشى هم يبكون وفى أيديهم زجاجات من البوفريل أوغيره من خلاصات اللحم ، لكننى أفضل الموت على هذه الوحشية . إن وصيتى تشمل تعليمات عما يتبع فى جنازتى ، فانـنى لاأعتقد أنه سيسير فى جنازتى خط من عربات الحداد كما يحدث فى سائر الجنازات ، وانمـا سيسير فيها قطعان من الثيران والغنم والخنازير، وأسراب من الدجاج والطير ـ ولعله يسـير ورائى أيضا سرب من الأسماك الحية فى صندوق من الماء وسيلتفع هؤلاء جميعا أردية بيضاء حـداداعلى الرجل الذى فضل الهلاك على ان يأكل لحم اخوانه من المخلوقات . فاذا استثنينا سفينـة نوح فستكون جنازتى اغرب ماحدث من المواكب فى التاريخ .

وانتقل برنارد شو وزوجه الى اماكن عدة يطلبان الاستجمام والشفاء ، لكنه كان يأبى دائماً أن يستجم أو يتيح لنفسه الشفاء. وانتهى بهما المطاف إلى «هيند هد» على الطريق بين بورتسموث ولندن . وهناك أتم برنارد شو مسرحيته « قيصر وكليوباترة ». ولعل معانى هذه المسرحيـة كانت تخالجه فى كل المحن التى لقيها: تلك بألم فى القدم وسقطة من على السلم، وانتهت بكسر فى الذراع . وخرجت « قيصر وكليوباترة » من بين يدى برنارد شو وهى إحدى روائع الفن المسرحى . وكانت فتحا جديدا فى المسرحيات التاريخية. فقد كانت معالجـة فكهة لعناصر التاريخ ، وكانت نوعا من الملاهى التاريخية لم يسمع به من قبل .

* * *

ولاتحسبن أن برنارد شو كان يقتصر على كل ذلك الذى أسلفنا عليك . فقد كان نشاطـة متوفزا متنوعا لا يحده قيد ولا يقتصر على موضوع واحد. لقد كان متعدد النواحى. ففى الوقت الذى كان ينقد فيه المسرحيات الأخرى، وفى الوقت الذى كان يؤلف فيه مسرحياته هو نفسه ، وفى الوقت الذى كان يعد فيـه نفسه للزواج ، وفى الوقت الذى كان يعانى فيه ماكان يعـانى من

الآلام المبرحة ، كان أيضا من أساطين الفابيين . وظلت العلاقة بينه و بين آل وب و بين سائر الفابيين كما بدأت . زد عـلى ذلك أنه وهب من نفسه ومن نشاطه ومن تدبيره كل مااستطاع ليحقق مبادىء الفـابيين فى محيط ضيق ، وهو محيط المجالس البلدية . فقد استطاع أن يكون عضوا فى المجلس البلدى لحى سان بانكراس فى لندن من شهر مايو سنة ١٨٩٧ ، وظل عضوا فى هذا المجلس سبع سنين . وفى هذه السنوات السبع استطاع أن يكون ذا أثر عميق جدا فى حياة الحى . وقد كان حيا كبيرا يعيش فيه ٢٥٠ ألفا من السكان . وأبدى فى عضويته كثيرا من أصالة الرأى وحسن التـدبير فأصبح فى سنة ١٩٠٠ عضوا فى مجلس الادارة . وكان يشترك فى لجان الصحة والبرلمـان ، والكهرباء والمجارى ، فوضعت على كاهله اعباء ثقيلة للتنظيم والتدبير .

رأى أهل الحى يعارضون فى هدم الأبنية القديمةوإعادة تعميرها ، ورأى أنهم يحرصون على أن تظل المنازل حقيرة قـذرة كما هى حتى تظل أجورهـا ميسرة سهلة كما هى . فقـام بحملة على كل ذلك وأفلح فى الهـدم والتعمير. وكان محبا للاستطلاع : يريد أن يتعرف آراءالنـاس مسئولين منهم وغـير مسئولين ، ويريد أن يعرف مايعانيه الناس من أمراض ، وأن يدرك ماتعانيه الماشية من سوء التغذية . لذلك تربى عنده ذلك الضمير السياسى وهذه الخـبرة الإدارية اللتان استطاع أن يظهرهما فى مؤلفاته جميعا . ثم إنه وجـه نشاطه كفرد إلى التخفيف عن الفقراء ووقاية الأصحـاء والعنـاية بالمريض . لذلك تكونت عنده فكرة الخدمة الاجتماعية ولذلك استطاع أن ينقـد شيكسبير من هذا الوجه فيقول : « لو لم يحبس شيكسبير نشاطه على محادثاته الخـاصة فى حانة ميرميد ، ولو أنه اشترك إشتراكا فعليا فى أمور الحكومة العليا ، ولم تحل دون ذلك حدود المهنة التى امتهنها ، لاستطاع أن يكون من أقدر الرجال ، بدلا من أن يكون من أقدر المؤلفين المسرحيين فحسب » .

* * *

وكذلك ظل سبع سنين وهو عضو فى هذه الحكومة المحلية لهـذا الحى

المتواضع ، ثم رشح نفسه فى سنة ١٩٠٣ ليمثل سان بانكاراس فى مجلس لندن البلدى . ولو أن أفراد هذا الحى اتبعوا الحق والعدل ، ولو أنهم وزنوه بقسطاس مستقيم لدخل مجلس لندن البلدى ولاستطاع أن ينتج للمدينة الكبيرة مثل ما أنتج للحى الصغير . لكنه فشل فى هذه المرة لاشتهاره بالاشتراكية ، ولأن كثيرا من أهل الحى كانوا مايزالون فى شك من أمر الاشتراكيين . وكانوا يخلطون بينهم وبين الشيوعيين . وتحول عنه التيار بعد ذلك وانتهت عضويته فى سان بانكاراس فى مارس سنة ١٩٠٤ .

(١٢)

أفكار فابية أخرى

الامبراطورية والاستعمار ودنشواى
١٨٩٨ - ١٩٢٥

ذكرت مرجريت كول فى كتابها « قصة الاشتراكية الفابية » أنه كان للفابيين أيام ازدهارهم الأول ثلاثة انحرافات هي موقفهم من حرب البوير سنة ١٨٩٨ ، وموقفهم من قوانين التعليم ، وموقفهم من السياسة الماليه فى إنجلتره . ونحن يهمنا فى هذا الصدد الانحراف الأول لأن موقف الفابيين فى أغلبيتهم من حرب البوير قد أثر تأثيرا مباشرا فى موقف برنارد شو . . وقد تناقض موقفهم مع ماكانوا يدعونه من تمسك بالمبادىء الاشتراكية فكانت هناك فجوة بين مايقولون ومايفعلون . أما برنارد شو فقد وجد نفسه مرة أخرى فى محنة فكرية لم يكن كريما فى التخلص منها فقد انتهى نقاش حرب البوير بأن كتب شو نشرة فابية فى سنة ١٨٩٩ عن «الفابية والامبراطورية» وأورد فيها كلاما لايتفق وأحاديثه عن الاستعمار والحرب من قبل حرب البوير ومن بعدها .

ولاينتهى القرن التاسع عشر حتى تكون الفكرة الامبراطورية قد أخذت بأكظام الناس فى إنجلترة . فى سنة ١٨٧٥ أفلح دزرائيلى أن يشترى أسهم قناة السويس من الخديوى اسماعيل ، وفى سنة ١٨٧٦ استطاع أن ينصب الملكة فكتوريا إمبراطورة على الهند ، ويطول الحديث إذا نحن حاولنا أن نبسط الظروف التي أدت إلى قيام هذه الامبراطورية ، ولكن حسبنا أن نثبت أن جيريمى بنتام فى مبدأ القرن التاسع عشر كان من المؤمنين بأنه لاجدوى من الاستعمار ولا من بناء امبراطوريات ، وأنه حذر الثوار الفرنسيين فى سنة ١٧٨٩ من اتخاذ هذا المسلك الوعر ، بل وحسبنا أن نشيرهنا إلىماقاله برتراند رسل عن الامبراطورية البريطانية من أنها كانت تحمل فى طياتها الإجرام والسخرية وأنها كانت دائما بغيضة تشمئز منها النفس .

لكن هذه الامبراطورية التى حذر منها بنتام ودمغها رسل كانت تتألق فى نظر الكثرة الكبرى من الإنجليز فى أخريات القرن التاسع عشر . فكانت فى انجلترة حركة تبشيرية تقوم بها الكنيسة الإنجليزية حتى يذهب المبشرون إلى الأصقاع البعيدة من افريقيا فيهدوا الوثنيين إلى عبادة المسيح ، وكانت هناك حركة رومانسية فى كتابة التاريخ تزعمها المؤرخ الانجليزى سيلى صاحب كتاب « توسع انجلترة » ، وكان يلقى محاضراته فى كمبردج عن مستقبل الامبراطورية فيقبل عليها شباب هذه الجامعة وتنتشر هذه الآراء بين طلبة الجامعات الأخرى ، وكان فى أكسفورد داعية آخر للامبراطورية هو جون رسكن ، وقد دأب على الحديث عن الامبراطورية كما لو كانت رسالة من عند الله فى الأرض . كان يرى رسكن أن انجلترة تسير فى عصر سماه عصر «القومية الإمبراطورية » وأن المستقبل سيكون لشباب الامبراطورية من الإنجليز . وتقع هذه الكلمات موقع السحر فى نفوس بعض الطلبة ومنهم سيسل رودس صاحب روديسيا وتكون انجيلا لمن سموهم فيما بعد « بناة الامبراطورية » . وتنعكس كل هذه الأفكار فى كتابات كتاب وشعراء مثل رديارد كبلنج الذى الذى عاش طول حياته يردد بأن الانجليز دون شعوب الأرض قد اختصوا بصفاء الجنس وطيب الأرومة ،وأنهم ماخلقوا على ظهر الأرض إلا ليسودوا هذا العالم ، وأنهم ماذهبوا إلى الهند ولا إلى افريقيا إلا لأن لديهم رسالة تلقوها من لدن الله تعالى لإصلاح أهل هذه البلاد !! أما الله سبحانه وتعالى فلم يكن فى نظر كبلنج إلا إلها بريطانيا !! وهكذا ترى أنه ما يأذن القرن التاسع عشر بالمغيب حتى تكون هذه العاطفة الامبراطورية قد شاعت فى كل وسط مثقف وغير مثقف من طبقات المجتمع الانجليزى . يزيد هذه العاطفة اتقادا المهرجانات التى كانت تقيمها الحكومة للاحتفال بيوبيل الامبراطورية وقد بلغت هذه المهرجانات أوجها فى سنة ١٨٨٧ ثم فى سنة ١٨٩٧ ، وكانت مسرحا لمشاهد هذة الامبراطورية التى قامت على الفتح والغزو والحديد والنار .

ووراء كل هذا البهرج من مشاهد الامبراطورية المنتفخة كانت تكمن حقائق اقتصادية هى التى أدت إلى قيام الامبراطورية ، وهى فى نفس الوقت التى أدت فيما بعد إلى انهيارها . وأهم هذه الحقائق أن الإنجليز لم يفعلوا ما فعلوا إلا لأن الرأسمالية الإنجليزية كانت قد انتهت أو كادت من استغلال مصادر الإنتاج فى بلادها ، وأنها أرادت أن تجد مواطن أخرى تستغل منها المواد الخام تغذى بها المصانع التى قامت عند الانقلاب الصناعى . لذلك اندفعت رؤس الأموال الانجليزية إلى خارج إنجلتره . وكان يقوم باستمثار هذه الأموال قوم من المغامرين ضاق بهم الرزق فى إنجلتره نفسها فحاولوا أن يكسبوا الرزق فى بلاد أخرى من آسيا وافريقيا ، وأقفلت أمام صناعاتهم الأسواق فى إنجلترة وفى غرب أوربا فحاولوا أن يفتحوا أسواقا أخرى فى آسيا وافريقيا . وتطلبت الصناعات الجديدة فيضا من المواد الخام من منتجات زراعية ومعادن فى آسيا وافريقيا ، وفى سبيل الحصول على هذه المواد، لم يتورعوا عن أن يقترفوا أدنأ الآثام من التزوير والظلم والقتل ونهب أموال أصحاب البلاد . وليس تاريخ الاستعمار إلا سجلا تظهر فيه هذه الصحائف السود التى قال عنها برتراند رسل أنها تحمل الاجرام والسخرية وأنها دنيئة تعافها النفس .

* * *

وينتهى بنا هذا الحديث الموجز عن الاستعمار إلى نقطة كانت مثار الأطماع الامبراطورية فى العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر وهى جنوب إفريقيا ، ولم يكن تاريخ جنوب افريقيا فى هذه السنوات إلا تاريخ سيسل رودس . فقد ذهب هذا الشاب وهو بعد طالب فى جامعة أكسفورد ولم يبلغ السابعة عشرة إلى جنوب افريقيا بحثا عن الماس . واشترى أكبر منجم فى كمبرلى سنة ١٨٧٣ ، وبدأ المستعمرون ووراءهم تأييد حكومتهم فى الاستيلاء على الأرض وأقاموا حربا عوانا على كل القبائل والمجتمعات التى حول كمبرلى، واقترفت فى هذه الحروب فظائع يندى لها جبين الإنسانية . ولم تكن حرب البوير فى الواقع إلا إحدى هذه الغزوات التى درج المستعمرون على أن

يشنوها على الأهلين ، ولكنها تمتاز بأنها كانت ضد قوم من البيض هم الهولنديون ، وأن الرأى العام الأوربى انتبه لها ، وأن إمبراطور ألمانيا نفسه كان يحمل كثيرا من النوايا الغامضة نحو مشروعات الإنجليز فى إنشاء إمبراطوريتهم – ثم تمتاز أيضا بأن كثيرا من المثقفين ومنهم بعض الفابيين – حاولوا أن يناقشو هذه الحرب ومبلغ ملاءمتها – أما الحروب والغزوات الأخرى التى شنها المستعمرون على افريقيا السوداء فانه لم يتح لها أن تكون مثار جدل ونقاش فى ذلك الوقت كما كانت حرب البوير !!.

أعلنت إنجلترة الحرب على البوير فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٩٩ ، لكن المناقشات الجادة كانت قد استعرت عن هذه الحرب قبل ذلك بشهور . وكان الرأى عند كثير من الطبقات المفكرة — ومنهم بعض الفابيين – أن معنى هذه الحرب أن مجتمعاً ضخما هو المجتمع الإنجليزى يحاول أن يستفز مجتمعا صغيرا فقيرا هو أهل البوير ، وأن الذى يقوم بهذا الاستفزاز إنما هم السياسيون والرأسماليون من الإنجليز . ثم كانت فئات أخرى من الاشتراكيين ومنهم بعض الفابيين أيضا ينضمون إلى الاشتراكية الدولية فى تحريم الحرب ، لأنها لم تكن عندهم إلا امتدادا للرأسمالية خارج حدود البلاد وكانت نتيجة ذلك أن تقدم بعض الفابيين بمقترحات تريد أن تعارض حوب البوير .

كان السياسيون الذين وراء إعلان الحرب على الفلاحين الهولنديين يصورون الموقف على أنه ليس إلا حملة بوليسية تقوم بها حكومة بريطانيا على بعض الفلاحين الهولنديين الذين خرجوا على طاعة الحكومة عند مطالبتهم بحق التصويب البرلمانى عند دفع الضرائب ، وأن كروجر نفسه لم يكن إلا شخصا ذلولا طيبا زج باسمه فى هذه الحرب . لكن بعض الفابيين تقدموا باقتراح فى اجتماع الجمعية العمومية للفابيين الذى كان مزمعا عقده فى ١٣ أكتوبر سنة ١٨٩٩ – أى بعد إعلان الحرب بيومين – ومؤدى هذا الاقتراح أن توافق الجمعية على « العطف على البوير بصفة عاجلة » . وكان من المنتظر أن يخرج بيان باسم الجمعية يندد بحرب البوير ، وأن تدور مناقشات وتلقى محاضرات

بعد ذلك عن هذه الجريمة التى تآمر عليها طبقات من السياسيين والرأسماليين وطاوعهم فيها جمهرة الشعب .

لكن الواقع أن معظم أعضاء الجمعية الفابيةومنهم برنارد شد خانوا الأمانة حينما عرض هذا الأمر . الواقع أن اللجنة التنفيذية رفضت هذا الاقتراح الهين «قرار العطف على البوير ». رفضته بأغلبية سبعة ضد خمسة. واجتمعت الجمعية العمومية الفابية وقررت بأغلبية ستة وثلاثين ضد سبعة عشر أنه لاوجه للاستعجال فى هذه الحالة ، ومعنى ذلك أن الرأى الحاسم المنتظر لم يكتب له الوجود.. وأن الفابيين ترددوا تردداً تسميه مرجريت كول انحرافا خطيرا فى مبادئهم وسلوكهم .

وكان شو من هؤلاء الذين انحازوا لهذا الرأى فى عدم ضرورة « الاستعجال » وعلى الرغم من أنه كان بين أعضاء الجمعية مفكر مثل هوبسون يفسر الاستعمار على حقيقته ، ويصوره على أنه امتداد للرأسمالية الحقيقية ، إلا أن شو وأغلب الفابيين ذهبوا إلى أن مثل هذه الحرب لايمكن تجنبها ، بل لقد ذهب شو — وقد أعلنت الحرب — أنه ليس من اختصاص الفابيين أن يناقشوها ولا أن يأخذوا فيها برأى لأنها لاتتفق فى طبيعتها مع الشئون التى اعتاد الفابيون أن يناقشوها .

ويقوم هوبسون ـ وهو صاحب مؤلف من أكبر المؤلفات عن الاستعمار ـ باستنكار مثل هذا الرأى الذى ذهب إليه معظم الفابيين ومنهم برنارد شو . لقد كان من رأى هوبسون وأقلية مستنيرة من الأعضاء أن هذه الحرب قد قامت بها الطبقة الحاكمة فى بريطانيا ، وأنه ينبغى على الجمعية الفابية أن تعلن انفصالها التام عن تلك الحركة الاستعمارية الرأسمالية،وأن تنذر بأنها لن تنساق فى طريق التوسع الامبراطورى الذى تنساق إليه تلك الطبقة ، وأن المستوى الرفيع الذى بلغته الجمعية فى الشئون الداخلية ينبغى أن تبلغه أيضا فى الشئون الخارجية . لكن شو — وكان يمثل فى هذه المناقشة أعضاء اللجنة التنفيذية — أجاب على القضية التى عرضها هوبسون بأنه ليس من المتاح والحرب قد أعلنت

أن تناقش الجمعية حق التصويب البرلمانى للفلاحين الهولنديين ، وأنه فى حالة انتصار إنجلترة فى الحرب فسوف تطالب الجمعيــة الحكومة الإنجليزية بتأميم مناجم الماس والذهب ، حتى تئول أرباح هــذه المناجم للحكومة وحــدها ، وتقــوم باصلاح حال العمال الكادحين فى هـذه المناجم . واستتب الرأى بين ماقدمه هوبسون وما أجاب به برنارد شو . وانتهى الأمر بأن أخذت الجمعية باقتراح تقدم به ماكدونالد مؤداه أن يجــرى استفتاء عام يشترك فيه كتابة الفابيون جميعا . ويتكون الاستفتاء من سؤالين : أولهما هل إجراء الحرب صواب أم خطأ ؟ وثانيهما : هل ترى أن تصدر الجمعية بيانا رسميا عن الاستعمار وعلاقته بالحرب ؟ .

ووزع هـذا الاستفتاء بشطريه على الثمانمائة فابى الذين كانوا يكونون الجمعية يومذاك . واحتوت أوراق الاستفتاء فيما احتوته على نشرتين صغيرتين: أولاهما تصف حرب البوير بأنها مثل من أمثلة العدوان الاستعمارى، وشعبة من شعب الرأسمالية الخبيثة، وأنها تستنفد أموالا كان جديرا بأن تستخدم فى الإصلاح الاجتماعى داخل البلاد . وتذكر هذه النشرة أن الفابيين ماهم إلا اشتراكيون دوليون ، وأن الاشتراكية الحقيقية تستنكر الحرب . أما النشرة الثانية فقــد ذكرت أن أى تصريح ضد الحرب سوف يقسم المجتمع قسمين ، وأنه لاسبيل إلى التراجــع الآن ، وأن أى تفكير فى إصلاح حال البوير يجب أن يكون بعد خضوعهم فى هذه الحرب. وقد أجاب على الاستفتاء ٤٧٦ ، عارض الحرب منهم ٢١٧ ، وأيدها ٢٥٩ فــكانت هــذه نكسة للحركة الفــابية ، وكانت انتصارا موقوتا لبرنارد شو وكانت هــزيمة لهوبسون وهو مؤلف كتاب « الاستعمار » .

ويكلف برنارد شو أن يكتب بيان الجمعية عن الاستعمار، فيكتب نشرة شهدت آخر أيام القرن التاسع عشر وهى التى نشرت تحت عنوان « الفابية والإمبراطورية » ، وقد كان الجزء المخصص فيها للحديث عن جنوب إفريقيا وعن حرب البوير ضئيلا جدا ، ولعل برنارد شو أراد أن يعلو على مستوى

الحوادث ويدرس شأناً عاما من شئون العلاقات الإنسانية . لقد ذهب فى هذه النشرة إلى أنه لابد من وجود قوة كبرى تصدر حكمها فى صالح الحضارة بصفة عامة لا فى صالح أصحاب مناجم الذهب ـ فان إلى جانب هؤلاء عمال المناجم أنفسهم . وتشكك برنارد شو كل التشكك فى أن هذه الفئة القليلة من أصحاب المناجم تستطيع أن تقوم بواجباتها نحو العمال والأهلين من أبناء البلاد ، وسوى فى حديثه بين العمال البيض والسود ، ورجا أن يصلح من شأن هؤلاء وأولئك حين تضع الحرب أوزارها ، لكنه حذر من أن يكون الإصلاح فى المستقبل نابعا من البرلمانية الجائرة فى لندن . وبيان برنارد شو بعد ذلك يسلم بأن السيطرة الاستعمارية عن طريق إحدى القوى ضرورة حديثة، ويكتفى بأن يطالب بأن تكون هذه السيطرة جانب كبير من الكفاية. وكذلك لم يتخلص الفابيون ولا برنارد شو من هذه المحنة الا بكلام مثل هذا أثار كثيرا من الفابيين المعارضين حتى لقد استقالوا من الجمعيه الفابية نفسها ؛ وكان على درجة من السلبية حتى أنه كاد ، ينسى فى غمار ما كتبه برنارد شو فيما بعد !

والحق أن برنارد شو ووراءه سدنى وب والفابيون الآخرون ، لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون أن يحولوا دون الأحداث الاقتصادية والسياسية التى كانت تحدق بهم من كل جانب . لقد ظهر على مسرح السياسة آنذاك قوم عقد الناس لهم المجد العسكرى والسياسى . كان هناك رجل مثل كتشنر يفخر بأنه كان على رأس مذبحة أمدرمان فى سنة ١٨٩٨ واتخذ جمجمة المهدى قطعة تزين منزله الخاص . وكان هناك ملنروسيسل رودس وعشرات غيرهم من الأفراد الدين تألقوا فى معرض الإمبريالية الزائف ، وكان عسيرا على الجمعية الفابية أن تقف أمام هذا التيار ، وكان عسيرا على برنارد شو أن يلم بالحوادث التى تحيق به وأن يعارض فى حرب البوير كما عارض فى دخول الحرب الكبرى الأولى سنة ١٩١٤ .

* * *

وبين حرب البوير سنة ١٨٩٩ والحرب الكبرى الأولى فى سنة ١٩١٤

يمضى برنارد شو فى طريق يدرس فيه الاستعمار والإمبراطورية والقومية . ونلتقى به مرة أخرى فى سنة ١٩٠٧ حينما نشر «جزيرة جون بول الأخرى» . وهنا ينبغى أن نبسط قليلا ماجاء فى مقدمةهذه المسرحية عن القومية الأيرلندية وعن دنشواى والاستعمار البريطانى بوجه عام ـ نقول ينبغى أن نبسط الحديث فى هاتين النقطتين لأننا نؤمن بأن المسرحية نفسها وماتبعها من مقدمة لم تكن إلا اعتذارا عما أورده فى نشرته الفابية فى نهاية القرن التاسع عشر . ومسرحية « جزيرة جون بول الأخرى » ليست عندنا إلا طورا من أطوار التفكير عند برنارد شو ، ودرجة من الدرجات التى خطاها نحو إعلانه الحرب على الحرب فى سنة ١٩١٤ .

يعود برنارد شو إلى موضوع الاستعمار فى هذه المسرحية ويحاول أن يصور العلاقة بين بريطانيا وأيرلنده على أساس النقائض أيضا . فالمستعمرون الانجليز من ناحية هم سادة الأرض فى أيرلنده ، والأيرلنديون من ناحية أخرى هم الذين أتاحوا للانجليز أن يستعمروهم . على الرغم من أنه يعطف على الأيرلنديين وهم أهل بلده إلا أنك تحس أن النشاط والحركة والمهارة والإدارة تعوزهم مما يسمح للانجليز بأن يستصلحوا أرضهم وينتفعوا بثمار عملهم . ويدرس فى مقدمة المسرحية أسباب هذا التخلف فى أيرلنده فلا يجده إلا فى الاستعمار الذى ابتليت به منذ القرن السابع عشر وسكنت إليه خلال قرون ثلاثة كما يسكن السجين للقيد . وقد كان الصراع بين إنجلترة وهى دولة الاستعمار وأيرلنده وهى الدولة المستعمرة حائلا دون أن تتقدم أيرلنده ، لا لأنه استنزف مواردها فحسب ، ولا لأنه قهر أبناءها فحسب ، بل لأن الشعور القومى فى أيرلنده ، والجهاد من أجل الاستقلال حال دون أن تنتبه البلاد إلى مراتب عليا من الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

يتحدث عن ذلك برنارد شو فيقول : « الأمة المغلوبة تشبه رجلا مريضا بالسرطان ، فهو لا يستطيع أن يفكر فى شىء آخر غير ذاته ، وهو مضطر إلى

أن يتجنب خير أصحابه ، ويسلم نفسه لأيدى دعاة الطب الذين يزعمون أنهم يستطيعون علاج الشرطان أو شفاءه ... ».

«إن الحكم الإنجليزى فى أيرلنده نقمة بلغت حد الايحتمل ، حتى لم يعد موضوع غير هذا يصل إلى قلوب الناس . وقد حجبت القومية فى أيرلنده عن أيرلنده نفسها نور العالم . ويبدو أنه ما كان لأيرلندى مها قل ذكاؤه أن يحب القومية ، إلا كما يحب صاحب الذراع المكسورة أن تشفى ذراعه . إن أمة صحيحة الجسم لا تكاد تشعر بالقومية ، إلا كما يشعر الرجل السليم بعظامه السليمة . ولكن إذا أنت حطمت القومية فى أمة من الأمم فانها لن تفكر إلا فى جبر ما تصدع من كيانها . فلن تصغى إلى مصلح ولا إلى فيلسوف ولا إلى واعظ حتى تجاب مطالبها القومية . ولن تلتفت إلى عمل مهما يكن حيويا إلا إذا كان عملا من أعمال الوحدة أو التحرر ... » .

الأصل إذن عند برنارد شو أن تكون القومية علاجا ، أو أنها تكون دواء فى أمة تشعر بأنها فى حالة من الغلب والاضمحلال . وحين تلجأ الأمة إلى مثل هذا العلاج ـ عند برنارد شو ـ فانها تقف كثيرا من نشاطها . وهو يصف حالة أيرلنده فى أول القرن العشرين فيمضى قائلا : « من أجل ذلك فقد وقف كل شىء فى أيرلنده انتظارا لتحقيق الحكم الذاتى ... القومية هى كل شىء فى أيرلنده ، فلا يعقد انتخاب إلا على أساس قومى ، ولا يعين موظف إلا على أساس قومى ، وكل قاض فهو شريك فى الكفاح القومى ، وكل خطبة فهى ملخص للجدل القومى ، وكل محاضرة فهى تزييف للتاريخ فى سبيل الملق للقومية أو فى سبيل التشهير بها ، وكل مدرسة مركز للتجنيد ، وكل كنيسة معسكر ، وكل أيرلندى مرهق بهذا ارهاقا لا يمكن وصفه ، على أن مثل هذه الحالة ستظل ، ولا بد أن تظل القومية شغل أيرلنده الشاغل حتى يتحقق لها الحكم الذاتى » .

لم يكن يؤمن برنارد شو بالقومية المطلقة لا لأن القومية كانت فى نظره فكرة رومانتيكية فحسب بل لأنه كان يؤمن أيضا بأنه على هذا العالم أن يتجه

إلى ناحية عالمية ، وأن القومية ليست إلا مذهبا موقوتا . بل لقد ذهب فى بعض أحاديثه الأخرى إلى أن المذهب القومى قد جرّ فى أذياله كثيرا من الحروب التى أورثت الجنس البشرى شرورا وآلاما. ولعله قد سبقه إلى ذلك كثير من المفكرين . ولكن الجديد فيما أتى به برنارد شو هو أنه وضع إصبعه على موطن الداء حينما لحظ أن الشعور بالقومية ، والدفاع أمام أعدائها ، تشغل الأمة المغلوبة عن مباهج الحياة السامية . ويذكر برنارد شو فى غضون هذه الكلمات التى اقتبسنا أن إنجلترة بما كانت تعد لنفسها فى أيرلنده من رجال وعتاد ، كانت تقف حائلا بين الساحل الأيرلندى والحركات الروحية العظمى التى طافت بأنحاء أوروبا . لم تكن الحضارة الأوروبية تستطيع أن تدخل أيرلنده إلا بمقدار ضئيل . أما الحركات الأدبية واللغوية التى شغل بها الأيرلنديون أنفسهم فقد كانت حركات ضحلة ومنها حركة جالية كانت تريد أن تبعث اللغة الأيرلندية من جديد، مع أن اللغة الإنجليزية فى نظر برنارد شو هي لغته هو نفسه وهى لغة أيرلنده « وهى لغة نصف سكان الكرة الأرضية لحسن الحظ ! »

* * *

ويمضى تطور برنارد شو الفكرى فيما يتصل بالاستعمار والإمبراطورية فيتخطى حدود أيرلنده وتقع فى يده ورقة برلمانية مسجلة فيها المناقشات بين وزير الخارجية وأعضاء مجلس العموم. ويدرس هذه الورقة البرلمانية فتثور ثائرته على موقف حكومة إنجلترة أولا، وعلى موقف وزير الخارجية ثانيا، ثم يفضى بتحذير لبناة الإمبراطورية وتحذير آخر لأبناء وادى النيل ممن مسّهم العذاب من هذه الإمبراطورية .

أما القضية فقضية دنشواى ، وأما وزير الخارجية فسير إدوارد جراى من زعماء الأحرار ، وأما الكتاب فهو مقدمة مسرحية « جزيرة جون بول الأخرى » وأما تاريخ الكتابة فقد كان سنة ١٩٠٧ ، ولم تكن دنشواى إلا قصة دامية لأنواع الظلم وفظائع الاستبداد التى اجترحها الإنجليز على أرض

مصر . وكان أعضاء مجلس العموم يناقشون مسألة العفو عن المصريين المتهمين في قضية دنشواى ، وعرضت القضية مرة أخرى على مجلس العموم لكن هذا المجلس لم يأخذ بالعفو ونفذ الحكم بالاعدام شنقا ، وبالجلد بالسياط ، وكان لهذا الحكم صدى تنزى له الضمير العالمى وأطاح بحكم كرومر، واشتدت به الوطنية المصرية وبزغت من حيث أريد لها الأفول .

يقول برنارد شو بعد أن صوّر محاكمة دنشواى : « ينبغى على أن أنتهى من هذه الورقة البرلمانية الغنية ، فقد اقتبست منها ما كفانى لأرسم هذه الصورة — صورة المحاكمة فى دنشواى ، وأن أقدم تحذيرا قويا إلى إنجلترة فى هذا الصدد، فاذا كان حكم دنشواى فى سنة ١٩٠٦ — هو حكم الإمبراطورية لهذا العالم — وأخشى أن يكون كذلك فى رأى الطبقة العسكرية الأرستقراطية ومن تبعهم من السراة المتزمتين — أقول إذا كان هذا مثالا لحكم الإمبراطورية، فليس فى العالم واجب أكثر قداسة ، ولا أدعى إلى التنفيذ من الناحية السياسية، من أن تمحق هذه الإمبراطورية وتحيق بها الهزيمة والقهر، وأن يثيب مؤيدوها إلى إنسانيتهم فيتخذوا منها دروسا قاسية ، ويتبينوا فى النهاية أى حقد تثيره مثل هذه النظم التى تزرع المقت فى القلوب . أجل ! لن يكون ذلك إلا اذا تسامت ارادتهم الإنسانية فاستروحت نفحة من قداسة الله جل جلاله . »

ويمضى برنارد شو بعد هذا الهجوم فيخص مجلس العموم بنقده حيث يقول : « وعلى أية حال فليس لإنجليزى أن يدعى أنه جدير بأن يحكم بلادى أو بلاده . ليس له أن يدعى ذلك مادام أنه قد رضى بأن يترك عبد النبى وجاره ابن العشرين لحكم الأشغال الشاقة المؤبدة ، ومادام أنه يفخر بهذه السلطة التى أتاحت له ذلك . وليست المسئولية قاصرة على المحكمة ولا على موظفى الاحتلال من ضعاف الخُلُق ، لقد أحيط مجلس العموم بجلية الأمر قبل أن يقع ، وكانت أمامه فسحة من أربع وعشرين ساعة يراجع فيها نفسه ، وكانت تحت يد سير ادوارد جراى برقية يستطيع المجلس استنادا عليها أن يعلن أن

انجلترة دولة متمدنة ، وأنها لن تتحمل هـذا الجلد الهمجى ، ولا هذا الشنق الذى يحمل معنى التشفى والانتقام . »

وينتنى بعـد ذلك برنارد شو إلى التعليل الذى دفع به سير وليم جراى فى تشديد العقوبة على ضحايا دنشواى والتمسك بتنفيذ الأحكام فيقول : « قام سير ادوارد جراى لا ليظهر موافقته على أعمال الشنق فحسب ، ولا ليدافع عن ذلك فحسب ، بل لقد أهاب بالمجلس فى عاطفة تكاد تبلغ حد الموجدة ألا ينتقد أحد هذه الأحكام ، ولا يقترح أحد الغاءها وذلك لسبب ـ وما أبعد هذا السبب عن العقل ! قال إن السبب فيما طلب هو أن عبـد النبى وحسن محفوظ ودرويش وسائر هؤلاء ليسوا إلا طلائع مؤامرة إسلامية ضخمـة تستهدف القيام بثورة ضد المسيحية باسم النبى لتسحق المسيحية وتطردها من إفريقيا وآسيا متتبعين فى ذلك خطى حركة العصيان فى الهند . »

« ومن الغريب أن مثل هذا الوهم ـ وهو يبلغ فى السفاهة والهزل أكاذيب فولستاف ـ من الغريب أن مثل هذا الوهم قد لقى قبولا عند قوم أذكياء يتمتعون بخبرة سياسية طويلة . ولعل الوزراء الذين استمعوا إلى هذا القول أحسوا فى دخيلة النفس بالخجل والأنانية فتشبثوا بمثل هـذه الذرائع الخيالية المضحكة ، ولكن الذى لن تغفره الإنسانية لوزير خارجيتنا هو أنه حتى إذا كانت قـد وجدت مثل هـذه المؤامرة فعلا ، فقد كان الأجـدر بانجلترة أن تواجهها وتحاربها بوسائل شريفة بدلا من أن تجلد الفلاحين المساكين جلدا ، وتخنقهم خنقا ، فيفزع الإسلام ويرتد مرتعدا مدحورا ! ! »

ويمضى برنارد شو فى هذا التهكم بسير إدوارد جراى . فقد كان يعلم أن الوزير يمثل فئة أرستقراطية من الساسة الإنجليز ، هم الذين شيدوا الإمبراطورية ، وهم الذين وضعوا أصول الحيل الدبلوماسية ، وعاشوا حياتهم يغررون بالشعوب ويبنون على دماء الناس دولهم وحكوماتهم . وفى نقده لسير ادوارد جراى ينزل إلى التهكم اللاذع حين يوازن بينه وبين سير جون فولستاف فيما تصوره

شيكسبير فى مسرحية هنرى الرابع . كان سير جـون فولستاف فـيما رواه شيكسبير إباحيا كذوبا سكيرا يتخذه الملك وحاشيته هزؤا ولا يعلم معنى الشرف بل الشرف عنده هو مايراه مجلبة لصالحه هو نفسه .

يذكر برنارد شو « فكرة الشرف » التى تتردد دائما فى كلام السياسيين من أمثـال سير ادوارد جراى فيقـول : « إذا هبطت إلى مستوى العبيد ، ومضيت مـع سير إدوارد جراى فى تفكيره الإمبراطورى ، وأقررت أن ماقاله له قيمة ، وأننا جميعا على وشك أن يحيق بنا الموت والفناء ، فانني أؤمن أننا إذا نحن متنا فيجب أن نموت على الأقل ميتة السادة الأفاضل . بل هل لى أن اذكر لسير ادوارد جراى شيئا يمس شخصيته فأقول : إنـك ياسيدى لم تحظ بما حظيت به من مركز ممتاز ، ولم تلق ما لقيت من الفرص السياسية التى أنكرت على غيرك من أصحاب الحرف ، الا لأنه قد فرض فيـك أنك تفهم من المعانى أكثر مما يفهم الآخرون . كان جديرا بك أن تعلم أن الشرف يستحق مايتطلبه من مغامرة وما يبذل فيه من ثمن ، وأن الحيـاة لاقيمة لها من غير شرف ؟ حقيقة لم يكن سير جـون فولستاف يظن ذلك ، ولكنى أعـوذ سير إدوارد أن يتخذ سير جون مثلا يحتذى . ومع ذلك فان سير جون نفسه كان له من القريحة ما كان يستطيع أن يدرك به أن الذعر الذى أحاط بدنشواى أشد خطرا على الإمبراطورية من الهزيمة فى عشر معارك فى ميادين القتال » .

وفى ثنايا هذا النقد اللاذع لمجلس العموم ولوزير الخـارجية يلتفت برنارد شو إلى المصريين فيقول: « أما عن المصريين أو أى رجل نشأ فى مهاد النيل ، فاذا هو تطوع بعد حادث دنشواى أن يتخاذل أو يستسلم للحكم البريطانى ، أو إذا هو رضى بأى اتفاق معنا لايقوم على أساس اتحاد يضم دولا حرة : أقول إن مصريا يتطوع للاستسلام لهذا الحـكم لن يستحق إلا مارآه لورد كرومر حين ذهب فى معرض تقريره عن حادث دنشواى ، من أن استسلام الأهالى انما هو حق لازم للحكومة » وهو لايرى فى حكومة لورد كرومر هذه إلا أنه استطاع أن يمتلك السلطة فى مصر بأن استكثر من الجنود والرعاديد

من أهل البلاد ، وبان اختار من الموظفين فى مصر من لايمتون بصلة إلى طبيعة البلاد ، بدلا من أن يلتمس المعونة على أساس من التسامى بالخلق الكريم .

* * *

يتجه إذن برنارد شو فى تفكيره عن الامبراطورية والاستعمار إلى مبادىء نريد أن نستخلصها من كل ماذكرنا . أما أول هذه المبادىء فهو أن البلد المغلوبة ينبغى ألا تستكين للغاصب أو تستنيم لحكمه ، بل ينبغى على أفرادها أن يبذلوا الجهد الأوفى فى كل وجه من وجوه النشاط . وثانى هذه المبادىء أن الذين يحركون الحرب والسيطرة والغلب إنما هم سياسيون لا يكادون يعرفون معنى الشرف ، وأن الأمر فى هذه الامبراطورية ينبغى أن ينتهى بوحدة تشترك فيها كل بلد على أساس التعاون . ذكر ذلك فى نشرته الفابية سنة ١٨٩٩، ورددها ثانية فيما أورده عن أيرلنده ومصر فى «جزيرة جون بول الأخرى» . ولم يكن برنارد شو يؤمن بأن تقوم قوميات مختلفة تدافع عن نفسها بالحرب والقتال ، إذ القومية عنده – كما أسلفنا – لم تكن إلا علاجا لحالة من حالات المرض فى الأمة تشبه حالة السرطان .

* * *

وتقوم الحرب الكبرى الأولى فى سنة ١٩١٤ وتكاد تأتى على الأخضر واليابس مما أنتجته الحضارة . ويرى برنارد شو أن الجانبين يعدان عدة القتال ليسحق كل واحد منهما الآخر ، ويضع نفسه فى موضع المفكر أيضا فى هذه الحالة . فيكتب رسالة عن الحرب يذيعها بين الناس اسمها : « الفهم الصحيح للحرب (١) » . وفى هذه الرسالة ينحى باللائمة على جانب المانيا كما ينحى باللائمة على جانب الحلفاء ، ويتناول الجانب الوحشى من الحرب ، ويتهم الإنجليز بأن بينهم فئة من الداعين إلى الحرب لا يقلون وحشية ولا قسوة من طبقة اليونكرز فى ألمانيا .

---

(١) Common Sense About the War

كان ذلك فى طوركى وهى بلدة على الشاطئ الجنوبى الغربى من إنجلترة حيث خلا برنارد شو شهرين إلى نفسه وكتب هذه الرسالة والحرب لم يمض على بدئها غير شهور ، والنفوس متوفزة للجهاد ، والحكومة تدعو الشباب إلى التطوع إلى الميدان . وخرج على الناس ببيانه عن الحرب فأظهر من الشجاعة الأدبية مالم يظهره من قبله إلا كتاب مثل توماس بين واميل زولا . فقدأشار أولا إلى أن إنجلترة كانت تضمر الحرب معألمانيا ،وأن اعلانها الحرب كان مبيتا،وأن تدخلها منأجل خرق حيادبلجيكا لم يكن إلا ذريعة واهية . وقد نصح الجنود من الجانبين أن يغادروا ساحة الحرب ويعودوا إلى أوطانهم . بل نصحهم أن يقتلوا ضباطهم فى ميدان القتال ويعودوا سالمين ؛ ونصح الناس بأن يكفوا عن دفع الضرائب مادامت تستخدمفى أغراض وحشية . وندّد بطبقة السياسيين والعسكريين الذين هيئوا النفوس والأسلحة لهذه الحرب ، وتحدث عن النفاق الذى اشتهرت به إنجلترة ، وخص بالذكر هذه المرة أيضا سير ادوارد جراى وزير خارجيتها ،وقال إنه كان يستطيع أن يجنّب الناس ويلات الحرب إذا أراد .

وهذه الرسالة علامة أخرى من علامات الطريق فى التطور الفكرى عند برنارد شو فيما يتصل بالاستعمار والامبراطورية والحرب . ليست إلا آراءه التى ضمنها مقدمة « جزيرة جون بول الأخرى » مع كثير جدا من البيان والتفصيل،بل كانت منالخطورة بحيث كادتتقترب برقبتهمنالمقصلة. إنه هنا لا يداعب أحداً ولا يتهكم بأحد ، بل إن رسالته تمتلىء بالخطورة والوقار وأصالة الرأى فى كل كلمة من كلماتها ، وهنا أيضا يقع فى مأزق فكرى آخر هو التوزع بين الوطنية والعالمية .

والحق أن برنارد شو فى كتابته مثل هذه الرسالة حاول أن يكون وطنيا وأن يكون عالميا فى نفس الوقت . فهو كان يبغى خيرا لإنجلترة لكنه كان يؤمن بالسلم العالمى ، وهو كان ينادى بالتفاهم بين الدول من أجل إنجلترة نفسها ، لكنه فى نفس الوقت لم يكن يستطيع أن يخفى تفكيره الشخصى فى

مثل هذا المأزق الفكرى . ولابد أنه كان موزعا بين الوطنية والحدب على السلام العالمى . ولتذكر أنه فى كل هذه الرسالة لم يكن يحاول أن يعتذر لألمانيا بل كان يحض على أن تمضى الحرب حتى تستسلم ألمانيا . وإنما كان يريد أن يبصر أهل الرأى وجمهرة النـاس بأنه كانت فى إنجلترة طبقة من المتعصبين المتزمتين لاتقل تعصبا وتزمتا عن طبقة اليونكرز فى ألمانيـا ، وأن سير إدوارد جراى كان زعيم اليونكرز فى إنجلترة . ويدلك على هذا المأزق الفكرى أن برنارد شو قـد تبرع لحكومة إنجلترة فى قروض الحرب بخمسة وعشرين ألفا من الجنيهات ، وأنه كان يؤدى واجبه الحربى بصفته مواطنـا طول مدة الحرب .

ومهما يكن من أمره فان سمعـة برنارد شو أيام الحرب العـالمية الأولى هبطت إلى الحضيض . وحينما نشرت رسالته عن الحرب فى أمريكا هبطت أيضا سمعته فى أمريكا إلى ماهو أدنى من الحضيض . وقد ظل الناس ينظرون إليه شزرا وظلت الخطابات تنهال على جريدة التيمز وغيرها تتهمه بالخيانة وتشير إلى أصله الأيرلنـدى ، وتسأل الحكومة أن تسجنه فى بيته حتى يتم النصر النهائى للحلفاء . وامتلأ صندوق خطاباته بالرسائل التى انهالت عليه من أقصى الأرض وكلها حافلة بأنواع الشتائم والسباب مماخرج عن جادة الأدب . فان أحدا لم يقدر هـذا المأزق الفكرى الذى كان يعـانيه شو . ولم يستطع إلا الأقلون أن يوفقوا بين وطنيته وكفاحه ضد الحرب بوصفها شرا عالميـا عاما ينبغى أن يقاوم . وقد ضاق به أنصار الحرب لأنه تحدث ضد الحرب وضاق به أنصار السلم لأنه أسهم بآلاف الجنيهـات فى الجهد الحربى . وبذلك خسر الجانبين ، ولم تعد له سمعته إلا حينما وضعت الحرب أوزارها ، وتبين الجانبان أن دعوته إلى السلم كانت دعوة مخلصة ، وأن وطنيته على الرغم من أصـله الأيرلندى كانت مشوبة بطابع عالمى يؤثر السلم على الحرب ، بل بعد أن تبين الجميع أى أضرار حاقت بالدول المحاربة :غالبة كانت أو مغلوبة .

* * *

ذلك جانب من تفكير برنارد شو حاولنا أن ندرك آثاره فى الحقبة التى مضت بين نهاية القرن التاسع عشر ونهاية الربع الأول من القرن العشرين . لقد كان من ناحية التفكير السياسى والتوسع الامبراطورى وقيام الحرب موزعا بين عوامل تتجاذبه . وكان أيضا يتطور على أساس من تكوين قوة عالمية كبرى يستوى أمامها أهل الدنيا جميعا . حاول عند حرب البوير مع فريق من الفابيين أن يجد هذه القوة فى الامبراطورية البريطانية ، وحاول عند الحرب الكبرى الأولى أن يجدها فى حكومة عالمية . وفى ثنايا هذا التفكير المتطور كان يكشف الغطاء عن سياسة البغى والعدوان التى اتبعها المحاربون من كل جانب .

الكاتب المسرحي

١٨٩٨ - ١٩٢٥

لم يمض القرن التاسع حتى كان برنارد شو قد اكتمل فكرا ونضج عقلا ، فقد بلغ الرابعة والأربعين وأدت مطالعاته إلى فلسفة إيجابية في الحياة هي التي سماها « التطور الخالق » أو « قوة الحياة » . وهذه الفكرة الناضجة من « قوة الحياة » هي التي ظهرت في المسرحية الأولى التي كتبها في القرن العشرين وهي مسرحية « الإنسان والإنسان الأسمى (١) » وستظهر في سلسلة من المسرحيات سيكتبها برنارد شو خلال حياته الطويلة وستكون هذه السلسلة فلسفته التي عاش يدعو إليها وعقيدته التي نزلت من فؤاده منزلة الإيمان الديني .

كانت مسرحية «الإنسان والإنسان الأسمى » أبدع ما كتب برنارد شو الى تلك الساعة . ومازالت أغلب النقاد يعد ونها أروع ما كتب من مسرحيات، وقد عكف على تأليفها في السنوات الثلاث الأولى من القرن العشرين ومثلت في ٢١ من مايو سنة ١٩٠٥ . ويرى بعض النقاد ان هذا التاريخ هو أبرز يوم في تاريخ المسرح الإنجليزي منذ القرن السابع عشر. لأن المسرحية نفسها كانت أول مسرحية فكرية تعالج موضوعا فلسفيا . ويقبل عليها الناس جميعا . وقد جمعت إلى جانب الجدل عن العلاقة بين المرأة والرجل جدلا آخر بين الإنسان والشيطان عن الغرض من حياة الإنسان على الأرض ، والأصل في الخير والشر . وكل ذلك يكون هذه الفلسفة التي أشرت اليها . وكانت مسرحية« الإنسان والإنسان الأسمى »مسرحية ناجحة على الرغم من أنها كانت تعالج هذه الفلسفة . وكذلك استطاع برنارد شو أن يصوغ فلسفته في قالب مسرحي ، ،واستطاع الذاهبون إلى المسرح أن يقبلوا من غير ملل ولا ضجر على مسرحية فكرية جديدة . وكأنما كانت هذه المسرحية فاصلا بين القديم والجديد . وأقبل الناس على برنارد شو يتخذونه حجة في

---

(١) Man and Superman

الفكر وبدأوا يحملونه محمل الجد وينسون دعاباته ونكاته التي كادت تطغى على سائر ملكاته في فترة من الفترات .

ثم إن برنارد شو اهتم بأن يجمع مسرحياته السابقة في كتب تقرأ . وحين نشر هذه المسرحيات أضاف إليها مقدمات كانت في بعض الأحيان بعيدة عن موضوع المسرحية . وتداول الناس هذه المسرحيات وأمعنوا فيها النظر . وأحاطوا علما بدقائق الجدل الذي كان يروح ويغدو بين صفحاتها . وبعد أن كانوا يظنون أن برنارد شو ما هو إلا اشتراكي - أو شيوعي - صاحب لحية حمراء أخذوا يجادلون فيما كتب ، وظلت الصحف حتى الحرب العالمية الأولى تنشر عن آراء برنارد شو ، ولم تأت هذه الحرب حتى كان قد كتب ثماني مسرحيات أخرى[1] هي التي قامت عليها شهرته العالمية كمفكر وأديب مسرحي .

* * *

ولا بد لكاتب مصري أن يقف مرة أخرى عند مسرحية جزيرة جون بول الأخرى والأصل في هذه المسرحية هو العلاقة بين المستعمرين من الإنجليز والأيرلنديين من أصحاب الأرض في أيرلنده . وهي تفيض بالفكاهة حين يحاول برنارد شو أن يصور هذا الكفاح الخفي بين المستعمر الإنجليزي الذي يريد استغلال الأرض إذا أوتيت شيئا من العناية ، وإذا أوتيت زراعتها ومحصولاتها شيئا من التنظيم .

وكانت دنشواي عند نشر هذه المسرحية حديث العالم . والراجح أن يكون برنارد شو قد استقى معلوماته عن دنشواي من مصدرين : أولها وثيقة الحكومة الإنجليزية نفسها التي نشرتها في شكل ورقة بيضاء تحاول أن تبرر بها مسلكها الشائن في قضية دنشواي ، وثانيها ما كتبه « ولفرد سكون بلنت[2] »

---

(١) هذه المسرحيات هي : (١) الانسان الأسمى (١٩٠٣) (٢) جزيرة جون بول الأخرى (٣) كيف كذب على زوجها (٤) ميجر باربارا . (٥) ورطة الطبيب (٦) الزواج (٧) فضيحة بلانكو يوسنت (٨) عدم التوافق .

(٢) Wilfred Scawen Blunt

من كتب ومقالات ومذكرات . والراجح أن يكون ولفرد بلنت قد اتصل ببرنارد شو فيمن اتصل بهم من أهل الرأى. وكان يريد أن ينبه الرأى العام الإنجليزى إلى فظائع المحاكمات الإنجليزية فى مصر . ومن هذين المصدرين جمع برنارد شو مقدمته لمسرحيته عن « جزيرة جون بول الأخرى » وجزء كبير من هذه المقدمة يدور حول دنشواى .

وكذلك كان لبرنارد شو رأى خاص فى الاستعمار . وكان لا بد له مهما حاول أن يخفى عاطفته الأيرلندية أن يعبر عن آرائه فى العلاقة بين إنجلترة وأيرلنده ، كما عبّر عن آرائه فى حادث اهتزت له قلوب الوطنيين فى العالم كله مثل حادث دنشواى. برنارد شو لم يكن يؤمن بالقومية كمبدأ سياسى ، بل كان ينكر الوطنية العنيفة التى كان يمتاز بها كثير من الأيرلنديين . لكنه فى نفس الوقت كان ينكر الادعاءات الامبراطورية التى كانت تتمثل فى أدباء مثل رديارد كبلنج ، وفى سياسيين مثل سيسيل رودس . فقد كان يرى أن الأحتلال ما هو إلا سرطان فى جسم الأمة ، وأن البلاد المحتلة - إذا ابتليت بمثل هذا السرطان فهى لا تنفك تفكر فيه ليل نهار ، لا تنفك تفكر فى هذه الجائحة وكيف تتخلص منها . وقد تتمسك هذه البلاد المحتلة المسكينة ببضعة من المثل العليا الكريمة من حيث الوطنية والقومية والمروءة ، ولكن انشغالها بمقاومة الغاصب يفوّت عليها دائما ذلك الهدوء الذى لا بد من وجوده إذا أرادت أن تعيش ساعية منتجة . فبلاد محتلة مثل أيرلنده ومصر - فى ذلك الوقت - لم تكن تفكر إلا فى الجهاد .

* * *

ثم لا بد لكاتب مسلم أن يقف وقفة قصيرة أخرى عند موضع من حياة برنارد شو الفكرية أو قل عقيدته الدينية . ذلك بأنه فكر فى هذه الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى أن يكتب مسرحية عن « محمد » ﷺ . وقد أورد « هسكث بيرسون » هذا الخبر فى كتابه عن حياة برنارد شو (١) . قال إن

(١) G. B. S., A full Length Portrait, by Hesketh Pearson

برنارد شو كان قد أعد فعلا مسودة لتمثيلية عن « محمد » وأنه تقدم بها إلى الرقيب الإنجليزى فمنعه الرقيب من ذلك لأنه خشى أن تثير احتجاجا صارخا من جانب الحكومة العثمانية يومذاك. والواقع أنها كانت من غير شك ستسبب ثورة من الاستنكار من جانب المسلمين فى أنحاء الأرض.

جاء فى تاريخ حياة برنارد شو الذى كتبه « هسكت بيرسون » تحت إشراف برنارد شو نفسه : « لقد ظل برنارد شو سنوات عدة يفكر فى كتابة مسرحية عن نبي، وكان القديس ذو النزعة المكافحة هو الطراز الذى يتفق وطبيعة شو أكثر من أية شخصية أخرى. وكان شو يشارك مثل هذا القديس عواطفه فى الكفاح ، ولذلك فقد كان يستطيع أن يصوره بكثير جدا من الألمعية التى لا تخطىء. وكان محمد فى كل عصور التاريخ هو الشخصية الكاملة التى يتوافر فيها كل ما يتطلبه شو من شخصية البطل. وفى سنة ١٩١٣ أراد أن يكتب مسرحية عن هذا الموضوع على أن يمثل محمدا فوربز روبرتسن. وكان قد أبلغ اللجنة البرلمانية للرقابة على المسرح قبل ذلك بأربع سنوات أنه كان يرغب فى أن يكتب مسرحية عن حياة محمد . ولكن كان يحتمل ــ أو قل كان يخشى ــ أن يحتج على ذلك السفير التركى ، ولذلك رأى كبير الأمناء أن يرفض الترخيص بمسرحية مثل هذه ، وأدى ذلك إلى أن يعدل شو عن كتابة المسرحيه. وعلى الرغم من ذلك فقد ظل خيال شو يحوم حول النبي : فوضعه فى مسرحيته « عودة إلى متشالح » فقال عنه « إنه كان رجلا أوتى عقلا راجحا حقا فقد أسس دينا من غير أن يؤسس كنيسة ». ويظهر النبي فى كتابه عن « مخاطرات الفتاة السوداء فى البحث عن الله » ، ويناقش شخصية كوشون فى مسرحية « سانت جون ». ولكن كان الرقيب قد رفض تمثيل محمد على المسرح كما رفض من قبل تمثيل المسيح. فعرض محمد على المسرح كان كفيلا بأن يحدث فى الشرق ما يحدثه تمثيل المسيح فى الغرب. ولعله كان ينتهى بأن يغتال برنارد شو بيد أحد المسلمين المتعصبين ولذلك فقد كتب شو مسرحية « سانت جون » بدلا من ذلك.

وفى يولية سنة ١٩٤٧ كتبتُ خطابا شخصيا لبرنارد شو ضمنته هذه الفقرة بأكملها ، وسألته إن كان يستطيع أن يكتب إلى عن مسودته عن المسرحية التى التى كان يزمع كتابتها عن محمد ، بل سألتــه إن كان يستطيع أن يلقانى حتى أناقشه ذلك الموضوع بوصفى مسلما . لكنه أجابنى ببطاقة مازلت أحتفظ بها يقول فيها « إن الذى نقلتــه عن هكسث بيرسون حقيقى، وأنه أصبح مسنــا ولا يريد أن يُناقش إنما الذى يريده هو أن يُقرأ » وقــد رجعت إلى هذه الفقرة أستشف منها لمحات من تفكــيره الدينى ، والذى خلصت منه أنه كان معجبا بالنبى صلى الله عليه وسلم لأن النبى يمثل الإيمان أولا، ويمثل الكفاح فى سبيل هذا الإيمان ثانيا ، ثم إنه كان يمثل ماكان يسميه شو قوة الحياة ثالثا . وكذلك كان دينه يخــلو من سلطة الكنيسة وهى السلطة التى كان يرى أنهــا استعبدت المسيحيين والتى سخط عليها برنار شو سخطا شديدا . فهذه النواحى الأربع هى التى جببت النبى محمداً إلى برنارد شو. وقد بقى الآن أن نستنتج ماكان يريد أن يفعله شو فى مسرحية كالتى أراد أن يكتبها عن محمد . ويستطيع الناقد أن يدرس مسرحياته الدينية فيتخيل مثل هذه المسرحية . يستطيع أن يدرس « سانت جون » فيرى خيال برنارد شو عن النبى فى كل فصولها . وقد ظل هذا الخيال يداعبه حتى سنة ١٩٢٣ حينما كتب « سانت جون » وتحدث فى هذه المسرحية الجديدة عن قوة العقيدة ، وعن الوحى الذى يتنزل على المختارين من بنى البشر ، وعن قوة الحياة التى تدفع بالإنسان إلى الوقوف أمام أعدائه من ضعاف القلوب . فكل هذا يذكر الإنسان بحيــاة النبى صلى الله عليه وسلم . وإنما ذكره برنارد شو عن حيــاة جان دارك حينما حيــل بينه وبين كتابة مسرحية عن النبى .

* * *

وتمتاز هذه الفترة من تاريخ حياة برنارد شو بالعودة إلى شيكسبير . وقد حاولنا فى فصل سابق أن نجمل لك الخصومة التى أثارها برنارد شو بينه وبين « عُبّاد شيكسبير » وقلنا إن هذه الخصومة لم تكن إلا اختلافا بين مذهبين

من مذاهب الفن ، ويبينا مبلغ المهاترة والمبالغة التي كان يصطنعها برنارد شو عن عمد في نقد شيكسبير . وقد مضت هذه الخصومة إلى مطلع القرن العشرين حين هدأت نفس الناقد ، وأنابت إلى لون آخر من النقد أقل حدة من هذا الذي أخذ به في حملاته الأولى التي شنها على شيكسبير . وقد بدأ في مطلع القرن العشرين عودته إلى شيكسبير بأن ألف مسرحية « قيصر وكليوباترة » في سنة ١٩٠٠ ، وكان لابد له أن يكتب إحدى مقدماته الطويلة ليقدم بها هذه المسرحية ، وكان لابد أن يتحدث عن الفن المسرحي عند شيكسبير حين يبسط الكلام عن فنه هو نفسه ، فالحب بين أنطوني وكليوباترة كان موضوعا رومانسيا ممتازا ، وكان شيكسبير قد أضفى عليه نورا من شعره الخالد . وكانت قصة شيكسبير تدور حول المأساة التي حاقت بالمحبين فقد تعرضا للهزيمة وللموت معا من أجل « الغرام » ، أما أنطوني فقد ضحى بالعالم أجمع من أجل غرامه هذا ، وأما كليوباترة فقد فارقت الحياة من أجل حبها لأنطونيو .

وهذه القصة التي ترى قصة خيالية أكبرت من معنى الحب في نفس اثنين من أعلام التاريخ القديم هما انطوني وكليوباترة . لكن برنارد شو لم يكن يرى للغرام مثل هذه الروعة الخيالية التي حاول شيكسبير أن يبلغها بشعره . ثم لم يكن يرى أن الحب هو العنصر الأول من عناصر المأساة لأنه ينتهى دائما بشعور من اليأس والقنوط . كان ينأى عنها بتفكيره . بل هو يرى أن الحب أدعى الى أن يكون من عناصر المهزلة . فهو لم يكن يريد أن يجعل من العلاقة الجنسية أو التهالك الجنسى أساسا للمأساة ، لذلك رأى أن يعالج العلاقة بين قيصر وكليوباترة على أساس أن غرامها كان علاقة عادية بين رجل عظيم وامرأة تريد أن تفتنه . وهي في سبيل هذه الفتنة تفتعل المضحكات ، وهو في سبيل ملكه الواسع يعاملها معاملة الفتاة اللعوب . لذلك خرجت « قيصر وكليوباترة » وقد صوّرت قيصر عملاقا يداعب الملكة الفاتنة كما يداعب الطفل قطته الذلول : وخرجت المسرحية وقد أنزلت الغرام إلى ما يضحك منه ويعبث به بعد أن كان الغرام بين كليوباترة وأنطونيو عند شيكسبير مما يعجب به ويرثى له .

وقد هدأت فورة النقد عند برنارد شو فأصبح فى سنة ١٩٠٠ يثبت مزايا شيكسبير ، وأصبح يذهب إلى أن الذين أفسدوا كل هذه المزايا إنما هم أولئك المؤلفون الذين اتخذوا من مسرحيات الشاعر العظيم فلسفة للحياة يمكن أن يفسر بها الحياة الحاضرة ، ثم أولئك المخرجون الممثلون الذين اقتطعوا من مسرحيات شيكسبير ما اقتطعوه حتى تتفق والأدوار التى اتفقوا على القيام بها . فالمخرجون والممثلون والمؤلفون الذين كانوا يتعشقون شيكسبير إلى هذا الحد كانوا يسيئون إليه كل الإساءة . وعند برنارد شو أنه لو أن شيكسبير أدرك المسرحية الجديدة، ولو أنه تقدمت به السنون فولد فى آخر القرن التاسع عشر، ولو أنه عاصر إبسن ، لكتب شيئا يختلف كل الاختلاف عن مسرحياته التى كتبها فى القرن السادس عشر ، ولو أن المخرجين والممثلين فى القرن التاسع عشر عاصروا شيكسبير وقرأوا كل ما كتب بامعان لأخرجوا مسرحياته ومثلوها على نسق آخر يختلف اختلافا بينا عن النسق الذى اتبعوه.

وفى هذا يحاول برنارد شو أن يفسر كيف ثار بالأدب المسرحى من قبله. فهو يحاول ماوسعه أن يفسر الأمور كما يفسرها المفكرون فى أعقاب القرن التاسع عشر ، وهو يجعل التمثيل فكريا يتناول الواقع ، وهو فى مسرحية كليوباترة ـ كما كان فى سائر مسرحياته ـ يحاول أن يسجل على المسرح الأفكار والآمال والرغبات ووجهات النظر التى تصطرع بين كل فرد وكل فرد آخر . فهو لا يعالج موضوع الحب إلا ليظهر الجدل الذى ينشأ فى نفس المحب والتفكير الذى يبعثه هذا الجدل . وهو فى كل ذلك صاحب دعابة ، وهو يستخدم فى إخراج مسرحياته أنواعا من الحيل المسرحية بحيث يبعث الجدة والدعابة فى بعض الموضوعات المقدسة ، وهو فى كل ذلك رجل جديد صاحب فلسفة جديدة ومذاهب جديدة . ومفكر محترف يريد أن يحلل وقائع الحياة .

* * *

كان نقد برنارد شو لشيكسبير ذا أثر ظاهر ولو لم يكن قد نتج عنه إلا

تعديل الفن المسرحى، وإلا تمثيل مسرحيات شيكسبير بأكملها لكفاه ذلك فخرا. على أنه لن تمضى عشر سنوات أخرى على مسرحيـة « قيصر وكليوباترة » حتى يكتب برنارد شو بعض النقدات الأخرى التى تستحق الدراسـة . ففى سنة ١٩١٠ كتب برنارد شو فصلا صغيرا عن « السيدة السمراء فى مقطوعات شيكسبير » . أنت تعلم أن شيكسبير كتب مائة وأربعا وخمسين مقطوعـة ، وأنه فى هذه المقطوعات كان يذكر حبيبة له ذات شعر فاحم ، وإهاب أسمر . وقد قال شعرا خياليا عميقا فى هذه الفاتنة ، وكانت شخصيتها من بين الأسرار التى انطوى عليها تاريخ الأدب. فلم يستطع أحد إلى اليوم أن يكشف شخصية المرأة التى كانت مثارا لشاعرية شيكسبير فى تلك المقطوعات ، بل ظلت مجهولة ، وظل أمرها مدعاة إلى الحدس والتخمين من جانب النقاد .

وكان نقد شيكسبير قد بلغ الأوج ، وكان الأدباء والشعراء فى إنجلترة وأمريكا يريدون أن يقيموا مسرحا تذكاريا له . وامتلأت الصحف والكتب والمجلات بذكرى الشاعر العظيم . وكان فرانك هاريس صاحب « الستردى ريفيو » من بين الذين خلدوا ذكرى الشاعر فى مسرحية تخيل فيهـا صاحبته السمراء . وأوحى ذلك إلى برناردشو أن يؤلف فصلا تمثيليا آخر فى ذكرى شيكسبير فلم يجد بأسا من أن يكتب هـذا الفصل التمثيلى عن نفس الفاتنة السمراء .

وهو فى هذا الفصل أيضـا يهزأ بذلك الغرام الخيـالى الذى تفيض به مقطوعات شيكسبير ، إنه هنا يتصور موقفا يكاد يكون محالا فهو يدعى أن غانية إسمها « مارى فتون » كانت هى صاحبة شيكسبير السمراء ، وأن هذه الفاتنة لم تكن إلا أحدى جوارى القصر فى عهـد اليزابث . ويتصور برنارد شو أن مارى فتون على موعد مع حبيبها ، وأنها تلتقى به فى إحدى ردهات قصر « هو يتهول » . ويتم لقاء الحبيبين فى إحدى الليالى فلا نستبين إلا همسا فى الظلام الدامس . وتخرج الملكة اليزابث نفسهـا فتجد شيكسبير وصاحبته أمامها فيبدو من المرأتين من مظاهر الغيرة ما يضحك . وكذلك تهبط اليزابث

من عرشها الملكى الى مستوى السوقة، وهو أيضا خيال برناردشو الساخر الذى اتخذ فى ذكرى شيكسبير هذه الدعابة التى تناولت شيكسبير وفاتنته ومقطوعاته والملكة اليزابث نفسها . بل تناولت الحب وسخرت به .

ثم إنه أبرز ناحية أخرى من نواحى شيكسبير فى هذا الفصل المسرحى القصير ، إذ صوره كاتبا يدأب طول الوقت على أن يلتقط الكلمات الجميلة والتراكيب اللطيفة ويسجلها فى مذكرة لديه حتى يستخدم هذه الكلمات والتراكيب حين يرسل شعره . أى أن شيكسبير كان يتأتى لهذا الشعر بأن يدرس الكلمات والتراكيب ، ويأخذ بعض هذه من أفواه الناس سواء أكانوا من الخاصة أم من العامة . وبرنارد شو فى ذلك يبرز لغوية هامة عند شيكسبير وهو أنه كان شاعرا لكنه كان فى نفس الوقت جامعا لتراكيب اللغة الانجليزية وصائغا لكلماتها فى وقت كانت اللغة الانجليزية فيه فى طريقها الى النضوج .

على أنه لاتهمنا هذه المسرحية الصغيرة التى أبدينا لك طرفا منها بقدر ماتهمنا المقدمة التى كتبها برنارد شو حين قدم هذه اللمحة من لمحات فنه المسرحى . فهو يكتب فصلا طويلا آخر عن نقد شيكسبير ، وعما ذهب إليه بعض النقاد فى عصره من مذاهب الشطط والإسراف . إنه يعلم أن الكثير منهم كان يرى أن شيكسبير كان شخصا ناقص التعليم ، وأنه كان ينظر إلى الحياة بمنظار أسود حالك السواد ، وأن فى حياة شيكسبير عنصرا ملتويا سقيما من عناصر الكمد أو الحقد أو الغيرة أو الضغينة أوغير ذلك. ولم يكن برناردشو يتفق مع هؤلاء ، وكان يرى أن كلامنهم كان ينظر إلى شيكسبير من ناحية واحدة . بل زعم أن أغلب النقاد والممثلين لم يقرأوا مسرحيات شيكسبير بأكملها ، ولم يحاولوا أن يتغلغلوا الى أعماقها. فان قيل أن شيكسبير كان متواضعا ناقص التعليم ، فقد كان يبدى فى كل ماكتبه شعورا حادا بشخصيته. كان يبدى فى كل ماكتب أنه رجل من فضلاء القوم : فهو يتهكم على العمال والمزارعين والخفراء والحراس من أنصاف المتعلمين ، وهو يمجد دائما أعمال الطبقة الحاكمة او الغنيه من طبقات المجتمع . وإن قيل إن

شيكسبير كان عرضا لنوبات من الكمد والغم والتشاؤم فى مآسيه ، فقد كان فى ملاهيه يظهر دائما ضاحكا بملء شدقيه ، بل هو يبدو ضاحكا سافرا فى مقطوعاته نفسها حين يتهكم على حبيبته، وحين يتغزل فيها ،بل وحين يذكرها بالفناء والقبح والموت وبكل مكاره الحياة . ثم إن قيل إنه لم يكن ديمقراطيا لأنه مثل على المسرح كريولانس وقيصر ، وذكر على ألسنة ملوكه حق الملك المقدس،وازدرى بالجماهير،فقد تحدث عن بعض الملوك وبعض الأفراد،وبعض أفراد الطبقة العليا بما يزرى بهم أجمعين.وكذلك ترى أن برناردشو كان يدعو النقاد إلى البحث والاستقصاء دون أن يكتفوا بدراسة ناحية أو ناحيتين من نواحى الشاعر العظيم .

لقد غبر قوم فى أخريات عهد فكتوريا كانوا يعتبرون أن الكتابة عن شيكسبير هى أقصى مايبلغه النقد الأدبى . كان الناقد من هؤلاء يرى أن حياته الأدبية تتوقف على كتابة مؤلف فى حياة شيكسبير،وكان بين الأدباء والنقاد منافسة حادة فى كتابة مثل هذه المؤلفات ، وحينما طلع على الناس برنارد شو بكل هذه الآراء أحدث اتجاها جديدا فى نقد شيكسبير،لأنه دفع غيره من النقاد إلى قراءة مسرحياته،والموازنة بين أجزائها ، كما دفع الممثلين أيضا إلى أن يتخلوا عن تمثيل البطل فحسب . وبذلك انقلبت الخصومة بين شيكسبير وبرنارد شو إلى نقد متزن حينما هدأت ثورة الناقـد الثائر . وكأنما أفلح برنارد شو فى أن يوجه الناس إلى تقدير شيكسبير تقديرا يجمع المحامد والمساوىء ، ويضع الشاعر فى موضعه بين كتاب المسرحيات ، ويحد من عبادته العمياء التى كانت شائعة قبل ذلك .

ولم تكن تشغله كل هذه المناقشات عن كتابة المسرحية. فقد كتب مسرحيات من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢٣ (١) معظمها يتصل بحوادث الحرب اتصالا

(١) كتب فى سنة ١٩١٤ الى ١٩٢٥ هذه المسرحيات: (١) أندروكليز والأسد (٢) مغاوية على أمرها (٣) بيجماليون (٤) منزل الأسى (٥) كاترين العظيمة (٦) مسرحيات قصيرة عن الحرب (٧) عودة الى متشالح (٨) سانت جون

مباشرا أوغير مباشر . وأهم هـذهالمسرحيات ثلاث أولاها « منزل الأسى» وثانيتها « عودة الى متشالح » وثالثتها « سانت جون » أما الأولى فقد كتبها على غرار المؤلف المسرحى الروسى أنطون تشيكوف ، وأما الثانيةفقد كانت فى نظره خير ما ألف لأنه جمع فيها عقيدته الدينية وفلسفته فى الحياة ، واما الثالثة فقد كانت صفحة من العقائد الدينية التى استقر عليها :

وتدل « منزل الأسى » على أن شو كان متأثرا تأثرا شديدا بتشيكوف وأنه كان قد قرأ مسرحيته «بستان الكرز » قراءة فاحصة ، بـل لقد نقل إلى بعض خواصه أنه حاول أن يحـاكى تشيكوف محاكاة دقيقـة . وكان تشيكوف فى « بستان الكريز » التى ألفها سنة ١٩٠٥،يحاول أن يصف حياة الانتقال التى كان يعيشها الروسى فى عصر ماقبـل الثورة . كان يحاول أن يصور أحوال الأفراد الذين لم يهيئوا أنفسهملا ستقبال الآراء الجديدة ، وتنبأ بأن هؤلاء ستجرفهم الثورة فى طوفانها كما يجرف الأشجار السيل العـرم . وكان تشيكوف يستوحى من مسرحيته هذه إيمانه بالقضاء والقدر . وهو فى خلال المسرحية يبرزلنا شخوصههؤلاء وهم يصطرعون مع الأجيال القادمة. إنهم يحاولون أن يتشبثوا بالأوضاع القديمة لكن الزمن يأبى عليهم ذلك فهم « ضحايا التاريخ » .وقد خرجت فئة منالكتاب المعاصرين نسجت علىمنوال تشيكوف ، وكان منهم برنارد شو . فهو يحاول فى مسرحيته «منزل الأسى» أن يصف أوربا عامة وانجلترة خاصة فى الأيام القليلة التى سبقت قيام الحرب العالمية الأولى : قـوم من المثقفين يتمتعـون بأوقات الفراغ أفسدتهم النعمة وأخلدوا للراحـة . وهم فى ذلك يشبهون فئة من البحـارة استسلموا للخمر واستناموا للدعة وتركوا سفينتهم الغارقة تقذف بها العواصف والأمواج ، ولا أمل فى إنقاذ العالم من هوةالحرب إلا بالعمل الإيجـابى المنتج ، كما أنه لا أمل فى إنقاذ السفينة المشرفة على الغرق إلا بتضافر بحارتها على إنقاذها . أما الاستكانة والابتهال للسماءو التفـــاؤل الخادع فليس كل أولئك إلا عبثا لاغنـاءفيه .

وفى سنة ١٩٢٠ أتم برناردشو كتابة خمسة أجزاء لمسرحيته « عودة إلى متشالح » وكان برنارد شو يذكر هذه المسرحية الضخمة حتى آخر أيام حياته وكأنها هى أروع ما كتب . لقد قال مرة أن مسرحياته جميعا ــ ماعدا هذه ــ قد كتبت وحى الساعة وأنه كان يقصد بها إثاره موضوع من المواضيع الشائعة ، أما « عودة متشالح » فقد كتبها لتكون سجلا فلسفيا لعقائده . على أن هذه المسرحية فى نظر كثير من النقاد لا تكاد تبلغ مستوى مسرحيات أخرى لبرنارد شو مثل «الإنسان والإنسان الأسمى» أو مثل «سانت جون» ، فهى طويلة تدعو إلى السأم ، وهى مهلهلة متفككة الأجزاء ، وهى متفاوتة مختلفة الشخوص . وهى عندنا لا تمتاز بالفن المسرحى الذى يتطلبه الناقد فى مسرحية متكاملة متناسقة .

وعلى الرغم من ذلك فان « عودة إلى متشالح » ذات دلالة على النمو الفكرى الذى بلغه شو فى سنة ١٩٢٠ . كان قد بلغ فى تلك السنة الرابعة والستين ، وكان قد أدرك أن عقائده الدينية قد نضجت أخيرا ، وكان يحاول أن يعلل ما فعله الفلاسفة الأولون فيضم عقائده جميعا فى ثبت خاص . فهو فى هذه المسرحية يتحدث عن نشأة الحياة ، وعن العلاقة بين آدم وحواء ، وعن جنة عدن ثم عن حياة الإنسان فوق الأرض ، وعن « التطور الخالق » ثم عن النكبة التى رزىء بها الإنسان وهى الموت الذى يقضى عليه وهو فى سن الستين أو السبعين أو الثمانين ، مع أن الإنسان عنده يبدأ فهم الحياة وهو فى هذه السن . ويتحدث برنارد شو بعد ذلك عن المعمرين فى الأرض ويعرض فى المسرحية قوما يبلغون ثلثمائة سنة من العمر ولما يفهموا الحياة فهمًا صحيحا . ثم ينتهى كل ذلك إلى آفاق واسعة أمام « الفكر » الإنسانى . تلك آفاق تشمل ملايين النجوم التى لم تسكن ــ وقد يسكنها الذرارى من بنى البشر فيما بعد ، لكن الفكر البشرى إلى الساعة التى نحن فيها لا يستطيع أن يدرك ماوراءها ، وحسبنا أن نعلم أن هناك شيئا وراءها ، فان النظر قصير مهما أوتينا من حدته ، وإن الفكر كليل مهما أوتينا من قوته . وكذلك ينتهى برنارد شو إلى نوع من التصوف ، بعد أن يكون سلك بنا سبيلا وعرا فى حياة الفكر الإنسانى .

ويتم برناردشو فى سنة ١٩٢٣ مسرحيته عن جان دارك أو «سانت جون». وقد أسلفنا عليك أن الأفكار التى برزت فى هذه المسرحية بدأت بتفكيره الدينى الذى مارسه قبل ذلك بعشرين سنة ، وأنه فكر أول ما فكر فى كتابة مسرحية عن النبى محمد ﷺ ، وأن هذا التفكير الدينى قد تطور عنده فبرز فى تمثيلية سانت جون . وهنا يصور الاضطهاد والنفاق والتدين الكاذب من ناحية ، ويصور قوة العقيدة والجلد والتفانى فى سبيل المبدأ من ناحية أخرى : كل ذلك فى مسرحية منسقة متألقة . ولا شك أن « سانت جون» عندنا من أروع مسرحيات شو لا من حيث الفكرة فقط ولا من حيث التفنن فى تصوير الشخوص فقط بل من حيث ميزاتها المسرحية أيضا .

هذه المسرحيات الثلاث : أى « منزل الأسى » و « عودة إلى متشالح » و « سانت جون » تؤلف عندنا الذروة من تفكير برنارد شو من الناحية الدينية . فهى سلسلة تبين لنا مدارج العقيدة التى تقلب فيها برنارد شو فى حقبة مقدارها عشرون سنة ، ولا شك أنه كان يتدرج فى التفكير حينما كان يكتب. وفى كل مرة يزيد مبدؤه فى « التطور الخالق » وضوحا . لقد كان يريد أن يؤلف لنفسه فلسفة خاصة قوامها أن الإنسان قد خلق ناقصا على ظهر الأرض، وأنه إذا أراد فيستطيع أن يكمل هذا النقص ، وأن الذى يدفعه إلى هذا الكمال إنما هو الرغبة والإرادة والعمل وكل ذلك أجمله فى « قوة الحياة » فالى أى حد كانت هذه فلسفة ؟ ذلك ما سنعالجه فيما بعد حين نفصل آراءه الدينية .

* * *

تلك إذن حقبة من حياة برنارد شو بدأت من أول القرن العشرين وانتهت بانتهاء ربع قرن . وقد رأيت موقف برنارد شو فى المآزق الفكرية التى وجد نفسه حيالها حين أعلنت الحرب العالمية الأولى ، وقد رأيت أيضا كيف أنقذ تفكيره وعقيدته خلال هذه الحرب ، وقد رأيت أن أفكاره الدينية هى التى

تغلبت فى هذه الفترة على كل ماعداها من أفكار . وفى سنة ١٩٢٥ يحدث حدث له عندنا معنى خاص : ذلك أن برنارد شو يمنح جائزة نوبل للأدب عن تلك السنة فيدرج اسمه بين الخالدين. وسيظل مسرحيا حتى وفاته سنة ١٩٥٠ لكنه فى الخمس وعشرين سنة الأخيرة من حياته سيكون مفكرا عالميا. ولكن كيف استطاع أن يتبوأ هذا المقام العالمى ؟ لقـــد قضى السبعة والعشرين عاما بين سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٢٥ ،وهو يعـالج من الأفكار ما يمت إلى العلم والدين والفلسفة والسياسة الدولية والاقتصاد العالمى ممـا رشحه لجـائزه نوبل فى سنة ١٩٢٥ .

(١٤)

الكاتب العالمى

١٩٢٥ - ١٩٥٠

لم ينتج برنارد شو كتابا ولا مؤلفا فى خلال سنة ١٩٢٥، لكنه منح جائزة نوبل للآداب فى تلك السنة. وقد تردد كثيرا فى قبول هذه الجائزة التى اعترفت بفضله، وأكبرت مكانتــه، وأذاعت صيته فى العالم، وجعلته من الخالدين. وعلق على هذه المنحة فقال: إنها جاءت فى وقت بدأ الناس يرتاجون فيه إلى السلام، فهى علامة على حاجة العالم النفسية إلى السلم بعــد أن ظل الناس بضع سنين وهم يفزعون من الحرب: تؤرقهم أخبــارها، ويقض مضاجعهم ما أتى فى أعقابها من خلافات. فلم تكن هذه الجائزة عنده إلا شعارا للعرفان بالجميل يقدمه له العالم المتمدين لأنه عاش لفكرة السلم والحرب على أشــدها. أما من ناحيته الشخصية فانه تسلم الآلاف السبعة من الجنيهات وهى قيمة المنحة ليحولها بالتالى إلى جمعية أدبية اسمها «الحلف الإنجليزى السويدى» وكان من نشاطها أن تترجم آثار الكتاب السويد إلى اللغــة الإنجليزية. ولم يفته أن يعلق على ذلك فقال: «لقد ألقوا إلى بهذا القدر من المال كما يلقى بطوق النجاة إلى السباح بعد أن يكون قد وصل إلى الشاطىء.»

* * *

وظل برنارد شو بعد ذلك ثلاث سنين لا يظهر نشاطا فى التأليف المسرحى، ثم إذا هو يخرج على الناس فى سنة ١٩٢٨ بمجلد ضخم اسمــه «دليل المرأة الذكية إلى الاشتراكية والرأسمالية» وكأنما قد انثنى للتأليف العام دون التأليف المسرحى، وكأنما أراد فى مجلده هذا أن يجمع بين دفتيه آراءه فى السياسة والحكومة والاقتصاد إلى غير ذلك مما كان يدرسه منذ قرأ كارل ماركس، ومنذ ناقش كل هذه الشئون فى حياته الفابية. وهنا نلحظ أن برنارد شو قد استطاع أن يطور آراءه الاشتراكية الأولى، وأن تفكيره فى كل تلك الشئون

قد نضج ، وأنه حاول أن يتحدث إلى « المرأة قبل أن يتحدث إلى الرجل »، وأنه فى حديثه هذا يحاول أن يقلل من الاحصاءات ومن المصطلحات العلمية المعقدة ما أمكنه ذلك .

وجه كتابه إلى المرأة لأنه كان يعتبر أن المرأة هى الأمل الذى يلوح فى مستقبل العالم . لم يكن للمرأة سياسة فى الماضى ، ولم يكن لها فى الماضى رأى فى الحكومة ولا فى الاقتصاد ، بل لم يكن التاريخ الماضى بما انتاب الإنسانية من حروب من صنع المرأة ، لذلك أراد برنارد شو أن يجعلها رائدة المستقبل، وزعيمة التطور المنشود . كانت المرأة قد أقبلت على الحياة السياسية من غير قيود الماضى ، وكانت قد حصلت على حقها النهائى فى التصويت الإنتخابى منذ سنة ١٩١٩ ، وقد أراد برنارد شو أن يتحدث إلى النساء لأنه ظن أن النساء قد أقبلن على الحياة السياسية وهن يتمتعن بالحرية ، وأنهن على استعداد لأن يقتحن قلوبهن للمغامرات السياسية والاقتصادية الجديدة . كان أمام برنارد شو عالم سياسى واقتصادى جديد لم يكشف بعد هو عالم المرأة .

وقد خص الجزء الأول من كتابه هذا لشرح مبدئه الجديد الذى وصل إليه والذى حاول أن يؤيده كل التاييد ، وهو مبدأ المساواة فى الدخل . ولم يكن هذا المبدأ مما اعترفت به الاشتراكية الفابية ، لكنه مبدأ اختص به برنارد شو من بين الفابيين. ويصل شو إلى مبدأ المساواة فى الدخل بعد أن يجول فى دائرة من الجدل الهيجلى يبرهن فيها على أن المساواة فى الدخل أقل الأوضاع أضرارا من النواحى الخلقية والحيوية والاجتماعية والفلسفية . كذلك يتجه الكتاب جميعه إلى أن يكون استعراضا طويلا للأرباح الضخمة التى كانت تئول إلى المضاربين فى سوق الأوراق المالية ورجال المال والأعمال وأصحاب المصارف والمستوردين والمصدرين . فهو يفصّل الحيل والمهارات التى يستخدمها كل هؤلاء حتى يكدسوا الأموال فى ناحية ويحرموا مجموعة من الناس من التمتع بهذه الأموال المكدسة من ناحية أخرى . ولا يرى برنارد شو حلا لذلك إلا إذا وضع الاقتصاد القومى على أساس التخطيط والتأميم .

والكتاب جميعه ايضا نقد صارخ للديمقراطية الحديثة. فهو يتشكك فى قدرة البرلمان الإنجليزى على العمل الناجز ، ويرى أن هذا البرلمان نفسه قد اضمحل منذ حرب البوير. بل هو يؤيد الأقوياء من الحكام ويحاول أن ينقد الديمقراطية فينبه الناس إلى أنها قد تنقلب إلى حكومة من حكومات الرعاع ، ويحاول أن ينقد الديكتاتورية فينبه الناس إلى أن الحكومة الدكتاتورية تذهب مع الريح حين يموت الدكتاتور . .

ذلك موجز ضئيل للآراء الأساسية الثلاثة التى تسرى فى كتابه « دليل المرأة الذكية » وليس يعنينا منه الآن إلا أن نسجل هذا التطور الذى ألم بأفكار برنارد شو . وينبغى أن نذكر أنه كان قد بلغ الثانية والسبعين حين نشر هذا الكتاب ، وأنه حاول أن يستجمع فيه آراءه التى انتهى إليها وهو فى هذه السن . فهو قد احتفظ ببعض الآراء الفابية التى كانت قد سلمت له من تاريخه الطويل مع هذه الجماعة . ولعله أفاد من آرائه السابقة حين تناول فكرتى التخطيط والتأميم ، وحين اعتبر أنها العلاجان للحد من جشع الرأسمالية بل لعله كان يتحدث باسم الفابيين أيضا حين تناول دخل الأفراد . فقد كانت سياسة الفابيين فى ذلك هى أن تفرض الحكومة من الضرائب ما يحد من دخل الأغنياء ومايقوم بالخدمات التى يتطلبها الفقراء. وقد سارت الحكومة البريطانية على هذين الأساسين فضيقت الهوة قليلا بين أولئك وهؤلاء، لكنه فى الواقع يعتبر ثائرا على الفابيين حين انتهى إلى أنه ينبغى أن يسوى فى الدخل بين جميع الأفراد تسوية تامة ، وحينما تشكك فى النظم الديمقراطية ، وحينما أيد حكومة « الأقوياء » التى كانت تهتم بالعمل الناجز دون أن تتردد . وسنرى أن كل هذه الأفكار سوف تظهر فى المسرحيات التى كتبها فيما بعد . بل سنرى أنه ليس من اليسير على القارىء أن يقرأ « دليل المرأة الذكية » جميعه فهو يبلغ خمسمائة صفحة من النقاش ، وأنه خير له أن يقرأ عن الآراء السياسية على الأقل فى المسرحيات التى ألفها برنارد شو بعد هذا التاريخ .

* * *

وأهم هذه المسرحيات اثنتان هما : « عربة التفاح » التى ألفها فى سنة ١٩٢٩ و « على الصخور » التى ألفها فى سنة ١٩٣٣ . فهو يعالج فى الأولى الحكومة الديمقراطية كما عرفتها إنجلترة ، ويسخر من فكرة حكومة الأغلبية، ويبرز لنا مجلس الوزراء البريطانى فى أزمة وزارة تستقيل لخلافها مع الملك « ماجنس » ويختلق لنا شخصية هذا الملك الذى يهدد باعتزال العرش لكى يقف رئيس وزرائه وجها لوجه أمام الناخبين. وهو يعالج فى الثانية تعطل العمال ومظاهراتهم ويبرز لنا هزيمة الحكومة أمام هذه القوى الجديدة التى لم يكن لها قبل أمامها . ولم يكن برنارد شو فى المسرحيتين إلا مرددا لأفكاره التى انتهى اليها أخيرا من حيث الحكومة البرلمانية. وهو لا يبرز فى المسرحيتين إلا أشخاصا يذكرون القارىء برامزى ماكدونالد الذى ولى الحكم مرتين بفضل زعامته للعمال ، وفشل فى المرتين لأنه لم يكن من الحنكة ولا الكفاية ولا المقدرة التى كان يتوسمها الناس فيه . ولذلك فانا نعتبر أن برنارد شو فى كتابه « دليل المرأة الذكية » ، ثم فى مسرحيتيه هاتين قد تخلى عن الأوضاع الدستوريه البريطانيـة التى كان يلاحى دونها الفابيون فى أخريات القرن التاسع عشر ، وشق طريقا جديدا يهزأ فيه بالأوضاع البرلمانية التى برهنت على العجز والهزيمة أمام القوى السياسية والاقتصادية الجديدة .

هذا هو التغير الذى طرأ على برنارد شو بعد السبعين من حيث أفكاره السياسيه والاقتصادية . لكن شيئا آخر قد ألم بمقدرته الفنية على التأليف المسرحى. لقد تحدثنا من قبل عن اتجاهه الواقعى والذهنى نحو المسرح ، وذكرنا لك طرفا عن مسرحياته الخالدة التى تكون سلسله كريمة من روائع الفن المسرحى: مسرحيات « مثل منازل الأرامل » و « الإنسان والإنسان الأسمى » و « كانديدا » و « تابع الشيطان » و « قيصر وكليوباترة » و « منزل الأسى » و « عودة الى متشالح » و « سانت جون » فهذه جميعا روائع من فن التمثيل تمتاز بالاتساق المسرحى ، والتالف بين أجزائها ، وصدق شخصياتها، وجاذبية الحوار . ثم يمتاز بأنها وضعت على أن تكون مسرحيات

فكرية أو ذهنية . لكن مسرحيات برناردشو بعد « عربة التفـاح » لاتمتاز بكل ذلك .

ويبدو أن برنارد شو بعد السبعين كان قد فقد هذه المقدرة المسرحية التى كانت تجمع بين المتاع الفكرى والمتاع بالحوادث والقصة والشخوص ، أو قل إنه هو نفسه كان قدضاق بقيود المسرح فاكتفى بأن يردد آراءه فى أفواه شخوص لاتكاد تنبض بالحياة . وكأنما كانت «عربة التفاح» هى الخفقة الأخيرة لهذه الشعلة التى ظلت تضىء المسرح مدة نصف قرن أو يزيد . وقد كتب بعدها عددا من المسرحيات السياسية التى لم تكن مسرحيات إلا بالاسم، إذ أنها عندنا ليست إلا محادثات (١) .

* * *

ومهما يكن من أمر تطوره فى التأليف المسرحى فقد بلغ سنة ١٩٣١ ،فاذا هو ينضم إلى ثلاثة من الإنجليز فىزيارة للروسيا ليقضىفى موسكوعيد ميلاده الخامس والسبعين.وكان يصحبه فى هذه الزيارة لورد استور وليدى استور ولورد لوثيان والثلاثة من المحافظين . وقضى الأربعة تسعة أيام لا أقـل ولا أكثر ، زاروا خلالها المتاحف فى موسكو ومقبرة لينـين وحلبات السباق . ودعاهم ستالين إلى زيارته وقضوا معه ساعتين ونصف ، وصمم برنارد شوعلى أن يزور أرملة لينين وقد زارها فعلا . ويقول الصحافيون من أهـل الغرب أن الروس قد أعدوا برنامجا محـدودا لزيارة هؤلاء الضيوف بحيث لم تقـع أعينهم إلا على كل ماهو جميل ومنتج من حيث الزراعة والصناعة والفن . بل يتهمه بعض هؤلاء الصحافيين أنه حاول أن يخفى الحقائق الكريهة عن الحياة فى موسكو عند عودته إلى لندن بما افتعله بعد ذلك من نكات وماحاول أن يصطنعه من سخرية .

والحق أن زيارة برنارد شو لموسكو واختلاطه بالروس ذات معنى خاص فى حياته الفكرية . لقد أسلفنا أنه كان مؤمنا وهو شاب بكثير مما ذهب إليه

---

(١) Dialogues

كارل ماركس ، وقلنا إن الفابيين حينما اعتنقوا الاشتراكية حاولوا أن يتحللوا من الشيوعية ، وسبق لنا أيضا أن بينا كيف أن آراء جون ستيورت مل وتلميذه سدنى وب قد أثرت فى الاشتراكية فى انجلترة فعدلت بها عن طريق الكفاح والفوضى واللاحكومة ، إلى طريق التطور المتدرج والنظام والحكومة الدستورية . ففى سنة ١٩١٤ كان شو يعتبر الروسيا رمزا للشعب الذى تسيطر عليه الدكتاتورية الهدامة التى لاتتورع عن استخدام أدنأ الوسائل ، ولاتتعفف عن ارتكاب أخبث الآثام ، بل كان قد أرسل احتجاجا شديدا على جرائم الشيوعيين فى الروسيا حينما اجتاحتها موجة الإرهاب . وفى سنة ١٩١٤ كان مايزال يؤمن بالحكومة البرلمانية ، ولم يكن قد اتجه إلى نقد الديمقراطية هذا النقد اللاذع الذى ساقه فى كتابه « دليل المرأة الذكيه » أما فى سنه ١٩٣١ فقد أفقدته الأزمة الاقتصادية والسياسية كل إيمان بالديمقراطية البرلمانية فى انجلترة . فكأنما قد ذهب إلى الروسيا وهو على استعداد لأن يعطف على الأسس الاقتصادية والسياسية التى أقامها الروس ليقيموا بناء وطنهم تحت حكم لينين ثم ستالين . لذلك امتدح حركة التعمير التى كانت قائمة على قدم وساق فى الروسيا ، كما امتدح العمل المنتج الذى كان يقوم به الروس حسب خطة السنوات الخمس ، كما أعجب اعجابا تاما بالتضحية التى كان يبذلها الروس أملا فى إعداد العدة لمستقبل أسعد تنعم به الأجيال القادمة .

وهنا أيضا نشأ تقديره للرجال الأقوياء . وكأنما نسى خلال موجة الإعجاب التى غمرته ، تلك المخازى التى كان يعرفها عن الثورة الشيوعيه . لقد كانت عينه كليلة عن أن ترى الجموع الجائعة التى كانت تروح وتغدو فى موسكو ، والأفواج الحاشدة التى كانت ترزح تحت الظلم الأحمر . وقد زار قبر لينين فى الميدان الأحمر فرأى الناس يحجون إليه ، ويطوفون بضريحه ، ويلمسون أركانه ، كأنما قد أصبح أحد القديسين . أما هو فلم يخف إعجابه بلينين فقال : « لست أعلم إن كان سيخلق رجل له من الوزن ماسيكون للينين فى المستقبل . إذا نجحت هذه التجربة التى بدأها لينين فستكون فتحا

لعصر جديد من عصور العالم ، فاذا هى أخفقت فاننى سأودعكم عند موتى بقلب يملؤه شىء من الحسرة . ولكن إذا كان المستقبل هو الذى رآه لينين، فاننا نستطيع أن نستبشر ونتطلع إلى المستقبل بلا وجل ، بل هو لم يخف إعجابه بالرجال الأقوياء الذين ظهروا فى أوربا فى هذه الفترة من أمثال موسولينى وهتلر .

وهنا أيضا موضع آخر من المواضع التى يبدو فيها برنارد شو متناقضا مع نفسه أشد التناقض . وإن المرء ليحار حقا كيف يوفق بين ما قاله برنارد شو فى زيارته هذه عن الروسيا وما قاله عن البلشفية وحكومة لينين فى مواقف أخرى. لقد كان دائما يحاول أن يؤيد الحكومات الحرة وأن ينتقص من النظام البلشفى. فهو فى مرة يقول : « إن التقدم رهن بأن نرفض استعمال الوسائل الوحشية حتى إذا كانت وسائل فعالة. » وهو يقصد ولاشك الروسيا حين يقول : « إن الحضارة لا تستطيع ان تتقدم من غير ان تكون هناك حرية فى نقدها ، ولذلك فيجب ان نعلن أن النقد مباح لاعقوبة عليه . حتى تستطيع أن تنقذ نفسها من الهمود والبغض . » ثم إنه يقول فى موطن آخر: « إن تربية المواطن لا تعنى أن يربى على الطاعة العمياء لذوى السلطة لكنها تعنى ان يربى على النقاش والحرية . . . تعنى التشكك وعدم الرضى والسعى إلى اصلاح الأمور » . يحار المرء كما قلنا أن يوفق بين كل هذه الآراء التى أرسلها برنارد شو فى زيارته للروسيا . لكن شو كان مجموعة من المتناقضات : كان فى نفسه مثلا حيا للمنطق الجدلى ، وتردد بين ثنائيات متناقضة ظلت ولازالت تحكم العالم طول القرن الماضى. وهنا نرى المحنة الفكرية التى وقع فيها : المحنة التى أقحم فيها بين الديمقراطية والدكتاتورية ، بين النظام الدستورى البرلمانى والنظام الطباقى (١) ، بين فكرة المشورة والتدبر فى الحكم والعمل الناجز السريع . وكل ذلك كما أسلفنا يظهر فى مسرحياته فى تلك الفترة وبخاصة « عربة التفاح » و « على الصخور » .

---

(١) Totalitarian System

كان يتراوح تفكير برنارد شو بين هذه الثنائيات فى العشرين سنة الأخيرة من حياته فاذا هو وجد فى بلد أن حكم القانون قد أصبح نسيا منسيا ، وأن السلطة قد تركزت فى يدى حاكم مطلق ، فقد كان يميل إلى أن يحرر الناس وأن يعطى لهم الحق فى أن ينفسوا عما بذات صدورهم . وإذا هو رأى أن الأمر قد أصبح فوضى فى يد فئة من « البرلمانيين » الذين يستخدمون النفاق ولا يرعون حقوق العامة، مال إلى أن يقوم « رجل قوى » يفرض منطقة على الجماهير . وقد كان شو كما قلنا يتراوح بين هاتين الوجهتين . وقد حاول أن يؤلف بينهما حينما عاد من موسكو إلى لندن : حاول أن يبرهن على أن الشيوعيين فى هذه الفترة كانوا لا يزالون فى منتصف الطريق وأن التجربة لم تكن قد انتهت بعد، وأنه لا يمكن الحكم عليها إلا بعد نهايتها. بل هو قد ظن أن هذه التجربة نفسها كانت تشبه التجربة الفابية لولا أنها كانت عنيفة عجلى، فقال إنه لم يجد فى الروسيا إلا تطبيقا لما نادى به الفابيون عند أول دعوتهم إلى الاشتراكية . والعجيب أنه قد وافقه على ذلك سدنى وب. والعجيب أن الاثنين قد نسيا ما كانا قد وجهاه للشيوعية من اتهامات .

حينما عاد برنارد شو وزملاؤه الثلاثة إلى انجلترة ، اختلفت التقارير التى كتبوها عن الفترة التى قضوها مع ستالين . كانت ليدى أستور هى التى طلبت مقابلة الدكتاتور الروسى ، واصطحبت معها زوجها وبرنارد شو ولورد لوثيان . وكانت لا تزال تعتمل فى نفس ستالين ذكريات مريرة من سياسة إنجلترة ضد الثورة الروسية . وكان من الطبيعى أن يدور الحديث عن هذه النقطة بالذات . فذكر ستالين أن لويد جورج رئيس الوزراء البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى كان يؤيد جنرال رانجل قائد الجيوش الروسية البيضاء ضد جيوش الثورة الشيوعية . ثم ذكر بعد ذلك ونستون تشرتشل وكان وزير الحرب فى هذه الوزارة، وأظهر متهكما شكره له لأنه صرف للجيش الأبيض مائة مليون قطعة من المعدات والملابس والعتاد الحربى : لكنها وقعت جميعا لقمة سائغة للجيش الأحمر. وقام نقاش بين ليدى أستور وستالين حول معاملة

الشباب فى الروسيا ، فقال لها ستالين فى غضب : « إنكم تضربون أولادكم فى إنجلترة . » وأذاعت ليدى أستور أنها شددت النكير على ستالين ، وأنها ألزمته الحجة ، وأنها برهنت له على أنه طاغية مازال يستعبد الناس ، وأن الشعب الروسى كان رقيقا يعمل تحت حكم الحديد والنار ، وأذاعت أيضا أن ستالين قد أجابها على ذلك بأنه مازال يعتبر الروسيا فى حالة حرب ، وأن للحرب لازماتها ، ودامت المقابلة ساعتين ونصف ساعة مع أنه كان مقدرا لها أن تكون نصف ساعة فقط .

وعاد برنارد شو وهو يصف هذه المقابلة فيقول « إن ستالين لم يكن يبدو روسيا بل هو رجل وسيم أسود العينين من سكان جورجيا ، وهو بخلاف سائر الطغاة يمتاز بروح الفكاهة التى لم يستطع أن يخفيها . هو فى هيئته خليط من البابا والفيلد مارشال . وقد استطاع أن يدعنا نتحدث حديثا طويلا علق عليه أخيرا بكلام لم أفهم منه إلا كلمتين : هما رانجل وبولشفيك . أما الترجمان الذى كان يترجم لنا فلم نفهم منه شيئا لأن أسنانه كانت تصطك فرقا . ولولا ليتفينوف الذى كان حاضرا المقابلة لذهبت أحاديثنا من غير ترجمة » .

وهكذا تمت هذه المقابلة التى يوازن هسكت بيرسون بينها وبين مقابلة فولتير لفريدريك الأكبر ، ومقابلة جوته لنابليون .

* * *

وفى سنة ١٩٣٢ بدأ برنارد شو رحلة مع زوجه حول الأرض زار خلالها مصر وقضى فى الأقصر سبعة أيام ، ودعاه اتحاد جامعة القاهرة يومذاك لزيارة الجامعة وإلقاء خطاب فيها لكنه اعتذر بضيق الوقت . ثم سافر بعدها إلى الهند ثم إلى الصين ، وزار بعد ذلك جنوب افريقيا . وليست تعنينا رحلاته هذه إلا قليلا . إنما الذى يعنينا هو أنه كان يقود سيارة فى ناحية من نواحى جنوب إفريقيا وكادت تنقلب به ، وأصيبت زوجه فى هذه الحادثة إصابة لزمت بسببها الفراش وقام بتمريضها . لكنه فى نفس الوقت كتب قصته القصيرة « مخاطرات الفتاة السوداء فى البحث عن الله » . كانت ذات وزن خاص فى تطور العقيدة الدينية عند برنارد شو .

فكأنما أراد ـ وقد خلا إلى نفسه ـ أن يفصل الأديان جميعا ، وأن ينقد العقائد جميعا ، وأن يخرج من هذا البحث بتلك العقيدة التى كانت تتبلور فى شيخوخته ، وهى عقيدته فى « قوة الحياة » .

* * *

كان برنارد شو فى شيخوخته ينعم بسعة الرزق. وقد رأيتم كيف بدأ معدما مغمورا ثم كيف انتهى إلى أن يكون ثريا ذائع الصيت. ولا شك فى أن المخرجين الأمريكيين كانوا هم السبب فى الثراء الذى بلغه ، وأن الجمهور الأمريكى كان أول جمهور أقبل على مسرحياته . على أن برنارد شو لم يكن راضيا عن الأمريكان ولا عن امريكا : بل كان دائما يسخر من النظام الأمريكى ويهزأ بالأمريكان . وفى خلال رحلته الأولى حول الكرة الأرضية نزل إلى أمريكا مرتين : احداهما فى سان فرانسسكو والأخرى فى نيويورك . ففى اليوم الحادى عشر من أبريل سنة ١٩٣٣ قضى فى نيويورك يوما واحدا ألقى فيه محاضرة ازدحمت لها الجماهير فى دار الأوبرا ، وقد أذهل هذه الجماهير حين نقد كل شىء أمريكى : فقد نصحهم أن يحطموا دستورهم ، وأن يقضوا على الطغيان الذى يضرب بجرانه على مدنهم ، وأن يؤمموا مصارفهم ، وأن يهدموا قوة الرأسماليين منهم ، وأن يتنازلوا عن كل الديون التى على العالم لهم ، فبدون كل ذلك لا تستطيع أمريكا أن تنقذ نفسها ولا أن تنقذ العالم من براثن الأزمة المالية التى نشبت فى العالم يومذاك .

كان شو يعتقد أن أمريكا متحف من متاحف الأجناس المتباينة ، والجماعات المتخالفة ، لا يكاد يؤلف بينها خلق قومى . وكان يرى أن الدستور الأمريكى ليس إلا مرسوما دائما من الفوضى : فهو قد وضع ليحمى الناس من الطغاة الرسميين ، لكنه لم يحمهم من الطغاة غير الرسميين . كانت أمريكا فى نظره فى حالة دائمة من الطغيان : كانت تعج بمئات الطغاة الذين يفرضون إرادتهم فرضا على سواد الناس . كان يرى أن الحاكم الحقيقى لأمريكا هو صاحب الأموال الضخمة ، فمثل هذا الرجل لا يفكر فى الناس بل كان يقصر تفكيره على المال .

وصاحب الأموال الضخمة ، كان المسئول الأول عن الأزمة الاقتصادية التى أخذت بأكظام الناس فى سنة ١٩٣١ ، ولم تنته إلا بعد ذلك ببضع سنين . أصحاب الأموال هم الذين كانوا يستغلون أموالهم فى الخارج ، وكانوا هم المسئولين عن التضخم الاقتصادى الذى انتاب العالم فى تلك الفترة ، وهم أيضا الذين نبت منهم الأثرياءالمتعطلون الذين يفكرن فى امبراطورية اقتصاديةواسعة تنافس إلامبراطوريات الأخرى : إنهم أيضا هؤلاء الطفيليات التىعاشت على جهود الآخرين . أما من حيث الثقافة فقد رأى برنارد شو أن الأمريكان كانوا قد وفدوا إلى أمريكا وهم نصف أوروبيين ، وحاولوا أن ينشئوا لهم ثقافة من الكلام وانتهت هذه الثقافة إلى صخب وضوضاء . ولابأس من هذه الضوضاء فى نظر برنارد شو لأنه هونفسه يميل فى أحيان إلى الصاخبين الذين يحدثون الضوضاء .

ذلك موجز للمحاضرة التى القاها برنارد شو فى دار الأوبرا بنيويورك فى الحادى عشر من أبريل سنة ١٩٣٣ . فهى حقائق عن أمريكا : اقتصادها وحكومتها وثقافتها ، لكنهاحقائق لم تعجب أحدا ممن حضرالمحاضرة ،وكان لها أسوأ الوقع عند الأمريكان الذين أيدوه دائما ومثلوا مسرحياته ومهدوا له أسباب الثراء الفاحش الذى كان ينعم به .

* * *

وهنا ينبغى أن نقف وقفة قصيرة عندحياة برنارد شو الخاصة فى هذه الفترة لقد أصبح كما قلنا واسع الرزق . وأصبح يعيش عيشة تمتاز بالرفاهية. وكان له إلى جانب شقته فى لندن بيت ذو اثنتى عشرة حجرة فى بلدة فى هاريفورد شير اسمها « أيوت سانت لورنس » . وفى هذا البيت الريفى قضى برنارد شو السنوات الأربعين الأخيرة من حياته . ثم إنه كان دقيقا فى محاسبة المنتجين والمخرجين الذين كانوا ينتجون مسرحياته أو يخرجونها . ثم إن أخلاف الرزق انهمرت علية انهارا حينما خرجت بعض مسرحياته مثل « بيجماليون » فى السينما . فهو قد كان وجيها ثريا من كل وجه ، بل لقد

تشبه بأولئك الذين كان يسخر منهم من الرأسماليين وأصبح هو نفسه رأسماليا. وهذا الوجه من تاريخ حياته هو الذى كان يدعو إلى التساؤل . فما لهذا الاشتراكى الذى دعا إلى المساواة الدقيقة فى دخل الأفراد : ما لهذا الاشتراكى الذى سخر من المضاربين والتجار والأنتهازين - ما لهذا الاشتراكى الذى نصح الأمريكيين أن يؤمموا بنوكهم - ماله قد أصبح من أصحاب الثراء الفاحش ؟ وكيف استطاع أن يوائم بين أفكاره وبين ثرائه : ألا يبدو برنارد شو فى ذلك متناقضا كما تبدو شخوصه فى مسرحيات مثل « منازل الأرامل » و « مهنة مسز ورن » و « ميجر باربارا » ؟ لكنه كان على علم بكل ذلك ، كان يدرك هذا التناقض ، وكان لا يزيده علمه بذلك إلا إمعانا فى طلب المال وحرصا فى محاسبة جامعى الضرائب وكان يجيب على المتسائلين فيقول إنه لا يمكن أن يتنازل عن دخله فى بلد لا تؤمن بالمساواة فى الدخل . بل لقد كان يحمل فى أخريات أيامه كثيرا من الهم للضرائب الثقيلة التى كان يطالب بها . وكان يتوهم أنه كان يدفع للحكومة مائة وسبعة وأربعين جنيها عن كل مائة جنيه يكسبها . لكن برنارد شو كان مجموعة من المتناقضات ، وليس هذا الوجه من حياته إلا واحدة من هذه المتناقضات .

* * *

كتب برنارد شو عشر (١) مسرحيات بين سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٤٩ بما فى ذلك مسرحيتى « عربة التفاح » و «على الصخور » اللتين ذكرناهما فيما سلف . والمسرحيات جميعا تدور حول الحرب والسلم والمشكلات السياسية التى كانت تنتاب العالم بوجه عام . لكنه كما ذكرنا كان قد فقد كثيرا من روعته المسرحية . فليس يعنينا من هذه المسرحيات فنه المسرحى كما تعنينا الأفكار التى تشتمل عليها . لقد كان شو يحاول أن يدلى بآرائه كلما سنحت له الفرصة بذلك .

هذه المسرحيات هى (١) عربة التفاح (٢) حقيقة لا تصدق (٣) غزل القرية (٤) عند الصخور (٥) ساذج فى جزائر غير منتظرة (٦) سنة من كاليه (٧) ساحية الملابسيين) ٨ جنيف (٩) فى أيام الملك تشارلز الذهبية (١٠) البلايين المتأرجحه

وليست الآراء التى كان يبديها إلا ترديدا للأفكار التى نشأت عنده من قبل مع قليل من التعديل أو الزيادة أوقل إنها كانت روحه « الشاقية » يضفيها على الحوادث التى كانت تمر بين ناظريه . وكانت آراؤه هذه دائما أصيلة تؤثر النكتة والسخرية ، وكان كثير من طبقات المجتمع يضيقون بها ذرعا .

ولنضرب لذلك مثلا موقفه من تنازل الملك ادوارد الثامن عن العرش فى سنة ١٩٣٦ . ولقد تعلم أن الملك إدوارد كان قد أحب سيدة أمريكية تزوجت من قبله مرتين ، وأنه وقع فى مأزق بين الحب والعرش . فقد ثار عليه رئيس وزرائه ورئيس أساقفته ، وانقسم الرأى العام إلى فريقين : فريق ينظر إلى هذا الأمر كأنه أمر شخصى يختص بالملك وحده ، وفريق آخر سخط على الملك أشد السخط . وأصبحت مسألة الملك إدوارد وحبه لمسز سمبسون حديث الأساقفة واللوردات والوزراء والكتاب والعامة . فهل كان يمكن أن تتوج امرأة من العامة ملكة على بريطانيا ؟ وهل كانت تغفر لها الكنيسة زواجها مرتين قبل أن تصبح ملكة ؟ وهل كان هذا يستوى والمعايير التى يفرضها الدستور الإنجليزى والكنيسة الإنجليزية والوصايا العشر وما يسميه الناس عادة « فضيلة » أو « واجبا » ؟ كل هذه كانت من بين المناقشات التى كانت تثار فى الخفاء ، وإذا برنارد شو يخرج فى ديسمبر سنة ١٩٣٦ بمحاورة خيالية أرسلها إلى « الايفننج ستاندارد » تحت عنوان « الملك والدستور والسيدة » يبرهن فيها للانجليز أنهم « مملكة من أنصاف المجانين » .

وقد حدثت هذه المحادثة الخيالية بين الملك من ناحية ورئيس وزرائه ورئيس أساقفته من ناحية أخرى . فنحن نرى الملك وهو يستقبل هذين الرجلين الفاضلين اللذين طلبا مقابلته . وتبين الملك أنهما يريدان مناقشته فى مسألته الخاصة وهى مسألة زواجه من مسز _بل° . انهما يناقشانه فى هذه المسألة من وجهتين : وجهة مدنية ووجهة دينية . فرئيس الوزراء يهدد بالاستقالة ، ورئيس الأساقفة يهدد بأنه لن يعقد هذا الزواج فى الكنيسة ، أما الملك فانه

يرد على رئيس الوزراء فيذكره بأنه — أى الملك — يتمتع بتأييد العامة ، ويذكر له أن بين العامة فريقا يستطيع أن يؤلف حزبا يدافع عن الملك ، وأن يستولى بذلك على السلطة البرلمانية . ثم هو يذكّر رئيس الأساقفة بأن الكنيسة الانجليكانية لاتمثل إلا قلة ضئيلة من رعاياه ، بل إن الأغلبية العظمى من هؤلاء الرعايا لايؤمنون بالمسيحية ، ثم يدخل النقاش فى دقائق الموضوع : فهل يمتنع عن الزواج لأن مسز بل كانت أمريكيه ؟ وهل يمتنع الزواج لأنها لاتنحدر من أسرة مالكة ؟ وهل الأجدى للملك أن يتنازل عن العرش ؟ وهل يتنازل عن العرش لأخيه ؟ هذه كلها موضوعات للمناقشة التى دارت بين هذا الملك الخيالى ورئيس وزرائه ورئيس أساقفته .

ومثل هذا الكلام هو الذى كان يضيق به الوزراء والنواب والأمراء وغيرهم ممن كانوا يعتقدون أن هذه شئون لاتؤخذ بهذه الخفة .

* * *

وتتلبد السماء بغيوم الحرب العالمية الثانية. وكأنما قدر على برنارد شو أن يعيش فى فترات قصيرة من السلم تقطعها فترات طويلة من الحرب أو أعقاب الحرب . وكأنما كتب عليه أن يشهد هذه الحروب فى عالم الواقع ، ثم يكتب عنها فى عالم الخيال . وكأنما لم تجد آراؤه ولا مسرحياته عن الحرب فيصاب بنكسة أخيرة هى قيام موسولينى وهتلر وستالين وفرانكو ويصاب بضربة قاصمة حين تعلن الحرب فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ . كان برنارد شو فيما قبل هذه الحرب يكتب فى السياسة وهو يتوجس خيفة من الحرب التى كانت ولاشك مقبلة . كان يعلم أن معاهدات سنة ١٩١٩ كانت معاهدات خبيثة لأنها أشاعت فى وسط أوربا حدودا عسكرية ، وأن هذه الحدود نفسها هى التى ستثير ألمانيا وأنها هى التى ستدفعها إلى الحرب . ثم كان يعلم أن هناك بريقا واحدا من الأمل وهو أن يجتمع موسولينى وهتلر وفرانكو وستالين وتشمبرلن ليعالجوا الموقف فيتفادوا الحرب . وقد جمعهم فعلا فى عالم الخيال فألف

مسرحية « جنيف » وهى أيضا محادثة بين هؤلاء الأفاضل ، لكنها محادثة دلت الأيام على أنها أمل لاغناء فيه .

ويبدو فى محاولات برنارد شو الأخيرة أنه بلغ حد السذاجة فى حديثه عن الحرب العالمية الثانية . وأنت تذكر كيف انه كتب رسالة بأكملها فى الحرب العالمية الأولى ، وجه فيها النقد اللاذع لدعاة الحرب من الإنجليز . وهو من هذه الحرب العالمية الثانية ايضا يثبت ان الإنجليز وحلفاءهم كانوا هم السبب فيها . فلو لا معاهدة فرساى لما كان هناك داع لقيام هتلر ، ولظل حتى هتلر سنة ١٩٣٩ نقاشا ماهرا يكسب رزقه بعرق الجبين . لكن معاهدة فرساى هى التى مهدت له الطريق إلى الطغيان ، وإنجلترة هى التى خلقته . وما على إنجلترة إذن إلا أن تصالح هتلر وأن تصالح المتحاربين جميعا مهما كلفها ذلك .

كتب كلاما مثل ذلك فى نوفمبر سنة ١٩٣٩ ونشر مقالا مثل ذلك فى « نيو ستيتسمان » فى ذلك الشهر من تلك السنة . وتحدث عن غريزة المقاتلة التى تدفع الناس من الجانبين إلى الحرب . كتب فى ذلك : « إنها حرب لاغرض لها — بل لا يمكن أن يكون لها غرض فيما عدا غرض الفوز على الأعداء فى هذا القتال . ولا أرى المستقبل مغريا : فاننا إذا خسرنا الحرب فسوف يعتصرنا الغالبون اعتصارا ، أما إذا نحن انتصرنا فسوف نعتصر أنفسنا اعتصارا ، حينما تنتهى الحرب فسوف تعود الأمور إلى سابق عهدها وكأنما لم تكن هناك حرب ، فاذا كنت مقامرا فاننى أراهن أن الفائزين فى هذه الحرب إنما هم المحايدون » .

أصيب برنارد شو بخيبه أمل تكاد تكون شخصيه حينما نكب العالم بهذه الحرب ، وقد تأرجح مرة أخرى بين الحرب والسلم ، ووجد نفسه مرة أخرى فى مأزق فكرى كان أعوص كثيرا من أن يستطيع حله . ولاشك فى أن الجمهرة الكبرى من مفكرى العالم كانوا إلى جانب السلم ، ولاشك فى أنهم كانوا يودون لو وقف القتال . لكن برنارد شو بلغ حد السذاجة فى

اقتراح الحلول التى رآها . لقد كان يعول على ستالين . وكان يعتمد على دعوة السلم التى كانت تنادى بها الشيوعية . وهنا موضع السذاجة من آراء برنارد شو . كان قد عقد الآمال على ستالين وعلى الروسيا ، وحينما عقد ستالين اتفاقا مع هتلر ، هلل له برنارد شو واعتبر أن هذه ضربة دبلوماسية ماهرة من ضربات الطاغية الروسى . لقد اعتقد برنارد شو أن ستالين سيكبح من جماح هتلر ، وأن الحرب ستقف عند غزو بولندة وتقسيمها بين الطاغيتين، بل لقد نصح إنجلترة أن تضحى ببولندة فتوافق على هذا التقسيم وتعلن وقف القتال . وكانت بولندة فى رأيه كفيلة بأن تحدث لهتلر من القلق والهم ماتحدثه عشر أيرلندات » . وفى هذا الحل من السذاجة مايدل على أن برنارد شو قد بلغ مبلغا كبيرا من التفاؤل . فقد برهنت حوادث الحرب على أن الأمر لم يكن بهذه البساطة ، وأن الحرب لن تقف عند حد بولندة ولا غيرها من بلاد وسط أوروبا ، بل كان هناك من العوامل ما غاب عن برنارد شو . وانتهت به الحرب إلى حالة من الإذعان تشبه استسلام الإنسان للقدر ، واشترك فى المناقشات التى كانت تبدو وتختفى ، ولكن لم يكن لآرائه من الوزن ما كان يتوقعه هو نفسه .

كان لايزال برنارد شو يسمى نفسه « مستشار البشرية العام » وكان لايزال يتعلق بمكانته الأولى فى عالم الفكر . فاحتج مثلا على إغلاق المسارح فى إنجلترة أيام الحرب ، واحتج على ما كانت تزمعه إنجلترة من ضرب رومة بالقنابل ، وكتب كثيرا عن تفاهة النظام الحزبى البرلمانى فى إنجلترة ، وحينما خمدت نار الحرب رفض أن يشترك فى عيد النصر قائلا : « إننا ما نزال نعيش فى خطر سواء أردنا أم لم نرد ، ومازلنا نتوقع أسوأ الأمور فيما يأتى به الغد» . لكن هذه كانت خطرات ليس لها كثير من الخطر ، فلم يكترث لها كثير من الناس .

* * *

وفى سنة ١٩٤٤ والحرب تستعر أوارها أخرج برنارد شو كتابا آخر هو « المرشد السياسى لكل إنسان »(١) . وهو كسالفه « دليل المرأة الذكية إلى الإشتراكية والرأسمالية » يفيض بآراء برنارد شو التى وصل إليها وهو فى الثامنة والثمانين . والكتاب يقع فى ٣٦٤ صفحة ، وهو كسالفه أيضا عسير القراءة ، لكنه محاولة أخيرة من برنارد شو لأن يجمع أفكاره السياسية التى سلمت له من حياته المريرة . لقد قال فى مقدمته : « هذا الكتيب محاولة يقوم بها رحل جاهل جدا ليعلم قوما أجهل منه بعض مبادىء الحركات الاجتماعية التى ألم بها فى حياته الطويلة » .

والكتاب فى نفسه ليس إلا هجاء للعالم جميعه وبخاصة للحياة السياسية التى كانت تتراوح فى ذلك الوقت بين الديكتاتورية والديمقراطية . إنه هجاء من رجل يعاصر هذه الحركات من منتصف القرن التاسع عشر ، وحاول فى ثلاثة أجيال متتالية أن يعدل بالعالم عن طريق الحرب ، لكنه أخفق فى هذا كل الإخفاق . فهو يتحدث عن العالم بنفس المرارة التى كان يكتب بها «جوناثان سويفت » رحلات جليفر ، لولا أنه بخلاف « جوناثان سويفت » كان يحمل قلبا ضافيا بحب الناس ، ونفس تفيض بتقدير الحياة . وكأنما قد وجدالحياة ملأى بالأخطاء فأراد أن يبذل جهدا أخيرا لإصلاحها ، فهو يرى الخطأ فى رؤساء الوزارات وفى الوزراء وفى أعضاء البرلمان وفى موظفى الحكومة وفى المحامين والأطباء والأثرياء وأعضاء اتحادات العمال . فكل هؤلاء كانوا غرضا لهذا الهجاء الطويل المتصل . إنه يعلم أن هولاء جميعا يمعنون فى الخطأ لكن أمله فى إصلاحهم كان يدفعه إلى تبيان نقائصهم ونقد خططهم ، لأنه كان يعلم أن الخطأ الأول والأخير عندهم لم يكن إلا سوءا فى الفهم ، أما نواياهم فقد كانت دائما حسنة .

كان ينقد كل هؤلاء لكنه لم يقف عند نقدهم ، بل لقد نقد النظم والهيئات

---

(١) Everybody's Political What's What

التي كانوا يمثلونها . فاذا أراد أن يبصر الناس بنقائص الحكام فقد كان ينقد نظام الحكم من الأساس : وكذلك نقد النظام الحزبي والنظام الوزارى ونظام الانتخاب . وكتب أسطورة فى أصل نظام الانتخاب بنى عليها نقده له ودعا إلى التخلى عنه . لذلك يعتقد بعض الذين علقوا على هذا الكتاب أنه فى مجموعه كتاب هدام ، وأن برنارد شو حينما كتبه كان فى حالة من حالات اليأس ، فلم يدع نظاما ولا فردا إلا هجاه .

وعلى الرغم من ذلك فان الكتاب من بعض نواحيه دعوة إلى التفاؤل فى عالم كان يمر بأقسى محنــة من محن الحرب . وأهم ما يتصف به « أنه عرض للنقائض الذريعة التى كانت تتجلى فى النظام الديمقراطى » كما عرفته إنجلترة . ومثل هذا النظام الديمقراطى يدعى دائما أنه يحدب على صالح الرجل العادى . مثل هـذا النظام يدعى أن « كل إنسان » هو المبدأ والمعـاد فى كل تنظيم وتشريع ، ولذلك فقد انبنى على أساس الانتخـاب الحر . لكن برنارد شو ينقد كل ذلك ويهجوه ثم هو يرى أن الأمر فى الحكومة والسياسة يجب أن ينتهى إلى أيدى فئة من الفلاسفة أو العقلاء أو القـدماء الذين يعلمون عن الحكومة كل شىء والذين تخلو قلوبهم من الضغينة والحقد والجشع : وهؤلاء كفيلون بأن يسيروا بالحكومة فى طريق يحقق الخـير العـام . ولكن كيف تستطيع الجماهـير أن تعبر عن رأيها أو أن ترفـع شكواها أو أن تفكر مع حاكميها ؟ ثم كيف تستطيع الجماهير أن تنتخب فئات من الفلاسفة والعقــلاء والقدامى ؟ هذا جميعه لم يفصله برنارد شو ـ وقد حاول أفلاطون قبله بأربعة وعشرين قرنا أن يفصله فلم يفلح هو الآخر إلا قليلا .

* * *

ذلك إذن جهد فكرى حاوله برنارد شو وهو يقرب التسعين . وقد رأيت أية أزمات فكرية مر بهـا هذا الكهل . وهـــذه الأزمات الفكرية هى التى تطالعك من هذا الجهد الأخـير . فهذا الكتاب يتسم بالتناقض بين ثنائيات

أجملناها فيما سلف . ويبدو لقارئه التردد والتمسك بأنصاف الحلول . ثم إنه يكرر نفسه في كل صفحة من صفحاته ، بل هو لم يبد فيه رأيا لم يكن قد أبداه من قبل . أما عن الخبراء الذين قرأوه فقد قالوا عنه أنه لايعدو أن يكون مجموعة من اللغو والسفسطة والهراء . وأما قارئوه من أصحاب شو فقد قالوا إنه ايضاح منطقي للمشكلات التي كان يمر بها العالم يومذاك .

(١٥)

بعد التسعين

بلغ برنارد شو سن التسعين فى يوليه سنة ١٩٤٦ ، وفى هذا الشهر خرج كتاب اسمه « ج . ب . ش فى التسعين » (١) . وكان لهذا الكتاب من الأثر فى دوائر الأدب والفكر ما كان لجائزة نوبل التى منحها برنارد شو فى سنة ١٩٢٥ . فالكتاب قد كتبته صفوة من أهل الأدب والفلسفة والفكر ذكرى لبلوغ برنارد شو سن التسعين . اشترك فيه جون ميسفيلد شاعر إنجلترة فكتب قصيدة قصيرة عن برنارد شو ، وكتب بريستلى عن برنارد شو الناقد الاجتماعى ، وجود عن فلسفة برنارد شو ، وجيمس بيردى عن برنارد شو كمؤلف مسرحى ، والعلامة برنال عن برنارد شو كعالم ، ودكتور انج عن برنارد شو كرجل الدين وموريس دوب عن برنارد شو وعلم الاقتصاد ، ودانيل جونز عن برنارد شو وعلم الأصوات اللغوية — كما اشترك فى الكتاب صديقه القديم سدنى وب فكتب سطورا ستة قال فيها إنه عرف برنارد شو خلال ستين سنة زامله فيها وصاحبه فى رحلاته إلى بلاد القارة الأوروبية ، وإنه استفاد منه شيئا فى كل من روحاته وغدواته ، لكن ذاكرته قد أصبحت كليلة فهو لا يستطيع أن يكتب طويلا . ثم اشترك فى هذا الكتاب أيضا مؤلفون يمثلون المسرح والإذاعة والسينما، وهؤلاء جميعا اجتمعوا ليحيوا فى هذا الكتاب جورج برنارد شو عند بلوغه سن التسعين . وخرج الكتاب فى هذه الذكرى خاليا من اللغو والمهاترة : بل لعله — عندنا — خير كتاب يقرأه قارىء يعلم منه بآثار برنارد شو فى حياته الطويلة . وهو إلى ذلك تقدير صحيح عادل لما أنتجه برنارد شو فى حياته فى الفكر والفن المسرحى وفى الاقتصاد والاجتماع والدين والسياسة ، فهذه هى النواحى الست التى ينبغى لأى كاتب أن يعرض لها حينما يحاول أن يقدر برنارد شو كمفكر .

---

(١) G. B. S. Ninety

وهذه هى النواحى التى سنعالجها نحن حينما نعرض لوضع برنارد شو من تاريخ الفكر .

وكان أغلب هؤلاء الفحول الذين تقدموا بهذا الكتاب من الذين نشئوا وبرنارد شو كاتب ناضج اجتمعت له ملكة النقد إلى ملكة التأليف المسرحى. وكان هؤلاء قد أشربوا حب برنارد شو فى قلوبهم سواء أخالفوه أم وافقوه. والكتاب فى نفسه تمثال سامق من التقدير ، بل هو لاشك خير من أى تمثال مادى . والذى يزيد فى معناه أنه كتب فى حياة برنارد شو وأهدى إليه ، بل الذى يزيد فى معناه أيضا أن أكثر الذين أسهموا فى كتابته قدروه تقديرا علميا أثر المدالاجاة فيه ، وأن بعض الذين كتبوا عنه نقدوه نقدا علميا لا أثر للمهاترة فيه . وكلا الجانبين أجمع على أن أكبر أثر لبرنارد شو هو أنه استطاع أن يحطم كثيرا من الأفكار التى كانت فى العصر الفكتورى وأن يحل محلها أفكارا أخرى ، وكلا الجانبين أجمع على أن برنارد شو قد تناول نقده الجماعة بأسرها ، وفى الأجيال الثلاثة التى عاشها قضى على أمة من الناس وأحيا أمة أخرى ، وكلا الجانبين أجمع على أن آثاره سوف تخلد فى الأدب الإنجليزى والفكر الأوروبى .

تناول جون ميسفيلد فى قصيدته هذه الآراء فأشار إلى أن برنارد شو قد استطاع أن يحيل الأفكار الفكتورية الأولى حطاما ، وأن يبصر الناس بآفاق أخرى فى الفن والعلم والفكر والاجتماع . وأشار بريستلى إلى ذلك أيضا فقال إن برنارد شو قد استطاع أن يشعل النار فى هذا الحطام كما يفعل الانسان فى القمامة ، وبذلك مهد السبيل لنقداته الاجتماعية فى المجتمع الذى كان يعيش فيه . بل لقد ذهب بريستلى إلى أن الذى يميز برنارد شو هو أنه استطاع أن يدل أهل عصره على النفاق الذى كان يرين على مجتمعهم من قبل . وأشار جود إلى أن شو كان فيلسوفا وأن فلسفته قد انبثقت من قراءاته أولا ثم من تجاربه العملية ثانيا . وأشار برنال إلى موضع برنارد شو من العلم فقدر آراءه فى علم الحياة وفى المذهب النباتى وفى التطور . وتناوله القسيس

إنج فسلك شو فى سلك أصحاب الدين الأتقياء وبرهن على أنه مسيحى ممعن فى المسيحية . وتحدث عنه موريس دوب فقدر مكانته من حيث دفاعه عن الاشتراكية وكيف تأثر بكارل ماركس وجفوتر وريكاردو ثم كيف أثر هو بدوره فى الحياة العامة . وهذا إلى الكتاب الآخرين الذين كتبوا عن نقده الموسيقى وعن آرائه فى التربية وفى الحكومة المحلية . وأجمع كل هؤلاء على ماذكرنا من أن برنارد شو قد أقبل على العالم وفى العالم كثير من الكذب والنفاق والرياء والزيف وأنه وصل إلى سن التسعين وقد انقشع كثير من هذه الأهواء وأصبحت التماثيل التى تدل عليها حطاما .

وقد أسهم فى هذا الكتاب عدد من أصدقائه المخالفين أو قل أصدقائه وخصومه فى وقت معا . وقد جاء فيما كتبه ماكس بيربوهم وهو من هؤلاء الخصوم الأصدقاء . « وددت لو أستطيع أن أسهم فى كتابة هذا الكتاب . لكننى أظن أنه ليس لإنسان إلا أن يكيل المدح لرجل عظيم فى اللحظة التى يبلغ فيها سن التسعين ، وعلى الرغم من أننى مغرم ببرنارد شو وعلى الرغم من أنه كان دائما عطوفا علىّ كل العطف، إلا أن إعجابى بعبقريته خلال الخمسين سنة الماضية كان يفسده على اختلافى معه فى كل رأى ارتاه عن كل شىء تقريبا . . وإنى لأذكر أننى سبق أن نشرت اعترافا لنفسى فقلت إننى كنت دائما فيما يختص ببرنارد شو موزعا بين عاطفتين : أولاهما أننى كنت أتمنى أن لم يكن قد ولد برنارد شو أصلا وثانيهما أننى كنت أرجو لو أنه لا يموت أبدا . وإنى لأعدل الآن عن أولى هاتين الرغبتين ، لكننى لا أزال اتمسك بحرارة بالرغبة الثانية ، فلاشك فى انه سيعيش ابدا فى وعى العصور المقبلة . . . »

كان برنارد شو يستطيع أن يقف عند كل صفحة من صفحات كتاب الذكرى فيرى أنه لم يعش عبثا ولم يكتب عبثا ولم يؤلف عبثا ولم يكافح عبثا فى سبيل آرائه وأفكاره وفلسفته . كان يستطيع أن ينظر إلى وراء فيرى أنه حطم كثيرا من « المثل العليا » الزائفة التى قام عليها العالم قبل منتصف القرن التاسع

عشر ، كان يستطيع فى نظرته هذه أن يرى هذه المثل العليا وكأنها قد ذابت كاتذوب تماثيل الشمع ، أو كأنها قد ألقيت على أكوام الحديد «الخردة» كا تلقى الآلات المستهلكة . فقد كانت تلك رسالته فى الحياة : تدبر ثم فكر ثم نقد ثم كتب ثم قرأ له الناس فتأثروا به ونشأت بينهم أفكاره الجديدة وعقائده الجديدة . ولا بد أنه قد أدرك أن رسالته هذه قد أوتيت بعض النجاح حينما طالعه هذا الكتاب بصحائفه المائتين . ولا بد أنه قد امتلأ قلبه فخرا فى عيد ميلاده التسعين . فقد كان يكره دائما أن تقام له حفلات فى عيد ميلاده لكنه فى هذه المرة كان الاحتفال من نوع آخر ، فقد خلا من الضجة والصخب واللغو ، وامتلأ بالتبجيل والاحترام والتقدير .

ولكن هل ترى أنه قد اكتمل له النجاح وأنه استطاع أن يعدل بالعلم عن الحرب أو استطاع أن يطبق آراءه جميعا فى الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد ؟ كان برنارد شو عبقريا مفكرا ، وكان كالعباقرة المفكرين من قبله يقرأ كثيرا ، ولكن الظروف العالمية لم تكن تسمح لأفكاره أن تطبق. كتب فى ذلك « أولدس هكسلى » كلمة قصيرة كانت خاتمة هذا الكتاب وقد شبه برنارد شو فى كلمته هذه باثنين من أكبر المفكرين فى التاريخ الأوروبى : أولهما « إرازمس » وثانيهما « فولتير » . ذهب هكسلى إلى أن إرازمس كان أكبر مفكرى القرن السادس عشر وأن الناس كانوا يقبلون اقبالا شديدا على قراءه كتبه ، وأن فولتير هو الآخر أكبر مفكرى القرن الثامن عشر ، وأن الناس فى ذلك القرن كانوا يقبلون على كتبه هو الآخر . وبرنارد شو أيضا من أكبر المفكرين ، وهو أيضا قد أقبل الناس على كتبه يقرأونها وينقدونها ويبحثون ماجاء فيها . ويشترك الثلاثة أرازمس وفولتير وبرنارد شو فى أنه كان لديهم قسط وافر من قوة التفكير ، وأنهم كانوا يحيلون مشكلات العالم إلى مشكلات فكرية ، ويخرجون من مناقشتها بتنوير الناس إلى الطريق القويم . لكن المأساة الفكرية فى نظر أولدس هكسلى ان الناس لم يتمعنوا فى كلام هؤلاء المفكرين ولم يحاولوا أن يطبقوا النتائج التى

وصلوا اليها ، ولم يستخوموا الفكر أو الذكاء فى صالح الإنسانية . ولو أنهم اتبعوا النصائح التى نصح بها ارازمس لما حدثت حروب الدين التى تلت القرن السادس عشر ولما كان هناك حاجة إلى عبادة القوميات التى حلت محل تعدد الآلهة ، ثم لو أنهم اتبعوا ماجاء به فولتير لما ثارت الثورة الفرنسية ولا نشأت امبراطورية نابليون ، ولا كان هناك حاجة إلى التجنيد العام . كذلك الشأن فى برنارد شو ، فان الناس قد قرأوا كتبه وشهدوا مسرحياته وأعجبو بها وتندروا بما فيها من مرح وفكاهة . ولو أنهم حملوها محمل الجد ، ودرسوا مافيها دراسة عميقة ، وطبقوا أفكاره ، لما انحدر العالم إلى هوة الفوضى التى تردى فيها فى الحرب العالمية . وسيكون مآل الحضارة إلى الاضمحلال بل الفناء إذا نحن لم ننتبه إلى ماجاء به برنارد شو وإذا لم نستخدم الذكاء أو قل « العبقرية الإنسانية » للصالح العالمى .

أن لكتب برنارد شو — كما كان لكتب فولتير وإرازمس من قبل — جاذبية خاصة : هى جاذبية الفكر . فالناس ينعمون عند قراءتها بالجدل العقلى الخاص ، وهم يقبلون على مثل هذا الجدل إقبال الصبيان على الروايات البوليسية الجنسية ، لكن الأمر عند أولدس هكسلى يجب ألا يقف عند حد المتاع العقلى بل ينبغى أن يتعدى ذلك إلى التطبيق العملى . إن ذكاء كمثل ذكاء ارازمس أو فولتير أو برنارد شو كان ينبغى أن يحيل العالم جمهورية فاضلة لكن ذكاء غيرهم من بنى البشر هو الذى أحال العالم إلى أرض تشتعل فيها الحرب .

* * *

كتب فى عيد ميلاده التسعين أيضا سير وليم هيلى مدير الاذاعة البريطانية يومذاك والممثل فال جيلجود : كتب كلاهما عن علاقة برنارد شو بالاذاعة والراديو . واتفق الاثنان على أن الاذاعة كانت سيئه الحظ لأنها لم تدرك برنارد شو وهو فى عنفوان إنتاجه ، ولذلك لم يعاون برنارد شو الإذاعة إلا معاونة محدودة . كان برنارد شو من أولئك الذين يودون أن يجدوا كل

شىء متقنا كاملا ، ولم تكن الإذاعة فى سنة ١٩٢٤ قد بلغت شيئا من الإتقان ولا الكمال . وفى تلك السنة استدعته الإذاعة ليتحدث فى المذياع وسألته لو يسمح لها أن تخرج بعض مسرحياته ، فاشترط لذلك أن يكون كل إنتاج تحت إشرافه الخاص . كان برنارد شو كما أسلفنا يهتم اهتماما خاصا باخراج مسرحياته على المسرح ، وكان يمضى فى إخراج المسرحية فيلقى تعليماته على الممثلين والممثلات ويصر على تنفيذها بدقة . وقد حاول مثل ذلك فى الإخراج للاذاعه لكن الإذاعة كانت تقتضى كثيرا من التحوير والتبديل فى أصل المسرحية . فلم يوافق على ذلك برنارد شو . كذلك كانت الإذاعة تريد أن تذيع مسرحياته فى المساء أى بعد التاسعة والنصف فلم يوافق على ذلك أيضا . لذلك لم يتح لمسرحياته أن تذاع إلا قليلا وأبدى سخطه الشديد على المسرحيات القليلة التى أذيعت ، ونصح بعض الذين أخرجوا إحدى مسرحياته أن يمضى فيشترى مسدسا ويضرب نفسه بالرصاص حتى يريح منه الناس.

لكن برنارد شو عاون الإذاعة معاونة صادقة فى ناحية هامة : فقد انتخب رئيسا « للجنة لغة الحديث الإنجليزية ». وقد ألفت هذه اللجنة لتحسين اللغة الانجليزية من جهة الحديث واختيار أحسن اللهجات ، وقد علمت أن برنارد شو كان يهتم فى حياته اهتماما خاصا بعلم الأصوات اللغوية ، وأنه كان يعتقد أن طريقة الكلام تنم عن الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها الرجال والنساء ، وأنه إستخدم اللهجات المختلفة المتباينة فى كل مسرحياته ، وأن مسرحية مثل بيجماليون تقوم على لغة الحديث والعلاقة بينها وبين الطبقة الاجتماعية التى جاءت منها إليزا — فاعلم أنه رأس هذه اللجنة لكى يصحح من نطق المذيعين ولكى يرتفع بلغة الحديث إلى المكان اللائق بها . فاذا كانت الاذاعة البريطانية قد بلغت شأوا بعيدا فى هذه الآفاق فان الفضل يرجع أولا إلى برنارد شو .

وهذه المعاونة التى بسطها برنارد شو للاذاعة قد بذلها للسينما على نطاق أوسع كثيرا . وقد بدأ برنارد شو مع أصحاب السينما كما بدأ مع أصحاب

الاذاعة ، أى أنه كان متزمتا فى أول الأمر فهو بوصفه كاتبا مسرحيا كان يهتم بالحوار ولم يكن الفلم عنده إلا ايضاحا للحوار ، أما مخرج السينما فهو يهتم أولا بالتصوير وخلق « الجو » أو « الموقف » الذى يتوافق مع الحوار. فبينما الكاتب المسرحى يحرص كل الحرص على كل كلمة كتبها ويريد أن يخرجها فى الفلم ، إذا المخرج السينمائى يريد أن يقتطع من الحوار كل مالا يجد له ضرورة لتوضيح ملامح الفلم . وفى هذا الموقف المتناقض بدأ برنارد شو . وقد مضت عليه فترة غير قصيرة حتى استطاع أن يدرك الفرق بين مسرحية تمثل على المسرح ، ومسرحية تمثل للسينما . وحينما أدرك ذلك آلى على نفسه أن يكون كاتب سيناريو ـ وقد أفلح فى أن يكون ذلك كل الفلاح من مسرحياته التى ظهرت أفلاما فى حياته وهى «بيجماليون» او «ميجر باربارا» و « قيصر وكليوباترة » .

ويقص علينا المخرج السينما « جبرائيل باسكال » فى كتاب الذكرى كيف التقى ببرنارد شو لأول مرة فى الثالث عشر من ديسمبر سنة ١٩٣٥ وكيف تحدث فى شأن إخراج بيجماليون على الشاشة البيضاء ، وكيف أنه جادل مع برنارد شو فى فن الإخراج ، ثم كيف نجح برنارد شو ككاتب من كتاب السيناريو ، وكيف أن هذا قد أدى إلى نجاح هذه الأفلام الثلاثة التى ذكرنا. فقد تدخل برنارد شو تدخلا دقيقا فى كل منظر وفى كل موقف من مناظر الأفلام ومواقعها ، وكانت نتيجة ذلك أنه فسر مسرحياته هو بنفسه ، ولم يعتمد فى ذلك على كاتب آخر ، فجاءت أفلامه طبق ماتصوره ، وترك للكتاب بعده ثروة مسرحية يستطيعون أن يحيلوها أفلاما ، وقد ظهرت فى السينما فى حياته « بيجماليون » و « ميجر باربارا » و «قيصر وكليوباترة» ثم ظهر بعد مماته « سانت جون » و « تابع الشيطان » ولاتزال المسرحيات الأخرى تنتظر مصورة السينما .

* * *

لم يكتب برنارد شو بعد أن نيف على التسعين إلا ثلاث قصص مسرحية

قصيرة (١) . ولا يعنينا من هذه القصص الثلاث إلا مناقشتها العابرة عن مسائل الساعة . لقد ناقش فى إحداها وهى « البلايين المتأرجحة » مشكلة النشاط الذرى وأجرى على لسان أحد شخوص المسرحية هذه الكلمات : « إن القنبلة الذرية سوف تيسر للناس إصلاح العالم . فستبدأ بأن تخلص العالم من بعوضة الأنوفيليس وذبابة التسى تسى والنمل الأبيض والجراد » كذلك أجرى على لسان نفس الشخص « سيطوع لنا تحطيم الذرة أن نفعل فى ساعتين ما كنا نفعله فى عامين ، وعند ذلك سنحرك الجبال ونقوّم الانهار بحركة بسيطة من حركات أيدينا . وعند ذلك ستنشأ مشكلة أخرى فماذا عسانا أن نفعل فى أوقات الفراغ : سنكون أشد اهتماما بالحياة ، ولن يداخلنا شك فى أن الحياة جديرة بأن نحياها وسيبلغ المصلحون فى الأرض ما أرادوا أن يبلغوه من أنفسهم » .

كانت هذه الكلمات من آخر ما كتبه برنارد شو ، وهى تدلك على ما كان يتدفق من قلبه من تفاؤل وإيمان بالمستقبل . ففى حين كان الناس يذكرون تحطيم الذرة والقنبلة الذرية على وجل ، إذا هو يذكرها وهو مطمئن إلى أن العالم سوف يفيد منها فى ناحيتين اهتم لهما اهتماما خاصا فى حياته : أولاهما القضاء على البعوض وثانيتهما القضاء على استعباد العمل . وفى الناحيتين يبدو لك برنارد شو المفكر والاقتصادى والاجتماعى وصاحب الفلسفة والدين.

* * *

كانت قد توفيت زوجه فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٣ ، وكانت قد أحرقت رفاتها ووضعت فى قنينة فى بيته فى « أيوت سانت لورنس » . وظل سبع سنين بعدها يختلف إلى كوخه الصغير فى حديقة هذا البيت يكتب فيه ويدرس . وفى اكتوبر من سنة ١٩٥٠ اعتل برنارد شو فنقل إلى المستشفى . وضاق بالمستشفى وطلب أن ينقل إلى منزله وهناك قضى نحبه الثانى من نوفمبر سنة

(١) خرافات بعيدة المنال Far Fetched Fables

١٩٥٠. وحينما فتحت وصيته رؤى أنه يوصى بأن تحرق رفاته هو الآخر وأن تمزج برفات زوجه ، وأن توضع رفات الاثنين فى زجاجة يحتفظ بها فى منزل أيوت سانت لورنس ، أو أن تنثر الرفات جميعا فى حديقة هذا المنزل. لقد ذكر فى الوصية أنه قضى خمسا وثلاثين سنة مع زوجه فى هذا المنزل فهو يفضل أن يحتفظ برماد جثته أو أن يذرّى فى الهواء أو أن يتصرف فيه القائمون على تنفيذ وصيته كما يشاءون . يقول فى ذلك : إننى شخصيا أفضل الحديقة على الضريح . وحيث أن عقائدى الدينية ، وآرائى العلمية فى هذه اللحظة لا يمكن تحديدها بأكثر من أنها عقائد رجل يؤمن بالتطور الخالق ، فإنى أرغب فى ألا يقام تمثال عام ولا عمل من أعمال الفن ولا كتابة ولا عظة ولا صلاة من صلوات الطقوس ولا أى تذكار يتضمن أننى قد قبلت فى حياتى قواعد خاصة بأية كنيسة من الكنائس ولا أية طائفة من الطوائف التى تتخذ لها شعارا من شكل الصليب ولا من أية أداة أخرى من أدوات التعذيب ولا أى رمز لسفك الدماء » . وقد نفذ القائمون على وصيته ما أوصى به فما زالت رفاته مختلطة برفات زوجه فى أيوت سانت لورنس . وفكر هؤلاء فى أن ينقلوها إلى دير وستمنستر حيث يدفن العظماء ، ولكنهم لقوا معارضة من رجال الدين .

على أنه يهمنا أيضا أن نتابع وصيته فيما يختص بالمال والعقار الذى خلفه . لقد علمت أنه كان قد أوتى كثيرا من المال ، وقد علمت أنه لم يسرف على نفسه ولم يبذر ، وقد علمت أنه كان دقيقا فى محاسبة أصحاب الضرائب وأصحاب السينما وأصحاب المسرح وأصحاب دور النشر على ماله عندهم وما عليه لهم . فقد اجتمع له من كل ذلك عند وفاته مبلغ مقداره ٣٦٧٠٠٠ من الجنيهات. وقد أوصى بهذا المال جميعه إلى جهات يدلك اسمها على أن حياته كانت مرتبطة باللغة والفن أشد الارتباط .

أوصى بجزء منها لإصلاح الحروف الهجائية فى اللغة الإنجليزية ، وأوصى بجزء منها للمعرض القومي في دبلن حيث تلقى دروسه الأولى عن فن الرسم

والتصوير ، وأوصى بجزء للمتحف البريطانى ولم ينس أن حجرة المطالعة فيه هى التى أنشأته حين قدم إلى لندن، وأوصى بجزء « للمعهد الملكى للفن المسرحى » وهو المعهد الذى أنشأه وعنى به أشد العناية .

* * *

تلك هى الروح التى ظلت تسيطر على جزء كبير من الفن والعلم والأدب ثلاثة أجيال . أنها روح من الفكر الخالص . ونحن نقدره كما نقدر الفكر أما ما قام به من حيث الأدب والفن والدين إلى غير ذلك : فقد كانت هذه جميعا وسائل للتعبير عن هذا الفكر .

الباب الثانى

(١)

المفكر المحترف

وصف برنارد شو نفسه فى مواقف كثيرة بأنه المفكر المحترف ونصب نفسه « مستشارا فكريا » للعالم أجمع ، وادعى أنه الفيلسوف الذى يرجع اليه فى مشكلات الأمور جميعا ، والحق أننا إذا حاولنا أن نجد له صفة واحدة ماوجدنا صفة تنطبق عليه أكثر من صفة المفكر فهو يمتاز بأنه فحص عن كل الآراء التى شاعت فى عصره وعلى تناقضها وتعارضها ، واستطاع أن ينفذ بفكره إلى كل هذه الآراء وأن يخلص منها بمناقشات ، ولن نقول إنه خلص منها بآراء قاطعة ولا بمذاهب قائمة بذاتها ، فانه لم يكن يريد أن يحدد مذهبا بعينه ولا أن يقطع برأى بقدر ماكان يريد أن يثير التفكير والمناقشة والجدل .

وهنا ينبغى أن نعالج بعض مذاهب الجدل التى تأثر بها برنارد شو فى تفكيره وبخاصة النظام الجدلى الذى اتبعه فريدريك هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) وهو نظام الديالكتيكية أو نظام « النقائض [١] » . على أننا قبل أن ندرس هذا النظام فى إيجاز ينبغى أن نذكر أن فى تاريخ الحضارة الحديثة كثيرا من أساليب الجدل التى انحدرت من علم المنطق من ناحية ومن الفلسفة من ناحية أخرى . وكان لابد لرجل مفكر مثل برنارد شو أن يتأثر بكل هذه الأساليب . كان لابد أن يتأثر بالجدل من سقراط ، ثم بأصول الجدل التى اشتقها أفلاطون من سقراط ، ثم بمنطق أرسطو الذى نزل إلى الحضارة فى كتب المنطق الحديثة ، ثم بجدل المدرسيين فى العصور الوسطى ، ثم بدورة الجدل عند هيجل وهذه هى الديالكتيكية التى أثرت فى كارل ماركس .

---

(١) Dialectics

وقد تأثر برنارد شو بكل ذلك . وكان لتأثره أبلغ النتائج فى حياة الجـدل والمناقشة التى عاشها .

كانت طريقة سقراط فى الجـدل أن يتظاهر بالجهل التـام وأن يسائل مناظريه فيما يدعون من قضايا . كان لايفرض فكرة أو بحثـا طويلا لكنه كان يسأل أسئلة تستدعى إجـابة خاصة من الجانب الآخر . وكان شغوفا بتعريف الأشياء . كان يسأل تلاميذه أن يعـرّفوا العلم أو التقوى أو الفضيلة، فاذا هو أجيب إلى سؤاله هذا ما فتىء يبرز النواحى الضعيفة من هذا التعريف ويثبت نقيضه حتى يقنع مناظره أنه على جانب من الخطأ . ثم كان فى مناظراته هذه يخرج من النقيض إلى النقيـض ، ومن التخصيص إلى التعمـيم ، ومن المحسوس إلى المجرد ، فكان يقترب كثيرا من طريقة الاستقراء . وقـد كان لسقراط هذا الموضع الأول فى تاريخ المنطق لأنه كان أول من استطاع من الفلاسفة أن يتخذ هذا الأسلوب المنطقى من أساليب المناظرة .

* * *

على أن فلاسفة ومفكرين بعد سقراط فتحوا أعينهم على الحياة فوجدوها ملأى بالنقائض. وقام فلاسفة حتى فى عصور الفلسفة اليونانية الأولى يتبعون صراع الأضداد فى هذا العالم ، وكان من هؤلاء هيرقليطس فهو الذى ذهب إلى أن الطبيعة تحتوى الأضداد ، وباعتمادها على الأضداد دون الأشباه ، تحدث الانسجام . وعلى هذا النحو ، تجمع بين الذكر والأنثى مثلا . وتناول هيرقليطس الفن فذهب إلى أنه ينهج نفس النهج ، فالتصوير يمزج الألوان البيضاء بالسوداء والحمراء بالصفراء ، وتجمع الموسيقى بين النبرات المديدة والنبرات القصيرة فيحدث بذلك انسجام فريد فى نوعه .

ومضى فلاسفة الأفلاطونية الحديثة شوطا بعيـدا فى كشف النقائض . وحينما قام فريدريك هيجل فى مطلع القرن التاسع عشر يثبت منهاجه الجـدلى وجد ميراثا لهذا الجدل عند هيرقليطس ومن تبعه من فلاسفة ومتصوفين . كان يرى هيجل أن العالم تحكمه معنويات كبرى ، وأن هذه المعنويات الكبرى

يتميز بعضها عن البعض لأنها تتعارض وتتناقض بل هى لا تكاد تحيا إلا إذا هى تعارضت وتناقضت . فلا وجود للصدق إلا إذا تعارض مع الكذب ، ولا وجود للقوة إلا إذا تعارضت القوة مع الضعف ، ولا وجود للتقدم إلا إذا تناقض التقدم مع التأخر . وقل مثل ذلك فى كل ما كان يحكم العالم من أمثلة عليا هى التى يسميها معنويات .

كان يرى هيجل أن هذه المعنويات ـ أو قل هذه الأمثلة العليا ـ قائمة على سلسلة ثلاثية هى ما يسمونه فى المنطق : أ = الموضوع ، ب = نقيض الموضوع ، جـ = مركب الموضوع(١) . ومن هذه الحلقة الثلاثية يتلخص النظام الجدلى عند هيجل . فلنفرض أن هناك معنى من المعانى العامة ولنسمه الموضوع ، فلابد أن ينشأ نقيض لهذا المعنى ولنسمه نقيض الموضوع ثم ، لابد أن ينشأ من التقاء الموضوع بنقيضه معنى ثالث هو ما نسميه مركب الموضوع . وهكذا تستمر الحياة المعنوية فى كفاح بين المعنى ونقيضه ، ثم تنشأ من ذلك الكفاح معان أخرى قد يتلاشى التناقض فى نهايتها وفى هذا يكون التفاؤل الذى كان يراه هيجل فى مستقبل هذا العالم .

كان ينظر هيجل بتفاؤل حينما ينتهى العالم إلى هذه المركبات الموضوعية التى يتلاشى عندها التناقض ، وتشيع بعدها فى الوجود وحدة خاصة لا تناقض فيها بل فيها توازن عالمى عام . كان يرى هيجل أن الكفاح أو النزاع الذى نمر فيه ما هو إلا نزاع بين الموضوع ونقيضه ، وأنه لا بد أن ينتهى ذلك النقيض إلى مركب عام يؤلف بين النقائض ويمضى بالحياة إلى حالة من التركيب أو التأليف ينتهى عندها الكفاح .

ولأن هيجل فكر هذا التفكير المعنوى فى هذا الجدل فقد كان ذلك مجالا يسيرا للمتصوفين من معاصريه . ودورة الجدل هذه لا يمكنك معها أن تنكر

---

(١) الموضوع = Thesis

نقيض الموضوع = Antithesis

مركب الموضوع = Synthesis

وجود الله سبحانه . فاذا كان وجود الله إثباتا ، وإذا كان إنكاره نفيا ، فلابد أن ينتهى هذا النفى بنفى آخر يثبت به وجود الله . لذلك كان هيجل برغمه ـ زعيم هذه الفلسفة الصوفية التى قامت فى ألمانيا على هذا المذهب الجدلى فى مبدأ القرن التاسع عشر . ولذلك أتى هيجل بالآف من حلقات الجدل الثلاثية التى تبدأ بالإثبات ثم بالنفى ثم تنتهى بنفى النفى أو بالتركيب أى بالموضوع ثم بنقيض الموضوع ثم بمركب الموضوع .

* * *

اشتق كارل ماركس منطقه الجدلى من فريدريك هيجل لكنه أخذ منه طريقة التدليل ولم يأخذ عنه تفكيره المعنوى . أنكر كارل ماركس المعنويات التى ذهب إليها هيجل لكنه فى نفس الوقت اتبع منطقه الجدلى اتباعا يكاد يكون حرفيا . لقد هبط من المعنويات إلى الماديات ، وذهب إلى أن الماديات لا المعنويات هى التى تحكم العالم . لكنه طبق على الماديات نفس السلسلة المنطقية الثلاثية التى اختطها هيجل . فذهب كارل ماركس إلى أن فى الحياة المادية «موضوعا »، وإلى أن لكل موضوع « نقيضا للموضوع » ،وإلى أن التقاء الموضوع ونقيضه يكون «مركبا للموضوع» أى أنه عاد: إلى أ = الموضوع والى ب = نقيض الموضوع والى ج = مركب الموضوع وفى هذا الجهد المنطقى استبدل بالمعنويات الحقائق المادية للتاريخ .

تكاد عبقرية كارل ماركس تتلخص فى هذا الكشف المنطقى الذى انتحله من فريدريك هيجل . فهو قد درس التاريخ على هذا الأساس المادى وانتهى بأن أجمل هذه المعادلة المادية وهى : أ = الموضوع = الاقتصاد الإقطاعى، ب = نقيض الموضوع = الاقتصاد البرجوازى أى اقتصاد الطبقة الوسطى ، ج = مركب الموضوع = الاقتصاد العمالى . وعلى هذا الأساس يدرس كارل ماركس الحركة الاشتراكية ، ويكون أول مفكر حاول أن يجعل المذهب الاشتراكى مذهبا علميا قائما على المنطق والجدل . فهو قد رأى هذا التناقض بين أ ، ب وأدرك أن هذا التناقض ماهو إلا الكفاح الذى حدث

بين أصحاب الإقطاع الأوائل وبين ذوى رأس المال من أفراد الطبقة الوسطى. ثم إنه كشف أيضا التناقض بين ب ، جـ وتنبأ بأنه ينبغى أن يقوم كفاح بين أفراد الطبقة الوسطى وبين العمال . وفى هذا كما أسلفنا تكمن عبقرية كارل ماركس . بل فى هذا تكمن أيضا نظريته فى أن التاريخ لم يكن فى نفسه إلا حلقات متداخل بعضها فى بعض ، ونظريته الأخرى من أن الرأسمالية تحمل فى طياتها متناقضات لا يمكن أن تحل إلا اذا حلت محلها الاشتراكية .

* * *

تأثر جورج برنارد شو بالمذهب الجدلى الذى أتى به هيجل كما رأينا والذى كان الأساس الأول لدراسات كارل ماركس . كان قد قرأ أصول المنطق فى كتاب چفونز ، وكان قد درس شيئا من المنطق عند سقراط وأفلاطون وأرسطو ، لكنه حين اطلع على دورة الجدل هذه وجد فيها الأداة التى يستعملها فى مناقشاته وكتاباته ومؤلفاته . الحياة ملأى بالنقائض ويقول هيجل إنها نقائض معنوية ويقول كارل ماركس انها نقائض مادية وقد طبق هيجل هذا المنطق فى عالم الفكر وطبقه كارل ماركس فى عالم المادة . ولكن كان على برنارد شو أن يتقن سلسلة الجدل الثلاثية هذه أ = الموضوع وب = نقيض الموضوع و جـ = مركب الموضوع — وهذه السلسلة الثلاثية هى عندنا مفتاح المناقشة أو الجدل أو المحاجة التى تروح وتغدو فى كتاباته ومسرحياته ومناظراته . تستطيع أن ترى هذه السلسلة الجدلية فى مسرحية بأسرها وتستطيع أن تراها فى الصفحة الواحدة وتستطيع أن تراها أيضا فى السطر أو السطرين . لقد اعتمد برنارد شو على أن يرى فى كل فكرة نقيضها ، ثم إذا هو أبدى هذا النقيض ، لم يزل به حتى يرى تآلفا بين الفكرة ونقيضها ، وهكذا تستمر مناقشاته فى جدل لا يكاد ينتهى . وهو فى أحيان يستعمل فى هذا الجدل حقائق بأسرها ، وفى أحيان يستعمل أنصاف الحقائق ، فى أحيان أخرى يلجأ الى المبالغة فى تصوير هذه الحقائق فيخرج بالقارىء الى استنتاجات بعيدة . على أنه ماينتهى إلى إقرار أمر من الأمور حتى يفجأك بنقيض آخر

للأمر الذى انتهى اليه . وهو بذلك يدور فى سلسلة لاتنتهى من الجدل : بل هو كما قيل عنه (بهلوان من بهلوانات الفكر) لأنه لايكاد يستقر على فكرة من الافكار حتى يقوم بحركة بهلوانية يقفز فيها الى فكرة أخرى ، ثم مايكاد يستقر على هذه الفكرة الأخرى حتى يثب الى فكرة ثالثة ورابعة . ولابد للقارىء لكتاباته وللمشاهد لمسرحياته أن يتوقع منه هذه البهلوانيات .

والقارىء لكتابات برنارد شو يرى نفسه بين ثنائيات متناقضة . ويرى أن برنارد شو لايأتى بموضوع إلا ويذكر نقيضا مشتقا من نفس الموضوع، ثم هو يستخرج مركبا من هذين النقيضين . وقد عاش الرجل نفسه من هذه النقائض . فهناك الرأسمالية ونقيضها الاشتراكية،وهناك الديمقراطية ونقيضها الديكتاتورية، وهناك الحرية ونقيضها النظام ، وهنـاك الدين ونقيضه العلم وهناك الفقر ونقيضه الخلق الكريم ، وهناك الحكومة النيابية ونقيضها حكومة الفرد ، وهناك حرية التجارة ونقيضها التنظيم الاقتصادى . وهو يعالج كل هذه النقائض ، ثم هو يستخرج منها آلافا أخرى من النقـائض الأخرى لايناقش فيها فحسب ولايكتبها فحسب بل هو سيجريها على ألسنة عشرات من الشخوص فى مسرحياته . فكل واحد من شخوصه سيكون كفيلا بأن يمثل موضوعا أو نقيضا للموضوع أو تركيباً للنقيضين .

ولاتحسب أن هذه النزعة الديالكتيكية ولا حيـاة الجدال التى عاشها لم تكن ذات أثر فى سلامة منطقه ولا فى صدق الحقـائق التى كان يتصورها . مثل هذه النقائض كانت تروح وتغدو عنـد السفسطائيين الأولين . ودورة الجدل الهيجلى فى نفسهـا قد اتخـذت فى ظروف كثيرة قاعـدة للسفسطة الحديثة . كـان مفكر مثل برنارد شو يتصيد النقيض لكل موضوع ولذلك فأنت تحس حينما تمضى فى قراءته أنه لايكاد يثبت على حقيقة بعينها . بل هو يقفز من حقيقة إلى نقيضها ومن النقيض إلى نقيض النقيض . فهو فى الحق كاتب متعب ، بل هو كما قلنا بهـلوان من بهلوانات الفكر . وإذا قيـل إن الديالكتيكية القديمة لم تكن إلا جدل الذين لايؤمنون بحقيقة فى ذاتهـا ولا

بقاعدة فى نفسها فان كثيرا من كتابات شو تذكر الإنسان بالسفسطائيين الأولين الذين حاربهم سقراط بسلاحهم هم أنفسهم . لقد وقع على هذه الوسيلة من وسائل الجدل واستطاع أن يتخذها فى يده سلاحا للمناظرة والمناقشة والكتابة .

* * *

لانريد أن نقول إن برنارد شو كان يملك هذه المقدرة على الجدل حينما قدم إلى لندن فى سنة ١٨٧٦ لكنه كان قد تهيأ لهذه المقدرة حتى وهو لايزال شابا . أما إقامته فى لندن وتصديه للنقد وإقحامه نفسه فى غمار الحياة العامة فهو الذى شحذ عنده هذه المقدرة الجدلية . فهذه الحياة الفكرية هى التى دفعت به إلى تعرف مواطن الجدل فى كل شىء . كانت فى إنجلترة أيام الملكة فكتوريا نزعة رومانتيكيه تحاول أن تهرب من الحياة الواقعة إلى الخيال ، فاذا كان هناك فقر فقد كانوا يسوّغون هذا الفقر بما جاء فى بعض آيات الانجيل من تمجيد الفقراء وأن لهم الجنة ، وإذا كان هناك ظلم اجتماعى فقد كانوا يحاولون إصلاح الأمر بتعديل قوانين الفقر واعتماد بعض المال للصدقات والإحسان ؛ وإذا كان هناك تذمر بين طبقات العمال فقد كانوا يدعون إلى توسيع القاعدة الانتخابية حتى تكون أكثر شمولا . ثم لم يكن الأدب فى ذلك الحين إلا مهربا خياليا آخر من حياة الواقع . فشعراء مثل وردزورث كانوا يلجئون إلى الخيال الرومانتيكى ، وأدباء مثل سكوت ووليم موريس كانوا يهربون إلى قصص القرون الوسطى . أما المسرح فلم يكن هو الآخر إلا مهربا من حياة الواقع ، فلم يتصور إلا قلة من المسرحيين والممثلين والمخرجين أن يكون المسرح قطعة من الحياة الواقعة بل حسب معظمهم أن دنيا المسرح تستطيع أن تكون فى معزل عن الحياة . وقد أقبل برنارد شو على كل ذلك فحاول أن يندس وراء هذه المظاهر الرومانتيكية . وقد استطاع أن يفعل ذلك باثنتين : أولا بهذه الطريقة الجدلية التى ورثها عن كارل ماركس والتى

أجملناها فيما سبق وثانيا بفكرة الدعابة والضحك والسخرية وروح النكتة التى يستعملها فى كتاباته ونقداته وأحاديثه ومسرحياته .

* * *

كان برنارد شو من أول مقامه فى لندن عدوا لهذه النزعة الرومانتيكية وهو فى مناقشاته التى ظلت تستعر سبعين عاما بعد ذلك يبدى هذا العداء . كان يفرّق بين نوعين من الخيال : نوع رومانتيكي ونوع واقعى ، نوع يستخدمه الشعراء والكتاب المسرحيون والعامة ويمضى بهم إلى آفاق من الوهم لاغناء فيها ، ونوع يستعمله المفكرون الذين يتدبرون فى إصلاح المجتمع . يقول برنارد شو فى التفريق بين نوعى الخيال :

« يجب أن نزيل ما يعلق بهذه الفكرة ـ أى فكرة الخيال ـ من اضطراب وخلط حينما نستعملها فنقصد بها قوتين من قوى العقل متباينتين كل التباين : إحداهما قوة تخيل الأشياء التى لاوجود لها ، وأنا أسمى هذا الخيال الرومانتيكى أو الابتداعى ، والأخرى قوة تخيل الأشياء كما هى من غير أن يتمرس بها الإنسان فعلا ، وأنا أسمى ذلك الخيال الواقعى . ولنضرب لذلك مثلين هما الزواج والحرب ، فقد يتوهم الإنسان أن الزواج ليس إلا رؤيا من النعيم الخالد يسكن فيه الرجل إلى ملاك كريم يضمهما هما الاثنين بيت واحد. وقد تطالعه من كلمة الحرب رؤى أخرى من السيوف المبرقة ، والمدافع المرعدة ، والخيل وقد عصفت فى ساحة النصر بالأعادى فذهبوا بددا . فهذا جميعه من باب الخيال الرومانتيكى أو الابتداعى ، وينتج عنه من سوء النتائج مالا سبيل إلى حصره . ويبدأ هذا الخيال بأن يفكر الإنسان فى نفسه ثم يتطلع إلى الحصول على المحال ، وينتهى باليأس الحاقد ، والشكوى المرة والتهكم ، ومقاومة كل جهد يبذله البشر فى سبيل اصلاح هذا العالم الذى لا أمل فيه » .

« ولكن العاقل من يرى أن ليس الخيال أداة لمسرة النفس فحسب ، ولا هو أداة للتخفيف من الملال فحسب ، . . . . لكنه إلى جانب ذلك وسيلة للتنبؤ

بحقائق لم يكابدها الإنسان بعد . هو وسيلة للاستعداد لمثل هذه الحقائق ، وبحث أمرها ، وتعرف ما إذا كان يمكن وقوعها ، والرغبة فى أن تقوم على الأرض هذه المدن الفاضلة التى فكر فيها الإنسان تفكيرا جديا . وصاحب الخيال الواقعى لاينتظر أن تكون زوجته ملاكا ، ولاهو يغفل حقائق الحرب ، فهو يعلم أن الحرب تقوم على إثارة مايخفيه بنو البشر من سفاهة فى القتل . إنه يعلم أن كل انتصار يعنى هزيمة ، وأن الإرهاق والجوع والرعب والمرض هى المادة التى يحيلها الحكاءون إلى مجد عسكرى . وهو يعلم أن الجنود تذهب إلى الحرب كما يذهب التلاميذ إلى المدرسة لأنهم يخافون ألا يفعلوا ذلك . إنهم يخافون أن يقولوا إنهم خائفون لأن مثل هذا الجبن جزاؤه الموت فى القانون العسكرى . »

وأنت ترى من هذه القطعة التى اقتبسناها لك مثلا من أمثلة الجدل الذى الذى استخدمه برنارد شو فهو قد صور التباين بين الخيال الرومانتيكى والخيال الواقعى ، ثم أنت ترى أيضا هذا النفور من النزعة الرومانتيكية : وهو نفور يميز كتابات برنارد شو ومسرحياته . وأنت ترى أيضا أن الخيال الذى حاول أن يستعمله برنارد شو كان خيالا واقعيا : خيالا يعترف بالواقع ولا يطير إلى آفاق القرون الوسطى ولا إلى آماد المستقبل . وقد كانت البيئة التى وفد عليها برنارد شو فى لندن سنة ١٨٧٦ وما بعدها هى بيئة هذا الخيال الرومانتيكى . ومادام الناس قد جنحوا إلى هذا الخيال فقد كانوا يستطيعون تصديق كل شىء . كانوا يستطيعون أن يصدقوا الشعر والقصص والمسرحيات والقوانين والدساتير التى لا تمت بصلة إلى حياتهم . وقد كانت رسالة برنارد شو أن يهيىء السبيل للحياة الاشتراكية فيحطم كل هذه الأوهام التى قامت على النزعة الرومانتيكية .

* * *

وبرنارد شو بعد ذلك كان رجلا « عقليا [(١)] » يعتمد على العقل فى

(١) rational

المناقشة . كان يعتمد كل الاعتماد على قوة الأفكار ، وكان يحاول دائما أن يسوق هذه الأفكار الواحدة بعد الأخرى فى مجال الحديث أو النقاش أو الكتابة أو التمثيل . كان يؤمن أن للأفكار قوة هائلة وأنه على الكاتب أو الأديب أو المسرحى أن يقنع الناس عقلا حتى يمكنهم أن يقتنعوا بالفكرة فاذا اقتنع هؤلاء بالفكرة استطاعت هذه الفكرة أن تكون عندهم إرادة : وهذه الإرادة عنده هى التى تتحول إلى عمل فهى مبدأ التطور والتقدم والترقى من حالة إلى حالة . ولاشك أن شو كان على حق فيما ذهب إليه ، فان الفكرة كانت دائما وراء حوادث التاريخ ولا يمكننا أن نقدر الثورة الفرنسية مثلا إلا إذا قدرنا الأفكار التى رسخت عند الفلاسفة وآمن بها الناس فى خلال القرن الثامن عشر . وكذلك لايمكننا أن نقدر ماوراء الحضارة الإسلامية إلا إذا قدرنا الفكرة التى جاء بها الإسلام ونزلت على النبى ﷺ . إن الفكرة قد تلقى كثيرا من العناء والاضطهاد ، فقد يتعرض صاحبها للنفى والتعذيب والسجن لكنها لابد أن تحيا بعد ذلك وأن تستجمع قوتها وأن يكون للعقل بعد كل هذا التعذيب الانتصار الأخير فى كل عصر من العصور .

ولابد عند تقريرنا لقوة الأفكار التى كان يؤمن بها برنارد شو أن نذكر أنه فى العصر الذى عاش فيه قامت فئات من الناس تنكر قوة العقل والتفكير ، وتزعم أن الحياة مسوقة بعوامل أخرى غير الفكر . قامت فئة من علماء النفس يتزعمهم فرويد تبحث فى العقل الباطن وتتحدث عن الدوافع والنوازع النفسية التى تمت بأسباب إلى الغرائز وبخاصة غريزة الجنس . وقامت فئة كذلك من الاقتصاديين يتزعمهم كارل ماركس ترى أن الإنسان مسيّر بهذه العوامل المادية التى تحيط به من كل جانب . وقد نظر برنارد شو إلى الجانبين ، لكن حجج الجانبين لم تزده إلا إيمانا بالعقل الإنسانى وتمسكا بقوة الفكرة . إنه كان يرى أن العقل هو آخر وأسمى ما تطور فى الإنسان من ملكات، ولابد لنا أن نستخدم العقل حتى يستطيع الإنسان أن يتقدم من درجة إلى درجة .

يمتاز برنارد شو إذن بأنه يلجأ دائما إلى العقل ، وأنه يحاول أن يسوق

أفكارا بعد أفكار حتى يقنع سامعيه أو قارئيه بأفكاره تلك . وقد كان يعلم أنه إذا استوت هـذه الأفكار لدى الناس وإذا اقتنعوا بالفكرة فانه لابد أن يتبع هذه الفكرة إرادة للعمل .

وقد كان هو نفسه مقتنعا أشد الاقتناع بالأفكار التى أراد أن يوردها . كان يؤمن بها كل الإيمان ، ولذلك فقـد انعكس إيمانه ذلك على أسـلوبه نفسه . فأسلوبه فى الكتابة يدل على الإصرار الغريب فى كل حرف من الحروف التى يكتبها . كانت كلماته جميعا تتجه إلى ناحية واحدة هى إثبات القضية التى يعالجها . وكان لا يلجأ فى ذلك إلى تخيّر الألفاظ الشائعة ولا التراكيب الذائعة التى يقع عليها الناس عادة ، وإنما كان يتخيّر ألفاظا وتراكيب لا يتوقعها القارىء أو السامع . ثم إنه كان يمتاز بهذا الإصرار فقـد كانت سطوره تسرع دائما إلى البرهان الأخير . كانت جمله وكلماته يأخذ بعضها بتلابيب بعض تريد أن تبلغ النهاية التى يريدها وهى النهاية التى تشمل دائما البرهان الحاسم .

ويحار الكاتب العربى كيف يستطيع أن يحمل أثر هذا الأسلوب فانه لا يكاد يترجم قطعة من قطع برنارد شو حتى يرى أنها قد فقدت كثيرا من روائها . ولكن فلنحاول أن نترجم فقرة بأكملها من تلك الفقرات التى تسرع فيها الكلمات والجمل والسطور ، كل واحدة فى أثر الأخرى . فهو يتحدث عن التغيير الذى ينتظره فى المجتمع الاشتراكى وهو يقول فى معرض هذا الحديث كلاما هذه ترجمته :

« ويستطيع المرء أن يرى أن نظام العدوان الامبراطورى الحالى ـ وهو النظام الذى نتخذ فيه ذريعة من الكشف والاستعمار فيتبع العلم شراذم من النهابين ، وتتبع التجارة العلم ، ويأتى فى الأثر المبشرون ـ أقول إن هذا النظام ينبغى أن ينهار حينما تنتقل السلطة على قواتنا العسكرية من الطبقات الرأسمالية إلى الشعب . وسيصحب اختفاء هـذه الطبقات المتباينة مع ما يسمونه سخرية « آراءها العامة » أن يتألف المجتمع فى طبقة واحدة برأى عام واحد له وزن

وزن لا يمكن إدراك مداه . وهذا الرأى العام سيتيح للشعب أن يسيطر على السكان . ثم يكون للاستقلال الاقتصادى الذى تحرزه النساء أثر فى حياة الأسرة فسيكون الفرد فى الدولة وحدة معترفا بها تحل محل رب الأسرة، وسيغير ذلك من مركز الأطفال ويعدل من الفائدة التى تعود علينا اليوم من نظام الأسرة. ولابد أن تشكل كنيسة الدولة من جديد على أصول ديمقراطية فتتيح مثلا لرجل يعلن أنه « مفكر حر » مثل مستر جون مورلى أو مستر برادلاو أن ينتخب قسيسا لدير وستمنستر » .

فاذا علمت أن هذه الفقرة تكوّن جملة أصلية واحدة من مبدئها إلى منتهاها، وإذا رأيت أنها تخلو من الصفات والنعوت وغير ذلك مما يغرم به الكتاب الرومانتيكيون ، ثم إذا رأيت أنها مشحونة بالحقائق عرفت ما قصدنا إليه حين قلنا إن كتابة برنارد شو كانت تمتاز دائما بالإصرار وبالسرعة فى إبراز الحقائق ، وفى التنقل العنيف بين حقيقة وأخرى. فاذا أنت قرأت له فسيروعك أن ذلك هو الأسلوب الذى درج عليه منذ أن كان شابا يافعا أى منذ كتب خمس قصص طويلة بأكملها .

* * *

لكن أسلوب برنارد شو سواء فى الكتابة أم الخطابة كان يمتاز بما نسميه « النكتة » وهذه الكلمة ترجمة تقريبية لكلمة Wit التى تستعمل فى اللغة الإنجليزية لتدل على الكلمات أو الجمل التى تحمل ألفاظها معنى غريبا جديدا . تستطيع أن تسميها أمثالا أو حكما أو كلمات جامعة لكنها كانت تمتاز دائما بأن فيها محسنات بديعية أو بيانية. وقد يكون فيها جناس أو طباق ، ويغلب أن تضم النكتة نقيضين فى وقت معا . وقد أصبحت النكتة من بين ما يميز الأدب الإنجليزى، وبخاصة فى العصور التى كان الأدباء فيها يكتبون لطبقة الأشراف مثل عصر عودة الملكية فى إنجلترة . ثم ان أدب النكتة كان شائعا فى فرنسا أيضا فى عصر موليير واستعملها فولتير سلاحا حادا يناضل به الشرور التى رآها فى عصره .

يقول فولتير حينما يحدد معنى « النكتة » إن مايدعى بالنكتة هو تشبيه جديد حينا ، وإشارة دقيقة حينا آخر ، وهى هنا إساءة استعمال كلمة يقدمها الناس فى معنى ، ويدعونها تفهم فى معنى آخر ، وهى هناك ، علاقة دقيقة بين فكرتين قليلتى الانتشار ، وهى مجاز غريب ، إنها فن الجمع بين شيئين متباعدين ، أو تقسيم شيئين يبدو أنهما منضمان ، أو معارضة أحدهما للآخر ، وهى فن عدم تعبير المرء إلا عن نصف فكرته لكى يدعها إلى التنبؤ ، وأخيرا كنت سأحدثك عن مختلف الطرائق لإبداء النكتة لو كان لدى عنها أكثر من ذلك .

والنكتة أيضا كانت شائعة فى العصر الفكتورى فقد استخدمها المسرحيون المعاصرون لبرنارد شو وامتاز بإيرادها فى مسرحياته كاتب مثل أوسكار وايلد حتى لقد أصبحت لازمة من لازماته . فقد كان أوسكار وايلد مشهورا باختلاق النكتة ، وكان يستعمل هذه الكلمات الجامعة الغريبة المتناقضة فى مسرحياته . وكان الكتاب والأدباء يذيعون هذه الكلمات يتندرون بها فى معرض أحاديثهم . ولنضرب أمثلة لما كان يكتبه أوسكار وايلد بما يلى :

« إن الطريقة المثلى للتخلص من الإغراء هى أن نستسلم له » و « نحن نعيش فى عصر أصبحت فيه الأشياء غير الضرورية هي ضرورياتنا الوحيدة » و « إن القاعدة الصحيحة للزواج هى أن يقوم على سوء تفاهم متبادل » . ولو أنك حاولت أن تحصى هذه النكت فى مسرحيات أوسكار وايلد لوجدت منها مئات .

وقد كان شو هو الآخر يلجأ لهذا الضرب من ضروب الكتابة . كان يلجأ إليه فى كتاباته الجدية حينما يتحدث فى الفلسفة أو الدين أو العقائد الاشتراكية ، وكان يلجأ إليه فى الحوار فى مسرحياته . لكن قوما مثل أوسكار وايلد كانوا يكتفون من النكتة بحسن السبك وبهذه المحسنات البديعية ، أما برنارد شو فقد كانت نكته من جوامع الكلم التى تحمل المعنى الفلسفى الذى يريد أن يحمله لقارئه أو لسامعه . فهو كان يفكر فى الموضوع قبل أن يفكر فى صياغته ، أما قوم مثل أوسكار وايلد فأغلب الظن أنهم كانو يرسلون

كلماتهم الجامعة هـذه حين يقعون عـلي نقيضين متباينين يريدون أن يلعبوا بالفاظهما .

وقد كان برنارد شو كما قدمنا يعيش ويفكر بين النقائض ، لذلك لم يجد عسرا فى أن يرسل نكته وأمثلته وجوا مع كلمه كلما وجـد نفسه فى موقف يسمح له بذلك . كان قد قرأ فولتير وكانت قد راعته النكت التى كان يرسل فولتير فى كتـاباته ، وكان يتشبه بفولتير من ناحيـة وبأوسكار وايلد من ناحية أخرى . وقد تتبع بعض النقاد هذه العلاقة بينه وبين فولتير حتى قال عنه واحـد منهم أنه لم يكن الا نسخة خامسة من صورة أصليـة أولى هى صورة فولتير .

ولنعرض عليك ترجمة لبعض هذه الكلمات الجامعة. جاء فى بعض ما كتب برنارد شو مايلى :—

« القادر يعمل ، وغير القادر يعلم » .

« إن البيت هو سجن للفتاة وملجأ للمرأة » .

« لاتعمل للآخرين ماتود أن يعملوه لك ، فقد تختلف أذواقهم عن ذوقك » .

« إن القاعدة الذهبية أن ليس هناك قواعد ذهبية » .

« ليست العظمة إلا أحد الإحساسات بالصغر » .

« إن طريقتى فى التنكيت هى أن أقول الحق ، انه أشد النكت فكاهة فى هذا العالم » .

« حينما يقوم رجل أحمق بعمل شيء يخجل منه يقرر أن هذا واجبه » .

« إن الاستشهاد هو الطريق الوحيد للشهرة إذا فقدت المقدرة » .

« الجمال لطيف جدا عند النظر إليه ، ولكن من يستطيع أن ينظر إليه إذا هو لبث فى المنزل ثلاثة أيام ؟ » .

« السجن كما هو حادث اليوم جريمـة أشد نكرا من كل الجرائم التى ارتكبها ضحاياه » .

« ليس المال هو أصل الشرور جميعا ، ولكن أصل الشرور هو الحاجة إلى المـال » .

وهذه جميعا كلمات تمت بأسباب الى فلسفة برنارد شو نفسها والى آرائه الأصيلة . فهى لم تكـن مفروضة على القارئين والسامعين فى المسرحيات التى وردت فيها . لذلك لها وقع فى النفس وقد يتفكه بها بعض الناس وقد يتندرون بها لكنها كـانت تدل على ماوراءها من أفكار . ثم يبدو هـذا الأسلوب فى كتابة برنارد شو . فقد تقع فى غالب الأحيان على فقرات بأكملها ليست إلا سلسلة من جوامع الكلم هذه التى تبـدو منها النقائض ، والتى تأخـذ فكاهتها بالألباب . فهو يقول مثلا فى معرض الغفلة التى يمتاز بهـا بعض السياسيين : « إن السياسيين يخشـون الصحـف والمنتفعين والدبلوماسيين ودور الريف واتحادات العمال ، يخشون كل شيء موقـوت على الأرض إلا الثورات التى يثيرونها هم أنفسهم . وقـد كان يمكن أن يخشى هؤلاء تلـك الثـورات لو أنهم لم يبلغو حدا من الجهـل بالمجتمع والتاريخ لم يتح لهـم أن يقدروا هذه المخاطر : »

* * *

على أن شو فى مواقف كثيرة يستعمل هذه النكتة لمجـرد التفكه . وقد اشتهر شو فيما اشتهر به بالنكتة والجواب المسكت . وكان ذلك معينـا له فى حياة المناظرة والخطابة التى عاشها . ولعله لم يرسل النكتة الضاحكة الفكهة كما أرسلها على الإنجليز . ويعيينا الحصر إذا نحن حاولنا أن نعدد آلاف النكت التى وردت فى كتاباته وأحاديثه ومسرحياته ولكـن حسبنا أن نردد قليـلا من نكاته على الإنجليز . فـفى مسرحية « قيصر وكليوباترة » يشير إلى رجـل إنجليزى فيقول : « إنه رجل من البرابرة ، يظن أن عادات قبيلته وجزيرته هى قوانين الطبيعة . » وفى مسرحية « سانت جون » يجرى على لسان قسيس إنجليزى هذا الاحتجاج : « كيف يمكن أن تكون معتقدات رجل إنجليزى هرطقة ، إن هذا تناقض فى الكلام » . ويقول فى موطن ثالث : « إن يكون

الإنجليز عبيدا مطلقا ، إنهم أحرار فى أن يعلموا ماتسمح لهم به حكومتهم ورأيهم العام » . وهذا التنكيت ، وهذه الأقوال الجامعة اللماحة هى التى حببت فيه القراء وبخاصة الانجليز وهى التى جعلته كاتبا متفلسفا وكاتبا ساخراً فى نفس الوقت .

* * *

ويتصل بأسلوبه ومنطقه ناحية هامة من نواحيه فى الكتاب وهى حبه لإيراد أنصاف الحقائق . وقد علمت أنه حين أقبل على لندن كان الناس فيها - أو قل كان الناس فى الغرب جميعه - يعيشون على أنصاف الحقائق . كانوا يعيشون على عدد من المثل التى تخيلوها كمثل الحب والحرب والحرية والديمقراطية والتمثيل البرلمانى ، وكانوا غافلين عن الجانب الآخر لكل هذه المثل . فكان على برنارد شو أن يطلعهم على هذا الجانب الأخر : كان عليه أن يطلعهم على أنصاف الحقائق التى لم يستطيعوا رؤيتها . وكذلك ترى أن برنارد شو يسوق إليك أنصاف الحقائق هذه . وترى نصف الحقيقة هذه فى السطر أو السطرين وتراها فى الصفحة أو الصفحتين وقد تراها فى موضوع أو كتاب بأكمله . زد على ذلك أنه هو نفسه كان غافلا عن بعض حقائق الحياة فكان يكتفى بأن يورد مايعلم ويكاد ينكر الجوانب الأخرى التى لايعلمها .

ولعلنا لانستطيع أن نجد مثلاً لأنصاف الحقائق هذه التى تحدثنا عنها أوضح من آرائه فى التربية وعلاقات الآباء بالأبناء من ناحية وعلاقة المدرسين بالمتعلمين من ناحية أخرى . لقد كانت كل تجارب برنارد شو فى مسائل التربية لاتعدو الفترة القصيرة التى قضاها فى مدارس دبلن إلى سن الخامسة عشرة وكان لهذه الفترة أسوأ الأثر فى حياة برنارد شو لأنه لم يجد فى المدارس الثلاث التى تقلب فيها غير الإرهاق والظلم والسيطرة والتمييز بين الكاثوليك والبروتستانت . وقد حسب برنارد شو أن المدارس قد وقفت عند هذا الحد ، وأن التربية فى نفسها ليست إلا هذه النقائض التى رآها فى مدارس دبلن . لذلك كان يناقش أمور

التربية على هذا الأساس ، ولذلك فقد كان يأتى بأنصاف الحقائق عن التلاميذ والمربين والكتب والمناهج وتكوين الخلق .

جاء كتابه « المرشد السياسى لكل انسان » وقد أخرجه فى سنة ١٩٤٤ هذه الفقرة التى تعتبر نحن أنها نصف حقيقة . : « الأطفال الى سن معينة يشبهون الفيران فى الجبن وتوتر الأعصاب ، فانهم يخافون الظلام والعفاريت والكلاب والبقر ، ويخشون ماتصوره لهم أوهامهم من أخطار اللصوص والثعابين . وقد يفسدهم طيلة حياتهم من هذا الوجه حكم الإرهاب الذى يسيطر عليهم فى منازلهم كما يفسد الكلاب بعض أحيان . وقد يكون هذا الإرهاب من قسوة جسمية أو من جحيم يتوقعونه فى عالم الغيب أو من الاثنين معا . »

« فاذا لم يفسدوا إلى هذا الحد فانهم يصبحون من الجرأة وحب القتال بحيث يخجلون من أن يكونوا جبناء ، بل يصبحون قساة من غير تدبر ، ويميلون إلى العبث إلى حد التباهى بذلك . إنهم يحبون السلطة من أجل السلطة ، ويميلون إلى أن يشهدوا أنواع العقاب التى تخيفهم وهى توقع على غيرهم بل يلتذون بتوقيعها هم أنفسهم ، وهم كذلك يستهزئون بقواعد السلوك والملبس والسمت التى يلزمون بها غيرهم فى عنف لايعرف الرحمة . انهم يستعبدون صغارا ويحكمون وهم عرفاء »

وكذلك ترى أن برنارد شو كان لايرى التربية ولا التلاميذ إلا من وجهة نظر ناقصة . فهو لم يكن حتى فى سنة ١٩٤٤ قد اهتم بدراسة الخطوات الإنسانية التى اتخذها المربون والتى غيرت من وجه التربية تغييرا كاملا . كان الخطأ الأساسى فى هذه القضية التى ساقها شو أنه كان يقدر حياة الأطفال من وجهة نظر الكبار لا من وجهة نظر الأطفال أنفسهم . وقد استطاع كبار المربين قبل هذا الكلام وبعده أن يضعوا أنفسهم موضع الأطفال وأن يقدروا فيهم هذه الملكات التى ضاق برنارد شو بها ذرعا وأن يحيلوها إلى نشاط فعال . فهذه إذن إحدى الحقائق المنقوضة التى كان يلقيها شو .

وإذا أنت حاولت أن تدرس قضاياه وجدت أغلبها من أنصاف الحقائق لكنه كان يريد أن يهز الناس هزا ، وأن يمتلخ عقولهم امتلاخا ، حتى يعرفوا موضع الضعف فى أنصاف الحقائق الأخرى التى كانوا قد تواضعوا على الأخذ بها . لذلك يذهلك أن تطالع فى كتاباته بعض الحجج الناقصة التى يؤكدها تمام التأكيد ، فهو يريد من ذلك أن يفجأك ويذهلك وأن يظفر بك الى ناحيته . بل لقد تستطيع أن تستشف بعض أحيـان أنه يريد أن يلعب بعقلك ، وأنه يريد إقنـاعك بأية سبيل ، ضاربا صفحـا عن التناقص البين فى كلامه بعض أحيان وعن اغفاله الحقائق أخرى جسيمة فى أحيان أحرى .

* * *

وقس هذا الأسلوب هو الذى اتبعـه فى المبالغات التى كان يلجأ اليها فى كتاباته . كان يرى أن المبالغة فى حد ذاتها جزء من وسائل التوضيح والبيان، وكان لا يتحرج عن المبالغة حتى ولو أدى ذلك الى ايراده الأكاذيب الواضحة. وسترى هذه المبالغة فى كثير من فقرات كتبه ومسرحياته . يريد الجدة قبل كل شىء ، وكان يبلغ هذه الجدة بأنصاف الحقائق التى كان يوردها ثم بهذه المبالغة التى كان يلجأ اليها حتى يلبسها أثوابا قشيبة جذابة .

إذا أنت وقعت على كلام لبرنارد شو فسترى فيه هذه المبالغة. وانظر الى هذه السطور القليلة التى أترجمها لك . « دفعت ست بنسات فى مجلة من مجلات الأسرة فوجـدتها ملآى بصور كثير من الشبان الذين كانوا يقتلون بعضهم البعض رميا بالرصاص أو طعنا بالخناجر ، ورأيت رجلا يموت ، كان عاملا من البنائين بالآجر ، مات عن سبعة أطفـال ، وورثت عنه امرأته سبعة عشر جنيها أنفقتها جميعا على مأتمه ، دخلت الملجأ فى الغداة هى وأطفالها » . قـد تكون هذه حقائق ولكنهـا حقائق مبالغ فى تصويرها ، فهل كل مجـلة من مجلات الأسرة تمتلىء بصور القتلة من الشبان؟ ثم كيف حدث أن كان للمرأة سبعة أطفال، وكيف حدث أنها ورثت سبعة عشر جنيها؟ لقد كان هو نفسه مغرما بالرقم « سبعة » وكان يستعمله فى ايراده الحقائق التى يبالغ فيها . وقد قال

يوما فى وصف مسكنه وهو ناقد : « لو أن سبعا من الخادمات اوتين سبعا من المكانس واشتغلن سبعا من السنين فى تنظيف هذه الحجرة لما بدلن من معالمها شيئا » انها مبالغات أريد بها التصوير الصادق.

سأله مرة هسكث بيرسون عن هذه المبالغات التى كان يستخدمها والتى كانت تبلغ فى أحيان حد الأكاذيب ، فأجابه برنارد شو بقوله « إن كتابة الأدب لا ينبغى أن تكون صادقة ولا كاذبة : إنها لا تخبرك شيئا . تستطيع أن تقرأ التقويم السنوى من مبدئه إلى منتهاه لكن هذا لن يضيف شيئا إلى ماعندك من الحكمة . ولكن اقرأ « مسار الحاج » أو « رحلات جلفر » وستعلم عن تاريخ الإنسانية ما أنت فى حاجة إليه بل ستعلم أكثر مما أنت فى حاجة إليه . « فبرنارد شو كان يستخدم أنصاف الحقائق والمبالغات والنكت بل كان يلجأ الى الأكاذيب حتى يصور الأفكار والمعانى التى تجول بنفسه . وهذه جميعا من أساليب الكتابة التى يلجأ إليها الأدباء .

* * *

ذلك عندنا برنارد شو المفكر المحترف. وهذه الجوانب جميعا هى التى ارتكز عليها فى حياته الأدبية . لقد استخدم النقائض واختط لنفسه منهجا جدليا يذكر الإنسان بمنهج سقراط نفسه ويشتق كثيرا من أصوله من كارل ماركس وفريدريك هيجل . ثم إنه كان أديبا ، وهو كأديب استطاع أن يعبر عن أفكاره بحيل الأدباء من استعمال النكتة ومن الانسياق وراء أنصاف الحقائق والمبالغات . وينبغى أن نذكر كل ذلك حينما نعالج موقف برنارد شو كناقد ثم كمفكر ثم ككاتب مسرحى .

(٢)

نضج المفكر المحترف

كان برنارد شو – كما أسلفنا – يفرق بين نوعين من الخيال : الرومانتيكى والواقعى . وعند هذا الحد من التباين بين الخيال الرومانتيكي والخيال الواقعى نريد أن نثير بعض الاسئلة حول تفكير برنارد شو حين أصبح كهلا ، لعلها تفيدنا فى دراستنا لحياته الفكرية . وأول ما نتساءل به هو : هل كان برنارد شو يؤمن بالشعر و هل كان صاحب عقيدة شعرية أم لم يكن ؟ لقد كتب فى بعض ما كتب حينما تقدمت به السن أنه كان شاعرا موسيقيا ، ويعلم أهل الموسيقى أنه كان موسيقيا ، ويعلم نقاد اللغة أنه كان بارعا فى كتابة اللغة الانجليزية ، بل لقد قال عنه أينشتاين إن لأسلوبه وقعا موسيقا خاصا يذكره بموزارت . ولكن على الرغم من كل ذلك فنحن نزعم أنه لم يكن صاحب عقيدة شعرية ، وأنه لم يكن يؤمن بالشعر . ذلك لأن الشعر نفسه يتطلب مزاجا خاصا يستطيع قارئه أو سامعه أن يتذوقه ، أما مزاج برنارد شو فلم يكن مزاجا شعريا . لقد تعود أن يرى الحقائق الواقعة عارية أو ملففة فى أثواب تمثيلية ، فلم يكن يستطيع وهو بهذا المزاج أن يستسيغ الشعر ولا أن يقدر شيكسبير ، ولا أن يسمح لنفسه بأن تنساق وراء أخيلة الرومانس : ولعل هذا نفسه هو الذى حال بينه وبين تذوق شيكسبير من أول الأمر ، ولعل هذا هو سر الخصومة بينه وبين الشاعر الكبير . أما محاولاته كتابة الشعر فقد كانت كلها فاشلة ، وكانت استهزاء بالشعراء أنفسهم .

بقى بعد ذلك أن نحلل خياله ، فقد ذهب فيما قدمنا إلى أن الخيال الواقعى هو الخيال الخلاق ، وهو يدعى بذلك أنه صاحب الخيال واقعى . ولكن قبل أن نسترسل فى التعليق على ذلك نورد لك فقرتين من « سانت جون » و « قيصر وكليوباترة » وسنرى بعد ذلك أن برنارد شو فى بعض أحيان كان

يشطح مع خياله ، وأن خياله لم يكن يقف عند حد الواقع ، بل كان يجره إلى حافة الرومانس ، وأن لغتــه الفياضة كانت تفضى به إلى فقــرات تذكر القارىء بكتــاب الرومانس فى أوج خيالهم . أما أولى الفقرتين فهى هــذا الحديث الذى تحدثت به جان دارك حين عرضوا عليها أن تعيش بعيــدة عن الدنيا بعــد توبتها : « إن ماتعرضون على شر من تَنّور الإنجيل الذى أحمى سبع مرات . إنى أستطيع أن أستغنى عــن جواد حــربى ، أستطيع أن أروح وأغدو أجر ذيل النساء ، وأستطيع أن أدع الأعلام والأبواق والجند والفرسان تمر بى وتخلفنى وراءها كما تخلف سائر النساء . نعــم ! أستطيع كل هذا إذا أبقيتم لى الريح أسمع حفيفه فى الشجر ، والقنبرة أسمع تغريدها فى نور الشمس ، والشاة الصغيرة أسمــع ثغاءها وهى تجرى فى الغــابة فى صفو هوائها وهو فور ضيائها ، والأجراس أجراس الكنيسه ترسل إلى النغم على الريح بدون هذه الأشيــاء لاأستطيع العيش ، فاذا أنتم رأيتم أن تحرمونى منها — إذا أنتم رأيتم أن تحرموا منها أى انسان ، فهذا رأى يحمل فى طياته الدليل على أن مأتاه الشيطان ، ويحمل الدليل كذلك على أن رأيى مأتاه من الله ! » (١)

وأنظر بعد ذلك إلى هذه القطعة التالية التى أسوق اليــك ، وهى حديث يوليوس قيصر إلى أبى الهول . ووصف برنارد شو للمنظر الأول من مسرحية « قيصر وكليوباترة » يــكاد يرتفع إلى ذروة الرومانس : وينظر يوليوس قيصر إلى السماء وهى تبدو وكأنها قطعة من سمــاء تاجر البندقية كما صورها شيكسبير ، وتنتشر فيها النجوم كأطباق الذهب . ويتحدث إلى أبى الهول فيما يلى :

« تحية يا أبا الهول : سلام عليك من يوليوس قيصر ! كم من بــلاد جبتها بحثا عن الآفاق المفقودة التى نفيت منها إلى هذا العالم وبحثا عن أولئك الذين خلقوا كما خلقت . لقد وجدت قطعانا ومروجا : رجالا ومدنا ، لكننى لم أجد قيصر آخر . فلاعلاقة بينى وبين ريح ، ولانسب بينى وبين رجل ، فليس

(١) عن « جان دارك » ترجمة الدكتور أحمد زكى .

منهم من يستطيع أن يقوم بما أقوم به فى نهارى ، ولا أن يفكر فيما أفكر فيه فى ليلى . إن محلى فى هذه الدنيا يا أبا الهول هو محلك أنت . إنما أنا جائل وأنت قاعد ، أنا صائل وأنت صامد ، أنا أعمل وأتعجب ، وأنت تنظر وتترقب . إننى أنظر إلى أعلى فيختلج نظرى ، وأنظر إلى أسفل فتظلم عيناى ، وأنظر حوالى فتتملكنى الحيرة ، فى حين أن عينيك لاتتحولان عن النظر إلى ما بعد — إلى ما بعد هذا العالم — الى الأفق المفقود — الى الوطن الذى ضللنا طريقة » .

« أى أبا الهول : ماأنت وأنا إلا غريبان فى عالم الرجال ، لكننا غير غريبين كل واحد منا عن أخيه . ألم أكن أعلم عنك وعن مكانك هذا منذ أن ولدت؟ليست روما إلا حلم رجل مجنون ، وما هذا الذى أراه هنا إلا حقيقتى. كم طالعتنى مصابيحك هذه من النجوم وأنا فى بلاد الغال ، وفى بريطانيا ، وفى إسبانيا ، وفى تساليا وهى تشير إلى أدنى بأسرارها العظيمة : تشير إلى ديدبان فى الأرض لم أكن أعرف أين يكون . هاهو إذن ديدبان هذه النجوم: تمثال من حياتى الثابتة الخالدة ، صامت تملؤه الأفكار ، وحيد فى الصحراء الفضية . أبا الهول ! أبا الهول ! لقد تسلقت جبالا بالليل حتى أتسمع من بعيد وقع أقدام الريح وهى تطارد رمالك فى عبث محرم — كعبث أطفالنا الذين لاتراهم العين . أى أبا الهول : أطفالنا الذين يضحكون منا هامسين . لقد كان طريقى إلى هنا هو طريق القدر ، فما أنا إلا عبقرية أنت رمز لها . جزء منك وحش ، وجزء أمرأة ، وجزء إله — ما بى أنا من الرجال من شىء! هل ترى أننى قرأت لغزك يا أبا الهول » ؟

نقول إن هاتين الفقرتين وكثيرا من مثيلاتهما يقع للناقد إذا أراد أن يقدر هذا العداء للنزعة الذى اشتهر برنارد شو به فى بدء حياته . ولكن لعله كان ينساق وراء أسلوبه المتدفق المنهمر بعض أحيان ، فاذا هو يفضى بهذه المعانى الرومانتيكية ، ثم لعله ، بعد أن أنكر الرومانسية فى بدء حياته ، كان ينيب إلى بعض المعانى التى كان يفرضها عليه الخيال المسرحى .

* * *

وهنا تثور نقطة أخرى من نقاط الجدل فيما يتصل بتفكير برنارد شو . فاذا زعمنا أنه لم يكن صاحب عقيدة شعرية ، وإذا زعم هو أنه غير صاحب خيال رومانتيكي ـ فهل كانت مسرحياته جميعا خالية من الشعر والخيال ؟ الرأى عندنا أنها كانت تزخر بالشعر الموسيقي والخيال التمثيلي أو المسرحي. أما الشعر الموسيقي فان ذلك يمت بأسباب إلى اللغة الإنجليزية ، وقد رأينا كيف أغراه هذا الأسلوب الفياض فاقتاده إلى حافة الرومانسية ، وأما الخيال التمثيلي أو المسرحي فذلك ما نود أن نبسط فيه القول بعض البسط . وقد أسلفنا في بعض صفحات هذا الكتاب أنه كتب أكثر من خمسين مسرحية منها ثلاثون تعتبر من روائع التأليف المسرحي .

في اللغة الانجليزية كلمة هي « الفانتازيا » ونترجمها نحن بكلمتين هما « الخيال الشاطح » ، أي الخيال الذي يعلو بالحس أو التصور إلى حد غير معقول ، ولكنه يمتاز بطابع فكري في نفس الوقت يجعله مستساغا معقولا عند القارىء أو المشاهد . وكلمة الفانتازيا هذه هي المفتاح الذي نراه عند تقدير الأخيلة التمثيلية عند برنارد شو . إذا أنت قلبت مسرحياته العظمى وجدت لمسات من هذا الخيال الشاطح ، بل وقد تبلغ هذه الفانتازيا حدها الأقصى في مسرحية مثل « الإنسان والإنسان الاسمي » ومسرحية أخرى مثل « عودة إلى متشالح » ، حيث يصور برنارد شو صورا للجحيم والنعيم والبعث، وحيث يستخدم هذه الصور نفسها في الجو الذي يسري في المسرحيات. وهذه الفانتازيا هي التي طوعت له أن يكون خياله التمثيلي في أحيان غريبا على الناس ، يبدو في أعينهم وكأنه جديد على الرغم من أنه مستقى من الأساطير أو القصص أو حوادث التاريخ. ثم لا تنس أنه كان متأثرا بريتشارد فاجنر وأن أوبرات فاجنر كانت تفيض بالقصص القديمة والأساطير .

كان برنارد شو يتمتع بهذه الفانتازيا ، وفي رأي ناقد معاصر هو « هربرت ريد » أن الأصل في نشوء هذه الأخيلة الشاطحة في أدب الغرب هو كتاب ألف ليلة وليلة : هذا الكتاب العربي الذي اجتمعت له أساطير وقصص من

الهند وفارس وبغداد ودمشق والقاهرة . وقد كان له من الأثر فى تاريخ الأدب الغربى مالم يكن له فى تاريخ الأدب العربى . ترجم إلى الفرنسية فى القرن الثامن عشر ، وكان له أشد الأثر فى أدب فولتير وأخيلته البعيدة . وترجم إلى الإنجليزية فى القرن التاسع عشر وقرأة برنارد شو وهو صبى ، وكانت أخيلته البعيدة تروح وتغدو فى كتاباته . ولاشك أن برنارد شو قد تأثر بهذا الخيال كما تأثر به فولتير وجوناثان سويفت وغيرهما من مئات الشعراء والروائيين . وكانت نتيجة كل ذلك أن أصبح فى الأدب الإنجليزى والأدب الأوروبى بوجه عام جزء كبير يسميه هربرت ريد « الفانتازيا فى الأدب » وكانت أخيلة برنارد شو تمت بكثير من الصلات لهذه الفانتازيا .

كان برنارد شو كلفا باقتباس الأساطير والقصص وإستخدامها فى مسرحياته ، ولعل هذه الفانتازيا التى نتج منها أدبه التمثيلى، هى التى تعوص على الناقد فهمه تمام الفهم . فحين يصور الجنة والنار ، وحين يشخص الشيطان ، وحين يبعث متشالح ، أتراه كان يؤمن بكل ذلك إيمانا دينيا ؟ وحين يتحدث عن الإنجيل وعن القديس بولس وعن المسيح : أتراه يذكر كل ذلك كما يذكره قسيس مؤمن بكلمات الإنجيل إيمانا حرفيا ؟ نحن نزعم أنه كان يستخدم كل ذلك على أنه جزء من هذه الفانتازيا التى تحدثنا عنها : جزء من الخيال التمثيلى أو المسرحى الذى كان عليه أن يلفف فيه أفكاره وآراءه . ولذلك فمن العسير - أن لم نأخذ فكرة الفانتازيا فى الاعتبار - أن نرتب آراءه وأفكاره ، وأن نستخلصها من هذه الأخيلة البعيدة التى حاكها قلمه .

ذلك وجه من وجوه الخيال أردنا أن ننبه إليه قبل أن ندرس آراءه فى مختلف الميادين لكن هناك عاملا آخر يعوض على الباحث الكشف عن آراء برنارد شو ، ذلك أنه كان كاتباً مسرحيا . وقد تذكر ، حين كان يوازن بين نفسه وبين سدنى وب ، أنه قال إنه كان لسدنى وب رأيا واحدا لكن برنارد شو كان له آراء بعدد الشخصيات الخمسمائة التى أظهرها فى مسرحياته. من أجل ذلك ينبغى للباحث أن يحذر حين يعرض لبعض الكلام الذى

تتحدث به شخصية من شخوص مسرحياته : أهذا الكلام يمثل رأى برنارد شو أم هو يمثل اتجاها مسرحيا أو فكريا يريد أن يعرضه برنارد شو ؟

* * *

وهناك وجه آخر سبق أن تحدثنا عنه فى كلامنا عن برنارد شو كمفكر محترف : ذلك هو ميله للنكتة . لقد اشتهر بذلك فى حياته الأولى أيام أن كان يناظر ويحاضر لكنه من سنة ١٩٢٥ أصبح قليل الحفاوة بهذه النكات ، وأن ظل على غرامة بقلب الحقائق ، وبالوقعية الفكرية بالمتحدثين ، وباستحداث الأخيلة التمثيلية الساخرة ، ولا يتورع فى ذلك أن يكون شاعر مثل دانتى أوملتون غرضا لاستهزائه وسخريته .

ولنضرب لكل ماذكرنا مثلا فقرة جاءت على لسان الشيطان فى «الإنسان والإنسان الأسمى » وسنرى عند تحليلها ما زعمنا من أن الفانتازيا والغرام بالسخرية والوقعية الفكرية يعوصان علينا فهم هذا الرجل فهما صحيحا . يقول الشيطان فى حديث طويل عن بنى البشر :

« إن خيالهم ليجلو ، وإن نشاطهم ليعلو ، حين يفكرون فى الموت ، هؤلاء القوم ! إنهم يحبون الموت ، وكلما كان الموت هيبا زاد شغفهم به . أما الجحيم فهو مكان يعلو كثيرا عن فهمهم ، وقد اتخذوا فكرتهم عنه من إثنين من أكبر المغفلين الذين عاشوا على ظهر الأرض : أحدهما إيطالى وثانيهما إنجليزى . أما الايطالى فقد وصف الجحيم بأنه مكان من الطين والصقيع والقذارة والثعابين السامة : إنه العذاب . ذلك الغبى ! إنه حين كان يتخفف عن التحدث عنى كان يهذى يذكر امرأة رآها مرة واحدة فى الطريق . أما الإنجليزى فانه وصفنى كما لو كنت قد طردت من الجنة رميا بالمدافع والبارود ، ولا يزال كل بريطانى يعتقد إلى اليوم أن كل ما افتعله من قصص سخيف قد ورد فى الإنجيل . أما ما قاله بعد ذلك فلم أحط به علما لأنه كتب كل ذلك فى قصيدة طويلة لم أستطع أنا ولا أحد غيرى أن يخوض فيها إلى النهاية » .

بم نخرج من هذه الفقرة ؟ نخرج أولا بأن برنارد شو لم يكن يتمتع بالعقيدة الشعرية التي تطوع له أن يستسيغ « الكوميديا الالهية » لدانتى ولا « الفردوس المفقود » لجون ملتون . بل هو يتهم هذين الشاعرين بالغفلة ، ونخرج بعد ذلك بأنه كان يحتقر هذين العملين الفنيين كل الاحتقار ، ثم نخرج بأنه يدعي العلم بأوصاف الجحيم كما جاءت في الإنجيل . فكأن برنارد شو كان يستخدم الجنة والنار والبعث وقصص الإنجيل كما كان يستخدم أساطير الأدب وملاحم الإغريق لا عن ايمان بها، بل كأخيلة تمثيلية تعلو بعض أحيان الى عالم الفانتازيا الذى زعمنا أنه واسطة من وسائط التفكير عند برنارد شو .

وكان حبه لهذا الخيال الشاطح البعيد ، وغرامه بافتعال الصور الساخرة وسروره بالعبث والدعاية : كان كل ذلك ينبعث من فكرته عن هذه الفانتازيا. وقد دأب في مسرحياته أن يعد الجو الذى يخلق الفانتازيا . خذ جانبا آخر من أعماله ، خذ مسرحياته السياسية القصيرة التي كتبها إبان الحرب الكبرى الأولى ، ثم مضى في كتابتها حتى نهاية الحرب الكبرى الثانية . هذه المسرحيات السياسية تتصف بأنها « مساخر » أو « تقاليع » . يسميها نقاد الأدب المسرحى « اكسترا فاجنزا » [١] أى خليط من المحاكاة المضحكة تقوم على السياسيين الأحياء وعلى الحركات المضحكة التي تصدر من هؤلاء . وفي هذه المساخر السياسية يضع كل امرىء في موضع مضحك ، فوليم الثاني وكاترين العظيمة والامبراطورة البلشفية وهتلر وموسوليني والملك ادوارد الثامن بل ولويد جورج كل أولئك يزحمون الصور الخيالية البعيدة الشاطحة التي يسميها النقاد مساخر سياسية .

ولنضرب لذلك مثلا قصيرا هو حديثه عن شارب وليم الثاني امبراطور ألمانيا أيام الحرب العالمية الأولى . انه يقول عن شارب هذا الإمبراطور —

---

(١) Extravagazna

وقد اشتهر بطول شاربيه — شيئا ننقله اليك فيما يلي عن لسان الإمبراطور نفسه :

هل العالم يشغل نفسه بشارب الإمبراطور أم لا ؟ وهل يشغل العالم نفسه بشيء آخر ؟ وان كانت هذه هي الحقيقة، فهل الاعتراف بها يجعل الإمبراطور رجلا متحذلقا أنيقا ؟ هناك أمراء آخرون ذوو سلطان لهم شوارب بل ان لهم شوارب ولحى أيضا ، فهل العالم يشغل نفسه بهذه الشوارب واللحى ؟ وهل يبيع الباعة الجوالون فى أزقة عاصمة كل دولة فى العالم المتمدين صورا من الورق المقوى تمثل وجوههم تمثيلا صادقا بحيث اذا سحبت خيطا بسيطا ارتفع الشارب الى أعلى أو نزل الى أسفل (يرفع شاربه ويخفضه عدة مرات) ؟ لا أقول لك لا ! فالعالم يراقب شارب الإمبراطور ويدرسه بحيث أصبح وجهه البارومتر السياسى للقارة كلها ، فاذا ارتفع هذا الشارب الى أعلى ارتفعت معه الثقافة وازدهرت ، ولا أعنى الثقافة التى تعرفينها أنت، بل الثقافة كما يتهجاها الألمان (١) ، وهى تعنى أكثر مما استطيع أنا نفسي أن أفهمه منها حينما أكون بحالة جيدة بصفة خاصة . أما اذا نزل الشارب ، لقى الملايين حتفهم (٢)

وفى مسرحيات برنارد شو آلاف من الصور الساخرة التى تطالعك بهذه الخفة وهذه الدعابة وهذه السخرية ، لقد كان هو نفسه « شيطانا » يحب أن يضحك من الناس ويسخر منهم . ولا يتورع أن يضع أكثرهم احتراما لنفسه فى موقف يبعث على السخرية . وليست هـذه عندنا الا شرارات انبعثت من أسلوبه الخيالى الشاطح الذى أطلق عليه اسم الفانتازيا والذى قال عنه هربرت ريد انه انحدر فى أدب الغرب من دراسة ألف ليلة وليلة .

فى الجهود التى نبذلها لدراسة آراء برنارد شو من علمية واقتصادية وسياسية ودينية وفلسفية ينبغى إذن أن نفهم كل هذه الجوانب التى قدمنا ، وأن نفرق

---

(١) Kultur

(٢) مسرحيات شو القصيرة الجزء الثانى ترجمة ميشيل عبد الاحد ص ١٣٧ و ١٣٨

بين هذا الذى قدمناه من الأخيلة التمثيلية ، والفانتازيا ، والمسخرة السياسية وبين الآراء الحقيقية التى كان يراها برنارد شو . لقد كانت هذه الأخيلة فى نفسها من أدوات التفكير عند برنارد شو ، ولعلها كانت تخفى وراءها أفكاره الحقيقية . وعلينا الأن أن ندرس اتجاهاته المنطقية فى كتبه الأساسية وبخاصة « دليل المرأة الذكية للاشتراكية والرأسمالية ... » ولا نضيق ذرعا ببرنارد شو كمفكر يكتب المسرح كما ضاق به تولستوى حين أنكر عليه أنه كان يجمع بين الفكر السامى والعبث الساخر . نحن نقف هنا وقفة قصيرة لنناقش رأيا أدلى به أستاذ للاقتصاد هو موريس دوب (١) فى معرض حديثه عن برنارد شو وآرائه الاقتصادية . يقول موريس دوب فى مقاله إن تفكير برنارد شو يتميز بما يطلقون عليه فى تاريخ الفلسفة الانتحال أو الاختيار المذهبى (٢) ومعنى ذلك أن يختار المفكر بضعة من المذاهب التى سلفت ، ويدافع عنها ويعمل على تفسيرها وتنشئتها حتى تتسم باسمه . يقول موريس دوب إن هذا قد حدث فى المذاهب التى شرحها برنارد شوفى علم الاقتصاد . ونحن نسائل أنفسنا عند هذا الحد : هل يسرى مبدأ الانتحال على المذاهب والأراء والأفكار التى عالجها برنارد شو فى سائر النواحى ؟ هل اتجه برنارد شو إلى اختيار آرائه فى العلوم والسياسة والدين والفلسفة والاجتماع بنفس الأسلوب الذى اتبعه حين عالج مذاهب الاقتصاد ، وهل كان يختار من بين المذاهب والمبادىء والمعتقدات التى قرأها ودرسها مااختص به نفسه ، وما استخدمه فى مسرحياته حتى أصبح ينسب إليه ، نحن نزعم أن فى هذا كثيرا من الصحه ، وأن برنارد شو كان واسع القراءات بحيث لم يكن هناك بد من أن تخرج هذه القراءات فى أفكاره وآرائه . ففى الاقتصاد يذهب إلى الاشتراكية ويدافع عنها وينسج حولها مؤلفاته ومسرحياته ، وفى السياسة يذهب الى ايجاذ رأى عام واحد ينبثق من المجتمع من غير ضغط ولا ارهاق

---

(١) Maurice Daube

(٢) Ecclecticism

وفى سياسة العالم يدعو إلى السلام إن وجد إلى ذلك سبيلا ، وفى الدين يدعو إلى مذهب متصوف هو التطور الخالق أو مايسميه «قوة الحياة» وفى الفلسفة يوازن بين العقل والمادة فينتهى إلى أنه لامادة حيث لايكون هناك عقل ، وفى المجتمع يحارب النفاق ويدعو إلى المطابقة بين القول والفعل وبين الإيمان والعمل ـ وقد سبقه إلى هذه الآراء كثير من الانبياء والمفكرين القدامى منهم والمحدثون . ولكن الذى يميز برنارد شو فى كل ذلك هو تجديده فى عرض كل هذه المذاهب ، ووضعها موضع المناقشة ، وقرع الدليل بالدليل ، ومواجهة الحجة بالحجة . فهو إن لم يكن أصيلا فى كل ما كتب فقد كان أصيلا فى الاختيار والانتحال ، ثم فى تفسير مااختاره وتصويره بما يجعله محببا إلى النفوس والعقول . ويعنينا فكرة الانتحال أو الاختيار المذهبي التى نحسب أن برنارد شو كان من المأخوذين بها ، تعيننا على أن نستخلص آراء برنارد شو من بين القراءات الفائضة التى مارسها فى حياته . وقد رأيت أنه منذ مقتبل العمر قرأ كل ماوقعت عليه يداه . وهو يقول حين ينصح الناس بدراسة الآخرين « أنا نفسى بالرغم من أننى مفكر محترف أو شيء من هذا القبيل ، إلا أننى أجدنى مضطرا لأن أقبل آراء أستعيرها من أشخاص آخرين فى كثير من المسائل الهامة التى لا أستطيع أن أكون لنفسى رأيا خاصا فيها » .

لكنه فى زعمنا لم يكن يؤمن بكل ما قرأ ، بل لم يكن يتبع صاحب فلسفة أو عقيدة إتباعا أعمى ، بل ولم يكن يؤمن بكل ماجاء به صاحب مذهب إيمانا كليا . وإذا كان قد قرأ كارل ماركس قراءة النهم ، فقد تأثر بمنطقة الديالكتيكى ، بنظراته إلى الإنتاج ، بتقسيمه الناس إلى طبقات وتأثر بمذهبه فى التاريخ ، ولكنه لم يأخذ بفلسفته المادية ، ولا هو أنكر القيم الروحية ، ولا هو اتبع كارل ماركس فى ضرورة قيام الطبقة الكادحة بثورة عارمة . لقد كان اتجاهه من حيث الاختيار هو الذى طوع له أن يفرق بين عناصر بعينها من مذاهب كال ماركس ، وأن يختار من بين هذه العناصر مايراه

صحيحا . وتستطيع أن ترى هذا الاتجاه فى علاقته الفكرية بنيتشه وبهنريك إبسن، بل وفى علاقته بتشارلز دارون والكتاب المقدس وعلماء عصره، وكل من احتك بهم احتكاكا عقليا . فاذا قلنا إنه كان متأثرا بكارل ماركس فليس معنى هذا أنه كان قد أسلم قياده لكارل ماركس ، وإذا قلنا إنه تأثر بنيتشه فليس معنى ذلك أنه كان يذهب مع نيتشه فى اعتباره المجتمع ميدانا يتصارع فيه الناس كما تتصارع الوحوش . بـــل إن كتابات برنـارد شو ومؤلفاته ومسرحياته تـدل على أنه صـاحب طابع عبقرى خاص بذاته هو طـابع برنارد شو .

* * *

فاذا نحن هبطنا من هذه الأفكار الجامعة إلى التفاصيل وجـدنا أن برنارد شو فى الحقب الأخيرة من حياته ، وفى كتاب مثل « دليل المرأة الذكية » بنوع خاص ، كان يميـل إلى الاستقراء المنطقى والأخـذ به فى معالجة الآراء التى يبذلها إن اقتصادية أو سياسية . ويقول عنه مؤرخوه إنه كان متأثرا فى هذا بجفونز وهو من أئمة المنطق من الإنجليز .

والواقع أنه حين أراد أن يعالج مشكلات الاقتصاد والسياسة فى كـتاب «دليل المرأة الذكية» لجأ إلى الاستقراء المنطقى فى أدق صوره. ولعل الفصول الأولى من الجزء الأول من هذا الكتاب (١) مثل لهذا الاستقراء المنطقى .وفى هذه الفصول يقترح سبع طـرق لتوزيع الثروة ، ويناقش كل طريقة منهـا ، ويدفع بالحجـج التى تثبتها ، وبالحجج التى تنقضها ، وحتى إذا ما استقرأ كل هذه الطرق لم يجد خـيرا من توزيع الـثروة على أساس الاشتراكية أى على أساس المساواة .

ويسرى فى الكتـاب هذا الاستقراء المنطقى إلى جانب أنصـاف الحقائق والنقائض والمبالغـات ، ويهبط غرامه بالاستهزاء والسخرية ، ويمضى فى

(١) ترجم هذا الجزء من الـكتاب ــ ترجمة دقيقة قيمة ــ الدكتور عمر مكارى وراجعه الاستاذ على أدم .

الموضوعات التي عالجها في «دليل المرأة الذكية» على أساس من الجد، ويكثر من إيراد حوادث التاريخ، ويدخل في تفاصيل الحياة الاقتصادية للفرد الواحد، والحياة السياسية لمجموعات الأفراد. فالكتاب جميعه وقد كتب سنة ١٩٢٨ علامة من علامات الطريق في تطوره الفكري. وهو يخلو كما أسلفنا عليك من الميل إلى الفانتازيا ومن الخيال التمثيلي لأنه كتاب غير مسرحي.

* * *

وعلامة أخرى في طريق التطور الفكري عند برنارد شو كان فزعه من الحرب العالمية الثانية. وكأنما هزته هذه الحرب هزا عنيفا، فجعلته يفكر تفكيرا منطقيا، بل جعلته يفكر في العلاقة بين اللغة والفكر. ينظر برنارد شو إلى هذه الحرب فتتملكه الموجدة التي كانت تعاوده دائما حين يغضب. نحن نكتب هذا وأمامنا مقال كتبه في الثالث والعشرين من فبراير سنة ١٩٤١: كتبه مقدمة لكتاب اسمه «المعجزة في مولد اللغة (١)» وكان مؤلف الكتاب أستاذا في جامعة سسكتشوان في أعمال كندا، واسمه ريتشارد البرت ويلسون. أرسل إليه مخطوط الكتاب على غير معرفة بينهما، فاذا برنارد شو يكتب مقالا يعتبر في نظرنا تطبيقا للأسلوب الجدلي الذي اعتنقه في حياته، وللاستقراء المنطقي في نفس الوقت. وعلى الرغم من أن المقال لا يجاوز ستا وعشرين صفحة إلا أنه يهمنا من ناحيتين: أولاهما عودة برنارد شو في تفكيره إلى التصوف الروحي، وثانيهما معالجة برنارد شو للعلاقة بين اللغة والفكر، ودعوته الحارة إلى إصلاح اللغة الانجليزية بالذات.

وليس الشطر الأول من هذا المقال عندنا إلا صرخة من ضمير برنارد شو أرسلها ضد الحرب. وفيها يؤوب إلى أسلوب النقائض، فهو يداول البحث بين المتدينين القدامى ويسميهم «المؤمنين بجنة عدن»، وبين أصحاب العلم الحديث ويسميهم «أنصار الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح». ويرى

---

(١) The Miraculous Birth of Language, by Richard Albert Wilson.

برنارد شو أن العالم قد خرج من النقاش بين هؤلاء وأولئك وهو يكاد يفقد القيم التي درج عليها المتدينون القدامى وحين كشف المحدثون أصول التطور والانتخاب الطبيعي حسبوا أن كل شيء قيل عن الدين وعن الخلق وعن البعث وعن الجنة وعن النار، حسبوا أن كل هذه العقائد لا تستقيم والعلم، وحاولوا أن يتحللوا من كل ذلك، بل أن يهملوها كل الإهمال. ويشبههم برنارد شو بأنهم كالأم التي تغسل وليدها في دلو، وحين تريد أن تتخلص من الماء القذر تلقي بما يحتوي الدلو من ماء وطفل في وقت معا. أو أنهم كالبستاني الذي يريد أن يشذب حديقته مما ألم بها من حشيش ضار، فيقلع الحشيش الضار، وثمار الحديقة، وكل ما فيها من غير أن يفرّق بين النافع وغير النافع. ولذلك أصبح العالم في نظر برنارد شو بلقعا تسيطر عليه فكرة المصير المحتوم وهو ما أدت إليه نظرية الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح، وكأنما كان قد طرد العقل من فوق سطح الأرض وحلت محله المادية التي طردت الحياة والعقل في آن واحد.

وكذلك أقام برنارد شو نقيضا بين «المؤمنين بجنة عدن»، وبين «أنصار نظرية التطور» ولكن لم يفته أن يخلق مركبا للنقيضين فيعود إلى فكرته عن «التطور الخالق» وعن «قوة الحياة».

كانت المادية هي التي أنتجت الحرب العالمية الثانية كما أنتجت الحرب العالمية الأولى. ولكن مادية كارل ماركس لم تكن لتغري برنارد شو فتى، ولم تكن مادية المتطرفين من أصحاب نظرية البقاء للأصلح لتغريه وهو كهل، بل يؤكد في مقاله هذا ما سبق أن أثبته مئات المرات من أنه لو أن الإنسان يمثل فشلا سياسيا - وقد كان يتمثل فيه هذا الفشل يوما بعد يوم - ولو أن الإنسان قد أصبح هو نفسه فشلا سياسيا في مواجهة المشكلات التي يخلقها لنفسه في إنتاجه وفي علاقاته السياسية والاجتماعية، ولو أن الله سبحانه وتعالى شهد هذا الفشل من جانب الإنسان «فسوف يستبدل الله بالإنسان جنسا آخر غير البشر كما استبدل بحيوان الدينصور عامة الناس». فعند برنار شو أن التطور

الخالق لم يكن يقف أمام هذا الفشل البشرى ، بل سيمضى لغايته قدما حتى يحل النجاح محل هذا الفشل ، حتى لو كان ذلك بأن يستبدل هذا الجنس بخلق جديد غير الإنسان على سطح هذه الأرض .

وهذا الجدل — وهو يعود بالباحث إلى أسلوب النقائض الذى اتبعه — يذكر برنارد مركبا آخر يؤلف بين المادية والروحانية . إنه يثبت هنا أيضا ما أثبته فى تمثيلياته غير مرة ، من أن « الروح القدس » هو الوحيد الذى بقى من ثالوث المسيحية ، وأنه جدير بالعالم أن يتمسك بالروح القدس حتى تخلد القيم الدينية التى أراد أصحاب التطور أن ينكروها . ويقول فى ذلك « إنه خير أن يؤمن العقل بأن الإنسان نفحة من الروح القدس من أن يعتقد — كما يريد المغرقون من أصحاب التطور — أنه جهاز يتحرك بنفسه مكون من مواد كيمائية مزج بها عفوا قليل من الكربون » بل يذكر بعد ذلك ما قاله القديس أوجسطين وسائر المؤمنين بالروح من أنه لامادة من غير روح .

* * *

وبعد أن يعمل برنارد شو منطقه الجدلى بهذا الأسلوب الذى يجمع فيه الدين إلى نقيضه من العقل ، ثم خرج منها بمركب هو مركب من الدين والعقل ، ينظر برنارد شو إلى هذه الأرض البلقع التى حوله فيرى أفراد المجتمع وقد تحولوا إلى فئات تتصارع لأن عالمها يخلو من العقل والدين فى وقت معا . لقد وجد أن هذا المجتمع لا يؤمن إلا بشىء واحد هو الحرب . ثم يعمل استقراءه المنطقى ، فيرى هذه الفئات كل منها فى النور الناقد النفاذ الذى يسلطه عليها . يرى العلماء الذين يمارسون ذبح الحيوان وتقطيع أوصاله وهو حى ، فى سبيل ما يدعونه من بحث علمى ، ويرى الأغنياء ممن لا يهمهم من الحياة إلا استكثار الثروة ، والأدباء العاجزين الذين أخمدهم القنوط فساروا إلى الموت وئيدا ، ثم يرى فئة كبيرة من الناس ممن أصبحت قلوبهم كالحجارة أو هى أشد قسوة يلذ لهم أن يعذبوا غيرهم من الأناسى وينعمون بالأسى والمقت والدمار الذى يحل بالآخرين ، ثم يرى بعد ذلك فئات من الشباب الداعر ممن

استهوتهم ملذات الحياة الدنيا ، فساروا فيها كما تسير الدمى. ثم ينظر إلى الحقل السياسى فلا يرى حوله إلا سياسيين تخدعهم ديمقراطية زائفة يحسبون خطأ أنها سوف تغير ما فى الحياة ، وطغاة حلوا محل المجالس النيابية ووصلوا إلى الحكم بالدس والوقيعة والإرهاب . كانت هذه هى الفئات التى تنظرت أمام عينى برنارد شو فى شهر فبراير سنة ١٩٤١ — وهى فئات جميعها تدعو إلى اليأس القاتل . أما السبب فى خلق كل هذه الفئات فلم يكن عنده إلا لأن عالم الحرب الذى عاش فيه كان يخلو من العقل والدين، لأن هذا العالم قد طرد الدين والعقل فى وقت واحد .

* * *

لكن لهذا المقال قيمة أخرى غير التى قدمنا ، فانه لم يعبّر عن هذا الفزع الذى أحسه برنارد شو فحسب ، بل لقد تناول فيه الوصف موقف اللغة من كل ذلك . وعنده أنه كان للغة نصيب كبير فى خلق حالة الوهم والتحامل التى كان يمر بها العالم يومذاك ، وأن الحرص على استعمال اللغة التقليدية يوقع العالم فى مشكلات من الفكر تؤدى هى نفسها إلى مشكلات من سوء التفاهم ، وتؤدى هذه بدورها إلى صدام على المبادىء والمذاهب، كان أحد العوامل التى أدت إلى الحرب .

لقد ذكرنا لك فيما سلف أن برنارد شو كان يقيم وزنا اجتماعيا للغة ، وحين ألف « بيجماليون» فى سنة ١٩١٦ كان يربط المكانة الاجتماعية للفرد بمقدار ما يتقنه من اللغة . فلغة السوقة لها طابع خاص ، وكلما ترقى الأفراد فى السلم الاجتماعى قربت لغتهم لغة أصحاب الحكم أو أصحاب المال أو أصحاب الثقافة . لكنه فى مقاله هذا يزيد موضوع اللغة بيانا، هو يتحدث عن اللغة فى سنة ١٩٤١ لا كعالم لغوى، بل هو يتحدث عنها ككاتب مارس الكتابة أكثر من ستين عاما . أنه مارس الكتابة خلال هذه السنوات الطويلة وهو يعلم أن الإنسان حيوان قارىء وكاتب ، وأنه لو لا هذه الميزة الكبرى لما اكتمل فكر الإتسان . فهل استطاع هو وغيره من الكتاب أن يطوّروا اللغة إلى الحد

الذى تلائم فيه الفكر ؟ هل استطاعت اللغة الإنجليزية بفضل ما بذل من جهود أن تصبح طيعة للفكر ؟ ثم هل هناك اقتصاد فى كتابة اللغة الإنجليزية وتهجيتها أم هناك إسراف فى هذا التهجى يجعل اللغة صعبة غير يسيرة من ناحية ، ويجعل الكتابة بها مسرفة أشد الإسراف ؟ ثم هل كتب على كتاب اللغة الإنجليزية أن يتقيدوا عند كتابتها بما انحدر لهم من أصول النحو - الأجرومية - أم قد آن الأوان ليتحلل الكتاب من كثير من قواعد اللغة وأصول النحو ؟ تلك هى جملة الأسئلة التى يثيرها برنارد شو فى النصف الثانى من مقاله هذا ، وهو النصف الذى يمت بصلة إلى موضوع الكتاب نفسه وهو « المعجزة فى مولد اللغة » .

يرى برنارد شو أنه ظل ستين عاما يكتب بلغة إنجليزية حروف هجائها لا تلائم أصواتها مطلقا . فحروف الهجاء هذه قد اخترعت قبل وجود اللغة نفسها : اخترعت للغات أخرى غير اللغة الإنجليزية ، ثم انتحلتها اللغة الإنجليزية فى تاريخها القديم . ولا تزال كلمات كثيرة جدا من اللغة الإنجليزية تحمل هجائها أصل الكلمة وتاريخها وبعض مراحل تطورها . وفى ثناياها حروف لا لزوم لها تفرض على الكتاب والقراء تذكارا لتاريخ الكلمات ، وهى فى الواقع عبء على الكتاب والقراء ، بل هى عبء على متعلمى هذه اللغة سواء أكانوا صغارا أم كبارا . والكلمات فى كتابتها تتجافى وأصواتها وهذا عنده أكبر ما يعيب اللغة الإنجليزية .

إنه يزعم هذه المرة أيضا أنه شاعر موسيقى ، وبوصفه شاعرا موسيقيا فانه يدعى أن من حقه أن يطلب ما يطلبه أهل الموسيقى : من حقه أن يطلب أن تكون حروف الهجاء ناطقة بالأصوات التى تمثلها ، منطبقة كل الانطباق على تلك الأصوات . ولغة الموسيقى فيها هذا الانطباق ، ولذلك كانت لغة موحدة يقرؤها الجميع ، اللغة الإنجليزية فى نظره ينبغى أن تكون كلغة الموسيقى موحدة فى هجائها لكى يقرأها الجميع .

وفى نفس الوقت الذى تكاثرت فيه حروف الهجاء فى الكلمة الواحدة لتدل

على صوت واحد ، اتخذت اللغة الإنجليزية - فى نظر برنارد شو - طريقا وعرا آخر كانت نتيجته أن تكاثرت الكلمات فى الجملة الواحدة لتعبر عن معنى بسيط واحد . ذلك أن اللغة الانجليزية فى هذه المرة أيضا قد ورثت كثيرا من قواعد اللغة التى انحدرت لها من اللاتينية والإغريقية . وكان هناك لازمات للنحو والأجرومية مما ضخم الجمل الإنجليزية وجعل الكتّاب يسرفون فى استعمال الكلمات للتعبير عن أى معنى ساذج ، وانتقلت بساطة التعبير إلى بعض الأجانب ممن أقبلوا على اللغة الإنجليزية يستعملونها من غير تقيد بالنحو ولا بقواعد اللغة ، فجاءت لغتهم بسيطة ميسرة تعبر عن المعانى التى يريدها صاحبها .

ماذا كانت نتيجة هذا التضخم فى تهجى الكلمات وذلك التضخم فى استعمال الكلمات نفسها ؟ كانت نتيجة كل ذلك إسراف فى استعمال حروف الهجاء وفى الكلمات . ورجل مثل برنارد شو كتب ملايين الكلمات فى حياته كان يستطيع أن يوفر نصف مجهوده الضخم إذا كان قد كتب بلغة حروف هجائها تطابق أصواتها وجملتها تتفق وبساطة التعبير . فاذا حسبنا أن هذه الكلمات الملايين وغيرها من آلاف الملايين التى كتبها سائر الكتاب كانت تتطلب جهودا ضخمة فى الطباعة والتكاليف والورق عرفنا — مع برنارد شو — أن اللغة الإنجليزية تكلف أضعاف ما يجب أن تكلفه ، بل إنها فى نظره تكلف فى الوقت والمال ما تتكلفه الحرب نفسها .

ويرى برنارد شو أن الإصلاح الأول الذى ينبغى أن يدخل على كتابة اللغة الانجليزية هو تعديل حروف الهجاء . ويحلل برنارد شو حروف الهجاء فيجد أنها إما ساكنة وإما متحركة . ويعد الأصوات من النوعين فيجد أنها أربعة وعشرون صوتا ساكنا وثمانية عشر صوتا متحركا . أى أن مجموع الأصوات فى اللغة الانجليزية يبلغ اثنين وأربعين صوتا لا أقل ولا أكثر ، كل منها يدل على صوت بمفرده . لكن عدد حروف اللغة الإنجليزية ستة وعشرين حرفا ، فهناك إذن ستة عشر صوتا لا تزال حائرة هائمة ، هى فى نظر

برنارد شو التى تتكاثر مع بعضها البعض لتعبّر عن أصوات موجودة لكنها لا تجد حروفا تعبر عنها . وإذن فالأمر يتطلب إيجاد اثنين وأربعين حرفا لتدل على أصوات اللغة . وقد كانت هذه الستة عشر صوتا الهائمة هى السبب فى كثير من الحدس والتخمين وسوء الفهم وتعذيب الأطفال عند تعلم اللغة الإنجليزية . فان قيل إن فن الخط الإنجليزى يتنافى وهذه الحروف المقترحة ، فان برنارد شو يدعو إلى اختراع نوع آخر من الخط يلائم هذه الحروف الإثنين والأربعين ، بل هو يدعو إلى ثورة اللغة لافى الخط فقط ، بل فى اللغة وأساليبها وقواعدها حتى تستقيم وما يقتضيه الفكر . وقد ظل يدعو إلى ذلك إبان الحرب ، وسيظل يدعو إلى ذلك حتى وفاته ، بل سيترك فى وصيته مالا يستعين به اللغويون على تحقيق هذا العمل العظيم ، ولا يزال ماله مرصود لهذه الغاية الكبرى ، لأن الثورة المرجوة لم تتناول بعد أحرف الهجاء فى اللغة الإنجليزية .

وينبغى أن نذكر ان برنارد شو حينما كتب كل ذلك كان يعبر عن آراء فئة من اللغويين تزعمهم عالم لغوى إسمه « هنرى سويت » ، كانوا يريدون أن يبلغوا هذه الغاية فى علم أصوات اللغة .

* * *

لم نرد بهذا الفصل إلا أن نبحث طورا من الأطوار الفكرية التى مرّ بها برنارد شو . وقد رأيت أن هذا المفكر المحترف قد نضج منذ أن التقينا به وهو يناظر ويحاضر ويغامر فى كتابة المسرحيات . ونحن الآن على أن ندرس آراءه التى حاولنا استخلاصها من كتاباته ومسرحياته فى نواح خمس هى العلم والاقتصاد والسياسة والدين والفلسفة ، وكان لابد لنا أن ننظر فى تطور التفكير عند المفكر المحترف قبل أن نغامر فى الكتابة عن آرائه .

(٣)

ناقد المجتمع

كان برنارد شو يمتاز بالنقد بدأ حياته بأن كان ناقدا فنيا ثم أصبح أكبر ناقد اجتماعى وسياسى ، كانت مسرحياته جميعا « ملاهى » ينقد بها المجتمع . كانت رسالته فى لندن - كما قال بريستلى - أن ينقد النظام الفكتورى من أساسه : أن يحطم بعض الأصنام التى أقامها الانجليز فى أعقاب القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ولم ينتصف هذا القرن الأخير حتى كان قد قضى شو على عبادة كثير من هذه الأصنام. وهو فى هذا النقد المتواصل قد اكتسب عداوة عبدة الأصنام من طغاة الرأسماليين وطغاة الحرب وطغاة السياسة وطغاة الأدب. لذلك عاش على خصومة مع كل من كان يمثل النظام الفكتورى الأول ، وكانت هذه الخصومة تتقد إلى حد العداء الشخصى ، ولم يكن يخفى برنارد شو مثل هذا العداء .

كان النظام الفكتورى يمتاز بالرأسمالية فى أوضح صورها ، وبالخلق الرأسمالى فى أعلى مراتبه . فمن ناحية كانت هناك نظم اقتصادية تدعو الرأسماليين إلى تكديس أموالهم . كانت الطبقة الوسطى قد ورثت طبقة النبلاء القدامى ، وكانت الطبقة الوسطى هى الطبقة التى استخدمت التجارة والصناعة والزراعة ورصدت رأسمالها لتنمية نفسها بنفسها . ولذلك ارتبطت كل ناحية من نواحي الحياة بهذا الخلق الرأسمالى . وأصبحت مصالح الرأسماليين هى كل شىء .ارتبطت التربية بهذه المصالح فكانت المدارس الخاصة ذات المصروفات الباهظة ، هى المصدر الذى تخرج فيه طبقة الحكام ، وقامت أصول التربية فى هذه المدارس على القسوة والسيطرة وحب التغلب. وارتبط التشريع بهذه المصالح أيضا لأن المشرّعين كانوا من طبقة الرأسماليين فوضعوا من القوانين ما يحفظ عليهم ثرواتهم ، وما يتيح لهم فرص التقدم ويدع الآخرين

من الفقراء أو الأجراء حيث هم لا يكادون يتزحزحون عن الفقر الذى هم فيه، وارتبط الحكم بهذه المصالح أيضا لأن الحكام — سواء منهم من كان فى داخل إنجلترة أو خارجها — كانوا من هذه الطبقة التى لم تكن تؤمن إلا بالغطرسة والظلم وإنكار حق الضعفاء . بل لقد ارتبط الأدب والدين والفن بكل هذه المصالح لأن أهل الأدب وأهل الدين وأهلى الفن كانوا يريدون أن يجدوا لهم مكانا فى حمى هذه الطبقة الطاغية ، كان عمل هؤلاء أن يكتبوا من الكتب أو يذيعوا من المواعظ أو ينشئوا من آيات الفن ما يؤيد هذا الخلق الرأسمالى، ولا بأس بعد ذلك من أن يضفوا على ما يقولون أو يكتبون أثوابا من بلاغة اللغة أو قداسة الدين أو جمال الفن .

وفى هذا الجو الفكتورى الذى أقبلت عليه الاشتراكية لتنقيه ، ونشأ فيه الفابيون ليفكروا فيه، ووفد برنارد شو من أيرلنده ليصفيه ، كان هناك كثير من « النفاق » ، كان هناك فجوة واسعة جدا بين القول والعمل: بين ما يتظاهر به أهل الطبقة الوسطى من الأغنياء من حب الخير والتدين واحترام حقوق الناس ، وما يفعلونه فى الواقع من حب المال واستخدام الأطفال والنساء فى مصانعهم ومن استئثارهم بكل الخير . والميزان الأصيل لكل مجتمع أن يكون هناك انطباق بين القول والعمل ، ولكن فى العصر الفكتورى لم يكن هناك ذلك الانطباق . فكان على برناردشو — كما كان على كثير من أهل الفكر — أن يكتبوا عن هذا النفاق ، عن الفجوة التى كانت تتسع سريعا بين القول والفعل . وفى سبيل ذلك كان عليه أن يعادى أمة بأسرها من الأغنياء الذين نشئوا على الشره وحب المال والاستئثار ، وأمة بأسرها من الكتاب الذين أيدوا هؤلاء بأقوالهم وكتاباتهم وقصصهم ومسرحياتهم .

كتب الكاتب الانجليزى ج. ب. بريستلى فى ذلك يقول : « إن الفكرة الأولى التى يتفق فيها المسيحيون الأولون مع الشيوعيين المحدثين هى أنه ينبغى أن ينطبق عالم النظريات على عالم الواقع فلا ينبغى أن يباعد بين العقيدة والعمل فيظل كل منهما فى معزل عن الآخر ، وليست العقائد التى لا توحى بعمل

ناجز محدد إلا عقائد باطلة ، والرجل الذى يعلن أنه يفكر بطريقة من الطرق لكنه يعمل بطريقة مخالفة، إما أن يكون مغفلا أو وغدا ، فليس من الأمانة فى شىء أن تستنكر وجود مذابح الماشية ثم تطلب أن تأكل الأجزاء المختارة من هذه الماشية ، ومن النفاق أن تعيش ماتتصور أنه حياة مثقفة روحيةوأنت فى نفس الوقت تفعل ذلك من أجل المال الذى تستنزفه بالاستغلال والتدليس. كان آباء آبائنا يبكون على موت أولاد فى القصص مثل « لتل نل » و « بول روبنى »، لكنهم كانوا يعترضون إذا أريد بأولاد فى مثل سن هؤلاء أن يسرّحوا من المناجم والمصانع . كان كتاب الروايات والقصص فى عصر فكتوريا يتظاهرون بحمرة الخجل وينتفضون غضبا إذا ذكرت الدعارة ، لكنهم كانوا يخرجون مع نساء من المدينة يتحررن معهم وهم فرحون . كان بين القوم رجال أتقياء يرعون الكنيسة فى مساء الأحد لكنه مايصبح صباح الاثنين حتى يصبحوا قراصنة وسفاحين فى عالم التجارة . وكان بين النساء سيدات ناعمات جميلات تعلو وجوههن صفرة الأسى إذا رأين كلبا مدللا أعرج، لكنهن كن يسمحن لنساء من بنات جنسهن أن يعملن من أجلهن حتى تعمى أبصارهن أو تذهب عقولهن . وكان أصحاب المصانع الذين أحالوا مناطق الوسط فى إنجلترة ولانكشير إلى جحيم أسود كريه الرائحة يحاولون أن يقتنوا صورا من مدارس الرفائيلية للتصوير تصور فرسان الملك آرثر مع أميرات قاتمات الوجوه يبدو عليهن الغثيان . كان هناك قانون يحكم صالات الاستقبال وقانون آخر يحكم مصنع الانصهار والطاحونة . وكان الناس يصولون من أجل السلام لكنهم كانوا يبدأون بحركات كان لابد أن تؤدى إلى الحرب . لقد كانوا يسدلون ستارا من الحرير على آلة من مجتمع قدّت من حديد . والذى لم يكن زيفا أو تهويشا كان منهم جهلا مطبقا » .

تلك جملة النقدات التى رآها كاتب كبير مثل بريستلى فى حياة العصر الفكتورى فى إنجلترة حين قدم برنارد شو وحين قضى فيها شبابه الأول. فلننظر كيف نقد برنارد شو كل هذه الفجوات التى رأيناها ملخصة فيما نقلناه لك مما كتبه بريستلى .

وأول ما يجبهنا من نقدات برنارد شو أنه كشف هذه الفجوات بين القول والعمل ، بين نظريات السياسة وأساليبها ، بين العقائد الدينية الأصيلة وما يدعيه المتظاهرون بالتدين ، بين التربية الصحيحة وما يقترفه المعلمون من آثام فى حق الطفولة ، بين الأمانى التى تكمن فى النظريات الاقتصادية والنظم التى لا يمكن أن تحقق هذه الأمانى . فكأنما كانت عقلية برنارد شو هى المجهر الذى رأى كل هذه النقائض ، وكأنما كانت كتاباته ومسرحياته هى المصفاة التى صفّت هذه الأفكار من شوائبها . فهو قد أقبل على دراسة كل هذه المتناقضات فحاول أن يبين السمين من الغث والطيب من الخبيث ، وأن يرد كل سلوك الناس حوله إلى الأسباب الحقيقية لهذا السلوك ، من غير أن يأبه كثيرا بالعلل التى يتعللون بها ولا بالمظاهر التى يتظاهرون بها ولا « بالأمثلة العليا » التى يدعون التمسك بها . وقد جرّ عليه هذا الجدل كثيرا من الخصومات والعداوات لا بينه وبين الأفراد فحسب ، بل بينه أيضا وبين فئات من الناس كانوا يمثلون هذه النظم و « الامثلة العليا » التى حاول أن ينقدها .

ينقد برنارد شو النظام الرأسمالى فى السبعين سنة التى قضاها بعد هجرته إلى لندن ، وتكون نقداته جميعا تطبيقا لمنطقه الديالكتيكى — أو الجدلى — فهو ينظر إلى المجتمع فى ضوء النظم الاشتراكية فيرى هذا النفاق الذى ذكرنا فى كل وجه من وجوه الحياة . ويكون أفدح نقد وجهه لطبقات المجتمع هو هذا النفاق . فعنده أن معظم رجال الاقتصاد والفن والقانون والطب والدين منافقون . إنهم يعلمون أن العالم الذى يعيشون فيه لا يسير وفق ما كان ينبغى فى هذه النواحى الخمس ، لكنهم يقولون ما لا يفعلون . وهم جميعا فى مؤامرة مستمرة يرين عليها هذا النفاق .

ويقول برنارد شو فى هذا النفاق : « من الواضح الذى يتطلب إمعانا فى الفهم أن الاشتراكية ليست إحسانا ، ولا هى الشفقة والمحبة ، ولا هى العطف على الفقراء ، ولا هى الإنفاق فى سبيل الخير العام ، ولا هى إعطاء الصدقات من الناحية والتسول من ناحية أخرى ، فيأخذ الإنسان شيئا ولا يعطى

شيئا . لكن الاشتراكية هى ما يكرهه الاقتصادى من البوار والفوضى ، وما يكرهه المؤمن بالجمال من القبح والقذارة ، ومايكرهه صاحب القانون من اختلال العدل ، ومايكرهه الطبيب من المرض ، ومايكرهه القديس من الخطايا السبع المهلكة . الاشتراكية باختصار ما هى إلا مجموعة من الكراهيات المتقدة للنظم التى تسمح للاقتصادى أن يستفيد من الرأسمالية وهو يعلم أنها تدعو إلى البوار والفوضى ، وتسمح للمتفنن أن يستفيد من الرجس والخبائث والفجور ، وتسمح لصاحب القانون أن يستفيد من اختلال العدل ، وتسمح للطبيب أن يستفيد من المرض ، وتسمح للقديس أن يرضى الرغبات التى تنطوى تحت الخطايا السبع المهلكة ، وأن يتملق أصحابها بدلا من أن ينكرها عليهم . »

ونحسب أن فى هذه الفقرة وصفا موجزا قد يكون مبالغا فيه لأفراد الفئات الخمس الذين قلنا إنهم فى نظر برنارد شو وغيره من المفكرين الاشتراكيين يتآمرون فى صمت ضد الطبقة العاملة . وقد كان يحلو لبرنارد شو دائما أن يبرز أفرادا من هذه الفئات فى مسرحياته . بل لعله كان فى بعض الأحيان يتهم الفلاسفة الراديكاليين بأنهم من هذه الفئات التى يعوزها الصدق والشرف والإخلاص والأمانة . بل لقد كان يقول عن الفلسفة الراديكالية إنها فلسفة مائعة ، وأن الفلاسفة الراديكاليين لم يزيدوا على أن خلقوا جوا انتفاعيا يهيمون فيه كما يهيم الإنسان الآلى وأقاموا لأنفسهم مدينة فكرية فاضلة لا ينعم فيها إلا أفراد الطبقة الوسطى وحدهم .

* * *

وإذا أنت أخذت مسرحيات برنارد شو وكتاباته على أنها نقد للمجتمع الذى عاش فيه ، وجدت أن هناك اتجاهات أساسية لنقده الاجتماعى ترتكز عليها سمعته فى التفكير والكتابة المسرحية . فاذا نحن درسنا مسرحياته وكتاباته دراسة عامة من ناحية النقد الاجتماعى وجدنا أن هذه الاتجاهات لا تخرج عن أن تكون دراسات فى الاشتراكية والدين والعلم والسياسة والفلسفة . ولكن

يجمل بنا أن نلقى الضوء على اتجاهات النقد . أما أول هذه الاتجاهات فهو توكيد لما سبق أن ذكرناه غير مرة عن قيام الطبقة الوسطى وسعيها للكسب الحرام واستغلال الطبقة العاملةوهذا نقده الأول ، وأما ثانى هـذه النقدات الثاقبة فهو نقده لفكرة الحب،وثالثها نقدهللحرب،ورابعها نقده لفكرةالخلق، وخامسها نقده للدين، وسادسهانقده السياسى. وسنوالى البحث فى كل واحد من هذه الاتجاهات .

* * *

كان يذهب برنارد شو إلى أن الفقـر أساس كل الشرور والآلام التى تفت فى عضد الجماعة . وقد انقسم الناس فى هذا العالم إلى طبقتين : طبقـة تملك المال ، وطبقة أخرى فى حاجة إلى المال ، طبقة قد أسرفت فى جمع المال حتى أصبحت مكفولة الحاجات الأولية ومكفولة الكماليات فى وقت معا. فهى إذا فكرت فيما تحتـاج إليه لم تفكر فى المسكن ولا فى المطعم ولا فى الملبس لأن كل ذلك متوفرعندها ، وإنما تفكرفى السيارات المطهمة وفى الرحلاتالغالية ، وفى بناء المتـاحف الضخمة ، وفى جمـع المقتنيات النـادرة . ثم طبقة أخرى أنزلها الفقر إلى الحضيض فهى تفكر فى الحاجاتالضرورية الأولية: إنها تفكر فى الخبز وفى الطعاموفى الشراب وفى غير ذلك مما يسد الرمق ويقوم بالكفاف. قد تكتفى بحجرة مظلمة لاتدخلهـا الشمس وتسرح فيها الهوام ، وقد تكتفى بما قلّ من الخبز الأسود والطعـامالتافه والشراب الكدر . الطبقة الأولى تتمتع برخاء دائم ، والطبقة الأخرى تعيش فى شدة دائمـــة . الطبقة الأولى تملك ولاتعمل والطبقة الثانية تعمل ولاتملك .

ولا يرى برنارد شو أنه يجب على المجتمع أن يخفّـف عن هذا الفقـر بالإحسـان أو بانشاء الجمعيات الخيرية أو بصرف مرتبـات تافهة للفقـراء . وعنده أن هذا الذى يدعيه بعض الأغنياء من الحـدب على الفقر ومن رعايتهم وبذل الهبات المالية فى سبيلهم، ماهو إلا عملا مؤقتاتضطر إليه الأغنياء لأنهم فىحاجة إلى تبرير مركزهم أمام طبقـة الفقراء . وبرنارد شو لايرى أن الفقر شىء محتمل ، بل هو يرى أنه شر يجب أن يلغى . وهو لايتردد ولا يهن فى

الدعوة إلى استئصال الفقر استئصالا لاهوادة فيه . وهو بذلك لايعترف بقوانين الفقر التي سنتها إنجلترة لتخفف من غائلته ، لأن هذه القوانين لم تسن إلا لتجعل الفقر أمرا محتملا مقدّرا على السواد الأعظم من الناس . لقد قال في بعض ماكتب : « لايجب أن ننظر إلى الفقر بعين الرحمة ولا أن نعتبره من البلايا التي لامحيص عنها ، ولاينبغي أن نحتمله كما لو كان جزاء وفاقا لبعض الناس على ماأسلفوا من السيئات . وإنما يجب أن نمحقه محقا ، وأن نمنعه من أن يعود إلينا كما نمحق المرض الفتاك الذى يخترم جسم المجتمع . »

وإذا كان الفقر عنده مرضا فتاكا فقد رأى ألا علاج للفقر إلا بالمال . فالمال عنده أصل لكل دواء تحاول الجماعة أن تصطنعه، وفى ذلك يقول: «إن تقديرنا للمال هو الحقيقة الوحيدة التي تبعث الأمل فى حضارتنا هذه .... فالمالّ أهم شيء فى العالم . فلاشك أنه الصحة والقوة والشرف والكرم والجمال، كما أن الحاجة إلى المال تمثل المرض والضعف والعار والبخل والقبح . وليس أقل فضائله أنه مفسد من أمر اللئام بقدر مايصلح من أمر الكرام . والمال لايكون نقمة إلا إذا أصبح عند البعض رخيصا وفيرا لاقيمة له ، وعند الآخرين عزيزا محالا لاسبيل إليه . أى أنه لايكون نقمة إلا إذا حاقت بالحياة ظروف سخيفة تجعل الحياة نفسها نقمة على الذين يعيشون فيها . ولأن الحياة والمال مرتبطان لا انفصام بينهما فقد أصبح المال هو الذى يوزع الحياة توزيعا اجتماعيا .... »

كان لا يذهب شو مع بعض أهل الدين فى أن للشر أصلافى الحياة، أى أنه لم يكن يعتقد أن الشر شيء أصيل فى طبيعة الإنسان لايمكن محقه ولا التغلب عليه . لم يكن يعتقد أنه إحدى الخطايا السبع ولا أنه لابد من وجوده مادامت هنالك حياة . لقد كان يعتقد أن الشر ليس إلا نتيجة من نتائج الظروف وبخاصة الظروف الاقتصادية والاجتماعية . وقد عبر عن ذلك الرأى تعبيرا قويا فى مقدمته لمسرحية « ميجر باربارا » ، إذ يرجع كل الشرور والآثام إلى الفقر الذى قبله المجتمع الرأسمالى حين رأى أن أغلب أعضائه فقراء . إنه

يتحدث بلسان رأسمالي حين يشير إلى رجل فقير ويقول : « فليظل فقيرا » ثم يعلق برنارد شو على ذلك فيقول :

« والآن فما الذى تعنيه « فلتظل فقيراً » هذه ؟ إنها تعنى فليظل ضعيفا ، ليظل جاهلا ، ليظل نواة للمرض ، ليظل معرضا قائما ومثلاللقبح والقذارة، ليظل أطفاله يخترمهم الكساح ، ليظل رخيصا وليهبط بزملائه إلى ثمنه حين يبيع نفسه ليقوم بعملهم ، لتظل مساكنه مباءة مسمومة من المنازل القذرة، ولتمض بناته فتحمل للشبان عدوى أمراض الشوارع ، وليمض أولاده فينتقموا له بأن يحيلوا رجولة هذه الأمة إلى البوار .... إلى الجبن والقسوة والنفاق والعته السياسى ، وغير ذلك مما ينتج عن القهر وسوء التغذية .. »

« إن الشر الذى ينبغى أن نكافحه ليس هو الخطيئة ولا العذاب ولا الجشع ولا القسوة ولا الملكية ولا قيادة الرعاع ولا الاحتكار ولاالجهل ولا شرب الخمر ولا الحرب ولا الوباء ، ولا أية واحدة من كباش الفداء هذه التى يضحى بها المصلحون ــ ولكن الشر ببساطة إنما هو الفقر . »

فى هذا الذى ذكره برنارد شو كثير من الحق ، ولعله لم يستطع أحد أن يوضح العلاقة بين المال والحياة مثل ما أوضحها برنارد شو فى مثل هذه الكلمات . أليس من المآسى التى تحدث بيننا كل يوم أن الأطباء يحاولون أن يقاوموا أمراضا ليس الأصل فيها إلا قلة الغذاء وسوء المسكن وقذارة الملبس؟ إن شطرا كبيرا من أفراد المجتمع يعيشون فى حالة مزمنة من سوء التغذية ، وليست حاجة الجماعة فى هذا الذى يذهب إليه كثير من المصلحين حينما يتهمون الجريمة والطمع والخمر والحرب والوباء بأنها هى السبب فى هذه الحالة التى تتردى إليها الحضارة . فليس السبب فى ذلك إلا الفقر . وإذا أراد أصحاب الحضارة أن يغيّروا من هذه الحالة المحزنة ، فينبغى أن يغيّروا النظام الذى يعيشون فيه . إذا أردنا أطفالا أصحاء فينبغى ان يكون آباؤهم وأمهاتهم أصحاء كذلك ، ولن يكون هؤلاء أصحاء حتى يؤتوا كفايتهم من المال : ولا سبيل إلى أن

أن يكونوا أصحاء حتى يعيشوا فى بيوت صحية غنية ، ولذلك فينبغى أن يكون هناك إنتاج يكفى الجميع ، ولا سبيل إلى الانتاج إلا بالعمل ، فبهذا فقط يمكن أن يصبح المال شائعاً فى كل ركن من أركان البلاد التى تعيش فيها. إنها سلسلة منطقية أخرى تجمع المرض إلى جانب الصحة ، ثم تجمع الصحة إلى جانب الثراء ، ثم تجمع الثراء إلى جانب الكفاية ، ثم تجمع الكفاية إلى جانب الإنتاج ، ثم تجمع الإنتاج الى جانب العمل .

* * *

توزيع الثروة توزيعا عادلا إذن عند برنارد شو هو الأصل الذى يجب ان نبدأ به إذا أردنا الإصلاح الاجتماعى والسياسى العاجل. أما إذا ظلت الثروة موزعة توزيعا غير عادل فسوف تعانى الإنسانية الشرور الاجتماعية التى تعانيها. إذا ظل عشر سكان الأرض يتمتعون بتسعة أعشار ماتنتجه الأرض ، وإذا ظل تسعة أعشار السكان الآخرين لا يصيبون إلا العشر الأخير الذى يعف عنه الأولون ، فلا مناص من أن تستمر السرقة والمرض والجهل والدعارة كما هى الآن . أما إذا حاولنا توزيع الثروة توزيعا عادلا فلابد لكل تلك الشرور من أن تختفى من على ظهر الأرض . وقد يكون هذا وهما باطلا عند بعض الناس ، وقد يكون عسيرا أو محالا عند بعضهم ، ولكن شو لم يكن يرى أنه وهم ولا محال . فقد كان يعلم أن الثروة قد تغير توزيعها بين طبقة وطبقة القرن الأخير : فتقدمت الطبقة الوسطى واستلمت الثروة من طبقة النبلاء . وإذا كان هذا التغيير قد حدث فى المائة سنة الأخيرة فلم لانهيء توزيعا عادلا فى المائة سنة القادمة . ثم اذا كان هذا يسيرا بين طبقة وطبقة فلم لا يكون يسيرا بين الفرد والفرد ؟ .

وكان يرى برنارد شو أن توزيع الثروة فى البيئة الرأسمالية التى أقبل عليها تخلق للأغنياء كل المزايا ، وتحرم الفقراء من كل المزايا ، كان يرى أن أصحاب الثروة وهم أقلية ضئيلة قد تآمروا على من لا ثروة لهم وهم الأغلبية الساحقة . أنت ترى آثارا لهذا التآمر إذا حللت نظام التشريع والقضاء . فالذين يضعون

القانون وينفذونه ليسوا إلا أغنياء أوتوا قليلا أو كثيرا من الثروة والجاه ، وهم ينظرون إلى الجرائم بعين المالك الرأسمالي الذى يحرص كل الحرص على ماله مهما يكلفه ذلك . وأنت تجد آثارا لهـذا التآمر إذا بحثت نظم التربية التى شاعت فى ذلك العصر أيضا . فقد نشأ المتعلمون على احترام كل ما يمت بصلة إلى الغنى وعلى احتقار كل ما يمت بصلة إلى الفقر . حتى نظم التعليم التى كانت تسير عليها الجامعات كانت متسمه بذلك الطابع الذى يؤهل الغنى لما لا يستطيع أن يتأتى له الفقير. ثم كنت ترى آثارا لنفوذ الأغنياء فى الكنيسة وفى الصحافة. فقد نشأ المتمدينون على الولاء للغنى ، وأصبح هـذا الولاء بضعة من إيمـان المؤمن ، وقامت الصحافة بأكبر دعاية للثروة حينما ملأت صحائفها بكثير من الأنباء والأخبار والمقالات التى تزيد من قدر الأغنياء . فكان برنارد شو وغيره من الاشتراكيين أمام نظم خلقتها الثروة : نظم تأخذ من اللصوص والجهلة والأغبياء بالقصاص العادل لكنها كانت تتجاهل كثيرا من الجرائم التى كانت تقترف ضد الفقر باسم الثروة .

* * *

أجل هناك جرائم يقترفها الأغنياء ضد الفقراء لكن القانون لا يأخذهم بها . هناك جرائم لا يقترفها السكارى ولا الجهلة ولا المرضى وإنما يقترفها قوم أوتوا الصحة والمال والجاه العريض: أما أكبر هذه الجرائم عند برنارد شو فهى بطالة الأغنياء . وإذا كان العمل واجبا على كل فرد فقد جرى النظام الرأسمالى على احتقار العمل اليدوى ، بل وأصبح للأغنياء من الامتيـازات ما يجعلهم أكبر من أن يعملوا بأيديهم . فأصبحت طبقة الأغنياء عاطلة تتمتع بالبطـالة وتنعم بالدعة والاطمئنان من غير أن يحاسبها القانون على ذلك .

كانت نشأة الطبقة الغنيـة المتعطلة فى الصميم من تفكير برنارد شو . إن كتاباته ومسرحياته لتزخر بوصف هذه الطبقـة التى خلقت لتملك الثروة ولا تعمل . وأعضاء هذه الطبقة هم الذين ورثوا عن آبائهم الأولين مصانع ضخمة، وشركات هائلة تدر عليهم ربحا وفيرا متزايدا . وأعضاء هذه الطبقة هم الذين أسلموا مصانعهم أو شركاتهم إلى خبراء من رجال الطبقـة الوسطى يديرونها

لهم . ثم أعضاء هذه الطبقة هم الذين كانوا ينتزعون معظم الأرباح فتدر عليهم الخير الوفير من غير أن يقوموا بعمل من الأعمال .

ولنستمع إلى برنارد شو حين يعرض قضيته هذه فيقول : « إن أكبر الامتيازات التي يدعيها الأغنياء وأشدها عدوانا ، وأعمها ضررا ، هو أن يتمتعوا بالبطالة من غير أن يكون للقانون سلطان عليهم . ومثل هذا الامتياز أصبح لسوء الحظ ثابتا بحيث أننا نعتبره مما تقضي به طبائع الأشياء . بل إننا لنبجل صاحبه أو صاحبته لأنه أصبح من لازمات السيدات والسادة. لو فكرنا قليلا لرأينا أن كل من يستهلك بضائع أو يستفيد من خدمات الناس فعليه أن يصنع بضاعة تكافىء ماأخذ ، أو أن يقوم بخدمة تكافىء ماتقبل . أما إذا استفاد ولم ينتج شيئا ولم يقم بأية خدمة فانه يسيء إلى الجماعة بمثل مايسيء السارق إليها : والحق أن هذا تماما هو معنى السرقة . نحن لايخطر لنا على بال أن نسمح للناس أن يقتلوا أو يخطفوا الأولاد ، أو يقتحموا المنازل ، أو يغرقوا مافى البحر ، أو يحرقوا ويدمروا مافى البر أو يطالبوا باعفائهم من الخدمة العسكرية بسبب أنهم ورثوا من أحد أسلافهم العاملين مزرعة ضخمة أو دخلا سنويا يبلغ ألفا من الجنيهات ، ولكننا مع ذلك مانزال نتسامح فى التبطل ، وهذا فى نفسه يحدث من الأضرار فى سنة مالاتحدثه كل الجرائم التى يعاقب عليها فى العالم جميعه خلال عشر سنين » .

مثل هذا التبطل جعل للطبقات العاملة مكانا حقيرا فى هذا المجتمع حتى لقد أصبح العمل — وهو رسالة الإنسان فى الأرض — سمة من سمات الصغار . وفى مثل هذه الحالة يعيش العمال والمنتجون فى ظروف أخس من ظروف العبودية . كان الرق فى الزمن القديم يقوم على اقتناء الأناسي يشترون بالمال كالأنعام والسوائم . لكن السادة فى ذلك الزمن كانوا مضطرين إلى أن يقدموا للأرقاء الغذاء والمسكن والملبس . ذلك لأن صاحب الرقيق كان كصاحب البهم والسوائم تماما . فهذا يحاول أن يغذى خيله وماشيته كى تنضج فتنتج له مايريد ، وكان المولى كذلك مضطرا الى أن يقوم بحاجات الرقيق

يقدم لهم الغـذاء والملبس والمسكن لـكي يصحوا فيعملوا له ما يريد . لكن العامل فى المدينة الحاضرة أقل شانا من البهائم والرقيق ، لأن صاحب العمل يستغله فى مقابل بضع دريهمات وهو غير مسئول عن غـذائه ولا عن ملبسه ولا عن مسكنه . والعامل مضطر إلى أن يرضى بهذا الوضع لأن العمل ككل شيء فى حياتنا الاقتصادية خاضع لقانون العرض والطلب . فهو إن رفض أن يعمل فسوف يطرد ، وهو أن طرد فسوف يجوع . فكأنما أصبح العامل من خوف الفقر فى فقر ومن خوف الجوع فى جوع .

* * *

ويتصل بالفقر وتوزيع الثروة والبؤس الذى ينتج عن كل ذلك مناقشته للمكاسب والأرباح الطائلة التى كانت تئـول إلى المنتهزين والشطار من رجال الطبقة الوسطى .وقد أطلق برنارد شو على مثل هذه الأموال ما سماه «الكسب الحرام » فان فئة كبـــيرة من رجال الطبقة الوسطى كما ذكرنا كانت قد خرجت إلى المجتمـع وهى تريد أن تجمع المـال من التجارة والصناعة ، وقد أقامت فى سبيل ذلك نظاما اقتصاديا يتيح لها تكاثر هذا المال .و كان الانقلاب الصناعى هو الذى أتاح لهـؤلاء أن يجمعوا ما جمعوا من ثروة وأن يكثروا ما كثروا من مال. كذلك كان الشعار الأول الذى نادت به الحكومة والأفراد هو شعار الحرية الفردية والانتفاع الفردى ، فتنافس الأفراد على جمع المال : بل كان مذهب (١) حرية التجـارة أمرا مسلما به يمضى فيه الأفـراد إلى حيث غناهم ورخاؤهم .

وهنا يمضى برنارد شو ليناقش هذا الأسلوب من أساليب الحياة . فهل خلق المجتمع لكى يتحكم فيه قوم استطاعوا لظروفهم الخاصة أن يكسبوا هذا المال ؟ ثم إذا كنا نستطيع أن نبرر هذا المكسب الذى يكسبه أهل التجارة وأصحاب المصارف والمسيطرون على المصانع ، فكيف نستطيع أن نبرر المكسب الذى يكسبه الأطباء الذين يستغلون المـرضى فيجمعون ثروات طائلة أو نستسيغ

(١) Laissez faire : laissez passer

المال الذى يكدسه أصحاب المصانع ممن يعيشون على صناعة الأسلحة ويبذلون شطرا كبيرا من أموالهم فى الدعاية للحرب وإثارة الحزازات بين الأمم ؟ ثم إذا استسغنا ذلك جميعه فلم لا نستسيغ الكسب الذى تدره الدعارة وتجارة الرقيق الأبيض وهذه مهنة حرة تتجه اتجاه التجار والأطباء وأصحاب المصانع ؟ أليس هذا كله « كسبا حراما » ؟ وأليس يشترك تجار الرقيق الأبيض مثلا مع تجار الأسلحة فى النهم لجمع المال ؟ الأولون يعيشون على شهوات النفس الدنيا ، والآخرون يعيشون على غرائز الجماعة الدنيا . يفكر برنارد شو فى كل ذلك ويناقشه وتوزيع الثروة والفقر و« الكسب الحرام » هو موضوعه الذى تدور حوله مسرحيات مثل « منازل الأرامل » و « مهنة مسز ورن » و « ميجر باربارا » و « ورطة الطبيب » . ولاشك أنه فى هذا الموضوع لم يرد أن يرضى أصحاب رءوس الأموال ولا أصحاب المصانع ولا الأثرياء من كبار الأطباء .

* * *

أما ثانى النقدات الاجتماعية التى أرسلها برنارد شو فقد كانت مبادئه فى فى السلام ، وإيمانه بأن الحرب لم تكن إلا انحرافا لقوى الشر . وهو يعتقد أيضا أن الحرب لم تكن إلا من الكبائر التى يقترفها أصحاب الإقطاع وذراريهم من مالكى المصانع ومديريها . واستمع إليه حين يفسر ظاهرة الحرب فى معرض حديثه عن التربية إذ يقول : « لما كان الإقطاع فى عنفوانه كان لأوروبا الغربية جميعها إله واحد يحكم جميع الأمم ، وجنة واحدة للبشر جميعا ، وجحيم واحد هو جحيم دانتى تقذف فيه أرواح الأشرار بعد الموت ، لا فرق بين غنى وفقير ، ولا بين سيد وساذج . لكن السيد الإنجليزى فى وقتنا هذا يؤمن بإله انجليزى ينتمى لجزيرته ، وكذلك يؤمن الألمانى من طبقة اليونكرز بإله نوردى مثل دثان ، أما الفرنسى فانه يؤمن بإله خالص الفرنسية لكنه إله لا وجود له . وكل هؤلاء لا يؤمنون بأى نوع من أنواع الجحيم . وقد أصبحت الحروب صليبية

متعصبة يعد لها الملايين من الجنود وملايين من المال وملايين مضاعفة من وسائل التخريب والتقتيل . »

« لقد كان من نتائج حرب الوردتين أنها أبادت طبقة الإقطاعيين من الأشراف القدامى ، ونقلت قوتهم إلى طبقة جديدة من الأثرياء جعلوا أنفسهم أشرافاً ، ورفعوا أنفسهم بأنفسهم إلى مراتب الحكم . ولكن هذه الحرب الحديثة وقد أنتجت حالة تثير الغضب – إذ طوعت للنساء أن يتطوعن للخدمة العسكرية باذلات أنفسهن للموت – هذه الحرب تهدد بأن تبيد الجنس البشرى ، ولن تفتأ تدمر الحضارة حتى تبلغ الغاية من قوى التدمير . وينظر أصحاب الخلق الكريم إلى هذه الحالة فتذهب نفوسهم حسرات لما يلقونه من ركود الهمة وعدم التشجيع . وهذه علة ليس بعدها إلا الموت المحقق » .

والأمر فى ذلك لا يقتصر على هذه المشكلات من نواحيها الظاهرة ، بل الأمر عند برنارد شو يتناول الحضارة بأكملها . إنه يتناول أمر الحياة والموت ، ويتناول جهد الإنسان فى الأرض وهل هو متجه إلى فنون الحياة أم إلى فنون الموت . هناك حديث طويل بين الشيطان والإنسان فى مسرحية « الإنسان والإنسان الأسمى » نود أن نقتبس منه فقرات تدل على النقد الخلقى الشديد الذى يوجهه الشيطان – أو قل برنارد شو – للحضارة الحديثة . فهو يقول مايلى : « أترى أن الإنسان قد أوتى من العقل الذى يباهى به مايحول دون تدميره لنفسه ؟ هل طفت فى الأرض منذ حين ؟ لقد فعلت أنا ذلك ، وفحصت أنا عما اخترعه الإنسان من مخترعات عجيبة . وإنى لأصدقك القول أن الإنسان لم يخترع شيئا من فنون الحياة ، ولكنه فى فنون الموت ينافس الطبيعة نفسها ، وينتج بالكيمياء وبالآلات ، مثل مايسببه الطاعون والوباء والجوع من هلاك . إن الفلاح الساذج الذى أغويه اليوم يأكل ويشرب ما كان يأكله ويشربه الفلاحون منذ عشرة آلاف سنة ، والبيت الذى يسكنه لم يتغير فى ألف قرن بالسرعة التى تغيرت بها أزياء قبعات النساء فى عشرين أسبوعا » .

« على أنه إذا خرج للنضال فانه يحمل معه معجزة من الآلات التى تكفى

لمسة من الإصبع أن تخرج منها ما خفى فيها من نشاط ذرى ، وذلك لا يقاس به ما كان يستعمله آباؤه من الحربة والسهم والقناة . الإنسان متلف غير صناع اليد فيما يتصل بفنون السلام . لقد رأيت مصانع القطن وما يشبهها ، ورأيت فيها من الآلات ما يستطيع الكلب النهم أن يخترع خيرا منها لو أنه أراد ما لا بد له من الطعام . . . » .

« . . . . ليس فى آلات الإنسان الصناعية إلا الطمع والكسل ، أما قلبه فهو فى اسلحته ، وليست قوة الحياة العجيبة التى تفاخر بها إلا قوة الموت . إن الإنسان يقيس قوته بما يستطيع أن يدمر . ما دينه؟ ما هو إلا ذريعة لكراهيتى . وما قانونه ؟ ما هو إلا ذريعة لإعدامك شنقا . وما أخلاقه ؟ التعفف والكبرياء ! ! إنه ذريعة للاستهلاك دون الإنتاج . ما فنه ؟ ما هو إلا ذريعة للتفاخر الكاذب بتصوير القتل . ما سياسته ؟ إما أن تكون عبادة مستبد لأن المستبد يستطيع أن يقتل ، أو قتالا برلمانيا يشبه قتال الديكة . »

وهذا الحديث الذى تحدث به « الشيطان » فى سنة ١٨٠٥ يظهر فى صورة أخرى وهو يتحدث بشىء مثله « إمبراطور بروساليم » أو وليم الثانى امبراطور ألمانيا فى سنة ١٩١٥ أى فى ابان الحرب الكبرى الأولى . فالإمبراطور فيما يصوره لنا برنارد شو فى مسرحيته القصيرة يتحدث عمن حوله من السياسيين والملوك والقواد وهم يدفعونه إلى الحرب قسرا لأن نقمة الحرب ـ أو نقمة الموت ـ قد ركبت فى نفوس الناس . واستمع إليه وهو فى هذه المسرحية الفكاهية يتحدث إلى سيدة اسمها أرمينترود عن موقفه من الحرب فيقول :

« أنت تتحدثين عن الموت بوصفه شيئا كريها . ولكنك مخطئة ، فأنا أقدم لهم منذ سنوات عديدة الفن والأدب والعلوم والرفاهية لكى يعيشوا عيشة رخاء ، ومع ذلك كرهونى وسخروا منى ، ورسموا صورا كاريكاتورية لى . ولكنى عندما أعطيتهم الموت فى أرعب صورة قدموا لى ولاءهم . إذا كنت تشكين فى أقوالى فاسألى الذين عاشوا سنين طويلة يجمعون الضرائب . . وطالبوا الممولين عبثا بعدة آلاف حقيرة تنفق على الحياة ، على أجسام أطفال

الأمة وعقولهم ، على تجميل مدنها وتوفير وسائل الصحة فيها ، وعلى توفير أسباب الترف والراحة للعمال الكادحين . . فرفضوا ، وأدى رفضهم إلى انتشار الموت بينهم . بخلوا بعدة مئات يدفعونها سنويا لإنقاذهم ، أما اليوم فهم يدفعون الملايين كل يوم لجلب الدمار واللعنة على رءوسهم ، ثم يقولون إننى أنا سبب ذلك . ليقولوا ذلك ، إذا استطاعوا ، أمام كرسى الديان الذى سنقف أنا وهم أمامه فى اليوم الآخر لنجيب عما أخفقنا فى انجازه، وعما أنجزناه (١) » .

ولعل برنارد شو لم يلق خصومة أشد من الخصومة التى جرتها عليه فكرته عن الحرب . ذلك بأنه عاش الى سنة ١٩٥٠ ، وكان يؤمن بالسلام ، لكنه فى حياته الطويلة شهد العالم وهو يجتاحه جحيم الحرب مرتين كادت الحضارة تذهب فيهما هباء منثورا . على أنه أيام نشاطه المسرحى كان يشهد الإمبراطورية البريطانية وهى تشعل نار الحرب ضد البوير فى جنوب افريقيا ثم وهى تعتدى على بلاد مثل أيرلنده والهند ومصر . وقد تردد فى استنكار حرب البوير لأنه كان يريد أن يفلسف الفكرة عن الأمبراطورية البريطانية كما فلسفها سدنى وب ، فزعم أنها يجب أن تكون رابطة حرة بين شعوبها ، لكنه كان فى نفس الوقت يندد بالجرائم التى يقترفها البريطانيون فى سبيل بناء هذه الإمبراطورية . وقد رأيت أنه كان يرى أن فى انجلترة ــ كما كان فى ألمانيا ــ فئة من السياسيين تدعو الى الحرب : فئة لا تقل عن طبقة اليونكرز فى بروسيا تحاول أن تخلق أسباب الحرب . وكان أشد خصومه فى ذلك سير ادوارد جراى رئيس وزراء بريطانيا فى تلك الفترة ، فهو عنده رأس طبقة اليونكرز من الانجليز ، وهو عنده مثل للسياسيين الذين يعملون للحرب ، وهو عنده العامل الأول الذى دفع بالإنجليز الى حرب البوير ، ثم هو عنده الوغد الأول فى المأساة التى أطلق عليها التاريخ « حادث دنشواى » ثم ما تزال فكرة برنارد شو عن

(١) مختارات من مسرحيات شو القصيرة ــ الجزء الثانى ــ ترجمة ميشيل تكلا ص ١٥٢ و ١٥٣ .

الحرب تنضج فى نفسه حتى يصبح السلم عقيدة من عقائده: وتخرج هذه الفكرة بل هذه العقيدة فى مسرحيات له أهمها « الأسلحة والرجل » و « رجل المقادير » و« جزيرة جون بول الأخرى » و« مسرحيات قصيرة عن الحرب» و « سانت جون » وتبرز فى معظم كتاباته ومقالاته فيما يتصل بالنظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى .

* * *

وثالث الأمور التى جادل فيها ونقد بها المجتمع هى« فكرة الحب» ، وكانت هذه عنده احدى الخيالات التى تسربلت فى تاريخ الأدب بلباس رومانسى . وأنت تعرف أن الحب يكون شطرا كبيرا من الأدب فى كل لغة . وقد اتجه برنارد شو الى هذا الموضوع اتجاها واقعياً أيضا . فهو لم يكن يؤمن بأن العلاقة بين الرجل والمرأة تقوم على هذا الخيال الذى صوره الشعراء والقصصيون من عصر هومر ، ثم انه كان كما قدمنا لا يؤمن بهذا الإغراق فى الوهم الذى انساق فيه شعر شيكسبير . انه يرى أن العلاقة بين الرجل والمرأة يجب أن تقوم على الواقع ، وأن كل التقاء بين الرجل والمرأة سواء للصداقة أو للزواج فهو التقاء خاص لاينبغى أن يقوم على الخيال . فلكل رجل حسناته وسيئاته وكذلك لكل امرأة حسناتها وسيئاتها . وكل التقاء فى الصداقة أو الزواج له ظروف خاصة ولا ينبغى بعد ذلك أن يحاول الشعراء ولا المتفننون أن يفصلوا هذا اللقاء عن الواقع فيتحدثوا عن سيدات يتحلين بخلق الملائكة ولا عن رجال يتخلقون بأخلاق الأساطير ويتحلون بالشجاعة والجرأة والتضحية فى سبيل المرأة .

كان برنارد شو على علم بالقصص الغرامية التى انحدرت فى تاريخ الأدب: هيلين ملكة ترواده وكليوباترة ملكة مصر وروميو وجوليت إلى غير هؤلاء ممن تغنى بهن الشعراء والقصصيون . وكان يعلم أن هؤلاء القصصيين يخلقون مآسى بأسرها من هذه الأساطير ، وأنهم يذرفون الدمع حين يصوغون القصة فى إطار شعرى أو مسرحى . لكنه كان يهزأ من هذه القصص جميعا وكان

يعالج الحب فى مسرحياته — وهي جميعا فكاهات — فيضحك من المحبين ويهزأ من الحب ، لأنه لم يكن يؤمن بهذه الخيالات الرومانسية بين الرجل والمرأة .

ثم يقف برنارد شو خلال هذا الجدل ليتساءل مرة أخرى : إن الناس يتساءلون دائما : لم يكن الرجل هو المسئول الأول عن العلاقة بينه وبين المرأة ؟ لقد انحدر إلينا فى الأساطير أن الفارس هو الذى كان يقتحم الحلبة فيقابل أنداده ويقتلهم واحدا واحدا و ويخوض بحارا من الدماء ، ويضحى بملكه الواسع إذا كان ملكا من أجل الحبيبة التي يشغف بها . ولكن أين المرأة من كل ذلك ؟ أليست تقف بعض أحيان موقف الضعيف المستسلم حتى تسنح لها الفرصة فتنقض على فريستها ـ وهو الرجل ـ انقضاض الحدأة ؟ ثم أليست تنسج خيوطها حول صاحبها كما ينسج العنكبوت خيوطه ثم إذا رأت أن الرجل قد وقع فى شباكها أخذت عليه المسالك كما يفعل خيط العنكبوت بالذباب ؟ ثم هل للرجل الحق فى أن يظل قيّماً على المرأة أم أن مساواتها به ستجعلها شخصية مستقله كاملة لا ينبغى أن تتسم بالضعف الذى ظل يميزها فى تاريخ حياتها ؟ تلك كانت المشكلات التى حادل فيها برنارد شو . وقد ظهرت هذه الأفكار جميعا فيما بعد فى مسرحياته : « كانديدا » و « قيصر وكليوباترة » و « الانسان والانسان الأسمى » و « كيف كذب على زوجها » و « الزواج » و « فتاة المقطوعات السمراء » و « بيجماليون » و « غزل القرية » و « صاحبة الملايين » .

على أن فكرته عن العلاقة بين المرأة والرجل اتخذت طريقا فلسفيا آخر أبعد مدى من ذلك . لقد كان يرى أن بين جنبي المرأة حرارة تتقد ، وأن فى قرارة نفسها ثورة عنيفة ، وكان يعلم أن هذه الحرارة أو قل ذلك العنف هو الذى يجتذب إليها الرجل . وناقش ذلك وفكر فيه وانتهى به التفكير إلى أن هذه الحرارة العنيفة ماهي إلا قبس من حرارة الخلق فى المرأة . ذلك الشعور الذى يهيئها لتكون سببا فى خلود النسل . إنها الروح التى تنطلق من

المرأة وتنتقل من جيل إلى جيل . إن المرأة فى نفسها غرض للعالم جميعه : وقد تكون غرضا من حيث لاتدرى . إنها غرض تمضى إليه الحياة جميعا مستمرة متنقلة متجددة . أما الرجل فليس إلا أداة لهذا الغرض . ليس الرجل إلا عاملا من عوامل هذا الاستمرار فى الخلق وهذا الانتقال من جيل إلى جيل، أما المرأة فهى الأصل فى كل ذلك ، ومن نفس المرأة تكمن هذه الحرارة التى تكاد تبلغ حد القداسة و ليست هى إلا حرارة الحياة . وقد استطاع برنارد شو أن يبين هذه الفلسفة فى مسرحية : « الإنسان والإنسان الأسمى » . وهى من روائع مسرحياته .

* * *

ونعود بعد ذلك إلى النقدات التى وجهها برنارد شو للمجتمع فى حياة الجدل التى عاشها وقد تحدثنا الآن عن « الكسب الحرام » و« فكرة الحرب »وعن « الجب » ونريد الآن أن نتحدث عن فكرة رابعة هى فكرته عن « الخلق» والحق أن فكرة الخلق تشمل الذى قدمنا جميعا . والنظام الاجتماعى والسياسى والدينى الذى قام عليه المجتمع الانجليزى فى ذلك العصر كان يقوم على بضعة من النظم الخلقية التى حسب المجتمع أنه قد استقر عليها . ونظر إليها برنارد شو بدراسته التى أسلفنا تحليلها فرأى أن هناك فجوة مروعة بين النظام الخلقى الذى استقرت عليه الجماعة الرأسمالية والخلق الأصيل ، وكشف هذه المتناقضات التى تحدث عنها بريستلى كما أسلفنا .

ويجمل برنارد شو اتجاهه نحو فكرة الخلق فى كلمات بليغة جاءت فى مقدمة لمسرحيته « ميجر باربارا » فهو يظهر فى تلك المقدمة شيئا ينم عن ثورته الخلقية فيقول : « لأضرب لذلك مثلا بنفسى : فها نذا رجل محترم لأننى أنحدر من طبقة محترمة ، وعندى من البداهة ما يبغضنى فى التبذير والفوضى ، وأنا بطبيعة تفكيرى ألتزم القانون حتى لأوشك أن أكون متزمتا ، وبطبيعة مزاجى أبلغ من حب الاقتصاد والحرص حدا لا يبلغه إلا العوانس . وعلى الرغم من كل ذلك فقد كنت دائما ــ وسأظل دائما ــ كاتبا ثوريا . ذلك لأن قوانيننا

تجعل القانون نفسه مستحيلا، وحريتنا تهدم كل حرية، وملكيتنا سرقة منظمة، وخلقنا نفاق وقح، أما حكمتنا فانه لايمارسها إلا مغفلون يمتازون بنقص التجارب، وأما قوتنا فانه يزجيها جبناء وضعفاء، وأما شرفنا فانه زائف فى كل وجه من الوجوه. إننى عدو لهذا النظام القائم لأسباب وجيهة، وأعلم أن حملاتى هذه قد تشجع قوماً آخرين فيعادونه لأسباب غير وجيهة. وقد يصيح بى أحد أصحابه فيقول إننى بوصفى هذا النظام على حقيقته سوف أغرى الآخرين بأن يدفعوا به إلى ماهو أسوأ أو ينتهوا به إلى الدمار. ولكن ماحيلتى فى ذلك؟ بل لست أدرى إن كان هناك حالة أسوأ من الحالة التى هو عليها.»

والحق أن كاتبا ذا ضمير اشتراكى مثل برنارد شو كان جديرا بهأن يثور مثل هذا الثورة. وأنت تلمح فى كل سطر من سطورهذه الفقرةمنطقه الجدلى وجمعه للنقائض. وأنت تلمح أيضا المبالغة التى كان يلجأ اليها برنارد شو حينما كان يريد أن يؤكد قضية من قضاياه. ولكن إذا نحن اجتنبنا هذه المبالغة، وإذا نحن حاولنا أن نخفف من الجدة التى كتبت بها هذه السطور فسنجد أن النظام الخلقى الذى كان يعيش فيه برنارد شو هو النظام الرأسمالى الذىأسلفنا فتحدثنا عنه. إنه نظام يقوم على الفرد لا الجماعة. يقوم على ماللفرد من قوة وما تختزنهفى نفسه من الأثرة والأنانية وعلى مايعول عليه فى حياته من التنافس. ثم يقوم على أن الجماعة كلها كانت قد تواضعت على هذا الخلق وحاولت أن تنشئه وتنميه فى نظمها التربوية والاجتماعية والسياسية.

كان شو قد درس الفيلسوف الألمانى نيتشه منذ سنة ١٨٩١ وكتب عنه وعن مذهبه دراسات فى مجلة «الستردى ريفيو» خلال سنة ١٨٩٦. وعلى الرغم من أننا لانستطيع أن نقول إن برنارد شو قد اتجه اتجاه نيتشه نحو القيم الخلقية إلا أنه لاشك متأثر به فى ناحية هامة. كان نيتشه يرىأن الخلق الذى يسود إنما هو مؤامرة يقومبها الضعفاء ضد الأقوياءحتى يحموا أنفسهم، وأن ماأورثتنا الديانات القديمة من معايير خلقية ليس إلا آثارا لهذه المؤامرة.

ويذهب برنارد شو هذا الرأى فى أحيان إلا أنه يرى أن هذه المؤامرة لا يقوم بها الضعفاء ولا المعوزون ، بل يقوم بها أهل الطبقة الوسطى من الرأسماليين. وقد كانت الحياة فى العصر الفكتورى قائمة على ماظنوا أنها الحرية فى كل أمر من الأمور . وهذا المذهب الحر هو الذى جعل بنتام يذهب إلى المذهب النفسى وجعل جون ستيورت مل يؤيد المذهب الفردى . والمذهبان يتجهان كما أسلفنا فى بعض فصول هذا الكتاب نحو حياة الفرد أولا أما حياة المجموع أو صالحه فيأتى فى المحل الثانى . والفرد فى مثل هذه الجماعة كان ينبغى أن يتحلى بأخلاق أهمها الصبر والصمود للمنافسة وتحمل الشدائد والطاعة العمياء فى أحيان والقسوة المطلقة فى أحيان أخرى . كانت هـــذه الصفات هى التى يتناولها فيما بعـد كتاب مثل صمويل سمايلز ولورد أفبرى ، وكانت هى التى يؤيدها مربون مثل نيومان . وهى الصفـات التى كان الانجليز يحسبون أنهـا أساس التوسع الامبراطورى نفسه . وهي التى كان ينشأ عليها تلامذة المدارس وبخاصة تلك المدارس الخاصة ذات المصروفات الباهظة التى كان من سخرية القدر أن أطلق عليها اسم « المدارس العامة » . ثم كان من سخرية القدر أيضا أن هذا الخلق كاد يكون قاصرا على طبقة واحـدة من طبقات المجتمع هى التى كانت تسمى نفسها « الطبقة المتعلمة » .

وكان التقدير الخلقى لهذه الصفات جزءا من المادة التاريخية التى أثبتت فى كتب التاريخ الانجليزى . خذ مثلا حكم المؤرخ الإنجليزى العـادى على الأيام الأولى لبنـاة الأمبراطورية الأوائل من الانجليز . لقد سلفت أمة من كتـاب التاريخ الإنجليزى كانوا يمجدون أعمال قوم مثل فروبشير وفرنسيس دريك ولكن فلنستمع إلى برنارد شو فى رسالته الفابية الثانية وهو يثبت حكمه الخلقى على أعمال هؤلاء : فى القرن السادس عشر اتخذ المغامرون من الإنجليز سبيلهم إلى البحر وهم من حيث التكوين العقلى فى حال يتيح لهم النجاح فى أعمـال التجارة . لقـد كانوا أتقياء عن عقيدة لا تصنع فيهـا ، وكانت لهم قوة من الخلق لا تتأتى إلا لرجال أقاموا أنفسهم على الايمان . وفى نفس الوقت كانوا

يعتبرون القرصنة عملا من أعمال الشجاعة والوطنية ، وأن تجارة الرقيق فرع شريف من فروع التجارة ، وأن فيها من المغامرة مايتفق وشرف الفضلاء من الرجال، وفيها من الكسب مايستحق ركوب المخاطر » . وهذهاللمحة الخلقية هى التي ستتكرر فى كتابات شو حين يتحدث عن التاريخ الانجليزى وعن الحروب التى خاضتها إنجلترة وعن التوسع الامبراطورى : أى عن كل ما كان يعتبره الانجليز من مفاخرهم .

كان فى حياة المجتمع الانجليزى طرز خاصة من الناس تتمسك بهذه المعايير الخلقية الفردية سواء فى دراسة التاريخ أم فى المجتمع نفسه — وكان لابد أن أن تتمسك بهذه المعايير بحكم تربيتها ونشأتها . كان هناك أولا المدرس الذى يستحل العصا مع تلاميذه ويربيهم على احترام الغنى وعلى احتقار العمل اليدوى، وكان هناك القسيس الذى يبدى التقوى فى الكنيسة لكن تابعيه يتخذون مما يقوله من عظات مجرد ذرائع لاستغلال الفقراء والمعوزين ، وكان هناك الموسرون من الأسر القديمة الذين لايهتمون إلا بمظاهر الاحترام والهيبة لكن أسرهم فى الواقع كانت تتدلى إلى الانحلال . ثم كان هناك الناشئون من أصحاب الصناعة وهم قوم أشربوا حب المال ، ثم كان هناك ذراريهم من المتعطلين والمتعطلات وهم قوم لم يكونوا يعملون شيئا لكنهم كانوا يتمتعون بكل شيء . فهى إذن المؤامرة التى جعلها نيتشه ملاك فلسفته الخلقية ، لكن أعضاءها هنا ليسوا من الفقراء ولكنهم من الطبقة الموسرة التى كانت تساند بعضها بعضا .

* * *

ورجل آخر تأثر به برنارد شو كل التأثر ذلك هو الشاعر الانجليزى وليم بليك (١٧٥٧ — ١٨٢٧) وقد تعرف أن وليم بليك من الشعراء الانجليز الذين نشأوا فى لندن فى أعقاب الحركة الرومانسية وأنه كان صاحب مذهب فى الخلق كتب فيه شعرا غزيرا ، وأوضحه بنوع من أنواع الرسم برع فيه . ثم قد تعرف أيضا أن رجلا مثل صمويل بطلر كان هو الآخر

ممن تأثروا بوليم بليك. وقد تأثر برنارد شو تأثرا عميقا بوليم بليك أولا ثم باستاذه صمويل بطلر ثانيا . ولابد لنا فى هذا الموقف أن نبحث قليلا آثار هذا الشاعر الانجليزى فى فكرة الخلق التى اعتنقها برنارد شو .

كان بليك شاعرا خياليا . وكان يرى أن حياة الإنسان الأولى انحدرت من خيال لايفرق بين الخير والشر ، وأن فى نفس الإنسان من الحيوية مايجمع بين الخير والشر معا . حتى الشيطان نفسه له من الخلق ما لابد أن يتجه به إلى نواحى الخير : فاذا أنت نظرت إلى الحياة من هذا الوجه وجدتها وحدة متكاملة ترى فيها النمر المفترس إلى جانب الحمل الوديع ، وترى فيها الثعبان الأرقم إلى جانب الطفل البرىء . فالحياة خليط من عناصر نحن الذين نفرق بينها فندعو بعضها خيرا وندعو بعضها شرا ، وتسمى جانبا منها فضائل والجانب الآخر رذائل .

وهذه الفلسفة التى تتصل بالخيال عند وليم بليك كانت مجالا لتعليق كثير من الكتاب والنقاد وبخاصة فى النصف الأول من القرن العشرين . إذ معنى الجمع بين الخير والشر أنه لا يمكن أن يكون هناك شر محض ولاخير محض . ثم لا يمكن أن يكون هناك شخص شرير كل الشر ولا شخص خير كل الخير. وهذا عند صمويل بطلر ثم عند برنارد شو ملاك الفلسفة الخلقية . على أن برنارد شو طرق هذا الموضوع حين عرض فلسفته الدينية وربطها بما سماه « قوة الحياة ». وهلهل البحث فيها فى كثير من مسرحياته. فهو يعالج الموقف الخير الذى يقفه بعض اللصوص والقتلة والملحدين فى مسرحيات « تابع الشيطان » و « فضيحة بلانكو بوسنت » و « هداية كابتن براسباوند» فحوادث هذه المسرحيات تدور حول موضوع خلقى : وهو أن هؤلاء اللصوص والقتلة والملحدين يسيرون حسب معيار خلقى خاص تحدده لهم حيويتهم أو تحدده لهم مايسميه برنارد شو « قوة الحياة » وبعكس هؤلاء فان كثيرا من الذين يتمتعون عندنا بالاحترام من القسيسين وجنود الجيش والقضاه يخفون كثيرا من النقائض الخلقية لأنهم لا يتمتعون بقوة. وهنا نذكر

ماردده برنارد شو دائما من أن الخلق إنما هو مقدرة الإنسان على أن يعيش تبعا لإحساس من الضمير لا طاعة القانون يفرض عليه .

وهنا ينبغي أن نذكر العلاقة بين الخلق وبين الدين. فقد كان يعلم برنارد شو أن أصحاب الدين من الأتقياء الأوائل قد ربطوا الخير والشر بالأوامر والنواهي التي نزل بها الانجيل . ولكن حينما قام دارون وأشياعه بمذهب « الاختيار الطبيعي » أشاعوا — كما أسلفنا — روحا من الحتمية الخلقية في المجتمع ، ولم يلبث أن حل محل العقيدة الدينية — التي كانت تتصل اتصالا وثيقا بالخلق — عقيدة أخرى ادعوا أنها علمية وبهذه العقيدة العلمية الجديدة طردوا من الميدان الاجتماعي الايمان العام وقانون الشرف وأحلوا محلها أفكارا أخرى . وهو لا يرى أن الدين وحده كان منبع الأخلاق ولا أن العلم جديد يستطيع أن يكون منبع الأخلاق .

لقد أسلفنا فاقتبسنا لك في هذا الفصل ما تحدث به الشيطان للانسان عن ميل الإنسان للموت دون الحياة ، وعن الجرائم التي يقترفها في سبيل الحرب ، ومن هذا الذي تحدث به الشيطان في هذه المسرحية ما يكفي ليدلك على اتجاه برنارد شو حينما نظر إلى الخلق وجعل الفكرة الخلقية أسمى من القواعد والتقاليد التي تسود المجتمع سواء أكانت هذه نابعة من الدين القديم أو من العلم الحديث . وهنا ننتقل إلى كلمة أخرى ترددت آلاف المرات في كتابات هنريك إبسن . تلك هي كلمة « المثل الأعلى » . ونخشى أن يكون قد أصاب هذه الكلمة الكثير من الأبهام والغموض في أحاديثنا القابلة .

كان يستعمل برنارد شو كلمة المثل الأعلى وهو يعني حالتين مختلفتين . أما المثل الأعلى في الحالة الأولى فهو ما تواضع عليه الناس واستقر في أذهانهم مدة طويلة ، وما استخدمه الناس لتبرير سلوكهم ولتسويغ أفعالهم . وهذا هو المثل الأعلى الظاهري وهو الذي يسخر به هنريك ابسن ومثل هذا المثل الأعلى عند برنارد شو هو السبب في أغلب الآثام التي ترتكب باسم الحرية والفردية والصدق والامانة وارضاء الشعب مما كان سائدا في العصر الفكتوري . فهذه

عند برنارد شو كانت اخلاقا متحجرة لم تتطور مع الزمن نفسه . أما المثل الأعلى فى حالته الحقيقية فهو الغرض الذى يعيش له الإنسان . وهو الحياة المثلى التى يسعى الناس لها . ويكون المثل الأعلى عند ذلك حبيبا إلى النفس جديرا بأن يعيش له الإنسان كفرد والناس كجماعة .

كان برنارد شو يعلم أن كل مثل أعلى قد يساء استخدامه ،وقد يستعمل مبررا أو مسوغا لهدف دنىء من أهداف الحياة . فالديمقراطية والقومية والبرلمانية والحرية والاشتراكية والشيوعية وكل هذه المذاهب البراقة يمكن أن تكون نقمة حيث أريد بها أن تكون نعمة . لذلك كان تفكيره دائما ينتقل من كل واحد من هذه الأمثلة العليا إلى نقيضه عندما يساء فهمه أو تطبيقه . إن الدين الصحيح هو الذى يتطلب أن تنطبق العقيدة والعمل ، أما الدين الزائف فهو الذى يفرّق بين العقيدة والعمل ، وقد آمن بذلك برنارد شو . وهو كان يعلم أن العصر الفكتورى كان قد اصطلح على مثل عليا تحلق فى السماء من غير أن تهبط إلى حياة الواقع أو تترجم إلى عمل . كانت الشفقة والإحسان والرحمة والتقدم والنزاهة والأمانة كل هذه « الأمثلة العليا » تنتقل على الشفاه كل ساعة وكل دقيقة ، لكن العمل بها كان من أعسر الأمور .

* * *

اما من حيث التربية فقد كان برنارد شو قاسيا مرة أخرى على مبادىء التربية التى قامت عليها المدارس الخاصة فى إنجلترة مما أطلقوا عليه «المدارس العامة » (١) . وهنا أيضا نستطيع أن ندرك مبلغ الموجدة التى يعالج بها برنارد شو نقده لهذه المدارس واستمع إليه حين ينقدها فى هذه الكلمات :

« وتقوم بهذا العمل — أى التربية القاسية — المدارس العامة الباهظة

---

(١) Public Schools.

المصروفات فى إنجلترة ، وتصادف فى ذلك نجاحا يدعو إلى الاستغراب إذا ذكرنا أنه عمل مضاد لسنن الطبيعة ، وقد جرى العمل على مثل ذلك أو أشد فى ألمانيا أيام حكم أسرة هو هنزلرن ، بل لقد مارسه الألمان إلى مدى أوسع أيام النازى بعد حكم هوهنزلرن . خذ صبيا كان والده من الأثرياء ، وطعّمه بالفكرة التى جرت بها بعض التقاليد من أن التجارة والعمل اليدوى ينتقصان من قدره ، وأن الخدمة فى صفوف الجيش ، والعمل فى السلك السياسى ، هما وحدهما الوظيفتان اللائقتان بالسادة من أمثاله ، وأن الصيد والرماية وركوب الخيل والسباق هى الهوايات اللائقة بأن يقضى فيها أوقات فراغه. وعوّده على أن ينظر إلى الدين كما لو كان أمرا يتطلب ذهابه إلى الكنيسة أيام الآحاد فى أحسن بزة ، وأن ذلك يمتزج امتزاجا تاما مع أوامره التى يصدرها إلى الله تعالى حين يدعوه أن يلعن سياسة أعدائه ، وأن يحطم المكر السىء الذى يحيق ببلاده . واجعل له بعد ذلك ولاء ، يبلغ حد العبادة يتجه به إلى ملك يعبد كما تعبد الأوثان ، أو قائد هو نفسه رمز حى لبلاده . إذا أخذت كل ذلك فسترى أنه قد تهيأ لك شخص من هؤلاء الحكام الأغنياء الذين لا يجاوز تفكيرهم حد المراهقة إلا قليلا ، والذين تحكم أفكارهم هذه البلاد ، بل سيتمثل أمامك بعد ذلك هذا إلا له القومى الذى يصوّرونه فى صورة إلا له ذى الغرائز الإمبراطورية، وهو إله يميل مع الهوى، فيعتقد اعتقادا لا شك فيه أن المدرسة العامة ذات المصروفات الباهظة ليست إلا أسمى ما بلغته التربية الإلهية. فتحت حكم هذه المدرسة يمضى الحق والأمانة والعدل من تلقاء نفسها ! ! فاذا حكم هؤلاء بعض الأجانب اعتقدوا أنهم يخرجونهم من الظلمات إلى النور ، وأن أمورهم لا شك تصلح فى نظرهم صلاحا لا تقاس به وهم تحت حكم غيرهم . ذلك ما تفعله مدارس مثل ايتون وهارو وما يتبعها من المدارس التحضيرية فى إنجلترة ، فانها تخلق أجيالا مثل هذه من أبناء الحكام الأثرياء . وحيث أن هذا هو الذى يحدث فى البلاد الأخرى التى يحكمها أصحاب الثروة ، فانه تطالعنا فى العالم وطنيات متنافسة تتعدد بعدد اللغات والأمم. وهذا مما يجعل السلم الذى ندعو إليه محالا » .

«هذا فى بعض نواحيه أثر بائد من آثار النظام الإقطاعى حينما كان انقسام الناس إلى طبقات قاعدة لازمة من قواعد الخلق . فأنت ترى هذه الآثار فى البلاد التى ازدهر فيها نظام الإقطاع فى سالف عهدها ، ولا يزال حلفاء الإقطاعيين فيها إلى اليوم يحتفظون بما كان لأسلافهم من أملاك وامتيازات وألقاب وثروة وجاه ، بينما هم أسلموا التزاماتهم السياسية الهامة إلى غيرهم من عرفاء الطبقة الوسطى . وقد يشيع بين الناس أن ذلك فى وضعه الحاضر ليس إلا من التقاليد المقدسة التى انحدرت إلينا من عصور الإيمان والفروسية ، وليس هذا إلا خداعاً ، فلم يذهب أولاد الأغنياء إلى المدارس إلا فى القرن التاسع عشر حينما أسلمت الأرستقراطية الإقطاعية أزمّة الحكم إلى الصاعدين من أثرياء الصناعة الذين أغنتهم الثورة الصناعية وجعلتهم يتيهون بما حصلوا عليه من مال . فقد اختلط الارستقراطيون الأول بهذه الطبقة الجديدة وتزوجوا منها . وذهب أبناء الأغنياء إلى المدارس حينما ذهبوا لا ليدرسوا ، ولا ليحصّلوا ما كانوا يطيقونه من ثقافة من الثقافات أو معرفة من المعارف ، وإنما ذهبوا إلى المدارس حتى يطلق عليهم اسم « الطبقة العليا » وكان حسبهم ذلك .

لقد كان برنارد شو يؤمن بأنه لاسبيل إلى الخلاص من فكرة الحرب والاستغلال ، ومن فكرة التوسع الإمبراطورى نفسه ، والقومية المعتدية إلا بنظام آخر من نظم التربية. إنه يكمن فى السطور التى قدمنا لك فيها نقده للخلق وللحرب ولامتيازات أمراء الإقطاع .ولكن هل استطاع برنارد شو أن يمضى بعد ذلك فيضع نظاما للتربية ؟ إنه كسائر الفابيين، فيما عدا سدنى وب ، لم يكن يستطيع بحكم تعليمه وثقافته أن يكون له القول الفصل فى وسائل لإصلاح التعليم . وقد كان حسبه أن يصف هذه المدارس الخاصة ذات المصروفات الباهظة التى كان من التجاوز المضحك أن سميت «مدارس عامة» .

* * *

ذلك عندنا برنارد شو ناقد الحضارة ، لقد رأيت أننا حاولنا أن نتحدث

فى نطـاق نقط أساسية ست هي الكسب الحرام ، والحرب والحب والخلق والتربية والسياسة ، وعندنا أن هذه النقط هى الزوايا التى نستطيع أن نلم فيها باتجاهات برنارد شو فى نقد المجتمع الذى عاش فيه . ولكن يجب أن نذكر دائما أنه لم يكن يستطيع أن يحلل هذه الدوافع كل هذا التحليل لو لم تكن له هذه الثقافة الواسعة وبخاصة فى علم الاقتصاد . لقـد استطاع أن يفرق بين الأوهام والواقع لأنه درس الاشتراكية دراسـة الفاحص المتبصر ، وكشف هذا النفاق الذى كان يجثم بين الخيال والواقع . وعند أديب مثـل ج. ب. بريستلى أنه كان عبقريا فى نقده لأنه جمع بين اثنتين : بين الأدب والاقتصاد ، بينما كان هـ. ج. ولز عبقريا أيضا لأنه جمع بين الأدب وعلم الأحياء .

(٤)

فنه المسرحي

بلغنا بك حدا – حين تحدثنا عن مسرحيات الفكر – رأينا فيه برنارد شو يتأثر كل التأثر بمؤلفات هنريك إبسن. فقد رأينا أن الاثنين كانا ينزعان إلى نقد الحضارة وتحليل المعانى والأفكار التى تضطرب فيها، ورأينا أنهما من أنصار التفكير فى الفن. ونحن مقبلون فى هذا الفصل على وجوه أخرى قد تختص ببرنارد شو وحده. نحن مقبلون الآن على دراسة الفن المسرحى عند برنارد شو، وسنرى أنه كان متأثرا بجملة من العوامل الأخرى كان أهمها «روح الفكاهة» التى امتاز بها عن إبسن. ولعلك تذكر أننا فى حديثنا السالف عن «مسرحيات الفكر» قلنا أن برنارد شو يمثل فى الفكاهة ما كان يمثله هنريك إبسن فى المأساة.

ولنذكر دائما أن برنارد شو لم يكن مسرحيا فقط: لقد كان مفكرا وصحافيا وناقدا وهاجيا قبل أن يكون مسرحيا. ولعله لم يكن مسرحيا إلا لأنه أراد أن يدعو لطائفة من الآراء والعقائد التى كان يؤمن بها. فالمسرح عنده كان يأتى فى المكان الثانى. وليس فنه المسرحى بعد ذلك إلا أسلوبا للتعبير عما كان يجول فى نفسه من الأفكار والمعانى. وقد اختص برنارد شو بأن رأى فى الفكاهة خير تعبير عن أفكاره ومعانيه، وخير وسيلة للنقد والهجاء. لذلك ألقى بالمأساة جانبا وكان من كتاب الملهاة. وفى هذه الوجهة بنوع خاص يختلف برنارد شو اختلافا بعيدا عن هنريك إبسن، ويتفق اتفاقا قريبا جدا مع مسرحى فرنسى آخر كان يعجب به ويحاكيه وهو موليير.

كان يرى برنارد شو أن تطور المسرح كان يتجه إلى الملهاة لا إلى المأساة. وكان يذهب إلى أن الملهاة هى التى تصفى عقول الناس من الهراء والنفاق. وتحدث حالة من القلق يتهيأ الناس فيها لتقبل الأفكار الجديدة. يقول

فى ذلك : « كانت الملهاة بما فيها من تخريب وسخرية ونقد ومن فن سلبي ، هى السبب فى أن ظلت دور التمثيل مفتوحة ، بينما كانت المأساة تمـوت على مافيها من سمو . وقـد كانت هناك سلسلة من كتاب الملاهى بدأت بموليير وانتهت بأوسكار وايلد . لم يكن لدى هؤلاء شىء له أساس إيجابى يستطيعون قوله ، لكنهم كانوا على الأقل ثائرين ضد الكذب والنصب . لم يقتصر عمل هؤلاء ـ كما كانوا يدعون ـ على أن يطهّـروا الخلق بالسخرية ، ولكنهم كانوا كما يقول جونسون يصفون عقولنا من الهراء والنفاق ، وبذلك كانوا يدلوننا على الخطأ ، ويحدثون فينا حالة من القلق هى نفسها علامه من علامات الحيوية الفكرية . »

ويمضى برنارد شو فى حديثه عن الملهاة كوسيلة من وسائل النقد والهجاء والتفكير وتصفية العقول مما بها من هراء ونفاق ، وكان لابد فى هذه المـرة أيضا من أن يصطدم بشيكسبير ، وهنا أيضا ينتقص من قيمة مآسى شيكسبير ، فلا يرى فيها مثل هذا النقد الذى يصفى العقول من الهراء والنفاق ، إنه يرى فيها فلسفة سلبية تدعو إلى السباب والتشاؤم . واستمع إليه حين يصف ذلك فهو يقول : إن شيكسبير يكدس أنواع التقتيل والشرور تكديسا على شخصياته التى أراد فى الأصـل أن يخلقها خلقا لطيفا . يفعل ذلك من غير تحرج مهما ظهرت هذه الشخصيات بمظهر التناقض . وفى كل ذلك يحس إحساسا بحاجته الحيوية إلى فلسفة ، فيدفعه ذلك إلى أن ينتهج وسيلة عجيبة احترفها : وهى أن يخلق شخصيات فلسفية على المسرح ، أو يجعل من أبطاله أنفسهم فلاسفة ، وما أن يظهر هؤلاء أو أولئك على المسرح حتى تعوزهم الفلسفة ، فلا يستطيعون أن يعبّـروا عن شىء ، وينقلبون إلى متشائمين شتّـامين . فاذا عرض لك شىء من أحاديثهم التى أريد بها أن تكون فلسفة كحديث « عصور الإنسان السبعة » ، أو حديث هملت عن الانتحار ، فانه يطالعك منها مقدار ما كان يجهله شيكسبير من الفلسفة . » فنحن أمام كاتب مسرحى يفضل أن يكتب الملهاة عن المأساة ويرى فى الملهاة تعبيراً عن نفسه وأفكاره ودعايته وفلسفته .

* * *

وقد كان تكوين برنارد شو اللغـوى ، ومزاجه وطبيعته ، بـل كانت نشأته الاجتماعية والأدبية والفكرية وميله إلى « الفانتازيا » التى تحدثنا عنها ، كل هذه تميل به إلى ناحية الفكاهة وتعدل به عن جانب المأساة . لقد نشأ فى صباه وهو يرى أن كل كارثة من الكوارث لايمكن إلا أن تكون من توافه الأشياء . ثم إنه درس كثيراً مما أنتجه المؤلفون من أدب الفكاهة ، وتشبع بروح الفكاهة التى تحدث إيفـور ايفانز فجعلها من بعض العناصر القومية فى الأدب الإنجليزى ، هذا إلى أنه درس فى الأدب هذا الذى يسميه ناقد مثل هزبرت ريد الشطحات الخيالية أو « الفانتازيا » كما قدمنا فى فصل سابق .

فكرة الضحك ، وأسلوب الدعابة ، وروح المـرح والفكاهة ، هو الذى اتجه إليه برنارد شو . وقد حبَّبه فى ذلك أنه ناقد خـرج لينقد المجتمع . والضحك ـ كما قال هنرى برجسون ـ هو أساس الملهاة وهو وسيلة اجتماعية يتخذها المجتمع لنقد الأفراد . فالناس لايضحكون من الأفراد إلا لأن هؤلاء الأفراد خرجوا على رأى المجتمع فى أمر من الأمور . أنت تضحك من الذين يخالفون العرف والعادة وهم يحسبون أنهم غير مخالفين لعرف ولا لعادة ، أنت تضحك من العجائز اللواتى يبدين زينتهن ، ومن الأطفال الذين يلبسون ملابس الرجال ، ومن النساء المتفتيات ، وأنت تضحك بعد ذلك من الجبان الذى يتصنع الشجاعة ، ومن البخيـل الذى يضطر إلى دفع المال . فـكل نقص مادى أو اجتماعى وكل مخالفة للقانون المادى أو الاجتماعى تكون مثارا للضحك والفكاهة . لذلك حاول كتاب الملاهى دائما أن يلجأوا إلى تصوير شخوص ذوى نقص جسمى أو عقلى أو خلقى ، فالضحك هو العقاب الذى يلقاه هؤلاء ، وكان لابد لكتاب الملاهي أن يتخذوا من الضحك وسيلة، وأن يظهروا فى مسرحياتهم رجالا ونساء من أصحاب هذه النقائص .

فإذا نحن طبَّقنـا كل ذلك على مسرحيات برنارد شو ، رأينا أنه يحاول دائما أن يظهر نقائص الناس على المسرح . وأدركنا أن إظهار النقائص مجلبة للضحك والتفكه ، وليس الضحك والتفكه عند برنارد شو إلا ضحكا وتهكما

اجتماعيا مثل هذا الذى ذهب إليه برجسون حين تحدث عن أسباب الضحك ، وحين ذهب إلى أن الضحك أساس الملهاة . وكان من السهل أن يختار برنارد شو شخوصا من ذوى النقائض ، وكان من السهل أن يبرز ما فيهم من عيوب، وأن يدفع الناس إلى الضحك أو التفكه بتلك العيوب .

وكان مزاج برنارد شو العقلى يتفق وفكرة الملهـــاة . وقد أسلفنا فى فصلين من هذا الكتاب فتحدثنا عن برنارد شو المفكر المحترف، وحددنا العلاقة الفكرية بينه وبين مذهب النقائض الذى اشتقه كارل ماركس عن فريد ريك هيجل . وأثبتنا أن برنارد شو فى كثير من مناقشاته يتبع هذا المذهب . فهو يجد لكل موضوع نقيضا للموضوع، وهو يؤلف بين الموضوع ونقيضه فينتج عن ذلك مركب للموضوع . وقد اتجه هـذا الاتجاه أيضا فى تركيب الملهاة نفسها . لأنه حاول أن يجمع بين نقائض متخالفة ، وهذه النقائض نفسها من موضوعات وشخصيات هى التى كانت تثير الضحك والفكاهة . ثم هو يعالج الأفكار الشاذة على أنها أفكار عادية ، ويعالج الأفكار العادية على أنها أفكار شاذة . ويرى أن هناك قانونا خلقيا خاصا يختلف كل الاختلاف عن القوانين التى صاغتها الحضارة الحديثة. وهذه التفرقة بين العادى والشاذ ، وهذا التناقض بين العرف وبين ما يراه برنارد شو ، هو فى الواقع أساس مكين من أسس الضحك والفكاهة فى مسرحياته . نحن نضحك إذا رأينا تضاربا فى القول أو فى التفكير أو فى العمل ، ومسرحيات برنارد شو تمتلىء بأنواع النفاق والتردد والتناقض . وهذه تبلغ بعض أحيـان مبلغ الهزات النفسية التى تمتلخ التفكير امتلاخا .

* * *

إذا نحن تحدثنا عن برنارد شو ككاتب مسرحى فينبغى أن نقدر موقفه كناقد للحضارة يريد أن يضحك ويسخر ، وفى مثل هذا الموقف يجد الكاتب المسرحى نفسه مندفعا إلى اختيار قليل من العناصر التى حوله حتى يؤلف منها نسقا فنيا . يقول برنارد شو فى بعض ما كتبه عن اتجاهه ككاتب مسرحى:

«إننى لا أسترشد بالقواعد المسرحية ، بل أناشخص ملهم ولست أدرى كيف أستقبل هذا الإلهام ، وأنى يأتى إلى ، لا يمكن أن يكون ذلك إلا إلهاما فانه يهبط على من غير أن يكون لى غرض أو صالح شخصى ٠٠٠٠ »

« وليس هذا فيما أرى ما نعنيه إذ نقول إننا نسترشد بالقواعد المسرحية، بل هو الهذيان بعينه ، وليس الهذيان المعقول إلا ما نسميه مسرحية أو تمثيلية » .

وبعد أن يستقر بنا الأمر على ماقاله من حيث أن المسرحية ليست إلا إلهاما، ومن حيث أن هذا الإلهام لا يأتى الا كما يكون الهذيان ، يرتد بنا برنارد شو إلى النقيض كعادته فيقول فى نفس الفقرة : « إننى لا أختار وسائل التعبير فى المسرح ، لأننى أجدها وقد فرضتها على اعتبارات جمة . فهناك اعتبارات مادية يحتمها مكان المسرح ، وهناك اعتبارات تفرضها قوانين البلدية فى اتخاذ الحيطة ضد الحريق ، أوضد الحوادث الأخرى التى يتعرض لها المسرح ، وهناك اعتبارات اقتصادية تفرضها تجارة المسرح ، ثم هناك اعتبارات تمليها طبيعة فن التمثيل ومقدرة النظارة على فهم مايرون وما يسمعون ، وهناك الظروف العارضة التى تحيط بأية مسرحية تؤلف وتمثل ... هذه هى العوامل التى تملى على الكاتب المسرحى أساليبه فى التعبير. وهى لا تخلف إلا قليلا من حرية الاختيار ، ويستوى فى ذلك شيكسبير وسوفوكليز وأى كاتب مغمور من مؤلفى الأضاحيك البائدة » .

هذه كلمات كتبها برنارد شو فيما يتصل بأساليبه المسرحية . ولعلك لحظت التناقض بين الإلهام ــ أو الهذيان ــ الذى تحدث عنه أولا ثم هذه الاعتبارات المادية التى تحدث عنها أخيرا . ولكين لا ينبغى ان نأخذ مثل هذه الأقوال المتناقضة على ظاهرها ، ولا تظن أنه قصد مما ذكره من الاعتبارات المادية إلا الشكوى من أنه لا يجد حرية كافية للتعبير عن آرائه ونقداته ومعانيه .

والذى يبدو لنا من دراسة الفن المسرحى أن الذى يميز كاتبا مسرحيا عن

كاتب مسرحى آخر ، إنما هو طريقة الاختيار . لقد ذهب قوم إلى أن المسرحية ينبغى أن تكون قطعة من الحياة الواقعية،وذهب آخرون إلى أنها ينبغى أن تكون مرآة تنعكس فيها الحياة. وذهب فكتور هيجو إلى أن هذه المرآة ما هى إلا مرآة مصغرة تلم عناصر الحياة كما تلم البؤرة شعاع الشمس. ولكن الحق أن كل كاتب مسرحى يحاول «الاختيار»،ويدور الفن المسرحى على التوفيق أولا فى اختيار الموضوع أو القصة ،وثانيا فى اختيار الشخوص، وثالثا فى اختيار الألفاظ أو الأنغام التى يعبر بها هؤلاء الشخوص عن المعانى والأفكار التى تجول فى نفوسهم وعقولهم . ليس الأمر فى المسرحية أن تملأها بعناصر غير ذات قيمة فنية فان ذلك يحدث تحت أسماعنا وأبصارنا كل يوم، بل الأمر فى الفن المسرحى أن يكون هناك اختيار لبعض هذه العناصر، وتأليف فنى بين كل واحد منها والآخر، لذلك لا يجب أن نأخذ ما يذهب إليه غلاة الواقعيين بكثير من الحذر . وقد يذهب بعض هؤلاء إلى أن المسرحية ينبغى أن تكون قطعة من الحياة العامة بكل ما فيها. بل لقد مضى بعض هؤلاء فى إخراج المسرحية فيخرجونها إخراجا « طبيعيا » لا أثر لتعديل الفن فيه . ولكن الحق أن الفن المسرحى هو عملية اختيار من عناصر الواقع وعناصر العلاقات البشرية قبل كل شىء. كان سوفوكليز يختار قطعة المسرحية من قصص الآباء والابناء التى كانت فى عصره ، وكان شيكسبير يختار قطعة المسرحية من القصص التى انحدرت إليه من تراث النهضة. وسوفوكليز وشيكسبير ومن جاء بعدهما كانوا يحاولون أن يبرزوا على المسرح نوعا مختارا من الأعمال والشخوص يمثل الحياة كما تخيلوها . نريد أن نقف وقفه قصيرة جدا عند هذا الذى أثبتناه عن الاختيار فى الفن المسرحى . فقد ذهب أرسطو إلى أن التمثيل ليس إلا محاكاة أو تقليدا للحياة الواقعة . وذهبت فئة من النقدة إلى أن ذلك يستدعى أن تكون المسرحية محاكاة حرفية أو تقليدا حرفيا للحياة الواقعة . واتباعا لذلك حسب هؤلاء أنه ينبغى أن يتبع كل كاتب مسرحى وحده الزمان والمكان والعمل حتى تكون المسرحية سائغة معقولة . وقد نشأت من ذلك المذاهب الواقعية التى أسلفنا فتحدثنا عنها

وزادت فئات من المسرحيين هذه المذاهب الواقعية وضوحا وأمعنوا فى الأخذ بها إمعانا ، فظهرت المذاهب الطبيعية فى التمثيل والإخراج ، وهى تلك التى لا تؤمن إلا بأن تكون المسرحية « صورة طبق الأصل » مما يجرى فى الحياة الواقعية . لكن الحق كما قدمنا أن هناك آلافا من عناصر الحياة الواقعية ، والحق أنه من المحال أن يجمع الكاتب أو الأديب هذه العناصر جميعا فى صعيد واحد . وليس على الكاتب أو الأديب بعد ذلك إلا أن يختار بضعة من هذه العناصر فيؤلف بينها جميعا حتى يحدث التوافق أو التوازن أو الانسجام الفنى ، سمّه ماشئت .

فبرنارد شو إذن أحد المسرحيين الذين كانوا يختارون بعض هذه العناصر . كان مؤلفو المسرح فى العصر الفكتورى الأول يختارون من العناصر ما يتفق وميول الأغنياء والمترفين ، وما يعبر عن بذخ الحياة ونعيمها ، وكثرة المال ووفرته ، وما يظهر القول المنمق والملبس المزخرف والمظهر الفتان ، وما يخفى الحقائق المريرة الكريهة ، وما يبدى الميول العامة السائغة . فالعناصر التى كان يختارها هؤلاء المؤلفون المسرحيون كانت تتفق والاتجاه الرومانسى الشائع ، وكانت تتصل بالقيم الخلقية التى سادت هذه الطبقة الوسطى التى كانت لا تعيش إلا بجمع المال . بل لقد كان الممثلون والمخرجون من أمثال هنرى إرفنج يحاولون اقتطاع أجزاء من مسرحيات شيكسبير حتى تتفق وميول السامعين والناظرين . أما شو فقد يختار عناصر مسرحياته من هذه النقائض التى اطلع عليها فى المجتمع . ووضعه النقيض إلى جانب نقيضه كان الأساس الأول للسخرية والدعابة والفكاهة التى امتاز بها .

وكان يقتضى مبدأ الاختيار هذا أن يرتب كاتب المسرحية أفكارا شاردة ويضعها فى نسق فنى خاص يكون له تأثير فى نفس القارىء أو المتفرج . ونقاد المسرح يميزون بين كاتب المسرح الممتاز وكاتب المسرح غير الممتاز بهذه المقدرة على ترتيب الحقائق المختارة . فاذا هى وضعت فى مواقف تدل على هدف معين فى المسرحية خرجت المسرحية وفيها عناصر الفن الجيد . بل يذهب ناقد مثل

بعض الناس ذرعا بهذا النثر الفياض ، لكن كثيرا منهم كان يستمع إليه ويدع نفسه على رسلها ، ويقدر بلاغته خير تقدير . ثم لقد كان يبدو فى مسرحياته وكأنما هو فى حرب أقلام مع قوم آخرين يعارضونه . لقد نشأ هذا الرجل على حب الكلام والمناظرة والمهاترة والحوار ، وقد نقل كل أولئك من صفحات الجرائد ورؤوس المنابر إلى ساحات المسارح . وفى هذا يحتقر برنارد شو كل الاحتقار ما يلجأ إليه بعض كتاب المسرحيات من أعمال يسمونها حوادث القصة ، ويحسبون أنها هى الواقع ، فقد يلجأ هؤلاء إلى سخافات فيها كثير من الأطماع والجرائم وسبل الانتقام وسوء التفاهم والقتال العنيف والثروات الموروثة والأولاد المفقودة والحرائق المشبوبة والوقائع الحربية والخيانات الزوجية والصواعق اللازبة ، وكل هذه لا تعدل عند برنارد شو أن تكون المسرحية مسرحية نقاش ، وأن تخلو من كل ذلك الهراء . لقد كان برنارد شو واقعى التفكير ، وحين كان يختار فانما كان يختار الحوادث التى تثير التفكير الواقعى قبل كل شىء . كان لا يلجأ إلى كل هذه السخافات التى ندّد بها ، وإنما كان يلجأ إلى نوع آخر من المظاهرة المسرحية التى تتفق وعقليته الديالكتيكية ، وحبه للخيال الشاطح ، وشغفه بالبهلوانية الفكرية ، و « الشيطنة العلمية » . لقد كان يلجأ فى أحيان إلى هذه الفانتازيا التى تحدثنا عنها فيما سلف . وكان فى سبيل السخرية والدعابة لا يتورع عن أن يلف كليوباترة فى بساط ليحملها صاحبه إلى يوليوس قيصر ، ولا أن يتخيل جون تانر فى الجحيم ، ولا أن يصور متشالح وقد تحول إلى عقل خالص فى ناحية من نواحى الجنة .

والمسرحيون يختلفون كثيرا فيما يحسنون من قواعد الفن المسرحى . فبعضهم يحسن التشخيص المسرحى كل الإحسان ، وبعضهم يحسن الحبكة المسرحية ، لكن برنارد شو كان يحسن الحوار الذى وصفناه لك . فهو فى هذه الناحية ملهم – كما قال – أو أنه موهوب يستطيع أن يسوق قصته فى سهولة ويسر ، وأن يجعلها سلسلة متصلة من الأحاديث . ولو كلف يوما أن يكتب

« إريك نتبلي » الى أن هذا هو الذى كان يحدث أيام العصر الذهبي لكتابة المسرحية عنـد الإغريق ، فلم تكن مآسى الإغريق إلا وقائع تتنـاقض بين الإرادة وما يمكن تحقيقه منها ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الأمل والنتيجة ، وهـذا ينطبق بدوره على مسرحيات « المشكلات » وهو ينطبق أيضـا على مسرحيات برنارد شو .

* * *

لقد أسلفت عليك أن برنارد شو كان يرى مع كتاب المسرحية الفكرية أن يكون فى المسرحية ثلاثة أجـزاء هى العرض والمشكلة ثم المناقشة فى هذه المشكلة . وأسلفت عليك أيضا أن الجزء الذى يحتوى هـذا النقاش كان عند برنارد شو وكتاب المسرحية الفكرية أهم هـذه الأجزاء . الوسيلة المثلى لهذا النقاش كانت الحوار ، فالحوار عنـده كان أهم عناصر المسرحية لأنه ينتقـل بعقل السامع من نقاش إلى نقاش ، ولأنه يشركه مع أشخاص المسرحية فى التفكير والتدليل والهجـاء والدعابة . وتظهر فى مثل هـذا الحوار نزعته إلى الإصلاح، ودعايته لمبادئه السياسيةوالاقتصادية ، ومذاهبه الدينيةوالاجتماعية. ويأتى بعد الحوار تشخيصه المسرحي ، وتأتى بعـد ذلك حوادث القصة التى يختارها . فبرنارد شو إذن لم يكن مقيدا بقيود خارجةعن إرادته ،كما أدعى، لكنه كان يختار العنـاصر التى يريد، وكان عليه بعد ذلك أن يلحظ كل هـذه الاعتبارات الفنية التى سقناها إليك .

ولكن هل كان برنارد شو يعنى فى خلال هذه الأجزاء الثلاثة بما يسميه النقاد « العمل » أو وقائع المسرحية أو حوادثها ؟ الحق أنه كان يؤمن بأن المسرح لم يخلق لتمثيل الأفعال أو القتال ، ولكنه خلق للـكلام .

وفى نفس الوقت الذى كان شيكسبير يعتمـد فيه على شعره ، كان يعتمـد برنارد شو على مقدرته فى كتابة النثر . كان يمتاز برنارد شو بهذا الفيض من الكتابة حتى لقد كان يغرى كل مستمع إليه بأن يستزيد مما يقول. وكان بيانه هو الذى يجذب العقول إلى مواصلة الاستماع إليه ، وتتبّع مايقول. وربماضاق

تاريخ العالم كما فعل هـ . ج . ولز لكتب تاريخ العالم فى شكل حوار بين الشخصيات التاريخية البارزة . فهو يستخدم الحوار لإيضاح فكرة تجول بنفسه أو لمناقشة مذهب من المذاهب . فالحوار هو العنصر الأول الذى يحسنه برنارد شو ككاتب مسرحى .

وقد ساعد على التمهيد لمثل هذا الحوار أنه لم يكن يقتصر فى كتابة المسرحية على فصولها ، بل كان يكتب لأغلب مسرحياته مقدمة طويلة ممعنة فى الطول ، كان يشرح فى هذه المقدمات وجهات النظر المختلفة التى كان يريد أن يظهرها فى هذه المسرحية ، فكأنما كان يريد أن يكون كاتبا مسرحيا وناقدا وصحافيا فى نفس الوقت . أما من حيث الصحافة فقد كان ينتهز فرصة كل مسرحية من مسرحياته فيكتب عن شأن أو شأنين مما يهتم به الناس عند تأليف المسرحية أو إخراجها . وكان يكتب بعض أحيان عن شئون تتصل بموضوع المسرحية من قريب أو عن شئون تتصل بموضوع المسرحية من بعيد . وكأنما كان فى هذه المقدمات يتابع مهنته الأولى كصحافى . وأما من حيث النقد فقد كان يريد أن يسبق بنقده كل النقاد الآخرين . لذلك كانت مجموعة المقدمات التى كتبها لمسرحياته من خير ما جاء به النقاد فى هذا الباب . على أنه فى هذه المقدمات أيضا لا يرى فى المسرحيات إلا وجهة نظره الشخصية ، فهو يدافع عن فكرته الخاصة بنفس الأسلوب الذى كان يدافع به عن وجهات النظر التى كانت تظهر فى مقالاته فى «الستردى ريفيو» . ثم إنه لم يترك هذه المقدمات من غير إيضاح أو بسط حين طبعت مسرحياته . فقد زاد بعض هذه المقدمات زيادة واضحة حتى يؤيد الفكرة التى تحتويها المسرحية .

وهذه المقدمات هى التى تجعل مسرحيات برنارد شو سائغة القراءة . فإذا حاولت أن تقرأها كمادة من مواد الفكر ، استطعت أن تدرك الفكرة وأنت تقرأ المقدمة ؟ ثم استطعت أن تساير الجدل أو الحوار أو النقاش الذى يطالعك فى صحائف المسرحية . فإذا أحببت بعد ذلك أن تراجع الفكرة فلا بأس من أن ترجع إلى المقدمة لتزداد الفكرة فى نفسك وضوحا .

خذ مثلا مسرحية « جان دارك » : إنه يكتب لهـذه المسرحية مقدمة يشرح فيها أمر جان دارك والخلق الذى كانت تتحلى به ، والفرق بينها وبين شيطان من شياطين الحرب مثل نابليون. وهو يقدّرها تقديرا كبيرا من حيث رجاحة العقل ، وقوة الحياة ، والإصرار على مبدئها ، ولا ينسى أن يَقدر جمالها ، ولا أن يضعها موضعها من المجتمع ولا أن يبسط الكلام فى الأصوات التى كانت تسمعها من وراء الحجب . ويمضى بعد ذلك فيورد تاريخ جان دارك كما قرأه فى بعض كتب التاريخ : فيتحدث عن القسوة التى لقيتها فى حياتها . ثم يخرج من ذلك إلى الحديث عن قسوة رجال الدين وعما كانوا يتخذونه من ذرائع لإحراق الشهداء من أمثال جان دارك .

بل خـذ مقدمة أخرى تتصل اتصالا وثيقـا بفترة من تاريخ مصر ، وهى فترة السنوات الأولى من القرن العشرين حين كانت بريطانيـا تحتل مصر باسم الإمبراطورية. لقد كتب برنارد شو مسرحيته «جزيرة جون بول الأخرى» وعالج فيها العلاقة بـين انجلترة وايرلنده ، لكنه فى مقدمته لهـذه المسرحية ـ وقد أسلفنا فنقلنا أجزاء منها ـ يتحدث عن حادث دنشواى حديثا خاصا فيفرد له جزءا كبيرا من هذه المقدمة . وهو فى حديثه عن دنشواى يذكر التفصيلات التى أحاطت بهذه الجريمة التى ارتكبهـا فى نظـره لورد كرومر وسيرادوارد جـراى وغيرهما من اليونكرز الإنجلـيز الذين كانوا يسعون للحـرب باسم الإمبراطورية . إنه يتحدث عن المتهمين المصريين ويذكر أسماءهم ويسخر من رئيس الحكـومة الذى باع شرفه وشرف إنجلـترة للاقتصاص من فلاحين مصريين كانوا يدافعون عن أنفسهم . فهذه مقدمة أخرى تطلع القارىء على ماينبغى أن يتوقعه حين يقرأ مسرحية « جون بول الأخرى » .

ويبدو لنا أن برنارد شو لم يكن يريد أن يضطلع أحد بتفسير ما أراد أن يكتبه . فقـد آلى على نفسه أن يفسّر ما ألفه فى مسرحياته . لذلك كان من اليسير علينا أن نعرف مايهدف إليه فى كل مسرحية من هذه المسرحيات . فلسنا أمام قصص لشيكسبير يختلف تأويلها باختلاف العصور أو باختلاف وجهات

النظر ، ولسنا أمام قصص لإبسن يلقيها إلى المسرح وحسبه أن يرى النظارة أنه أراد أن يحلل حياة البشر . وإنما نحن أمام مفكر قبل كل شيء ، يلقي فكرته ، ثم يمضي في المسرحية بعد ذلك يشرح فيها هذه الفكرة ، ويلم بأطرافها ويخلق شخوصاً تجادل فيها ، ثم إنه يستخدم الفن للدعاية ودعايته ظاهرة في كل مسرحياته لأنه يريد بدعايته الجادة المتصلة أن يغير من الخلق السائد وهو يقول في ذلك .

« إنني لست كاتباً مسرحياً عادياً بل أنا متخصص في كتابة المسرحيات التي تنبو عن أوضاع الخلق وتمتاز بالهرطقة . لقد كسبت شهرتي لأنني كافحت كفاحاً فيه كثير من الإصرار لألزم الناس أن يعيدوا النظر في أخلاقهم . إنني أكتب مسرحيات أريد بها عن قصد أن أكسب رأي الأمة وأضمّه إلى رأيي فيما يتصل بالأمور الجنسية والاجتماعية ، وليس عندي حافز آخر يدفعني لكتابة هذه المسرحيات ، إذ أنني لا أعتمد عليها في كسب الرزق .

* * *

وبرنارد شو يحفل بالتشخيص المسرحي كما يحفل كتاب الملاهي والفكاهات . وهو يخلق في قصته شخصيات متناقضة متضاربة . وكل واحد من هذه الشخوص يجادل في وجهة نظر تخالف وجهة نظر الآخر . هناك كثير من المناقشات بين طرز مختلفة متباينة من الناس . صاحب الملك الذي لا يريد أن يصلح المنازل التي يؤجرها للفقراء ، ووكيله الذي يحرص على أن يرضي ما بقي له من ضمير (١) ، وصاحب مصانع الأسلحة الذي يريد أن يتبرع بكسبه الحرام لجيش الخلاص (٢) ، وابنته التي تثور على جيش الخلاص نفسه حينما تعلم أنه قد قبل من أبيها بعض كسبه الحرام . والأستاذ الذي يريد أن يعلم فتاة من فتيات الشوارع فيجعلها سيدة محترمة ، وأبو هذه الفتاة الذي يريد أن يستغل هذه العلاقة فيطالبه ببعض المال (٣) والفتاة المجاهدة التي تريد أن

---

(١) منازل الأرامل

(٢) ميجر باربارا

(٣) بيجماليون

تنقد بلادها وأن تضع تاج الوحـدة على رأس الملك ، والملك الرعديد الذى لايستطيع أن يساعد هذه الفتاة (١) ، والقسيس المحترم الذى يأنس إلى زوجه ويعتقد أنها معجبة بفلسفته وعظاته، والشاعر الشاب الذى يقع فى غرام زوجة القسيس (٢)، كل هـذه شخوص من الناس متضاربة متخالفة وهى التى تؤلف عنصر الفكاهة المتصل فى مسرحيات برنارد شو .

وتبدو هذه الشخوص المتناقضة ، والتى يريد برنارد شو أن يعبث بها ويسخر منها لتناقضها ، تبدو هذه الشخوص فى المسرحيات السياسية التى بدأ برنارد شو تأليفها من سنة ١٩١٣ ولم يكد ينتهى منها إلى سنة ١٩٣٩ .

لقد كان برنارد شو يختـار دائما لهذه المسرحيات السياسيـة موضوعات سياسية عامة مما يهتم له العالم . ففى مسرحياته القصيرة الأولى تحدث عن الحرب العالميـة الأولى ، عن وليم الثانى فى « إمبراطور جـيرو سالم » ، وعن الثورة الشيوعية فى « الأميرة البلشفية » . وخلال الحرب العالميـة الثانية عالج الحكم البرلمانى فى « عربة التفاح » وتعرض لأسباب الحـرب فى « جنيف » ـ فماذا كان إذن يضحـك من كل ذلك ، وكيف جـول برنارد شو أمثال هـذه الموضوعات إلى ضحك ؟ لقد كان يختار شخوصا متباينة ، يحس القارىء أو المتفرج أنها متخالفة مع جو المسرحية . فهو يضع الإمبراطور وليم الثانى أمام سيدة من إنجلترة يتحدثان عن العلاقة بين شاربه وبين أخبـار الحرب ، وهو يأتى بأميرة فيجعلها أميرة بلشفية ، وهو يأتى بحديث بين شيكسبير وبين الملكة اليزابث الأولى ، وهو يضع نابليون أمام فتاة من فتيات الفنادق لتريه أن مجده الحربى لم يكن إلا هباء ، وهو يأتى بموسولينى وهتلر أمام عصبـة الأمم فى « جنيف » . كانت هذه هى الحيلة المسرحية التى يلجأ اليها برنارد شو ، وهذه الشخوص المتباينة المتناقضة فى الحياة العالمية كانت تخرج إلى المسرح للمناقشة

(١) سانت جون ــ جان دارك

Candida (٢)

والجدل والمحاجة ، ثم للتشخيص الكاريكاتورى الذى كان يمتاز به برنارد شو ويلذ للمتفرجين والسامعين .

على أن فى مسرحيات برنارد شو شخصا يمثل دائما برنارد شو نفسه . هناك شخص أو أكثر من شخص فى المسرحية الواحدة يتحدث فى المبادىء أو المذاهب أو الآراء التى سلمت لبرنارد شو . سوف نعالج فى كتابنا هذا معظم هذه الآراء من حيث الاشتراكية والدين والعلم والاجتماع والسياسة ، وسنعالج الإيمان الذى كاد ينتهى إليه برنارد شو قبل أن يموت وهو « قوة الحياة » ، وقد عالجنا فكرته عن الخلق وعن التربية وعن الزواج . وبرنارد شو كان يناقش هذه الآراء دائما فى مسرحياته . وكانت هناك شخوص تتناول تلك الأفكار وتناقشها ، وكان هناك شخص يمثل قوة الحياة أو الاشتراكية أو فكرة برنارد شو عن الدين أو العلم أو السياسة . وحول هذا الشخص كانت تلتف المناقشات . وقد أدرك المخرجون الأول من الروس هذه الحقيقة فأخرجوا « تابع الشيطان » فى صورة برنارد شو نفسه.

وهناك من هذه الشخوص مثلا قيصر نفسه فى « قيصر وكليوباتره » وجون تانر فى « الإنسان والإنسان الأسمى » وجان دارك فى قصة « سانت جون » ولارى دويل فى « جزيرة جون بول الأخرى » فكل هذه الشخوص وكثير غيرهم يمثلون التفكير اللماح ، والبهلوانية العقلية التى تخرج من قضية من الجدل إلى قضية أخرى ويمثلون الصراحة والتحدى ويلقون بأنصاف الحقائق فى أحيان ، وبالمبالغات الكاريكاتورية فى أحيان أخرى .

وهنا تثور أمام الناقد المسرحى مسألة سيدور حولها كثير من الجدل فى تاريخ المسرح الأوروبى فى القرن العشرين .

* * *

لقد كان برنارد شو من بعض نواحيه حلقة بين المسرحيين فى القرن التاسع عشر والمسرحيين فى القرن العشرين . كان قد اتبع آثار هنريك إبسن فى خلق

المسرحية الفكرية . وسوف تتطور هذه المسرحيةالفكرية فى القرن العشرين ـ حتى فى حيـاة برنارد شو نفسه ـ فيتناولها سلسلة كريمة من المسرحيين من أمثال ستر ندبرج وجان بول سارتر و برتولت برخت ، وسيكون الفكر هو المسيطر الأول على مسرحيـات هؤلاء جميعا لولا انهم يلجـأون إلى ضروب أخرى من التعبير الفنى .

والمشكلة التى تثور هنا هى : هل كانت المبـادىء والمذاهب والأفكار هى التى تحرك الرجال والنساء على خشبة المسرح ! ا هل كانت شخوص هـذه المسرحيات شخوصا مصطنعة ظاهر عليها الاصطناع المسرحى ؟ يرى بعض النقدة أن هـذا صحيح ، وأن كثيرا من شخوص برنارد شو تكاد تكون أبواقا للأفكار والآراء والمذاهب والمبـادىء التى يريد أن يعرضها فى حوار المسرحيةهذا ولم يجعل لشخوصه حياةحرة طليقة كشخوص تشارلز وشكسبير وموليير .

لقد كلفنا أنفسنا أن نبحث هذه الأفكار والآراء والمذاهب والمبـادىء فيا يلى من صفحات هذا الكتاب اننا . وقد أتينا على التطور الفكرى عند برنارد شو سنقسم آراءه وأفكاره إلى أقسام خمسة :

القسم الأول هو وظيفته كناقد اجتماعى ،والقسم الثانى آراؤه الاقتصادية، والقسم الثـالث آراؤه السياسية ، والرابع آراؤه الدينية ، والخامس مبـدؤه الفلسفى وقد اطلقنا عليه « قوة الحياة » ، والحق أننا نرى بعد ان استعرضنا هذا التاريخ الفكرى الفنى أن أفكار برنارد شو تقع عنـدنا فى هذه الاقسام الخمسة : وأن مسرحياته نفسها لاتكاد تعدو هـذه الفئات الخمس . وسنعرض لكل ذلك بعد أن ندرس موقفه من العلم .

ولا نريد أن نعدد لك مسرحيات كل قسم منها ، فقد حاولنا أن نشير إلى ذلك فى غير موضع من هذا الكتاب ، ولكن ينبغى أن نذكر هنا أنه لم يكن من اليسير البتة أن ننتهي إلى ما انتهينا إليه من كشف هذه الآراء وضمم إلي

بعضها إلى بعض ، وقد كان هـذا عسيراً كل العسر لأن آراءه حين تلقى على المسرح كانت تذكر وأمامها نقائضها ، ومن الصعب عـلى الباحث فى أفكار تلقى على المسرح أن يدرك أيها كان المقصود وأيها غير مقصود . ثم إن هذه الآراء متشابكة متلاحقة ، وتلتف فى أحيان فى خيال تمثيلى ، بل لقـد يلفها فى نكات أودعابات ساخرة أو خيال شاطح أو ما يسمونه « فانتازيا » ، يحار الإنسان أمامها هل هو يقصد الجد أم يقصد مجرد الهزل ، ثم إن برنارد شو نفسه كان يترك المشكلات التى يثيرها من غير أن ينتهى فيها إلى حـل ، بل هو يقصد ألا تنتهى إلى حل — فكل هـذا يوجه الباحث إلى أفكار بعينهـا ينسبهـا إلى برنارد شو . وكل ما فعلناه وسنفعله فى هـذا السبيل لم يكن إلا اجتهادا .

ويرى أريك نبتلى صـاحب كتاب « كاتب المسرحية كمفكر » وقـد أشرنا إليه غير مرة ، أن مسرحيات برنارد شو تختلف كثيرا عن بعضهـا البعض ، فليست هى على نمط واحد . ويقسم أريك نبتلى هذه المسرحيات إلى عصور أربعة وعنده أن العصر الأول لمسرحيات برناردشو يقع بين سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٨٩٩ ، وعنده أن برنارد شو لم يخرج فى كتابته كثيرا عما كان يفعله كتاب المسرحية المعاصرون ، فقد تمسك بالأنماط الفكتورية على الرغم من ثورته عليها .

أما العصر الثانى فيقع بين سنة ١٩٠١ إلى سنة ١٩١٣ ، وهنـا يجنح إلى تغيير الأنماط المسرحية وينزع الى الاستقلال ، ويبالغ فى الحـوار ويكون متفائلا أشد التفاؤل فيكتب « الإنسان والإنسان الاسمى » وينتهى بمسرحية « بيجماليون » .

أما العصر الثالث فيبدأ من سنة ١٩١٣ وينتهى فى سنـة ١٩٢٤ وتشوبه حالة من الذعر والتشـاؤم وخيبـة الأمل ويبـدأ « بمنزل الأسى » وينتهى « بجان دارك » .

وأما العصر الرابع فيبدأ بسنة ١٩٢٩ وينتهى سنة ١٩٣٩ ، وفيه أفاض فى كتابة مسرحيات كانت كلها مناقشات، وكان أغلبها « مساخر» سياسية أعمل فيها دعابته ونكاته وخياله الشاطح ، لكنه لم يكن فيه متفننا مبدعا .

ذلك هـو التقسيم الذى رآه اريك نبتلى .أو جزناه لك حتى نلقى عـلى مسرحيات برنارد شو ضوءا حديثا جديدا . ولكن على الرغم من كل ماجاء فى مثل هذا التقسيم، فقد كان هدفنا من هذا الكتاب أن نتابع تاريخ برنارد شو الفكرى — وقد سايرنا هذا التاريخ الفكرى فعلا حتى أوفينا على فنه المسرحى. وعالجنا اتجاهاته فى نقد المجتمع وقـد بقى أن ندرس اتجاهاته فى الاقتصـاد والسياسية والدين والفلسفة .

فاذا نحن انتهينا الى شىء فى كل واحد من هذه المجالات ، وإذا نحن أخذنا فى الاعتبار ماقدمناه من اتجاهات برنارد شو فى التأليف المسرحى من حيث المسرحية الجديدة ، ومسرحيات الفكر ، وأوضاع المسرح ، كان ذلك كفيلا بأن تحلل أية السرحية من مسرحيات برنارد شو .

* * *

على أنه لايمكننا أن نتم هذا الحديث عن فن برنارد شو المسرحى من غير أن نوجز لك موازنة يحلو لبعض النقاد أن يعقدوها بين برنارد شو وموليير. وقد رأيت أن برنارد شو يعتمد على الضحك وهو يعلم أن الضحك فى نفسه علاج لكثير من الأدواء الاجتماعية التى تصيب النـاس . فلابد أن يضحك الناس حتى ولو أدى به الأمر الى التهريج فى بعض الأحيان . لذلك تبـدو علائم الهزل على كل مايكتبه برنارد شو مهما بلغ موضوعه من الخطر . إنه أيضا ذلك البهلوان الذى يتجسد فى القصص وفى طريقة التعبير والتفكير. ولاشك أن هذا البهلوان المفكر يجد جوا ملائما اشخصيته ونفسيته حين يكتب الملاهى والمهازل والأضاحيك . وكان موليير قـد عاش قبله فى القرن السابع عشر وكان لموليير مثل مكانته فى تاريخ الملهاة الفرنسية .

حاول أوجستين هامون سنة ١٩١٣ وما بعدها أن يوازن بين الفن المسرحى عند برنارد شو والفن المسرحى عند موليير . وكان أوجستين هامون ناقدا من نقاد الأدب الفرنسيين ، اختص هو وهنريت هامون بدراسة برنارد شو ، وتوفر هو وصاحبته على ترجمة مسرحياته فهو صادق النظرات فى هذه الموازنة بين موليير وبرنارد شو .

وقد رأى أن الكاتبين المسرحيين يتفقان فى هذا الذى تحدثت به إليك من حيث نقد المجتمع ومن حيث الاعتماد على الجدل والمناقشة فيما يتصل بمسائل الحياة العامة . كذلك يشتركان فى أنهما يكتبان لغة للحوار بلغة التخاطب التى يتحدث بها الناس فى حياة كل يوم . وهى لغة تمتلىء بالنكات ، أما فى التشخيص المسرحى فهما متشابهان أيضا لأنهما من كتاب الملاهى ، وكتاب الملاهى يلجأون دائما إلى تشخيص طرز من الناس . وقد استطاع موليير أن يصور لنا « البخيل » و « المنافق » و « الغيران » واستطاع برنارد شو أن يصور لنا طرزا أخرى مثل « الثائر » و « الاشتراكى » و « صاحب رأس المال » و « الطبيب » وفى هذا التشخيص المسرحى يكمن الهجاء الخفى عند برنارد شو و « موليير » على السواء .

كذلك تستطيع أن تتبع بعض وجوه الشبه الأخرى بين الاثنين فى عدائهما للنزعة الرومانسية ، وفى كفاحهما ضد مظاهر النفاق ، وفى نقدهما النظم السياسية والاجتماعية القائمة . وكذلك يشتركان فى كثير من أوضاع الفن ، فهما لا يؤمنان بالأوضاع المفروضة بل يتبعان فى كتابة المسرحيات طريقة خاصة يخلطان فيها الجد بالهزل والخطير بالحقير . كأن كلاهما يرى الجانب المضحك من حياة الناس ، فلم يكونا يستسلمان لهواجس المحبين ولا لنزوات أصحاب السلطة . فمسرحيات موليير وبرنارد شو خليط من بكاء يشبه الضحك وضحك يشبه البكاء .

ويبقى بعد ذلك أن أسلوب برنارد شو فى مسرحياته كان كأسلوب موليير ، يعتمد كل الاعتماد على الجدل . ويبقى بعد ذلك أيضا أنهما يعالجان

كل موضوع من الموضوعات بطريقة تستدعي التفكير ، لكنهما لا يرجحان رأيا على رأي ، ولا يثبتان على رأي دون رأي. بل هما يزيدان الموضوع تفكيرا وتدليلا وبينة وبرهانا ، حتى يصل القارىء أو السامع أو الناظر إلى النتيجة التي يراها . ويعجب القارىء بعد ذلك ماذا أراد الكاتب بعرض الموضوع كما عرضه ويدهش لتفنيد كل رأي ، ونقد كل مذهب ، ولكن الحق أن برنارد شو ومن قبله موليير كان يريد أن يفكر الناس تفكيرا منطقيا ، وكان يحاول أن يضع لهم أصول المناقشة والمحاجة، وتستطيع أن تحس دائما شخصية برنارد شو وهي تناظر وتناقش ، فروجه المجادلة قد تتقمص شخصا بعينه كما كما قدمنا ، وقد تروح وتغدو على المسرح بين شخص وشخص ، وهكذا ترى نفسك في جو من النقاش المتنقل المتغير طوال المسرحية . وقد يشقى بهذا النقاش قوم لأنهم يبرمون به ولا يحبونه ، وقد ينعم به آخرون لأنهم يجدون فيه متاعا فكريا قد يراه بعض الناس كريها يدعو إلى الملال ، وقد يجده الآخرون ممتعا فيضعونه إلى جانب التفكير الراقي . وكل ذلك قد حدث لمسرحيات موليير .

* * *

تلك خلاصة الموازنات التي عقدها أوجستين هامون بين برنارد شو وموليير سنة ١٩١٣ وما بعدها . ولا بد أنها كانت تمتاز بالجدة في هذه الحقبة التي كتبت فيها . لكننا نوازن بين الاثنين من نواح أخرى فنرى كثيرا من أوجه الخلاف بين الكاتبين . ولعلها أن تكون أوجه خلاف دقيقة لم تكن تظهر في ذلك الحين لناقد مثل أوجستين هامون . أما أول وجه من وجوه الخلاف فهو أن موليير كان يختار شخصياته مما هو خاص وينتهي بها إلى ما هو عام . كان موليير يعنى بالدقائق الصغيرة في حياة الناس وفي حديثهم وفي نكاتهم حتى ينتهي بذلك إلى تصوير شخصية خاصة لها أبعاد خاصة تحددها . ثم إذا برزت تلك الشخصية على المسرح أدرك النظارة أنه يمكن أن تكون هذه الشخصية عامة لأنها تمثل فريقا كبيرا جدا من الناس الذين يضطربون حولها.

أما برنارد شو فقد كان يبدأ بشخصية عامة ثم مايزال بها حتى يزيدها تحديدا وتخصيصا . وكذلك قل عن الموضوعات التى كان يختارها هذا أوذاك ، فالأول كان يختار موضوعات خاصة يعممها ، والثانى موضوعات عامة يحددها ويخصصها . الاثنان يعنيان بنقد المذاهب السياسية والدينية والاجتماعية لكن الأول يبدأ بموضوع خاص من هذه المذاهب أما الثانى فيبدأ بالمذاهب العامة أولا . الأول ينقد نقدا غير مباشر والثانى ينقد نقدا مباشرا .

وقد كان لهذا الاختلاف بين الاثنين أثر كبير فى طريقة الحوار عند الاثنين . فعلى الرغم من أن موليير كان يكتب شعرا وبرنارد شو نثرا إلا أن موليير كان أطوع من برنارد شو فى كتابة الحوار ، فان جواره كان أقرب إلى طبائع الناس وخصائصهم من برنارد شو . ذلك بأنه كان يعلم أن الحوار أداة من أدوات التخصيص والتحديد . وهو كان يبدأ كما قلنا بالتخصيص والتحديد .

لحظ هذا الخلاف بين الكاتبين ناقد إنجليزى اسمه جيمس بريدى فعقد موازنة طريفة بين مسرحيتين من مسرحيات موليير ومسرحيتين أخريين من مسرحيات برنارد شو. أما المسرحيتان الأوليان فهما مسرحية «عدو المجتمع» لموليير ومسرحية « الزواج » لبرنارد شو وأما المسرحيتان الأخريان فهما مسرحية « الطبيب العاشق » لموليير و« ورطة الطبيب» لبرنارد شو ــ وقد ذهب بريدى فى تحليله لهذه التمثيليات الأربع إلى أن موليير كان أعلم بما يفعله الناس فى الحياة العامة من برنارد شو ، وإلى أن مسرحيتى موليير أكثر تماسكا من حيث القصة والصياغة من مسرحيتى برنارد شو .

* * *

تلك نهاية حديثنا عن الفن المسرحى عند برنارد شو. وقد بدأنا بأن فصّلنا الاتجاه الفكرى الذى اتجه إليه كتاب المسرحيات فى أوربا ثم فى إنجلترة . ثم حددنا الحديث عن اتجاه برنارد شو من حيث التفكير والمناقشة ، ثم الضحك

والفكاهة . ووقفنا بك عند موازنة بين برنارد شو وموليير . وكان ينبغى ألا ننتهى من هذا الحديث إذا نحن حاولنا أن نوازن بين برنارد شو وغيره من كتاب الملاهى فى القرن العشرين . فقد تطور الفن المسرحى تطورا سريعا ودخله الرمز والتعبير والسريالية ، لكن لذلك حديثا آخر ليس مما نريد أن نورده فى هذا الكتاب .

(٥)

قراءاته في العلم

كان برنارد شو صديقا لكثير من الأدباء والعلماء والمفكرين في عصره سواء أكان هؤلاء في إنجلترة أم خارج إنجلترة . كان محببا إلى كثير من الناس يصافيهم الود ويشاركهم الفكر، وكانت شخصيته مرحة جذابة ، وكان يتمتع بكل الخلال التي ينبغي أن يملكها الصديق الصدوق . بل كان له خصوم يضايقهم ويضايقونه ، لكن هذه الخصومة لم تولد إحنا ولا حزازات ،ولم تخلف عنده إلا غضبا موقوتا يكاد يفتعله بعض أحيان . وقد صاحبته هذه الخلة ـ خلة الصداقة ـ حتى بلغ من الكبر عتيا ، فلم يكن ينسى أصدقاءه وكان يحنو على صغار الكتاب والأدباء يمهد لهم الطريق، وكان يأخذ بيد المتعطلين من الممثلين أو المؤلفين ، فالصداقة طوعت له أن يختلط بالفابيين من أمثال سدنى وب ، وبالاشتراكيين من أمثال وليم موريس ، وبخصومه في الفكر من أمثال آرثر جونز و ه . ج . ولز . لكن شو إلى جانب كل هذه العلاقات الشخصية أنشأ لنفسه « صداقات » من قراءاته المتعددة . كان يقرأ كل ماتصل اليه يده خاصا بالعلم أو الأدب أو الدين ، ولذلك فقد كان يعلم من أمر كبار الكتاب والعلماء والأدباء مالم يكادوا يعلمونه عن أنفسهم ،كان يقرأ لإبسن واستطاع أن يفسر مسرحياته بما لم يستطعه إبسن نفسه ـ وأصبح بذلك صديقا لإبسن . وكان يقرأ لتولستوى وأناطول فرانس وتشيكوف واميل زولا وهنرى برجسون، وأصبح أيضا صديقا فكريا لهولاء . وكان يقرأ عن باستير وبافلوف وغيرهما من أهل العلم فأصبح صديقا أيضا لهؤلاء وإن اختلف معهم . كانت هذه الصداقة الفكرية هي التي واتته في كتاباته المسرحية وفي تآليفه التي بدأ بها في سنة ١٨٩٢ ، وظل ينتجها حتى توفى في سنة ١٩٥٠ .

في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر والأولى من القرن العشرين

كان برنارد شو يعلّم نفسه بنفسه . فكان ناقداً ومؤلفا مسرحيا ، لكنه كان مغامرا فى عرض أفكاره . وكان فى هذه المغامرات الأدبية يعدل من أفكاره وآرائه وعقائده ، أو قل ينميها ويزيدها تمكينا . كان يمر بفترة مر بها غيره من الأدباء : فترة تلقى فيهـا آراء أخرى وأفكاراً أخرى ، فعدل من آرائه وأفكاره ، ونسخ بعضها ، وأثبت بعضها الآخر . وحين كانت تجتمع له صفوة من هذه الأفكار والآراء والعقائد كان يحاول أن يعبر عنها وأن يدعو الناس إليها ، وقد استطاع أن يفعل ذلك فى حياته الأدبية الطويلة التى عاشها . لكننا قد نسىء فهمه إذا لم نقدر هذه الصداقة الفكرية التى قامت بينه وبين جبابرة الفكر فى عصره وإذا لم نتبين أن هذه الصداقة الفكرية كانت قائمة على هذه القراءات التى بنى بها لنفسه ثقافة ثابتة ترتكز عليها حياته الأدبية .

* * *

وهنا ينبغى أن نقف وقفة أخرى نقدر فيها أثر العلم فى الأدب أو قل ينبغى أن نلقى نظرة عابرة إلى تاريخ الأدب من حيث تأثره بالعلم . وقد تعرف أن كثيرا من الأدباء تأثروا بالكشوف العلمية حتى قبل أن تميز العلوم وتقسم إلى فصائل ، وقد تعرف أن رجالا من أهل الغرب مثل روجر بيكون وفولتير وبرتراند رسل و هـ . ج . ولز لم يكونوا يفرقون كثيرا بين العلم والأدب ، وأن رجالا آخرين من أهل الشرق العربى ساروا فى مثل هذا الاتجاه وكان منهم الجاحظ والفارابى وابن رشد ، وقد كان من أولئك برنارد شو نفسه . فهو قد قدر العلوم الناشئة فى منتصف القـرن التاسع عشر ، وهو قـد درس دارون ونظرية النشوء والارتقاء ولما يبلغ السادسة عشرة ، وهو قد درس أعمال باستير ونظرية التطعيم ضد الأمراض المعدية ، وهو قد درس نظرية بافلوف عن الأفعال المنعكسة عند الحيوان ، وهو قد عرض أيضـا تشريح الحيوان وتقطيع أوصاله فى المعـامل والمختبرات العلمية . درس كل ذلك وحاول أن يتحدث عنه فى مقالاته وكتبه ومسرحياته ومقدماته وخطاباته . وخرج من كل ذلك بجملة وردت فى مقدمة مسرحيته « ورطة الطبيب» حيث قال «إن كل المشكلات هى فى النهاية مشكلات علمية » .

كان برنارد شو من هؤلاء الأدباء العلميين الذين تفتحت أذهانهم لكشوف العلم ، لكننا نخطىء إذا حسبنا أنه كان « علميا » بأدق ما تعنيه هذه الكلمة. كان على حد قول بروفسور برنال « يتمتع بفهم صحيح يكاد لا يبذل فيه جهداً ، وهذا الفهم يصل به إلى تشكك بديهى هو نفسه الأصل فى التقدم العلمى . كان يرفض كل القضايا الضخمة الجوفاء التى تفرض عليه مهما بلغت من تأييد الثقاة العلميين ، وكان لا يقبل بأية حال من الأحوال إلا ما يرى أنه بسيط ومستقيم وقائم على أساس من الحق » . وهذا الذى قاله الاستاذ برنال يميز كتابات برنارد شو عن العلم . وهو أيضا يذكرنا باتجاهات برنارد شو الناقد نحو المسرح والأدب والاقتصاد . ولكن فلنحذر أن نتخذ آراءه على أنها آخر كلمات العلم .

كان اتجاهه إلى نظرية النشوء والارتقاء مثلا من أمثلة هذا التشكك البديهى الذى رآه فيه برنال. فهو لم يكن يستطيع أن يحيط بكل ما كتب من « التطور » ولم يعن بدراسة « أصل الأنواع » دراسة علمية دقيقة ، ولم يهتم بنظرية « البقاء للأصلح » اهتماما علميا دقيقا . لكنه نقد كل ذلك من حيث وقعه الاجتماعى والسياسى فحسب. ويدلنا تاريخ حياته على أنه قرأ « أصل الأنواع » لتشارلز داروين وهو فى السادسة عشرة ، أى أنه تأثر بنظرية النشوء والارتقاء وهو ما يزال يافعا. ويدلنا تاريخ حياته على أنه قرأ كتاب « رأس المال » لكارل ماركس وهو فى سن السادسة والعشرين أى بعد أصل الأنواع بعشر سنين. لكنه بنى كثيرا من آرائه الاجتماعية على خليط معقد من هذين الكتابين . والحق أن نظرية التطور بصرف النظر عن موقعها من العلم - كان لها أشد الأثر فى الاقتصاد والسياسة والأدب. فقد أحدثت ثورة فيما يختص بموضع الإنسان من الخليقة ، وأوحت إلى الإنسان أنه سيد هذه الخليقة وأنه يستطيع أن يتصرف فى ظروفه وأن يمهد لمستقبله ، فهى منذ الانقلاب الصناعى قد جعلت الإنسان يبدو وكأنه سيد هذه الأرض ، وجعلت الحياة تبدو مادية فبنى عليها المذهب المادى ، ثم كشفت عن مبادىء أخرى فى حياة الإنسان . فنحن نتحدث الآن عن تطور المدنية ، وتطور اللغة ، وتطور النظم الديمقراطية ، وتطور الدين . وهى قد حملت

أهل الاقتصاد على الاقتناع بأن العالم متغير ، وأقنعت أهل السياسة بأن فى الحياة كفاحا دائما ، كما أنتجت نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الأدب وفى تطور النقد بل وفى كتابة التاريخ العام نفسه فكان الأثر الاجتماعى والسياسى والاقتصادى — لا الأثر العلمى — هو الذى يميز تأثر برنارد شو بنظرية التطور .

* * *

وهو قد فعل فى «أصل الأنواع» ما فعله فى كتاب «رأس المال» لكارل ماركس : أى أنه قرأه ووعاه ووازن بينه وبين غيره من الكتب التى قرأها ، ثم خرج منه بمذهب آخر هو مذهب «التطور الخالق» الذى سرى فى كل كتاباته . كان دارون وأتباعه ينظرون دائما إلى التطور كأنه شىء مفروض من الوسط الذى يعيش فيه الكائن العضوى . ولكن شو — ومدرسة أخرى من مدارس الفكر — كان يرى فى التطور شيئا منبثقا من داخل الكائن العضوى: شيئا يمت بأسباب كثيرة إلى «الإرادة» أو «السعى» أو «الاشتهاء» التى يمتاز بها هذا الكائن وقد سمى ذلك «قوة الحياة». ثم إن الإنسان عنده أكبر كائن عضوى يملك هذه الإرادة ، وهو أقوى كائن عضوى يستطيع أن يسعى ثم هو أكثر اندفاعا إلى أن يحقق ما ينفعل فى نفسه من «قوة الحياة» .

وكذلك عدل شو من مذهب التطور الخارجى إلى مذهب آخر للتطور الداخلى . فهو قد رأى كما قدمنا أن التطور الحق هو الذى ينبثق من الداخل لا ذلك الذى يفرض على الكائنات العضوية من الخارج . وسيمضى شو فى كتاباته ومسرحياته يتحدث عن «قوة الحياة» وعن «التطور» الخالق حتى تظهر كتابات هنرى برجسون (ولد سنة ١٨٥٩) فيكون برجسون هو صاحب مذهب «التطور الخالق» . ويمضى الفيلسوف برجسون فى إنشاء مذهبه من النواحى العلمية والفلسفية ، لكن برنارد شو يمضى فى التحدث عن «الإرادة» وعن «قوة الحياة» فى أدبه ومسرحياته . ويتحدث هنرى برجسون عن قوة أخرى «تلهم» الكائنات الحية وتسرى فيها سريان التيار

الكهربائى وهو ماسماه « الدفعة الحيوية (١) » لكن برنارد شو يكتفى بأن يسمى ذلك « قوة الحياة » .

ثم ينتقل برنارد شو بعقيدته فى التطور الخالق من الأفراد إلى الجماعات فيذهب إلى أن لكل جماعة من الناس « إرادة » أو « قوة حيوية » أو « سعيا » إلى ما هو أرقى . وأن الجماعات أو الشعوب أو الأمم سوف تتطور إلى ماهو أحسن إذا ما أستوت لها هذه الارادة أو القوة الحيوية أو السعى ولن يكون ذلك إلا إذا كونت لنفسها ـ رأيا عاما موحدا . لذلك كان هو دائما متفائلا فيما يتصل بالمستقبل ، ولذلك كان عطوفا على الشعوب المتخلفة أو المهيضة الجناح . ولاشك فى أن عقيدته فى التطور الخالق هى التى أنشأت عنده هذا العطف على الضعيف أو المظلوم أو الفقير سواء أكان ذلك فى الأفراد أم الجماعات .

* * *

وفى هذه المرحلة من مراحل بحثنا ينبغى أن نذكر أن برنارد شو كان متأثرا فى حياته الشخصية بهذه العقيدة فى محاولة ترقية نفسه بنفسه ، وسعيه إلى التطور والإصرار على إصلاح نفسه بنفسه. كان كأنما هو نفسه أداة من أدوات التطور الخالق . جاء فى بعض ماكتبه فى « الإنسان الأسمى » ماينطبق عليه هو نفسه شخصيا كعضو حى وكإنسان وكمفكر : « أقول لك إننى مادمت أستطيع أن أكون شيئا أفضل من نفسى ، فلن أستطيع الوقوف حيث أنا ، بل سأقدم للعالم إنسانا أفضل ، ولن أدخر وسعا فى سبيل ذلك . هذه هى السنة التى تمضى فيها حياتى : إنه هو الطموح الذى مايزال يساورنى ولايقر لى معه قرار . إنه هو قوة الحياة التى تدفعنى إلى السعى وراء حالة أرقى وأعمق مما أنا فيه الآن ، وهى التى تدفعنى أيضا إلى أن أدرس نفس بنفسى دراسة عميقة وأفهمها فهما تاما . لقد كان لهذا المبدأ أبلغ الأثر فى نفسى :

---

(١) Elan Vital

فقد جعل الحب عندى فترة أقضيها فى متاع النفس ، وجعلنى أرى فى العمل الفنى نموا لمواهبى ، ولا أرى الدين السائد إلا ذريعة للتكاسل ، فقد صور لنا هذا الدين إلها نظر إلى العالم فقال : هذا حسن ، وهذا على العكس مما طبعت أنا عليه ، فاننى أنظر إلى العالم فأرى أننى أستطيع إصلاحه » .

* * *

وإذا كان برنارد شو قد نظر إلى فكرة التطور هذه النظرة الشاملة التى أخرجتها من حيز العلم الموضوعى إلى حيز الاقتصاد والاجتماع والفلسفة بل وإلى حيز الدين أيضا ، فقد نظر إلى الطب مثل هذه النظرة . وقد كان العلماء فى الحقبة الأولى من القرن العشرين يكشفون كل ما يتصل بالجراثيم . وانتهوا بعد كشوف باستير إلى أن كل مرض لابد أن يكون سببه جرثومة من هذه الجراثيم ، ثم انتهوا أيضا إلى أنه لابد من التطعيم ضد هذه الأمراض . وظل العلماء يكشفون مختلف أنواع الطعوم التى استخدموها ضد الجدرى والكلب إلى غير ذلك . وأصبح للأطباء بعد ذلك سلطة لا يكاد يماثلها إلا السلطة التى للسحرة ممن عاشوا فى قبائل ما قبل التاريخ . ذلك لأنهم اتخذوا من هذا العلم وسيلة للمال والغنى والجاه . أما شو فقد نظر إلى كل هذا نظرته الاجتماعية الفاحصة . وحاول وبخاصة فى مقدمة مسرحيته « ورطة الطبيب » أن يناقش موضوع الطب بحذافيره على أساس أن هؤلاء الأطباء يتكلفون من العلم مالا يفيد ، وعلى أن صناعة الطب نفسها ينبغى أن تتطور تطورا اجتماعيا شديدا حتى يمكن أن يفيد .

ولم يكن برنارد شو ناقدا علميا ولا موضوعيا — كما حاول أن يزعم — حينما ناقش العلوم الطبية ، بل لقد كان ناقداً اجتماعيا . فقد أنكر أن يكون للتطعيم هذه الفائدة التى كان يذيعها عنه أصحاب الطب فى عصره . بل لقد كان يجد أن هذه العملية تدخل فى حرية الفرد ، وأن القائمين بها قد يزيدون المريض مرضا من حيث أرادوا علاجه ، وأن المسألة فى أحسن الظروف موكولة للصدفة وحدها ، بل لقد أظهر فى مسرحيته أن بعض الأطباء يستعملون

هذا « الدجل » حتى يكثروا من مكاسبهم ، وأن العامة والخاصة على السواء مخدوعون فى هذه الألقاب العلمية الرنانة التى يدعيها بعض هؤلاء الأطباء .

إن ألد أعداء الصحة عند برنارد شو لهو الفقر . ولم يكن يؤمن أن العناية الطبية فى العصر الذى عاش فيه كان يمكنها أن تقاوم المرض . فان الأطباء كانوا يفرضون على المرضى الأجور الباهظة . ولم يكن يستطيع أن يصل إلى علاجهم الموهوم إلا الأثرياء من المرضى ، أما الفقراء فلم يكن هناك سبيل إلى علاجهم . وكذلك لمس برنارد شو موطن الداء من هذا البناء الاجتماعى الذى رآه ، وتنبأ بالحل الذى رأته إنجلترة بعد أربعين سنة حينما أممت مهنة الطب وجعلت الخدمات الطبية نفسها مشاعا للجميع ، وأمنت الناس ضدما كان يدعيه الأطباء من علم وما كانوا يفرضونه على الناس من مال .

كان شو يكره من الأطباء أن يلبسوا مسوح الرهبان والسحرة وأن يحيطوا مهنتهم بسياج من الطلاسم والأسرار . وكان فى نقده لهم لا يتحرج من أن يذكرهم بالشعوذة التى كان يقوم بها أسلافهم من أطباء القرون الأولى. وهنا ينبغى أن نذكر أن برنارد شو كان يكره السلطة فى كل مظاهرها ، لقد كان يكره سلطة الكنيسة وسلطة المتدينين ، كما كان يكره سلطة العلم وسلطة المتعلمين . وكان لا يرضى بذلك التقديس الذى أحاط به أهل عصره رجلا مثل باستير ، وكان يتهكم بالنتائج التى وصل إليها بافلوف حين خرق أشداق الكلاب ليسيل منها لعاب يبرهن به على نظرية الأفعال المنعكسة ! ! وكذلك نرى أيضا أننا لانستطيع أن نحمل نقدات برنارد شو على أنها نقدات موضوعية علمية ، ولكن حسبنا أنها كانت نقدات اجتماعية كان لها جانب ثورى تطور أخيرا وأصبح له وزن فى حياتنا الاجتماعية .

* * *

هذا الاتجاه نحو علم الطب وذلك الاتجاه نحو فكرة التطور يلتقيان فى نظرة شاملة كانت لبرنارد شو طوال حياته . فانه كان يجمع العالم كله فى

وحدة تؤلف بين الإنسان والحيوان . كان يؤمن برنارد شو إيمانا عميقا أن بين الإنسان والحيوان وحدة مادية لاسبيل إلى انفصامها وأننا إذا حاولنا أن نكون آدميين فينبغى أن نكون كراما مع الحيوان الأعجم قبل أن نكون كراما مع إخواننا من بنى البشر . كان هذا هو المنطق الذى تستطيع أن تستشفه من وراء تعففه عن أكل لحم الحيوان وتمسكه بالغذاء النباتى . وكذلك كان هو المنطق الذى حاول أن يستخدمه حين كان يبرهن على أن الإنسان أشد قسوة من الحيوان نفسه .

قال فى إحدى مقدماته : « لقد انتهيت أخيرا إلى أن بينى وبين الحيوان إحساسا من النسب أعظم مما يحسه أغلب الناس . إنه ليؤنسنى أن أتحدث إلى الحيوانات بلغة خاصة ابتكرتها بنفسى لأتحدث إليهم بها ، ويخيل إلى أنهم يأنسون إذ أتحدث إليهم ، وأنهم يستجيبون إلى نغم الحديث ولو أنه قد يفوتهم بعض مافيه من أفكار . . . إننى أشعر أنه من المحال أن أرتبط بالحيوانات على أية صورة غير هذه الصورة . » وكذلك حرم أكل الحيوان وأصبح نباتيا ، وكذلك نقد نقدا شديدا أولئك العلماء الذين كانوا يجرون التجارب العلمية بتشريح الحيوانات وتعذيبها وتجويعها وتقطيع أوصالها وهى حية (١) .

احتج برنارد شو احتجاجا شديدا على أولئك العلماء الذين كانوا يستخدمون مباضعهم فى تقتيل الحيوان وتعذيبه وهو حى . وقد كان بعضهم -ولايزال- يضع الحيوان تحت مؤثرات من الجراثيم أو الأهوية الفاسدة أو الغذاء القاتل أو الجوع المضنى أو غير ذلك حتى يصلوا إلى نظريات فى الغذاء أو العلاج أو أصل المرض . وعلى الرغم من أن مثل هذه التجارب قد أوصلت العلماء إلى نتائج علمية عدة إلا أن برنارد شو لم يكن يؤمن بالأساس الإنسانى الذى بنيت عليه . كان يؤمن بأن لهذه الحيوانات حقا فى أن تعيش وأن على

---

(١) : Vivisection

الإنسان واجب رعايتها والرفق بها . فهو لم يكن يفرق كثيرا بين استعمال القسوة فى تقتيل الإنسان وإحراقه وتجويعه وبين استعمال القسوة فى تعذيب الحيوان وقتله وتجويعه وهو حى .

ويناقش برنارد شو فكرة العلماء فى ذلك : فهم يبررون مثل هذا المسلك بأن يقولوا أنهم إنما يلجئون إلى ذلك خدمة للعلم وفائدة لبعض بنى البشر . إنهم يقتلون الحيوان ويعذبونه ويقطعون أوصاله ويحقنونه بمختلف الجراثيم حتى يدركوا أنواعا من المعرفة تفيدهم فى علاج الإنسان . وهنا يقف برنارد شو ليناقض كل ذلك ، فهو يؤمن بأن البشرية نفسها تستطيع أن تستغنى عن علم يقوم على التعذيب ، وأنه من الحمق أن يلجأ العلماء لمثل هذا التبرير ، فان أحمق الحمقى ليمتنع عن تعذيب أمه مهما رأى أن تعذيبها سوف يعود بفائدة موهومة فى عالم المعرفة .

يقول فى ذلك برنارد شو « لقد كشفت بالفعل طرق عدة تؤدى إلى المعرفة ، ولا يشك إنسان متنور أنه لاتزال هناك طرق عدة أخرى لم تكشف بعد . والحق ان كل الطرق تؤدى إلى المعرفة ، فان أخبث الأعمال وأحمقها لتعلمنا شيئا عن الخبث والحمق - بل لعلها تعلمنا شيئا طيبا آخر عن طريق الصدفة . . . . » ويريد أن يستنتج من ذلك برنارد شو أنه على العلماء أن يتخذوا طرقا أخرى للبحث العلمى وللتجريب غير تعذيب الحيوانات وتقطيع أوصالها وهى حية .

وبلغت به فكرته هذه حداً كاد يفضل الحيوان فيه على الإنسان . عاش فى أول القرن العشرين طبيب اسمه فورنوف . وكان فورنوف أول من جدد شباب الشيوخ من الأناسى بأن غرس فى أجسادهم غددا معينة من غدد القرود الشابة . وذاع صيته فى أوروبا ،وأصبح حديث الناس فى إنجلترة . وخرجت صحيفة إنجليزية ذات صباح وهى تحمل تحذيرا كتبه طبيب اسمه دكتور باتش، إذ رأى هذا الطبيب أن عملية التطعيم هذه ذات خطورة على الإنسان إذ أنها

قد تنقل لهؤلاء الشيوخ أو لذرياتهم صفات القردة وبخاصة القسوة والشهوة الجنسية . »

وقرأ برنارد شو هذا الكلام فخرج بمقال من مقالاته الساخرة التى حاول دائماً أن يبالغ فيها . تسمى برنارد شو باسم قرد وكتب رسالته من بيت القرود فى حديقة الحيوان فى لندن وقال على لسان « قنصل الصغير » وهو القرد الذى تسمى باسمه :

« هل انتزع قرد من القرود غدد إنسان حى وغرسها فى جسم قرد آخر لكى يتيح له أن يمتد عمره امتدادا قصيرا غير طبيعى ؟ أكان تركمادا قردا ؟ أكانت محاكم التفتيش وغرفة النجم (وهما من أمكنه التعذيب فى القرون الوسطى) بيوتا من بيوت القردة ؟ أكان تاج لوقا الحديد أو فراش دميان الصلب من عمل القرود ؟ هل نحن فى حاجة إلى أن تؤسس جمعية لحماية أطفال القرود كما احتاج الأناسى فأسسوا جمعيات لحماية أطفالهم ؟ أكانت الحرب الأخيرة حربا بين القردة أم بين الرجال ؟ أكان الغاز السام اختراعا قرديا أم اختراعا بشريا ؟ كيف يمكن دكتور باتش أن يذكر كلمة القسوة أمام قرد من غير أن يحمر وجهه خجلا ؟ نحن الذين تحرق أمخاخنا من غير أقل رحمة فى معامل البشر ومختبراتهم ! أيمكن أن يتهمنا أحد من البشر بأننا قساة ؟ .. إنه لا التطعيم ولا التحصين قد نقل للرجال فضائل البقرة ولا صفات الحصان .. سيبقى الإنسان كما كان دائماً أشد الحيوانات قسوة . فلايتعال أحد علينا إذا هو رأى بعض وجوه الشبه العامة بيننا وبينه ــ فسيبقى الإنسان كما هو على الرغم مما يبذله دكتور فورنوف ليجعل منه قردا محترما » .

وهذا الذى نقلت إليك يدلك على ما كان يتراقص فى مخ هذا الرجل من معان ، وما كان يتدفع فى رأسه من أفكار . إنه هو برنارد شو أراد أن يعبر عن الوحدة بين الإنسان والحيوان فعبر عنها بذلك الأسلوب الذى يمتاز بالتهكم والسخرية وبالحجج التى لا نتوقعها وبأنصاف الحقائق وبكثير من المبالغة . لكنه أسلوب برنارد شو .

* * *

وكان لتعليقه على تجارب العالم الروسى بافلوف وزن خاص يدلك على اتجاهه فى هذه الناحية أيضا . وقد نعرف أن بافلوف (Pavlov) [١] كان صاحب مذهب فى علم النفس هو مذهب الأفعال المنعكسة . وقد حاول بافلوف أن يضع كشوفه عن الأفعال المنعكسة موضع التجريب . فجاء ببعض الكلاب وخرق أشداقها . وعودها سماع أجراس يدقها حين يطعمها . ثم مازال بكلابه حتى اعتادت أن تأكل حين تدق الأجراس . ثم إن بافلوف أخذ يقيس اللعاب الذى تفرزه هذه الكلاب عند مجرد دق الأجراس . واستنتج من ذلك أن إفراز اللعاب يزيد حينما تدق الأجراس لأن الكلاب كانت تشتهى عند ذلك طعامها وتتهيأ له .

وبعد خمس وعشرين سنة من التجارب أخرج بافلوف كتابه عن «الأفعال المنعكسة المكيفة» وهلل له هـ . ج . ولز ، وكتب له تقريظا فى الصحف حاول فيه أن يتهكم على برنارد شو . وخرج برنارد شو بنقد لاذع للكتاب ولآراء بافلوف ولولز نفسه . وقال إن بافلوف ظل خمسا وعشرين سنة يقطع أمخاخ الكلاب ، ويخرق أشداقها ، ويشد ألسنتها حتى يقيس لعابها ، وبعد أن عذب هذه الحيوانات خرج علينا بكتاب كان يستطيع أن يكتبه أى إنسان لامخ له . وقد هللت الصحافة لأن بافلوف قد برهن على أن لعاب الكلاب يسيل عند سماع جرس الطعام : « ولو أن هذا الشخص جاءنى لاستطعت أن أعطيه هذه المعلومات فى أقل من خمس وعشرين ثانية دون أن أعذب كلبا واحدا » .

* * *

وفى نفس الوقت كان برنارد شو يطيل دائما القول فى العلم وآفاقه التى لم تدرك بعد . كان ينظر إلى ماعمله نيوتن ـ وأينشتين فيما بعد ـ نظرة إعجاب تدل على إيمانه العميق بالعلم وبما قد ينجم عن محاولات العلماء . فهو فى إحدى مسرحياته القصيرة يتمثل نيوتن وهو دائب البحث عن هذه الآفاق التى لم تعرف بعد . فهو يقول على لسان نيوتن : « إن هناك أشياء عدة ينبغى أن

(١) Pavlov, Ivan Petrovich (1849 — 1936)

تقوم بمعالجتها : تحويل المادة والسحر الذى يضفيه الضوء واللون ، ثم هنـاك شىء قبل ذلك وهو المعانى الخفيـة التى يحتويها الكتاب المقدس . حينما أركز عقلى على هذه الأشياء أجد نفسى وقد ضللت فى لعبات أقضى بها أوقات فراغى فأفكر فى أرقام يأتى الواحد منها تلو الآخر فى مجموعات لا نهاية لها ، وأقسم الأقواس مثلثات قواعـدها لا يمكن تقسيمها . ما أسخف ذلك ! وما أكثره ضياعا للوقت ! للوقت الذى لا يقدر بمال ! »

وهو يرى أن نيوتن وغيره من العلماء لم يدركوا من العلم إلا قليلا ، وأن أكبر ميزة امتازوا بهـا إنما كان علمهم بأنهم غير علمـاء . يقول نيوتن فى مسرحية برنارد شو : « إننى أقضى حياتى أتأمل محيط جهلى . لقد ملأنى الزهو مرة لأننى التقطت حصـاة من شاطىء هـذا المحيط الذى لا ينتهى : أقصد التقطت حبة من الرمل . » وهو فى هـذا يردد ما قاله نيوتن فعـلا فى حيـاته .

هـذه الآفاق الواسعـة التى لا تنتهى : آفاق العلم سواء علم الأحيـاء « البيولوجى » أم علم الفلك والرياضة هى التى كانت تجبه برنارد شو دائمـا فيقف أمامها مشدوها . وهذه الآفاق التى لا عد لها هى التى سيعود إلى معالجتها برنارد شو فى مسرحيته الضخمة « عودة إلى متشالح » فيمضى مع العلم يفكر فيه ويفكر ، وينتهى به التفكير إلى أن يصبح على الرغم منه متصوفا كمتصوفة الشرق الأقدمين .

* * *

تلك هى اتجاهات برنارد شو نحو الحياة العلمية التى كانت فى عصره . لقد اسلفنا عليك أنه تأثر بالعلم كل التـأثر ، وأنه كان من أولئك الأدباء الذين أدلوا بدلوهم فى دلاء العلماء ، وأنه تأثر بفكرة التطور فقرأ عنها ، وبحثها ، وعدل منها ، وأخرج منها عقيدة تكاد تحل محل عقائده الدينية . ثم لقد رأينا اتجاهه لعلم الطب ثم اتجاهه الفلسفى نحو التجارب العلمية التى كانت تجرى فى

عصره . ولحظنا شيئا عن فكرة عن علماء مثل نيوتن. فبرنارد شو كان متأثرا بعصره كما كان مؤثرا فيه .

وهذه الآراء جميعا هي التي خرجت فى المسرحيات الرائعة التى كتبها من سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٢٥، فهذه المسرحيات هى التى تذكر اليوم لبرنارد شو كأروع آثار كتبها . ولكن علينا أن نزيد البحث بيانا فى اتجاهات برنارد شو من حيث الاقتصاد والسياسة الدين ومن حيث عقيدته التى انتهى إليها وهى قوة الحياة .

(١٦)

آراؤه الاقتصادية

كان الاقتصاد أوسع الميادين التى حال فيها برنارد شو . وقد حاولنا فيما أسلفنا عليك من صحائف هذا الكتاب أن نساير التطور الفكرى الاقتصادى عند برنارد شو منذ نشأته فى أيرلنده ، ثم دراسته الفقر والمال فى لندن ، ثم اضطرابه بين صفوف الفابيين، وتأثره بالاشتراكيين ، وقراءته كارل ماركس، وكتابة مسرحياته التى عالجت الفقر والغنى أول ما عالجت . ونحن الآن مقبلون على خلاصة أخيرة لآرائه الاقتصادية . ولنذكر ماسبق أن نقلناه عن أحد اساتذة الاقتصاد – وهو موريس دوب – من أن برنارد شو كان فى نواحى الاقتصاد يأخذ بأسلوب الانتحال أو الاختيار المذهبى ، أى أنه كان متأثرا بجملة من علماء الاقتصاد ، والمفكرين الاشتراكيين ، وأنه أخذ عن هؤلاء وأولئك بعض أفكار وآراء توفر على تفسيرها وإبرازها فى كتاباته ومسرحياته ، حتى كادت تنسب إليه شخصيا . وليس هذا بمستنكر على برنارد شو ، ولا هو بمستنكر على أى مفكر آخر . لكننا نريد أن نثبت ما سبق أن ذكرناه من أنه كان متأثرا أشد التأثر بالفكر الاشتراكى كما مثّله كارل ماركس، وأنه كان قد قرأ كل ما أنتج الفلاسفة الراديكاليون ، وأنه إلى جانب ذلك كان قد تشبع بالمنطق الجدلى من ناحية وبالمنطق الاستقرائى من ناحية أخرى . فاذا نحن عالجنا آراءه الاقتصادية فسنرى أنه كان فى جملة آرائه يمثل الذروة من نقد الرأسمالية ، وأن نظراته الاشتراكية لا تعدو أن تكون نتيجة لقراءاته فى الأدب الاشتراكى الذى ورد فى مؤلفات كارل ماركس وغيره من المفكرين الاشتراكيين ، وهى فى نفس الوقت متأثرة ببعض الأفكار التى جاءت فى كتابات بعض الفلاسفة الإنجليز من أمثال بنتام وريكاردو وروبرت أوين وجون ستيوارت مل .

وأول ماسنعالجه من آراء برنارد شو الاقتصادية هو تفسيره للفقر ،

ولانقسام المجتمع إلى طبقات ، ولسوء توزيع الثروة ، ولسوء توزيع أوقات الفراغ ، فقد كانت هذه جميعا هى القواعد الأولى التى بنى عليها شو نقده للنظام الرأسمالى فى أحاديثه وكتبه ومسرحياته .

* * *

وفى « دليل المرأة الذكية » يتحدث برنارد شو عن الفقر فيقول إن دراسته كانت شغل المفكرين الشاغل حتى قبل مولد المسيح ، وأنها لاتزال هى الشغل الشاغل للمفكرين والمصلحين والاقتصاديين. والواقع أن حديث برنارد شو عن الفقر فى هذا الكتاب ليس إلا تتمة لآراء فى الفقر التى أسلفنا فتحدثنا عنها عند كلامنا عن تطور آرائه الاشتراكية ، ومعالجته الفقر فى مسرحياته . ولكن الجديد فيما كتبه برنارد شو فى هذا الكتاب هو تفرقته الحاسمة بين الفقر كما صوره القدامى ، والفقر كما هو حادث فى الوقت الحاضر . فالفقر فى الحاضر « يمتهن الفقراء ويحط من كرامتهم ، بل هو يعدى بالذل والمهانة جميع الجيران الذين يعيشون على مقربة منهم . وأى شىء يصيب الجيران بالضعة والهوان ، يمكن أن ينتشر كالوباء فيصيب البلاد كلها ، بل يصيب القارة بأسرها . بل إنه فى النهاية ينحط بالعالم المتحضر بأسره وهل العالم الآن إلا جيران يتجاورون[1]؟ »

فالفقر عنده جائحة عالمية ينبغى أن يقوم العالم جميعه بمكافحته ، فليس هو قاصرا على فرد من الافراد ، ولا هو قاصر على فئة ولا طبقة من الطبقات .

وفى كتابه « مرشد كل انسان عن كل شىء »[2] الذى ألفه سنة ١٩٤٤ ، يبذل برنارد شو جهدا كبيرا فى تفصيل ما كان أجمله فى كتاباته الأولى من انقسام الناس إلى طبقات. ولعله قد أصبح من نافلة القول أن نكرر ما أسلفنا فذكرناه غير مرة من أنه قد آمن بأن الناس قد انقسموا إلى طبقات ، ولكنه يحاول أن يفصل ذلك تاريخيا ، وأن يستنتج من تطور الطبقات وجود الاختلاف

---

(١) دليل المرأة الذكية : ترجمة عمر مكاوى ص . ص ١١١ و ١١٢

(٢) Everybody's Political What is What , by Bernard Shaw

البين فى توزيع الثروة أولا ، ثم الاختلاف البين فى توزيع العمل ، ثم الاختلاف البين فى توزيع أوقات الفراغ . فهو يرى أن كل ذلك قد نشأ مع تاريخ التطور من عهد الإقطاع إلى عهد الثورة الصناعية التى كان يعيش فيها .

كان يرى برنارد شو أن العالم الاقتصادى أمامه ينقسم إلى ثلاث طبقات : طبقة أصحاب الأملاك من الإقطاعيين وذراريهم ، وطبقة المديرين لهذه الأملاك وهم أفراد الطبقة الوسطى ، ثم طبقة العمال الأجراء ، وهى الطبقة الغامرة التى تعانى من هذا الفقر ، وينسب لأفرادها كثير من الجهل والإفراط فى شرب الخمر ، والقذارة والكسل إلى غير ذلك من الموبقات التى يكدسها الفلاسفة الخلقيون على رءوس الفقراء تكديسا . ولا يرى برنارد شو خلاصا لهؤلاء من الفقراء إلا إذا تغيرت ظروف الحياة تغيرا جذريا . ولا يمكن الاعتماد فى ذلك على إحسان طبقة الإقطاعيين ولا على صدقات الأثرياء من المديرين ، بل الأمر عنده يتطلب تغير النظام تغيرا كاملا من نظام يؤمن بالفرد إلى نظام شامل يؤمن بالجماعة . ويبرز فى ذلك أساس الاقتصاد الاشتراكى ، وهو أن يسيطر عامة الناس على موارد الثروة جميعا وأن يوزعوها على أنفسهم توزيعا عادلا .

ويقرب برنارد شو العلاقات بين كل طبقة وأخرى بمنطق النقائض الذى الذى تعلمه من هيجل عن كارل ماركس ، ويعالجها وهو على علم بمبادىء التطور التى استقاها من تشارلز داروِن ، ويتحدث عنها وهو على علم دقيق بالصراع الذى وصفه كارل ماركس بين الطبقة الكادحة - أو البروليتاريا - وطبقة الملاك . وجّهه كل ذلك إلى البحث عن أنواع الصراع التى سلفت فى التاريخ بين طبقة الإقطاعيين والطبقة الوسطى ، ثم بين هاتين الطبقتين معا والطبقة العاملة . وفى خلال هذا التعقب التاريخى حاول أن يجد الأسباب الحقيقية التى أنتجت سوء توزيع الثروة بما تبعه من فقر وجهل ومرض . ففى الموضوع الذى كتبه عن مبادىء الاشتراكية فى دائرة المعارف البريطانية لا يزيد على أن يصف هذا التطور الذى حدث فى التاريخ من عصر الإقطاع إلى عصر الطبقة الوسطى ، ومن عصر الطبقة الوسطى إلى العصر الاشتراكى الحديث .

كان حكم الإقطاع ـ فى نظر برنارد شو ـ هو السائد قبـل الانقلاب الصناعى فى إنجلترة ـ وكان لأصحاب الإقطاع حقوق يعتبرها الناس مقدسة لا تمس . كان لهم حق الحكم وامتياز السلطة ، ثم حق الملكيـة وكان أكثر هذه الحقوق قداسة . ولقد استولى أصحاب الإقطاع على أصل الثروة وهى الأرض بحد السيف أو بقانون الوراثة ، وكانت الأرض أكبر رقعة مما يحتاجون إليه ، وكانوا هم أقل عددا وكفاية على إصـلاحها واستثمارها ، لذلك لجأوا إلى رجال آخرين هم الذين يسميهم برنارد شو «عبيد الأرض» . واسمعه حين يفصل ذلك إذ يقول :

« على علماء الاجتماع فى القرن العشرين أن يبدأوا بانكار قاطع لوهم القرن الثامن عشر الذى يقول إن الناس جميعا يولدون أحرارا ، وعليهم أن يؤكدوا الحقيقة القائلة بأننا جميعا نولد عبيدا للطبيعة التى تضطرنا أن نعمل عدد (س) من الساعات كل يوم ، تماما كالأبقار التى تضطر إلى أن ترعى خشية الموت من الجوع والعطش والبرد والتجرد من المأوى » .

« وليس فى استطاعة فرد أن يتنصل من حمل هـذا العبء من العمل إلا بالقاء عبء مزدوج منه على شخص آخر . أما إذا استحال هذا ، فان هذا العبء يوزع على عشرة أشخاص يصيب كل منهم عشر العمل ، ولا يحدث هذا إلا إذا كان المتنصلون من أصحاب السيادة السياسية على العمال ، وإذا كان العمال من العبيد السياسيين لأولئك المتنصلين كما أنهم عبيد الطبيعة أيضا » .

وعند قيام الطبقـة الوسطى أو البورجوازية ورث أفرادها هـؤلاء الإقطاعيين فى امتيازاتهم كما تشبهوا بهم فى الخلق وفى الاستكثار من الثورة . وكان الانقلاب الصناعى هو الذى مهد لارتفاع هذه الطبقة . وحلت المصانع محل المزارع والضيع القديمة ، وحل الرأسماليون محـل أصحاب الإقطاع . واستمع إليه بعد ذلك وهو يفصّل ذلك بعض التفصيل فيقول:

« كان الهدف الأصـلى لـكل المجتمعات البشرية ، فيما عدا عصـابات

اللصوص ، هو توكيد الشعار القائل بأنه (إن لم يعمل الإنسان فلا سبيل إلى حصوله على الطعام) ؛ ولكن ما إن بدأت الحضارة بظهور الزراعة حتى كان أيسر السبل للحفاظ على هذا الترهب الخلقي هو إعطاء كل رجل الأرض التي زرعها واعتبارها ملكا خاصا له ، ثم سن القوانين التي تمنع أي فرد آخر من انتهاك حرمتها بدون شرائها أو أخذ إذن باستعمالها . واستمر تطبيق تلك القاعدة العادلة طالما كانت هناك قطع من الأرض متساوية في القيمة وفي تناول كل فرد من أفراد الجماعة . ولكن الذي حدث هو أنه بعد أن تم تملك أحسن الأراضي التي كانت في متناول الأيدي ، وازداد عدد السكان من مئات إلى ملايين، ظهر عن تلقاء نفسه الشذوذ الذي احتوته هذه القاعدة : الشذوذ الذي من أجله وضعت حقوق ملكية الأرض منذ مبدأ الأمر » .

« ولما كان المعدمون في هذه الظروف والأحوال عبيدا أرقاء ليس لهم إلا مايكاد يقيم أودهم ، بينما لدى ملاك الأرض مايفيض عن حاجتهم بكثير ، فقد خلق احتكار الأرض نوعا من احتكار المال الفائض . ولقد تمكن أصحاب الأملاك من استخدام بعض هذا المال الفائض في إقامة المصانع ، وعندما استخدم في إنشاء الصناعة أطلق عليه اسم « رأس المال » ، ومن هذا أصبح يطلق على الملاك اسم « أصحاب رءوس الأموال » — بينما عرف عبيد الأرض الذين لايملكون رأس مال علميا باسم « الكادحين » أو « البروليتاريا » بلغة الجماهير . ثم إن هذا الاحتكار الرأسمالي أصبح احتكارا طبقيا لأن طبقة الرأسماليين هي التي احتكرت التعليم والثقافة وما فيهما من نواحي الجمال . ومالبثت هذه الاحتكارات أن انتقلت من جيل إلى جيل عن طريق إلا رث أو الوصية ، إذ أنه لم يكن هناك سبيل إلى التخلص من مثل هذه الطبقة إلا إذا تحولت الدولة إلى حكومة العامة ، وهي التي لها حق ملكية الأرض والصناعة والتصرف فيهما وإدارتهما لصالح الشعب » .

« وبهذه الطريقة التي لم يكن يحسها أحد نشأ نظام ذو ثلاث طبقات : الطبقة العليا ، والطبقة الوسطى ، والطبقة الدنيا الأمية الجاهلة . وعلى الرغم

من أن الطبقة الدنيا كانت تفوق الطبقتين الأخريين مجتمعتين عددا ، إلا أنها لفقرها وجهلها ، وعدم تفرغها للعمل السياسى ، وحرمانها من الأسلحة فيما عدا العصى والحجارة ، وعدم إلمامها بأية خطط فيما عدا الإضرابات والمظاهرات ، لم يكن فى وسع أفراد هذه الطبقة إلا أن يعملوا وفق ما يمليه عليهم سادتهم وبما يأمرونهم به . ولم يكن يصل إلى أيديهم من المال إلا القدر الذى يقيهم من الهلاك ....»

« أما والحالة هذه فالنتيجة الحتمية هى خلق حرب طبقية مرمنة ، تتحد فيها الطبقتان الوسطى والعليا ضد الطبقة الدنيا ويرجع ذلك إلى أن رجال الأعمال ــ وهم الأداة الإيجابية لاستغلال الكادحين ــ يعتمدون فى حياتهم على الاشتراك فى السلب والنهب ، تاركين التشريع والدبلوماسية لأولئك الأفراد من طبقة الملاك الذين يهوونها ويستطيعون القيام بها ، فى حين أنه يعيش بقية المتعطلين منهم الذين لا ينتجون شيئا على ماتدره عليهم عقاراتهم من إيجاراتها ولذلك يطلق عليهم فى فرنسا بصراحة اسم « المؤجرين » .

«وقد قامت ثورات واحتجاجات ضد نظام الطبقات الثلاث وما يتميّز به من جور وظلم قبل أن يتفهمه أحد كنظام بزمن طويل . فقد شهّر به الحكماء والعرافون والانبياء ومثيرو الفتن وزعماء الثورات الشعبية من جميع الطبقات ...» .

* * *

وفى هذا الذى نقلت إليك عن برنارد شو تفصيل لقيام الطبقات ، وهو فى نفس الوقت أساس لتفكير برنارد شو . أنت ترى فى هذا أنه متأثر كل التأثر بكتابات كارل ماركس وبرودون وهنرى جورج وكل أولئك الفلاسفة الاشتراكيين الذين قرأ لهم ، ثم إنه متأثر أيضا بالظروف والأحوال التى عاش فيها وبحثها فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر . ونخرج من كل ذلك بأن إيمان الفلاسفة بالفرد لم يكن صحيحا عند برنارد شو ، وهذا الإيمان هو الذى أدى إلى هذه الطبقات الثلاث التى تناحرت ، ثم خرجت منها الطبقة الكادحة وهى فقيرة جاهلة مهملة .

ويمضى برنارد شو فى نقده للنظام الرأسمالى فى السبعين سنة التى قضاها بعد هجرته إلى لندن ، وتكون نقداته جميعا تطبيقا لمنطقة الديالكتيكى أو الجدلى ـ فهو ينظر إلى الرأسمالية فى ضوء النظم الاشتراكية الجديدة ، وهو يرى مواطن الضعف فى هذا النظام مهتديا بقراءاته فى الفلسفة الاشتراكية .

ثم حديث آخر يفصّل فيه برنارد شو سوء توزيع وقت الفراغ ، فهو يرى أن الأغنياء يتمتعون بامتيازات لا يتمتع بها الفقراء . وأشد هذه الامتيازات مقتا عنده كان تعطّل الأغنياء ، فالاغنياء المتبطلون كانوا أشد الفئات فسادا فى المجتمع . وقد حلل برنارد شو السبب فى هذه البطالة فقال إن فى المجتمع كثيرا من المتنصلين الذين يلقون بعبء العمل على كاهل العمال ، وعلى كل عامل بعد ذلك أن يحمل عبئا مزدوجا هو عبئه الأصلى ثم عبء المتنصل الذى لا يريد أن يعمل . واستمع إليه بعد ذلك حين يبسط ذلك فيقول :

« على كل فرد ، سواء أكان عاملا أم متنصلا ، أن ينام ثمان ساعات من الاربع والعشرين ، ويحتفظ لنفسه بساعتين أخريين يتناول فيها الطعام ، ويلبس ويغتسل وينتقل من مكان إلى مكان . ولما كان تناول المأكل والمشرب والنوم والنشاط المعتدل كلها أعمالا مقبولة محببة إلى النفس ، فليس بين الناس من يرغب عنها أو يحاول التخلص منها . ولما كان من المحال ماديا أن يوضع تشريع يتدخل فى هذه الساعات العشر أو يغير منها ، فلم يبق أمام المشرع ما يشغله سوى الأربع عشرة ساعة المتبقية لاستخدامها فى عمل منتج نافع .

« وعلى الرغم من أن الإنسان عبد للطبيعة ، وعلى الرغم من أن واجبه الأول على سطح الأرض هو أن يعمل ، إلا أنه يمقت العمل الإجبارى مقتا تاما ، ويبذل جهدا مستمرا لإنقاصه والحد منه ، ثم الانتهاء منه ليصبح بعد تأديته حرا يفعل ما يشاء ، بل هناك قوم لا يقومون بعمل البتة إلا على سبيل التسلية ـ ويطلق على هذه الحرية من العمل « وقت الفراغ » . ووقت الفراغ هذا قابل للتحويل شأنه شأن العمل نفسه . »

ويمضى برنارد شو فى شرح نشأة وقت الفراغ وسوء توزيعه فيقول :

«إن أربعة عشر عاملا قد يكدحون لتوفير وقت الفراغ لمالك واحد ، وإن أربعة عشر مليونا من الكادحين قد يعملون ليل نهار حتى يوفروا أوقات الفراغ لمليون من السادة الذين لا يعلمون شيئا . لا يملك هؤلاء السادة بعد ذلك إلا أن يصرفوا أوقات فراغهم فى شراء أعظم ما يستطيعون الحصول عليه من الكماليات من غير أن يسهموا بعمل للمجتمع الذى يعيشون فيه فيما عدا إنجاب الأطفال. فاذا رأى الابناء الصغار لهؤلاء الملاك — وهم من لا حق لهم فى الإرث — أن يعملوا عملا فانهم يحتكرون مناصب معينة فى التمثيل السياسى ، أوفى التوسع الإمبراطورى ، مما لا يقتضى هذا الكدح الذى يقوم به العمال . أما ما يصيبه العمال من كل ذلك فهو لا يعدو أن يكون عيش الكفاف مما لا يتناسب وما يصيبه الأولون . فالأربعة عشر مليون كادح لا يكادون يعملون إلا لتوفير حياة الرفاهية لمليون من غير الكادحين .»

* * *

بهذه الصورة التى تكاد تطابق الواقع ، وبهذا الأسلوب الذى يكاد يكون علميا ، يفسّر برنارد شو ظواهر اقتصادية واجتماعية ثلاث : أولاها ظاهرة الفقر ، وثانيتها ظاهرة انقسام الناس إلى طبقات ، وثالثتها ظاهرة سوء توزيع وقت الفراغ فى آن واحد . وأنت ترى أنه كان يكتب كل ذلك بوحى من كارل ماركس ، وأنه لم يزد على أن جلا هذه الظواهر التى عالجها الاشتراكيون وحوم حولها بعض الفلاسفة الراديكاليين ومسّوها مسّا خفيفا .

* * *

وفى الصميم من هذه الأفكار التى شرحها برنارد شو كانت فكرته عن « القيمة الإيجارية الفائضة » نقول إنها فى الصميم لأنها تتناول قيمة العمل . وأنت تذكر أننا أشرنا إلى ماذهب إليه ريكاردو من القيمة التى تفيض من الإيجار ، وتذكر أننا أشرنا أيضا إلى « القيمة الفائضة » كأساس من أسس الاقتصاد عند كارل ماركس ، فاعلم أن برنارد شو كان متأثرا بهذه النظرية أشد التأثر ، وأنه رددها وأفاض فى شرحها لأنه كان يعتبرها أساسا هاما

للحياة الاقتصادية ، لكنه ينسب معرفته بها إلى اثنين من المفكرين الانجليز هما ريكاردو وجفونز ، ويكاد ينكر أنه تأثر باتجاهات كارل ماركس عن فائض القيمة . والواقع أن برنارد شو كان يأخذ عن المفكرين الإنجليز أكثر مما كان يأخذ عن كارل ماركس ، لأنه كان يبدأ في تفكيره من فائض القيمة الإيجارية، لكن كارل ماركس كان يفكر في فائض قيمة العمل بوجه عام .

إن العمل أحد الأسس الهامة التي تؤكدها الاشتراكية ، والعمل مورد من موارد الثروة ، والجزء الأكبر من العمل يقوم به العمال . فالجهد الذي يبذله العمال هو الذي ينتج أكثر الثروة . وعلى هذا الأساس - كما أسلفنا في فصل سابق - مضى كارل ماركس فقال إن العائد من العمل سواء أكان ربحا أم إيجارا فهو قيمة فائض من رأس المال . ويذهب إلى مثل ذلك برنارد شو لولا أنه يختص فائض القيمة الإيجارية باهتمام . وعنده أن الإيجار في علم الاقتصاد مشتق من الملكية الشخصية ، وأن كل عائد من رأس المال فهو فائض قيمة إيجارية ، وأن أصحاب الأسهم والسندات وأصحاب الأرض والعقار يفيدون من إنتاج يستخدمون فيه العمال كأجراء . فهم يؤجرون ما فاض عن حاجتهم من الأرض والعقار . وهم يستأجرون عمالا للعمل الذي لا يبذلون فيه ما هو كفاءة من الجهد ، وهم في كلا الحالين يستولون على العائد من التأجير والاستئجار ، وليس رأس المال عند برنارد شو إلا ذلك العائد . فإن تكدس الأموال في شكل إيجار أو أرباح ما هو إلا فائض يكوّن رأس المال الحقيقي ويضخّمه على مرّ السنين.

ويقفز برنارد شو ليناقش الأسباب التي يذكرها أهل الطبقة الوسطى من المديرين وأرباب الأعمال ، ليسوّغوا بها استيلاءهم على جزء كبير من الأرباح والفوائد في نظير إدارة الإنتاج . فهل أوتي هؤلاء كما يدعون قدرة خارقة للعادة على إدارة أسباب الإنتاج ؟ هل آلت لهؤلاء السيطرة على عوامل الإنتاج والتوزيع لميزات خلقية أو عقلية امتازوا بها عن سائر بني البشر؟ أم ترى كان كل ذلك جزءا من ظروف اقتصادية مهّدت لهم طريق الكسب ،

وطوعت لهم أن يفيدوا من مركزهم الاجتماعى ومن سلطة رأس المال ، بحيث آمن الناس بمقدرتهم المزعومة ، فسمح لهم بهذه المرتبات الفادحة على اعتبار أنها أجر لهم على هذه المقدرة الفائقة ؟ يرى برنارد شو أن هذه المقدرة التى كان يدعيها المديرون من الطبقة الوسطى لم تكن إلا مقدرة مصطنعة وأنها ليست فى نفسها إلا أجرا تضخم بتضخم الفائض من عمل المنتجين الحقيقيين من أفراد الطبقة العاملة. فكأنما ظل أجر العمال ضئيلا تافها من ناحية ، وارتفع أجر المديرين وأرباب الأعمال ارتفاعا متضخما من ناحية أخرى .

وعندما يتحدث برنارد شو عن أجور العمال يتجه بنقده إلى المحاولات المتصلة التى كان يبذلها أصحاب رءوس الأموال وأرباب الأعمال لتخفيف أجور العمال . من هذا الفائض الضخم الذى يعود من العمل كان نصيب العمال قليلا ، وكان نصيب أرباب الأعمال والمديرين أكثر من الكثير . وكلما انخفضت أجور العمال زادت أجور المديرين وأرباب الأعمال . لذلك عمد هؤلاء إلى الحد دائما من أجور العمال ، وإلى المناداة بالعمل الرخيص. وكان العمال لا يملكون حينئذ إلا حركات إلا ضراب أو القيام بمظاهرات ، لكن سيطرة هؤلاء كانت أمضى من كل ذلك. وحينما تنبهت فئات العمال واتحاداتهم إلى ذلك لجأ أصحاب رءوس الأموال إلى الخارج بحثا عن «العمل الرخيص». لقد كان مبدأ هؤلاء هو التهوين من العمل الإنسانى فى الإنتاج وتخفيض أجور العمال برفع أجر القدرة المزعومة لدى المديرين ، وهى التى تحدث عنها برنارد شو من قبل وقال عنها إنها قدرة مصطنعة .

وينتهى برنارد شو من هذه الموازنة بين مايصيبه العمال من أجور ومايصيبه المديرون وأرباب الأعمال من مرتبات ، إلى أن النظام الرأسمالى غير عادل وسخيف ولا يمكن العمل به . وقد اهتدى فى كل قضاياه التى حاولنا أن نوجزها لك فيما سلف بمنطق استقرائى محكم . على أن الذى يميز برنارد شو فى هذه القضايا أيضا هو اندفاعه الشديد لتأمين قضاياه . إنه ينتهى أخيرا إلى ما انتهى إليه « برودون » من أن الملكية هى السرقة ويظهر كل ذلك

فى مسرحياته فلا يفرق بين ماتكسبه « مسز ورن » ومايكسبه كبار الأطباء. وتكاد كل مسرحياته الاقتصادية أن تدور حول هذا المحور . فهو يعالج هذه القضيــة فى « الإنسان والإنسان الأسمى » وفى « تنـازل الأرامل » وفى « مهنة مسز ورن » وفى « ورطة الطبيب » وفى « ميجرباربارا » وفى غيرها من المسرحيات .

* * *

وسيئة أخرى رآها برنارد شو فى النظام الرأسمالى ، تلك هى الفاقة التى أدت إلى الكساد ، وقد تذكر أن آدم سمث وغيره من دعاة الرأسمالية كان قد ذهب إلى أنه لابدأن يوجد تنافس بين أصحاب المصانع وأرباب الأعمال، وأن هذا التنافس نفسه لابدأن يئول إلى توازن محمود فى المجتمع الاقتصادى. وقد بنيت نظرية حرية التجارة على هذا التوازن المحمود . لكن الواقع أن هذه المنافسة قد أدت إلى توازن غــير محمود ، إذ أن كل مصنع حاول أن ينافس كل مصنع آخر ، وأن يغرق الأسواق بمنتجات لم تجد من يشتريها فى بعض الأحيان . وكان هذا الإنتاج الفائض سببا فى كساد السوق ، وكان سببا فى خلق أزمات اقتصادية يتعطل منها العمال ، ويقومون فيها باضرابات .

* * *

وفى هذا المحيط الرأسمالى ، فكر الاقتصاديون أن يعالجوا هذا الكساد وذلك التعطل بين العمال ، فماذا فعلوا ؟ لقد ائتلفت شركات بأسرها لـكى تخفف بينها حدة التنافس ، ائتلفت لتكون منها مجموعة شركات هى التى تحتكر السلع ذات النوع الواحد . وعند ذلك استطاعت هــذه المجموعات الاحتكارية أن تتحكم فى ثمن السلعة وفى أجور العمال ، وأن تفرض سيطرتها على السوق سواء أكان فى الداخل أم فى الخارج .

وكانت المكاسب التى تئول من الاحتـكار امتداداً طبيعيا للدخل الذى خصّصه المديرون وأرباب الأعمال لأنفسهم . فقد انضم أصحاب رءوس الأموال وأرباب الأعمال إلى بعضهم البعض ، وخلقوا احتـكارات تتحكم

فى قيمة السلع . كان يستطيع أولئك وهؤلاء حين يجتمعون أن يتدخلوا فى العرض والطلب ، فيحدّوا من الإنتاج لرفع قيمة سلعة من السلع إذا أرادوا، ويغرقوا السوق بسلعة أخرى تكون موردا من موارد الكسب السريع . وفى ذلك يقول برنارد شو حين ينقد نظام الاحتكار : «لقد كان هذا أيضا أصلا لعدم الكفاية الظاهره فى هذا النظام ـ أى النظـام الرأسمالى ـ إذ أنه بمقتضى الاحتكار انفصل الإيراد عن العمل انفصالا تاما ، وأدى ذلك إلى الحـد من الحافز الشخصى للسعى والإصلاح ، وجعل الثروة تتكدس حيث تتلف الرجال، وفى نفس الوقت تضاعفت فى أيدى الأغنياء سلـع براقة من الترف لا قيمة لها فى ذاتها ، بينما انحط الفقراء انحطاطا لا تكاد تطيقه مشاعر البشر. إن النظام الرأسمالى قد نشر العجز بين الأغنياء والفقراء على السواء ، وذلك بأن أعطى كل العمل لإحدى الطبقتين ، وأعطى كل أوقات الفراغ للطبقة الأخرى » . ولاشك أن القضية التى تسرى فى كل ماقاله برنارد شو عن الأحتـكار وغير الاحتكار هى أنه ينبغى أن يئول هذا العائد ، أو هذا الفائض، أو هذه الأرباح، أو هذه الفوائد إلى الجميع .

ويناقش برنارد شو اقتصاديات الأرض على هذه الأسس أيضا . ولعل رأيه فى فائض القيمة الإيجارية يبدو بوضوح أوفى حين يتحدث عن الأرض، وقد رأيت أى جهد بذله برنارد شو فى التفسير التاريخى لأصـل الإيجار فيما أسلفنا من حديث نقلناه إليك . وعنده أن الفائض من الأرض ينبغى أن يوضع فى الأرض نفسها لزيادة استثمارها ، وأن الإيجـار الذى يعود على صاحب الأرض ليس إلا تكديسا لرأس المال ، وأن ظاهرة الاحتكار تبدو فى امتلاك الأرض كمورد من موارد الثروة وأنه ينطبق عليهـا ماقاله عن الاحتكار فى الصناعة ، لكن فى حالة الأرض كان احتكارا أكمل وأوفى .

* * *

شهد برنارد شو أثر الاحتكار فى الحيـاة الاقتصادية فى إنجلترة وغيرها من بلاد أوروبا الغربية ، وخرج من دراسته إلى أنه لا أمل فى إنقاذ الموقف

الاقتصادى إلا بالتأميم . فاذا كان فائض القيمة الإيجارية يتحول إلى رأس المال ، فينبغى أن توضع موارد الإيجار نفسها تحت سلطة الشعب أو سلطان الدولة التى تمثل الشعب ، وسبيل ذلك هو التأميم .

وهنا نريد أن ننقل اليك تحديد معنى الاشتراكية عند برنارد شو . فهو يقول فى صدر مقالة عن الاشتراكية فى دائرة المعارف البريطانية « الاشتراكية هى التحلل الكامل من نظام الملكية الخاصة بتحويلها إلى ملكية عامة ، وتوزيع الإيراد العام الناتج من هذا التحويل توزيعا متساويا على السكان جميعا بحيث لايكون هناك امتياز لأحد دون الآخر » . ويقتضى ذلك فى نظر برنارد شو أن نقلب كل الأصول الاقتصادية التى أقيم على أساسها رأس المال ، كما يتطلب — وهذا هو الأهم — أن تتغير المعايير الخلقية تغيرا كاملا . وعنده أن الحضارات الأولى لم تكن لتقوم إلا لأن الفروق بين الأغنياء والفقراء كانت تتضاءل ، وإلا لأن توزيع الإنتاج كان أقرب إلى المساواة . فالرجعة إذن إلى المساواة فى توزيع الإيراد العام ، والتحلل من النظام الرأسمالى كان أساس الاشتراكية عند برنارد شو . وكان هذا يقتضى عنده وضع موارد الثروة جميعا ، ونظام توزيعها ، فى يد الجماعة ولخدمة الجماعة — ولا يتأتى هذا إلا بتأميم هذه الموارد .

ويضرب برنارد شو مثلا من الحرب العالمية الأولى، وظروف إنجلترة التى اضطرتها فى مبدأ الحرب إلى وضع موارد الثروة جميعا تحت سيطرة الدولة . ففى مبدأ الحرب العالمية الأولى كانت الصناعات فى إنجلترة فى أيدى مصانع وشركات متفرقة لاتجمعها إدارات موحدة ، ولكن تطلّب مجهود الحرب أن تجمع هذه تحت إدارات موحدة حتى يكون الإنتاج سريعا وافرا . وبرهن تاريخ الحرب على أنه لولا جمع هذه الصناعات فى إدارات موحدة لحاقت بإنجلترة الهزيمة . على أنه ما وضعت الحرب أوزارها حتى عادت هذه المصانع والشركات إلى أصحابها ومديريها الأولين . وظهر بادىء ذى بدء أن كل شىء سينتعش، ولكن ما جاءت سنة ١٩٣١ حتى هبط على الحياة الاقتصادية كساد

كان أشد وقعا من الحرب نفسها . وفى هذه الأزمة الطاحنة انقلب الناس إلى الإيمان بالتأميم ـ بل لقد تغيرت عقلية الطبقة الوسطى نفسها ورأت أن الشركات المجمّعة تؤدى دائما إلى أزمات فى السوق . وقام كفاح بين الماليين وبين أفراد من الطبقة الوسطى أمال فيه هؤلاء الأفراد إلى اليسار . وقامت خلال ذلك حكومة العمال فى إنجلترة تنادى بالتأميم .

ذلك هو الدرس الذى يشير إليه برنارد شو للتدليل على أن التأميم مركب يسير فى طريق الاشتراكية . وهو ينادى بالتكييف الاشتراكى(١) فى الاقتصاد والخلق والتنظيم إذا أردنا أن يكون التأميم ناجحا ممكنا . ويذكر أن العدالة الاجتماعية ـ التى نادى بها الفلاسفة الراديكاليون ـ لا يمكن أن تنال حظا من التطبيق إلا بهذا التكييف الاشتراكى . وعندنا أن التكييف الاشتراكى هو المفتاح الذى ظفر به برنارد شو من دراساته مع الفابيين ومن مناظراته ومحاضراته فى الاشتراكية . التكييف الاشتراكى للمجتمع هو الذى عبر به برنارد شو عن ضرورة التدرج فى التحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، وهو الذى هدى برنارد شو إلى أن يدرس النظم السياسية والدستورية والاقتصادية فى إنجلترة ، حتى يأتى التحول الاشتراكى متفقا مع ما يصلح فى نظره من هذه النظم والأصول .

لقد كان يرى برنارد شو أن هذا التكييف الاشتراكى ، أو قل هذا التحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، قد حدث فعلا فى مجال الخدمات العامة فى كنف السلطات البلدية أو الحكم المحلى . وقد علمت أن برنارد شو كان قد مثّل قسم « سان بانكراس » فى مجلس لندن البلدى ، وأنه تعلم الكثير وهو قائم بتمثيل هذا القسم . فهو يرى أن ما تفعله البلديات وما يقوم به الحكم المحلى من خدمات يجب أن يكون مثالا تحتذ به الدولة عند التأميم . إنه يرى أن البلديات كانت تضم قطعا خاصة من الأرض حتى تستطيع أن تزيد العمران فى رقعة المدينة التى تشرف عليها ، وكان لها الحق أن تقوم على إصلاح الطرق ، وبناء

---

(١) Socialisation

المنازل وإنشاء المرافق العامة . وفى سبيل تأديه هذه الخدمات لسكان المدينة كانت تستطيع أن تستولى على ما تراه من أرض أصحاب الأملاك . وحين اتسعت رقعة العمران واحتاج السكان إلى التربية والتعليم والصحة والنقل إلى غير ذلك ، لجأت السلطات المحلية أيضا إلى الإشراف على المرافق التى تؤدى هذه الخدمات . وهذا عند برنارد شو بدء لفكرة التأميم . فان الذى حدث فى نطاق الحكم المحلى فى إنجلترة كان لابد أن يحدث فى نطاق الحكم المركزى . ولذلك فهو يرى أن التأميم تطور طبيعى لكل دولة تعنى بالخدمات العامة .

بل هو يرى أن اشتراك الناس فى الإفادة من هذه الخدمات العامة ما هو إلا الخطوة الأولى نحو الاشتراكية ، بل لقد جاء فى بعض حديثه أنها الخطوة الأولى «للشيوعية » على أساس أن الشيوعية أصلا قد نبتت من «الكوميون » أو من المجتمع الصغير الذى يعيش أعضاؤه فى كيف واحد . وعنده أن الإضاءة والنقل العام وسبل المواصلات كل هذه ليست إلا خطوة نحو الاشتراكية الحقة . وهى منافع تقوم على أساس المبادلة بين أعضاء هذا المجتمع بعضهم البعض .

ويتحدث برنارد شو عن عاملين ينبغى اعتبارهم عند التأميم : أولهما أن يكون التأميم لصالح السكان جميعا ، وثانيهما أن يكون على مراحل بحيث لا تهتز له قوائم النظام الاقتصادى . ويتحدث عن التعويض ، ويفرّق بينه وبين المصادرة .

فاذا انتهت القيمة الإيجارية الفائضة أو رأس المال إلى التأميم ، وإذا انتهت الأرض إلى التأميم فهو يرى أن أكبر مصادر الثروة يكون قد آل إلى السكان . ويقتضى ذلك أن تقوم على البلاد حكومة تتمتع بكفاية ممتازة من الموظفين العموميين ، وأن تنقلب الإدارة الحكومية إلى إدارة من رجال الأعمال يكون ديدنهم جميعا العمل على أساس الخدمات العامة للجميع .

ولكن هل كان هذا يقرّبنا من الهدف الأسمى من الاشتراكية ؟ هل كان

كل ذلك يدنو إلى الاشتراكية فى أهم مظاهرها وهو المساواة فى توزيع الإيراد العام ؟

كان برنارد شو يؤمن بالمساواة فى الدخل إيمانا عميقا . وكان يرى أن الهدف الأول للمجتمع الاشتراكى هو أن يتساوى أفراده جميعا فى دخولهم . وفى « دليل المرأة الذكية » رياضة عقلية مارسها برنارد شو يناقش فيها سبعة احتمالات لتوزيع الدخل ، وتعتبر هذه الرياضة العقلية مثلا من أمثلة الاستقراء المنطقى الذى حاول فى بعض الأحيان أن يتخذه أسلوبا فى جدله ، وبخاصة فى مؤلفاته غير المسرحية . ويبدأ بذكر هذه الاحتمالات السبعة فى الفصل السابع من الجزء الأول من « دليل المرأة الذكية » فيما يلى : (١)

« كثيرا ما نقترح الطريقة الآتية للتوزيع ، وهى لأول وهلة ، تبدو كأن فيها إنصافا كبيرا للطبقة الكادحة ذلك أن نترك لكل شخص ما قام هو بانتاجه من ثروة البلاد (والشخص هنا يتضمن المؤنث والمذكر). وهناك من يقترح يأخذ كل واحد ما يستحقه ، بحيث يحرم الكسالى والأشرار والضعفاء ، ونتركهم يموتون جوعا . ويأخذ الكادحون والطيبون والأذكياء كل شىء ليعيشوا ويتمتعوا . ثم هناك نفر من الناس لايزالون يؤمنون بالحكمة القديمة المأثورة ، التى تقول : من استطاع أن يأخذ شيئا فليأخذه ، ومن استطاع الاحتفاظ بما لديه فهو له . وإن كان نادرا مايجهرون به فى أيامنا هذه . ومن الناس من يقول : فليأخذ العامة والدهماء من الناس ، ما يكفيهم لسد الرمق ، حتى ينتهى الأجل الذى قدّره الرب لهم ، وليأخذ الخاصة والأعيان والأكابر الباقى ! وإن كان هذا القول أيضا لايقال صراحة ، كما كان يحدث فى القرن الثامن عشر . وآخرون يقولون : فلنقسّم أنفسنا إلى طبقات وليتساو أفراد كل طبقة فيما بينهم ، ولا يكون التفاوت إلا بين الطبقات . مثلا يحصل الرجل من العمال على أجر قدره ثلاثون شلنا فى الأسبوع ومن العمال الفنيين على ثلاثة

---

(١) عن « دليل المرأة الذكية » ترجمة الدكتور عمر مكاوى ص . ص ٧٤ و ٧٥

أو أربعة جنيهات ، ومن الأساقفة على ألفين وخمسمائة جنيه فى السنة ، ومن القضاة على خمسة آلاف، ومن كبار الأساقفة على خمسة عشر ألفا . أما زوجاتهم فلهن ما يفلحن فى استخلاصه من براثنهم كل حسب قدرتها : وأخيرا هناك الذين يحتقرون الموضوع ، ويقولون بكل بساطة « دع الأمور تجرى فى أعنتها » ، أى اترك الأوضاع على ما هى عليه. أما الاشتراكيون فيقولون إن جميع هذه المقترحات لا تصلح ، وإن الحل الوحيد الأمثل هو أن تعطى كل شخص نصيبا يساوى الآخر ، مهما كان هذا الشخص عجوزا أو شابا ، ومهما كان نوع العمل الذى يقوم به، وأياً كان أبوه أو كان أصله وفصله (والضمير هنا يسرى أيضا على المذكر والمؤنث) » .

ويعالج برنارد شو كل واحد من الاحتمالات الستة الأولى فى كلام طويل، وبعد أن يقفز عليها كما يقفز العدّاء على الحواجز فى سباق الجواجز ، ينتهى إلى الاحتمال السابع ، وهو عنده الحل الاشتراكى المثالى . ويناقش المساواة المطلقة فى الدخل بين كل الأفراد . على أنه ما يلبث أن يجد أيضا فى هذا الحل كثيرا من النقاط التى يثيرها . فهل يتساوى أصحاب القدرات الممتازة مع العاديين الذين لا يمتازون بقدرة خاصة تفيد الناس جميعا ؟ أليس فى العالم علماء وفنانون وأدباء ذوو كفايات خاصة ينبغى أن يثيبها المجتمع ، ويغذيها ، ويعنى بها حتى ينتفع بها المجتمع نفسه عند نضوجها ؟ ويناقش برنارد شو هذه النقطة فى حديث يكاد ينتهى بعده إلى أنه لا بد من التدرج فى الأخذ بمبدأ المساواة فى الدخل ، وأن المبدأ نفسه ينبغى أن يكون هو الهدف الأسمى للمجتمع الاشتراكى ، ولكن لا بد من السير فى طريقه بحذر حتى تتوفر الظروف التى يطبق فيها .

وينثنى برنارد شو بعد ذلك إلى معالجة ثنائى اشتراكى آخر : وهو العدالة الاجتماعية والتوزيع . وهنا يردد ما قاله كارل ماركس من أنه لا سبيل إلى أن تتحقق العدالة الاجتماعية حتى نعلو على الظروف الاقتصادية التى يعيش فيها المجتمع ، ولا سبيل ذلك حتى يتمكن المجتمع من السيادة المطلقة على الإنتاج

والتوزيع . وفى لغة أبسط من ذلك يقول إنه لاسبيل إلى العدالة الاجتماعية حتى يكون الإنتاج وافرا بحيث يكفى الجميع . أى أن العدالة ستكون نتيجة بوفرة الإنتاج ، ولن تستكمل العدالة كل عناصرها إلا إذا كان الإنتاج وافرا بحيث يشبع حاجات الجميع . وهنا يعود برنارد شو ثانية إلى أصحاب القدرات الخاصة . فهناك فئة موهوبة من الناس لهم من مواهبهم وقدراتهم مايساعد على هذا الإنتاج . هناك فريق من الرياضيين وعلماء والكيمياء ممن تمكنهم عبقريتهم من مضاعفة الإنتاج ، أليس من الصالح العام إذن أن يمنح هؤلاء مايحفزهم إلى العمل المتصل لرفع المستوى العام ؟ إنه يرى أن هذه الحوافز ينبغى أن تزجى لهؤلاء العباقرة لصالح الإنتاج نفسه ، ولصالح الاشتراكية نفسها ، وتقربا للهدف الأسمى وهو العدالة فى التوزيع أو المساواة فى الدخل .

ومهما يكن من أمره فان برنارد شو يرى فى كل ما كتب أنه لابد أن يرتفع بمعيشة كل فرد وأى فرد إلى المستوى الآدمى . إصراره المطلق على إلغاء الفقر ، وتكراره فكرة الكرامة الإنسانية ، وتوكيده العدالة العامة للتوزيع ، وتأييده لجهود الحكومات المحلية فى إشاعة الخدمات : كل هذا كان هو السبيل الاشتراكى الذى اختط ، وكل هذا ظاهر فى كل المسرحيات التى ألف . ولاتكاد تخلو مسرحية من مسرحياته إلا وفيها إشارات أو عبارات تدعو إلى الاشتراكية وأظن أننا قد نقلنا إليك منها الكثير .

* * *

تلك هى الرحلة الاقتصادية التى قطعناها مع برنارد شو إنها رحلة طويلة شاقة فى طريق الاشتراكية الوعر . لكننا نحس بعد كتابة كل ذلك أننا لم ننقل إليك عنها إلا أقل من القليل . وهى كما ترى — حتى فى هذا الموجز — رحلة فكرية ممتعة جمعت أشتات الآراء التى سبقت برنارد شو ، وكانت فى نفسها نبوءة لكثير من المجتمعات ومنها مجتمع الثورة ! مجتمعنا العربى .

(٧)

آراؤه السياسية

ترتبط آراء برنارد شو السياسية ارتباطا وثيقا بآرائه الاشتراكية . فادام قد آمن بأن الدولة ينبغى أن تقوم على امتلاك الأرض لصالح الناس أو لصالح السكان ، فقد كان ينبغى على الحكومة أن تقوم على تنفيذ مايقضى به هذا الصالح . وحين كان يصف شكل مثل هذه الحكومة ، كان يثبت دائما أنها يجب أن تكون حكومة أعمال (١) ، أى حكومة تستطيع أن تتخذ من الإدارة مايؤمن هذا الصالح العام الذى دعا إليه ، حكومة تقوم على تأميم الأرض والصناعات ويكون أعضاؤها من الكفاية بحيث تعود الفائدة جميعا على الناس جميعا ، ثم حكومة تكون مسئوليتها الأولى أن توزع الثروة توزيعا عادلا بحيث لايهبط فرد ولا طائفة إلى الحرمان ، أو ما يسميه فى بعض أحيان مستوى الكرامة.

وبهذه الفكرة عن الحكومة استطاع برنارد شو أن يدلك على مواطن القوة فى الحكومات المحلية فى إنجلترة، كما استطاع أن يدلك على مواطن الضعف فى حكومة لندن ، وفى البرلمانية البريطانية ، وفيما كانوا يسمونه ديمقراطية ، ثم فى حكومة الإمبراطورية البريطانية بأكملها . كان برنارد شو يؤمن بأن الحكومة المحلية فى مدينة من المدن ، أو فى مقاطعة من المقاطعات هى المثل الأعلى للحكم ، وأن فيها يستطيع القائمون بالأمر أن يشعروا بحاجات السكان وأن يعملوا على أساس الاستجابة لتلك الحاجات . ولطالما جذب برنارد شو الأمثال بالخدمات الشائعة التى كانت تقوم بها المجالس البلدية فى إنجلترة ، وبالفكرة الديمقراطية الأصلية التى كانت تتمثل فى هذه المجالس. وقد مضى هو نفسه ست سنين وهو نائب فى أحد هذه المجالس ، فعرف حاجات الناس

---

(١) Job State

من حيث التعليم والإسكان والصحة ، وعرف كيف يضحى بعض القائمين بالأمر فى سبيل خدمة الجماعة فى كل حى من الأحياء .

وفى نفس الوقت لم يكن يؤمن برنارد شو كثيرا بمظاهر البرلمانية الإنجليزية التى شهدها فى المدى الطويل الذى عاشه على ظهر هذه الأرض. وهنا ينبغى أن نقف قليلا لنبسط القول بعض البسط فى فكرته عن الديمقراطية التى شهد مظاهرها ، وفقد الثقة بالقائمين بها . وهذه الديمقراطية هى التى أحس أنها تنم عن مظهر دون مخبر ، وأنها لا تعدو أن تكون لعبة يقوم بها سياسيون من طراز خاص ليشغلوا الناس عما هم فيه من حاجة إلى خدمات حقيقية .

نحن نقف بك عند مقدمة مسرحية « عربة التفاح » التى كتبها سنة ١٩٣٠ . وفى هذه المقدمة حاول برنارد شو بأسلوبه المتهكم الساخر أن يناقش الديمقراطية فى أصولها الأولى ، ثم يناقش المظاهر البرلمانية التى شهدها من هذه الديمقراطية حواليه.

وإليك هذا الحديث من هذه المقدمة :

« الديمقراطية — كما نعرفها — كلمة كبيرة تبدأ فى اللغة الانجليزية بحرف كبير ، ونحن إما أن نقبلها بالتجلة والاحترام ، وإما أن ننتقص منها باحتقار من غير أن نسأل أية أسئلة عنها. والآن فلا ينبغى مطلقا أن نتقبل شيئا بالتجلة والاحترام ، إلا إذا نحن تساءلنا أسئلة كثيرة جدا لنضع الموضوع موضع الفحص . والسؤالان الأولان اللذان يبدوان فى هذا المجال هما : ما أنت ؟ وأين تعيش ؟ ولعلنا إذا وجهنا هذين السؤالين « للديمقراطية » سمعنا هذه الإجابة : « اسمى ديموس ، وأنا أعيش فى الإمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة الأمريكية ، وفى كل مكان تلتهب فيه أفئدة الرجال بحرارة الحرية. أنت ياصاحبى شو وحدة من وحدات الديمقراطية ، واسمك أنت أيضا ديموس، وأنت مواطن فى مجتمع ديمقراطى عظيم . إن لك كل الكفايات التى ترشحك لتكون عضوا فى برلمان الإنسان فوق هذه الأرض ، وحلف البشر فى هذه

الدنيا . » وعند ذلك أراني وقد انفجرت مهللا صارخا ، فأنا رجل أميل بطبعي إلى التحمس . على أنني في ليلتي هذه لن أفعل شيئا من هذا القبيل ، وإنما أقول : « كفى لغوا ! ليس اسمي ديموس ، وإنما اسمي برنارد شو ، وليس عنواني الإمبراطورية البريطانية ، ولا هو الولايات المتحدة الامريكية ، ولا هو في أي بلد تلتهب فيه أفئدة الرجال بحرارة الحرية ، إنما هو في رقم معين في شارع معين في لندن ، وسيفنى طويل من الزمن قبل أن أبحث في ترشيح نفسي لبرلمان الإنسان ، إذا قدر لهذه الهيئة أن تخرج إلى الوجود . ولا أعتقد أن اسمك أنت ديموس ، فليس في الناس شخص اسمه ديموس . وكل ما وقفت عليه من عنوانك أنك لاتحمل عنوانا ، وما أنت إلا صعلوك متنقل — هذا إذا كان لك وجود في الأصل » .

« وأنت تلحظ أنني التزمت جادة الأدب فلم أسمّ ديموس حقيبة خاوية ، ولم أدعه تاجرا من تجار الهواء الساخن ، ولكنني سأبدأ بحثنا عن الديمقراطية بأن أطلب إليك أن تعتبرها بالونة كبرى ملأى بالغاز والهواء الساخن . وقد أطلقت هذه البالونة في الهواء حتى تظل أنت متطلعا إليها وهي في السماء ، بينما ينشل جيوبك قوم آخرون . وحينما تهبط هذه البالونة من السماء إلى الأرض مرة كل خمس سنين أو مايقرب من ذلك ، فانك تدعى إلى أن تدخل في سلتها إذا استطعت أن تخرج واحدا من الموجودين فيها ، المتشبثين بها . وحيث أنك لاتملك من المال ولا من الوقت ما تصرفه في ذلك ، وحيث أنك واحد من أربعين مليونا ، ولا يكاد يوجد فراغ في السلة الا لستمائة ، فان البالونة تصعد إلى السماء مرة أخرى بنفس الموجودين تقريبا ، وتخلفك أنت حيث تكون . وأظن أنك ترى معي أن هذه البالونة ليست إلا صورة للديمقراطية تنطبق على حقائقنا البرلمانية » .

ونقول إن هذا وصف ساخر للبرلمانية كما كان يصوّرها برنارد شو . لقد كان يؤمن أن نسبة ديمقراطية إلى الشعب أو إلى الكلمة اليونانية ديموس إنما هي نسبة وهمية ، وكان يؤمن أن وراء الانتخابات البرلمانية كثيرا من

القوى التى يتناقض فيها القول والعمل . أما تشبيه البرلمان بأنه بالونة تسرى فى أنحاء الجو ويتطلع إليها الناس ، وتنشل جيوبهم وهم مشغولون بالتطلع إليها، فليس كل هذا إلا نفثات من هذه « الشيطنة » التى تتملك برنارد شو بعض أحيـان .

ويستطرد برنارد شو بعد هذا الوصف فيناقش الكلمة التى قالهـا إبراهام لنكولن فى وصف الديمقراطية بعد موقعة جيتسبرج أثناء الحرب الأهلية التى نشبت بين شمـال الولايات المتحدة وجنوبهـا سنة ١٨٦٣ . هو يناقش كلمات لنكولن التى رويت عنه ونقشت على تذكاره فى واشنجتن وهى « إن الديمقراطية هى حكومة الشعب للشعب بوساطة الشعب » . ويبدو أن برنارد شو يؤمن بالأمر الأول من حيث حكومة الشعب ، كما يؤمن بالأمر الثـانى وهو الحكومة من أجل صالح الشعب ، لكنه يتشكك كيف نستطيع أن نحقق الأمر الثالث وهو الحكومة بوساطة الشعب . إنه يناقش كل ذلك فى هـذه الكلمات .

« والآن فلنفحص فـكرة أخرى عن الحرية ، فكرة أكثر اتصـالا بالشعر . لقد صوّر إبراهام لنكولن واقفا وسط أشـلاء القتلى فى ميدان الحرب بجيتسبرج ، وهو يعلن أن هذه المذبحة التى أعملهـا الأمريكيون فى إخوانهم الأمريكيين ، لم تحـدث إلا لأنه كان يخشى أن يحيق بالديمقراطية الفناء فتزول من على سطح الأرض : وعرّف الديمقراطية بأنها حكومة الشعب من أجل الشعب وبوساطة الشعب » .

« فلنقف نحن عند هذا البيان المشهور ونتفهّمه تفهّما دقيقا حتى ندرك ما ينطوى عليه (وبهذه المناسبة ، ليس صحيحا أن لنكولن قال هذا الكلام فى ميدان القتال بجيتسبرج ، ولم تقم الحرب الأهلية فى أمريكا للدفاع عن مبـدأ كهذا ـــ بل عـلى العكس من ذلك ، قامت الحرب الأهلية لتتيح لنصف الولايات المتحدة أن ترغم النصف الآخر عـلى أن يحكم بأسلوب لا يرضاه . ولكن لا بأس ! فانمـا ذكرت ذلك حتى أذكرك بأنه يبدو من المحـال أن

يتحدث سياسيون عن الديمقراطية ، أو ينقل صحفيون أحاديثهم ، من غير أن يحيطوا كل مايقولون أو ينقلون فى سحب غامضة من التهويش)» .

« والآن فلنفحص هذه العناصر الثلاثة من عناصر هذا التعريف بالديمقراطية . وأول هذه العناصر هو حكومة الشعب — وظاهر أن هذا ضرورى ، فلا يمكن لمجتمع إنسانى أن يعيش من غير حكومة إلا إذا تصورت أن إنسانا يستطيع أن يعيش من غير جهاز يسير تنفسه ودورته الدموية . والعنصر الثانى هو الحكومة من أجل الشعب ، وهذا أكثر هذه العناصر أهمية. وقد بيّن « دين إنج » لنا ذلك تبيانا كاملا حين سمى الديمقراطية شكلا من أشكال المجتمع ينال كل عضو فيه نصيبا متساويا من الرعاية . وقد أضاف «دين إنج» أن هذا مبدأ مسيحى ، وأنه يؤمن به كمسيحى. وكذلك أنا، ومن أجل ذلك فاننى أصرّ على المساواة فى الدخل. فمن المحال أن يسوى فى الرعاية بين رجل دخله مائة فى السنة ، وآخر دخله مائة ألف. أما عن العنصر الثالث الذى ذكره لنكولن ، وهو الحكومة بوساطة الشعب ، فهذا أمر مختلف جدا . لقد يتفق الملوك والظالمون والطغاة وغلاة المحافظين ، على أنه لابد من وجود حكومة تحكم ، وقد يتفق الديمقراطيون مثل دين إنج ومثلى على ضرورة وجود المساواة فى الرعاية لكل إنسان . لكننا ننكر هذا العنصر الثالث على أساس أن عامة الناس لايستطيعون أن يحكموا . أنه أمر بطبيعته مستحيل ، فلا يمكن لكل مواطن أن يكون حاكما ، إلا كما يستطيع كل غلام أن يكون سائق قطار أو ملكا من ملوك القراصنة. إنه من العجب أن نتصوّر أمة جميعها رؤساء وزارات أو طغاة ، كما أنه من السخف أن نتصور جيشا كله قوادومشيرون. إن الحكومة بوساطة الشعب لم تكن ولن تكون حقيقة، وإنما كانت صيحة يخدعنا بها قادة الرعاع حتى نصوّت إلى جانبهم . فاذا كنت فى ريب من هذا ،إذا أنت سألتنى : «لم لايضع الناس قوانينهم بأنفسهم» فليس على إلا أن أجيبك : « ولم لا يكتب الناس مسرحياتهم بأنفسهم ؟ » إنهم لا يستطيعون ، وإنه لأيسر أن تكتب مسرحية صالحة من أن تضع قانونا

صالحا . وليس فى العالم مائة رجـل يستطيعون تأليف مسرحية واحدة تصمد لحياة كل يوم كما ينبغى أن يصمد القانون » .

ونقول إنه على الرغم من أن هذا الـكلام يملؤه كثير من أنصاف الحقائق والمغالطات ، إذ أن أحدا لم يقل إن الناس جميعا سيضعون القوانين ، ولا أن كل فرد مكلف بأن يكون مشرّعا فى ظل أية حكومة ديمقراطيـة ، إلا أن هذا كان نقـدا وجهه برنارد شو لفريق من المشرّعين فى عصره حاولوا أن يفلسفوا المبادىء البرلمانية متجاهلين فى هذه الجهود ما كان ينطوى عليه النظام البرلمانى من نقائض . هو يصف بعـد ذلك فئة من هؤلاء الذين كانوا وراء مظاهر البرلمانية حين يفكر فى حـل من الحلول ، إنه يصف فئة من المشرّعين والسياسيين ممن حاولوا دائما أن يستغلوا النظام البرلمانى للوصول إلى مآربهم الشخصية ثم يصف الحركات الشعبية التى تعلن الثورة على هؤلاء. واستمع إليه بعد ذلك وهو يقول :

« والآن يبدو لنا هذا السؤال : « إذا نحن لم نستطع أن نحكم أنفسنا بأنفسنا، فما السبيل إلى إنقاذ أنفسنا من أن نقع تحت رحمة القادرين على حكمنا ، وهم قوم قد يبلغون حـدا كبيرا من الاستغلال والنذالة ؟» إن الإجابة الفطرية على هذا السؤال هي : بما أننا أغلبيـة ضخمة فاننا نستطيع ــ إن بلغت الحكومة حدا من الجور لا يمكننا احتماله ــ أن نحرق بيوتهم ونمزقهم إربا إربا ، ولكن لا يكاد هذا يرضينا ، فانه لا يستطيع القيام بذلك قوم من الفضلاء إلا إذا هم فقدوا عقولهم ، وإذا هم فقدوا عقولهم فقد يخطئهم التوفيق فيتهمون رجلا لم يقترف إثما ، ويحرقون بيتا لم يجترح صاحبـه جريرة . إذا نحن سرنا فيما نسميه حركة شعبية ، فقليل جـــدا ممن يشتركون فى هذه الحركة على علم بأسبابها . لقد شهدت بنفسى حركة شعبية بلندن . كان الناس يجرون فى الشوارع وقد احتد شعورهم ، وحالما رآهم قوم آخرون اشتركوا معهم على الفور . لقد كانوا يجرون لا لشىء إلا لأن كلا منهم كان يرى الآخرين وهم يعدون مثلهم. كان من الروعة أن تشهد آلافا من الناس يمرقون أمامك بأقصى ما يستطيعون

من سرعة ، ولم يكن هنـاك من شك في أن هذه كانت حركة شعبيـة ، وقد تأكدت فيا بعد أنه قد بدأتها بقرة هربت من حظيرتها . كان لهذه البقرة فضل كبير في تربيتى كفيلسوف سيـاسى ، وإنى لأؤكد أنك إذ ادرست ازدحام الناس ، ودرست الحيوانات الجامحـة المرتاعة ، وعكفت على دراسة أشياء من هذا القبيل بدلا من قراءة الكتب ومقالات الصحف ، فانك ستتعلم منها كثيرا عن السياسة » .

ليس هذا العبث، تلك السخرية إلا برنارد شو حين يخلط الفكاهة بالتفكير، وحين يحاول أن يستنبط من ذلك شعور الجماعة . ولاشك أنه يتجاهل في كل ذلك ما سيتحدث عنه في مؤلفات أخرى غير « عربة التفـاح » . ولنعد إلى بعض الجهـد لندرس آراءه السياسية إذا هو خلص من هـذه السخرية . لقد رأيت أنه سمّى نفسه فيلسوفا سياسيا، وقد رأيت أنه سمّى نفسه ديمقراطيا ومسحيا مثل « دين إنيج » ، فاعلم أنه كان حقا يؤمن بقوة الجماعة سواء تمثلت في مجلس نيابى أم في هيئة شعبية ، ولكنه كان في نفس الوقت يؤمن بقوة أفراد يرشحهم ذكاؤهم وخلقهم لتمثيل صالح الشعب الذى قال إن كل حكومة يجب أن تقوم من أجله .

* * *

على أن برنارد شو يكاد يخلف مشكلة الحكم وهى في حاجة إلى الحل الذى لم يصل إليه أحد منذ افلاطون . كيف يستطيع الشعب أن يحكم نفسـه من أجل صالحه ؟ تلك كانت المشكلة التى تعرض لها كل الفلاسفة السياسيين ــ ومنهم برنارد شو وقد كان فيلسوفا سياسيا بزعمه ــ ثم ما هو الصـالح العام الذى ينبغى أن تقوم الحكومة على أساسه ؟ إن الذى يقدمه برنارد شو من الأفكار لحل هذه المشكلة يتناثر في بعض مؤلفاته . والذى نلم به من مؤلفاته فكرتان أو ثلاث : أولاهما أن الحكم لصالح الشعب يبدأ بالحكم المحلى، وثانيتهما أن أن الحكم ينبغى أن يئول للفقراء حتى يستطيع هؤلاء أن يقدروا صالح الناس، وثالثتهما أن يتكون رأى عام موحد لا آراء عامة متباينة ،ثم أن يكون الهدف من كل حكومة هو المساواة ، المساواة المطلقة في الثروة والخدمات .

أما عن الحكم المحلى فقد علمت أن برنارد شو عرف هذا الحكم ، وأنه مارسه ست سنين بين سنة ١٨٨٨ وسنة ١٨٩٤ ، إذ انه كان يمثل كما أسلفنا حيا من أحياء لندن فى مجلسها البلدى. وكان «سدنى وب» هو الآخر عضوا فى هذا المجلس، وتقدم هو وسدنى وب وآخرون بمنهاج مفصّل مخطط لتحسين أحوال مدينة لندن . بل لقد اجتمع هؤلاء جميعا على أن يكونوا حزبا سياسيا كانوا يزمعون تسميته « حزب التقدم » . أما ملخص المنهج الذى تقدموا به فقد كان نظاما يعتبر اللبن والغاز ودور الرهن والسلخانات من الأمور التى تتبع المجلس البلدى ، كما دعا إلى إنشاء مستشفيات بلدية وإلى وضع سفن النقل تحت حكومة البلدية، وكذلك بشّر هذا النظام بأن يكون للمرأة أن ترشح نفسها لعضوية المجلس . ويدلك كل ذلك على أن برنارد شو كان يؤمن من أول حياته العملية بأنه ينبغى أن تقوم الحكومة بما يحتاج إليه الناس ، وهنا تبدأ فى الواقع فكرته الأساسية عن الاشتراكية . ففى هذا المحيط المحلى الذى قامت الحكومات المحلية لترضى فيه حاجات الناس ، بدا أنه لابد أن يشترك الناس فى المعايش ، وكانت الحكومة المحليه وبخاصة فى لنـــدن هى الطليعة للحكومة الاشتراكية . وحتى فى سنة ١٨٩٤ نفسها وصف لورد سولز برى مجلس لندن البلدى بأنه « مكان تجرى فيه تجارب جماعية واشتراكية ، بل هو مكان نجد فيه روح الثورة الجديدة وعدتها من العتاد والسلاح » .

وفى سنة ١٨٩٤ أيضا أخرج برنارد شو كتابا اسمه « الفهم الصحيح لوظيفة البلديات (١) » . وفى هذا الكتاب الذى لايزال مرجعا للحكم المحلى يفصّل فيه برنارد شو رأيه فى قيمة الحكومة المحلية ، ويزيد على ما أسلفنا أن الحكومة المحلية – مع برلمانها الصغير ، ولجانها التى تنبثق من مجالسها – أجدى على الناس من البرلمان الكبير . وهو يستطرد فيتحدث عما يمكن أن تقوم به المجالس المحلية فى مجال التربية والتعليم ، وفى سائر الخدمات ، وهنا يتحدث عن الضرائب التى يمكن للحكومة المحلية أن تفرضها على السكان .

(١) Commonsense of Municipal Trading

فيدعو إلى إعفاء الفقراء ومتوسطى الدخل من هذه الضرائب ، ويدعو إلى فرض ضرائب عالية على ذوى الدخل العالى .

ويثور نزاع بينه وبين بعض الراديكاليين حول نقطة هامة من النقط التى ستثار فيما بعد فى الحكومة الاشتراكية . فهل تتاح هذه الخدمات من تربية وتعليم إلى إسكان إلى طب إلى نقل ـ هل تؤدّى هذه الخدمات على أساس الربح ، أم تؤدى على أساس التكلفة ، فهل يؤدى السكان ما عليهم من إيجار أو المرضى ماعليهم من أتعاب ، أو المنتفعون بالغاز والكهرباء مقدار ماتتكلفه هذه الخدمات فحسب؟ أم ينبغى أن يدفعوا كل ذلك زائدا أرباحا أو فوائد أو عوائد تئول إلى المشرفين عليها أو على الحكومة المحلية ؟ كان من رأى بعض الراديكاليين من أعضاء مجلس لندن البلدى ألا بد من دفع التكلفة زائدا الفوائد أو الأرباح ، وكان من رأى برنارد شو أن يكون الدفع كفاء التكلفة والصيانة والتجديد فقط . لقد أشار برنارد شو إلى ذلك فقال : «إن اختفاء الربح من هذه العمليات البلدية يدل على أنها سليمة ، أما اختفاؤه فى شركة تجارية فقد يدل على عدم كفاءة القائمين بها . »

إن دل كل ذلك على شيء فانما يدل على أن برنارد شو كان يرى أن الاشتراكية قد بدأت فعلا فى المجالس المحلية التى كانت تحكم المدن الكبرى مثل لندن ، ولا زالت تحكمها إلى اليوم الذى نحن فيه الآن . وبقى أن تعلم أن برنارد شو بعد كتابه سالف الذكر بأكثر من ثلاثين سنة كان لا يزال يؤمن بأن الحكومة الاشتراكية يجب أن تبدأ من الحكم المحلى وأن تكون على نسقه . وفى فصوله الاولى من كتاب «دليل المرأة الذكية» يشير إلى ذلك فى إسهاب ، ويبرهن على أن كل المرافق العامة قائمة على مبدأ الاشتراكية ، فنحن اشتراكيون فى كثير من الأمور من غير أن ندرى . أما عن حكومة الفقراء فان النقد اللاذع الذى وجهه برنارد شو لأعضاء الحكومة الانجليزية وبخاصة قبل سنة ١٩٣١ كان منصبا على طبقة من السياسيين الأرستقراطيين استأثروا بالحكم . كان هؤلاء ـ كما قدمنا فى فصل سابق ـ بحكم نشأتهم وتربيتهم لا يكادون

يشعرون بما يشعر به الكافة . كان أغلبهم من الموسرين من أبناء الاستقراطية التى ورثت حكومة الإقطاع . وقد فسر برنارد شو تلك الظاهرة غير مرة فى كتاباته . وفى حديثنا عن نقدات برنارد شو للتربية والسياسة عالجنا فكرته عن نشأة الطبقة الحاكمة ، وكيف أنها ورثت طبقة الأقطاع لأن الموسرين من أفراد الطبقة الوسطى حاولوا أن يستولوا على السلطة السياسية بأن علّموا أولادهم فى المدارس الخاصة ذات المصروفات الباهظة التى سموها « المدارس العامة » . ويسترسل برنارد شو فى وصف هذه الطبقة التى كانت تحسب أنها خلقت من سلالة أخرى غير سلالة البشر ، فيحكم عليها بأنها هى أساس التدهور السياسى فى الحكومة . إنه يقول عنها : « لقد تخرج فى الخمسين سنة التى تلت قانون الإصلاح حتى سنة ١٨٣٢ ذلك الوحش الغريب الذى تعرفه الأمة باسم «أحد قدامى الخريجين» فى المدارس الخاصة (وقد اعتادوا أن يميّزوا أنفسهم برباط خاص للرقبة ، له لون خاص ونمط خاص) وهو شخص متفوق فى لعب الكريكيت والتنس والجولف . وله سلوك ولهجة فى الكلام تمتاز بها طبقته عن سائر الطبقات . وهو لايعلم شيئا عن العالم الذى يعيش فيه ، أو قل إن ما يعلمه عن هذا العالم جميعه خطأ . أما إعداده الفكرى فهو لايتجاوز الأفكار التى كانت تجول برأس عين من أعيان الريف ممن كانوا يعيشون فى القرن السابع عشر . »

كان هذا الوحش الذى وصفه برنارد شو فيما قدمنا هو آفة السياسة الداخلية والخارجية على السواء . ويلتفت برناردشو بعد ذلك إلى ظاهرة سياسية أخرى هى نشأة حكام وسياسيين من بين صفوف الفقراء . وهو يرى أنه إذا أخذ الفقراء بناصية الحكم فستزول تلك المهابة التى أحاطت بالغنى والثروة ، وسيكون للفقراء من الحكام من قوة التنفيذ ما يستطيعون استخدامه لصالح الناس جميعا . إذا حكم الفقراء فسيتلاشى — فى نظر برنارد شو — كثير من السيئات الاقتصادية التى نشأت عن التباين السحيق بين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء . سيتلاشى الإسراف والبذخ اللذان يؤيدهما الأغنياء فى حكوماتهم ،

ولن يكون دخول البرلمان أو الالتحاق بالجيش أو بوظائف السلك السياسى قاصرا على الأغنياء ، ولن يكون الكسل والنفاق والغرور من الميزات التى يمتاز بها إنسان ذو كرامة ، ولن تعتلى العرش ملكة جاهلة مثل الملكة فكتوريا - ثم لن يذهب قوم من هؤلاء المغامرين إلى أصقاع الأرض ليفرضوا الهوان على قوم آمنين فى بلاد أخرى . وعند برنارد شو أن قيام حكومات الفقراء، التى جاءت منذ أن تولى حزب العمال السلطة ، كان تبشر بالخير فى اتجاه السياسة نحو الطريق القويم .

ولكن يبدو أن برنارد شو كان يرى أن النظام البرلمانى نفسه ، والحدب على ما كان السياسيون يزعمون أنه الحرية السياسية ، وأخذهم بمبدأ النقاش والجدل فى كل أمر من الأمور ، يبدو أن كل ذلك لم يكن ليروق فى نظر برنارد شو . وهنا تثور مشكلة عويصة من مشكلات الحكم . فهل يكون أساس الحكم رأيا عاما واحدا تستند عليه الحكومة ؟ أم يكون أساس الحكم آراء عامة متباينة متضاربة ؟ نقول إن هذه المشكلة تثور أمامنا حين نذكر أنها هى أساس التفرقة بين الحكومة البرلمانية كما كانت تتمثل فى بريطانيا وفرنسا وأمريكا ، والحكومة الشيوعية أو الفاشيستية أو النازية كما تمثلت فيما بعد فى الروسيا وإيطاليا وألمانيا . وقد سبق أن أشرنا إلى أن برنارد شو كان يتراوح بين الناحيتين . فهو كان يؤيد الحرية من ناحية ، وهو كان يؤيد الحكومة القوية من ناحية أخرى . كان يكره من الحكومات البرلمانية ما ذكرنا من المظاهر الباطلة التى كان يتمسك بها السياسيون ، وكان يكره من الحكومات غير البرلمانية أنها كانت تعتمد على قوة رجل واحد . وكان يعجب بحرية النقاش والمحاجة فى الحكومات البرلمانية ، وكان يعجب فى نفس الوقت بقوة التنفيذ التى كانت تميز الحكومات غير البرلمانية .

* * *

وكانت كلمة « الرأى العام » تبدو كثيرا فى المناقشات السياسية . فكل سياسى كان يستند على الرأى العام ، وكل صاحب سلطة كان يتظاهر بأنه

يمثل الرأى العام . ويحلل برنارد شو هذا « الرأى العام » فماذا يرى ؟ إنه يرى أن الرأى العام فى عصره لم يكن إلا آراء عامة متباينة ، وأن هذه الآراء العامة تنبثق من مجموعات من الناس كل مجموعة لها رأى عام خاص بها ، وكل مجموعة تدافع عن رأيها العام وتزعم أنه الرأى الصحيح . ومن هنا كان هذا التناحر على السلطة ، ومن هنا كان الكفاح البرلمانى الذى شبهه برنارد شو بقتال الديكة فى أحيان ، وشبهه بالتفاخر الذى يدور فى قصص الأطفال بين الإبريق والمغلاة . وفى هذه الدوامة من الآراء العامة ينسى القصد الأساسى من الحكومة وهو خدمة الناس جميعا ، وإتاحة الفرصة للناس جميعا ، والمساواة فى الدخل بين الناس جميعا . وإذا كانت الحكومة يجب أن تسيطر عليها « دولة أعمال » فقد كان جديرا بدولة الاعمال هذه أن تنبع من رأى عام موحد لا عن آراء عامة تتجاذبها ، ويعمل كل فريق ذى رأى عام على عرقلة ما يحاوله الفريق الآخر .

كان يدعو برنارد شو إلى تنشئة هذا الرأى العام الواحد فى ناحيتين : فى التربية وفى السياسة . كان يدعو فى التربية إلى أن تكون هناك قاعدة خلقية صحيحة لتربية الناشئين ، وكان يدعو إلى تربية سياسية للمجتمع الذى عاش فيه حتى تنبع الدولة عن فكرة عامة موحدة . وكان يأمل برنارد شو بعد ذلك أن يجتنب كل الشرور التى رآها فى الحكومة البرلمانية : إنها شرور فى الداخل حين تصدر عنها النظم البرلمانية الباطلة ، وهى شرور فى الخارج حين تجر البلاد إلى الصراع المسلح فى ميدان القتال . وفى هذا يقول برنارد شو :

« يستطيع المرء أن يرى أن نظام العدوان الإمبراطورى الحالى — وهو النظام الذى تتخذ فيه ذريعة من الكشف والاستعمار فيتبع العَلَمَ شراذم من النهابين ، ويتبع التجارة العلم ، ويأتى فى الأثر المبشرون — أقول إن هذا النظام ينبغى أن ينهار حينما تنتقل السلطة على قواتنا العسكرية من الطبقات الرأسمالية إلى الشعب . وسيصحب اختفاء هذه الطبقات المتباينة مع ما يسمونه سخرية (آراءها العامة) أن يتآلف المجتمع فى طبقة واحدة برأى عام واحد ،

له وزن لايمكن إدراك مداه . وهذا الرأى العام سيتيح للشعب أن يسيطر على السكان ، ثم يكون للاستقلال الاقتصادى الذى تحرزه النساء أثر فى حياة الأسرة ، فسيكون الفرد فى الدولة وحدة معترفا بها تحل محل رب الأسرة ، وسيغير ذلك من مركز الأطفال ويعدل من الفائدة التى تعود علينا الآن من نظام الأسرة . ولابد أن تشكل كنيسةللدولة من جديد على أصول ديمقراطية تتيح مثلا لرجل « مفكر حر » مثل مستر جون مورلى أو مستر براد لاو أن ينتخب قسيسا لديروستمنستر » .

ولعل هـذا الرأى العام الموحد هو الذى أعجب برنارد شو عنـد زيارته موسكو ولقائه ستالين ، بل لعله هو الذى أعجبه حين ناقش ظهور الدكتاتورية النازية أو الفاشية ، وحين شخص هتلر وموسولينى فى مسرحيـة « جنيف » حاول أن ينطقهما كلاما يدافعان به عن فكرتهما . وقد كان يهدف برنارد شو إلى إيجـاد هذا الرأى العام الموحـد فى إنجلترة حتى تستطيع أن تلاشى تلك الآراء العامة التى وجدها تتنازع الناس أو السكان كما كان يلذ أن له يسميهم .

* * *

ونخـرج من مجال السياسة الداخلية إلى ميدان السياسة الخـارجية لنعالج تطور برنارد شو الفكرى فيما يتصل بالاستعمار والإمبراطورية والحرب . لقد أسلفنا فتحدثنا عن فكرة برنارد شو عن هذه الأمور الثلاثة ، وشهدنا كيف انتهى به الأمر إلى أن ندد بالحرب فى جميع أشكالها ، ودرسنا بعض الدراسة اتجاهاته من حيث طبيعـة الإنسان وميـله إلى إتقان فنون الحـرب والدمار وعزوفه عن فنون السلم والتعمير . وبقى علينـا أن نعالج رأيه فى سيـاسة الإمبراطورية كما كونه فى كتبه ومؤلفاته الأخيرة .

ونريد فى هذا الصدد أن نعود إلى ما اقتبسناه فيما سلف . ففى نظر برنارد شو تستند سياسة التوسع الإمبراطورى على ذريعـة هى الكشف والاستعمار ، وتبدأ بالتجارة أولا ، ويتبع التجارة العلم ، ويتبع العلم شراذم من الجنود غير النظاميين ممن ينهبون ويسلبون ، ويأتى فى أثر كل أولئك المبشرون . والواقع

أنك إذا حاولت أن تجمع فى سطرين تاريخ الاستعمار الأوروبى لما وجدت أبلغ ولا أدق من هذه الكلمات القليلة . . . فى هذه الكلمات يتمثل النمط الذى كان يسير عليه الاستعمار منذ كشف فاسكودا جاما رأس الرجاء الصالح إلى اليوم الذى تتخلص فيه موزمبيق من الحكم البرتغالى . فالكشف الجغرافى كان يأتى أولا ، وبعد الكشف الجغرافى تأتى التجارة ، والمغامرون من التجار كانوا يؤلفون شركات مثل شركة الهند الشرقية وما يلبث هؤلاء أن يزرعوا علم بلادهم ليطلبوا حمايتها فيكون صراع حول حرمة هذا العلم بين شراذم من جنود غير نظاميين لم يأتوا الا للنهب والسلب وبين فئة أو فئات من السكان الآمنين . وهذا هو الذى حدث تماما فى الهند أيام كليف وهيستنجز ، وهذا هو الذى حدث فى الصين أيام حرب الأفيون ، ومثل هذا حدث تماما فى جنوب أفريقيا وفى الكونغو فى الغارات التى شنتها الشركات على مواطن السكان . وينقلب الصراع بعد ذلك إذ تتدخل الحكومات المغيرة لحماية هذا العلم فيبدأ القتال ، وما تلبث الدولة المغيرة أن تضم هذه البلاد « إلى التاج » لحماية مصالح رعاياها . وفى خلال كل ذلك يفد المبشرون إلى هذه الاصقاع البعيدة ، ويكون من حسن الحظ إذا قتل واحد منهم حتى تطالب حكومته بمزيد من الامتيازات للتكفير عن دمه البرىء .

اقرأ كتاب يانيكار عن « آسيا والسيطرة الغربية » بل اقرأ كتاب برتراندرسل عن الحرية والتنظيم وسترى أن تاريخ الاستعمار الأوروبى لآسيا وإفريقيا لايعدو هذه الكلمات التى كأنما جاءت من برنارد شو عفو الخاطر . ولكن عبقرية برنارد شو فى هذه المرة أيضا تبدو فى الإسهاب الذى شرح فيه هذه العمليات الإمبراطورية . ففى فصول خمسة من الجزء الأول من كتابه « دليل المرأة الذكية » يهلهل البحث فى أساس الاستعمار وهو التجارة الخارجية . فهو يعود إلى ما كان قد بدأ بحثه هوبسون فى مناقشات الفابيين من أن الاستعمار لم يكن إلا من صنع طبقة الرأسماليين ، وأن الرأسماليين فى ذلك كانوا هم الدوليين . وفى نظر برنارد شو أن رأس المال لم يكن له وطن ولا ضمير . فهو إذا أحس أنه لايستطيع الاستثمار فى داخل

البلاد ، فانه يندفع إلى خارجها يبحث عن مجالات يستثمرها ، ولا يمنعه أن تكون هـذه الاستثمارات أفيونا كما حدث في الصين أو عبيـدا وخمرا كما حدث في أفريقيا . ورأس المال يبحث دائما عن العمل الرخيص ، فهو يندفع إلى الخارج حتى يستطيع أن يستخدم أرخص العمال ليجني أفدح قدر من الفائض .

وتقوم شركات التجارة بغزو البلاد الخارجية تجاريا ، بأن تقيم ما كانت تسميه محطات تجارية في البلاد الشرقية . ويتكاثر النازحون إلى هذه المحطات، وتجتذب إليهـا عصابات من البيض من شـذاذ الآفاق واللصوص وقطاع الطرق والبلطجية « ممن لفظتهم الحضارة الرأسمالية ، بعد أن اعتصرت آدميتهم وطاردتهم بقوانينها ونظمها . وسرعان ما يتحول المكان بفضل هـؤلاء الهمج المتوحشين من البيض إلى جحيم حقيقي لا قانون فيه ولا شريعة إلا قانون الغابة وشريعة القوة الغاشمة » .

ويصف برنارد شو كيف يجأر الناس بالشكوى من هذا الجحيم فتتدخل الحكومة ، وترسل الحديد والنار حتى تهدىء هذه الفتن التي قام بها في الأصل اللصوص وقطـاع الطرق . ثم يأتي دور الإمبراطورية حين ترى بلد مثـل إنجلترة أنه لابد من تمدين هذه البلاد المفتوحة ويجد الرجـل الانجليزي نفسه بين عشية وضحاها مالكا لإمبراطورية لا تغرب عنها الشمس — يقول برنارد شو : « وهكذا وجدنا أنفسنا ، نحن سكان الجزر البريطانية ، وقد انتقلت عاصمتنا من لندن إلى قنـاة السويس . ثم وجدنا أنفسنا في مركز عجيب حقا ، وذلك أن رعايا أمتنا ، أو اخواننا من المواطنين الذين يفرض علينا الواجب الوطني ، أن نبذل في سبيـل الدفاع عنهم آخر قطرة من دمائنا ، يتألفون من خليط كبير من الناس ، ليس من بين كل مائة منهم إلا أحد عشر فقط أبيض اللون أو حتى مسيحيا » فلم يكن تاريخ الإمبراطورية عنده إلا سلسلة من المغامرات التجارية فرضها الرأسماليون على بلادهم بعد أن اضطرهم نظامهم الرأسمالي ، إلى البحث عن زبائن في البلاد الخارجية وإلى إقامة أسواق أخرى في المستعمرات التي أخذوها غصبا بقوة الحديد والنار .

وفى نفس الوقت كان يرى برنارد شو أن الامبراطورية كانت خطأ حتى من وجهة الصالح العام للانجليز أنفسهم . لقد كان يرى أن تحول رأس المال إلى الخارج قد انتج نتيجتين ظاهرتين . أولاهما زيادة التكاسل عند طبقة الرأسماليين ، وثانيهما زيادة البطالة بين صفوف العمال . أماعن الظاهرة الأولى فقد كان برنارد شو يرى أن منابع الثروة فى إنجلترة نفسها لم تكن قد استنفدت بعد ، وأنه كان يجب أن يستكمل استثمارها حتى يمكن أن تعم الرفاهية جميع سكان إنجلترة . ولأن الطبقة الارستقراطية أرادت أن تستزيد من أرباحها فقد اهملت استثمار البلاد واستهدفت الربح العاجل الوفير . وأما طبقة العمال فانها وجدت نفسها عاطلة ، لأن رأس المال الوطنى عزف عنها وتحول خارج البلاد إلى طبقة من العمال أقل أجرا ؛ وكان على الحكومة بعد ذلك أن تعالج هذه البطالة ، بأن تفرد لهذه الطبقة إعانات . وكأنما قد رجع برنارد شو إلى رأى جيريمى بنتام حين قال إن التوسع فى الفتح الخارجى كان ضارا بالبلد المغلوب والبلد الغالب على السواء .

على أن الضرر الأكبر الذى حاق بهذا العالم من هذه الظاهرة الامبريالية ـ أو ظاهرة التوسع الامبراطورى ـ كان الحرب : الحرب بأوسع معانيها وبما اشتملت عليه من قتل الإنسان لأخيه الإنسان ، وتعذيبه ، وإحراقه ، واختراع كل المعدات لفناء الجنس البشرى . ويشرح برنارد شو فى فصل خاص تصادم الإمبراطوريات ، وكيف أن الحرب العالمية الأولى لم تكن فى الواقع إلا حربا بين الرأسماليين . جاءت المانيا متأخرة فى حلبة الصراع الإمبراطورى ، وكانت تريد لصناعاتها وعلمها وفنها مكانا تحت الشمس . فلم تكن حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ فى واقع أمرها إلا صراعا دمويا بين الرأسماليين فى إنجلترة وفرنسا وايطاليا من جانب ، والرأسماليين من المانيا من جانب آخر من أجل السيطرة على القارة الافريقية ، أما ماقدم من أسباب لهذه الحرب فلم تكن فى نظر برنارد شو إلا ذرائع ومعاذير ، وهذا فى نفسه ماذهب إليه لينين فى كتابه « الاستعمار أقصى مراحل الرأسمالية » .

ولم تكن الحرب قاصرة على هذه الإمبراطوريات التى تصادمت فكانت الحرب الكبرى . بل الحرب فى نظر برنارد شو لم يزل يستعر أوارها بين الأمةالمحكومة والأمة الحاكمة . وهنا أيضا يرى أن الرأسماليين فى الحكومات الحاكمة هم الذين يتشبثون بأذيال السلطة . فان الشعوب قد تقدمت ورأت نفسها جديرة بأن تطالب بالاستقلال ، لكن الرأسماليين فى كل إمبراطورية تشبثوا بأسواقهم وغنائمهم كما يتشبث النسر بفريسته . واشتعلت بعد ذلك حروب بذل آلاف من الناس فيها دماءهم . وحين انتزعت شعوب مثل آيرلنده ومصر استقلالها فانهم لعنوا الانجليز بكل لسان لأنهم يعلمون أى مقاومة وأى حرب شنتها الرأسمالية على رغبتهم فى التحرر .

* * *

لقد رأيت فى هذا الحديث كيف طاف برنارد شو فى مشكلات الحكم ، وكيف كان يرى بدعابته وروحه الفكهة الجانب الزائف من البرلمانية . وقد رأيت أنه كان يؤمن بالحكومة المحلية كأساس للحكومة الاشتراكية العامة ، وقد رأيت كيف نقد التوسع الإمبراطورى ووجد فيه أساس الكوارث العالمية لا من وجهة نظر الأمة المحكومة فقط ، بل ومن وجهة نظر الأمة الحاكمة أيضا . لكننا نريد فى ختام حديثنا أن نكرر ما تحدث به من أنه لإيجاد حكومة رشيدة تستطيع أن ترعى صالح الناس كافة ، فينبغى أن يكون هناك رأى عام واحد . ولعله أن كان فى حياته جميعا يسعى إلى تكوين هذا الرأى العام بكتبه ومؤلفاته ومقالاته ومناظراته ومسرحياته .

ولكن هل كان راضيا عن حكومة إنجلترة وعن مبلغها من الاشتراكية . يكفى أن ننقل هنا بعض ما كتبه عن حكومة العمال بعد عودته من الروسيا فقد قال : « إن مستر هندرسون ومستر كلينز لا يستطيعان أن يستخرجا الاشتراكية من هذه الأداة الحكومية أكثر مما يستطيع إنسان أن يستخرج بيضا مشويا من ماكينة الخياطة » . فهل كان يوازن حين كتب ذلك بين

حكومة ذات رأى عام موحد وحكومة أخرى ذات آراء عامة متباينة . لقد كان هذا برنارد شو ! !

« أقول إنه ينبغى أن ينهار هذا النظام — أى نظام الامبراطورية — حينما تنتقل السلطة على قواتنا العسكرية من الطبقات الرأسمالية إلى الشعب . وسيصحب اختفاء هذه الطبقات المتباينة مع ما يسمونه سخرية «آراءها العامة» أن يتآلف المجتمع فى طبقة واحدة برأى عام واحد لا يمكن إدراك مداه».

لقد كان هذا فى الصميم من فلسفته السياسية .

(٨)

آراؤه الدينية

فى مقال كتبه الدكتور إنج فى سنة ١٩٤٦ عن « شو كرجل من رجال الدين » يحاول إنج ـ وهو قسيس ـ أن يسلك شو مع المفكرين الذين يؤمنون بالمسيحية . وهو يبنى هذا الحكم على أن برنارد شو لم يكن يؤمن بمظاهر الدين المسيحى ، لكنه كان فى نفسه رجلا متدينا حين أجمل إيمانه الدينى فيما نسميه « التطور الخالق » وفيما سماه هو نفسه «قوة الحياة» . ويرجع القسيس إنج فيما كتبه عن برنارد شو تلك السنة إلى مسرحيتين من مسرحيات شو هما « عودة إلى متشالح » و « أندروكليز والأسد » . ويخرج منها بأن شو فى مناقشته الشعور الدينى استطاع أن يخرج من النطاق المادى الذى ضرب على الإنسان فى هذه الأرض ، إلى آفاق أخرى غير مادية : استطاع أن يعبر الجسر الذى يصل ما بين حياة الواقع إلى حياة أخرى غير مادية سماها « حياة القيم » . وطالما عبر قوم هذا الجسر الذى يفصل بين الحياتين ،لكن قليلا منهم من استطاع أن يصور حياة القيم كما ينبغى أن تكون .وفى هاتين المسرحيتين ـ عند القسيس إنج ـ استطاع شو أن يرينا لمحات من هذه القيم الدينية متخطيا فى ذلك مظاهر المسيحية التى سماها إنج نفسه «أساطير تحل محل الأصوات، تشبيهات تحل محل التاريخ، وتمثيليات تحل محل الدين ».

نحن عند الحد الذى وصلنا إليه من حديثنا هذا لا نحيط كثيرا بعالم القيم الذى تحدث عنه دين إنج ، والذى قال إنه قد بلغه برناردشو، ولكننا إذا فحصنا دراسة العقيدة عند برنارد شو فسنرى أنه قد انتهى إلى ماسماه قوة الحياة وأن قوه الحياة فى خلاصتها لم تكن إلا قوة من عالم الغيب هى التى تنظر فى كل وجه من الوجوه فى عالم الشهادة . وقد ذكر برنارد شوفى بعض حديثه أنه لا يؤمن من الثالوث المسيحى إلا بروح القدس . فلعله آمن بروح القدس لأنه رأى فى روح القدس منبعا « لقوة الحياة » ولعل القسيس إنج

حينما تعرض للكتابة عن برنارد شو كصاحب دين كان قد أكبر هذا الإيمان بروح القدس ، أما بعض ماخلاذلك من طقوس المسيحية فقد سماها دين إنج نفسه « أساطير وتشبيهات وتمثيليات » .

« أساطير وتشبيهات وتمثيليات » تلك هى المظاهر الدينية التى لم يؤمن بها برنارد شو ، أو قل إنه تخطاها إلى أساس دينى عميق . ولعل دكتور إنج لم يجمل هـذه المظاهر الثلاثة أعتباطا بل لقـد جمعها بعد أن درس برنارد شو وماكتبه عن الدين دراسة فاحصة . وقد عزف برنارد شو عن هـذه المظاهر الدينية ورأى أن الناس قد اتجهـوا إليها فجعلوها هى الأساس الدينى بينما هى فى الواقع لم تكن إلا « شكليات فقط » ، وسيحاول فى قصصه ومسرحياته أن يعالج هذه الشكليات ، ولكن لا على أساس أنها الدين بل على أساس أنها أساطير وتشبيهات وتمثيليـات ، وسينظر إلى المسيحية من النواحى السياسية والاجتماعية أيضا ، وسيرى النفـاق ظاهرا فى هؤلاء الذين كانوا يعتنقونها لا من أجل العقيدة الدينية نفسها . بل من اجل المجد أو المرأة أو المال .

وعنده أننا يجب أن نفرّق بين العقيدة الأصلية والعقيدة المفتعلة ، يجب أن نفرق بين من يؤمن إيمانا صادقا لاغاية له ، ومن يؤمن إيمانا ظاهرا من أجل غاية أخرى . فنظام القساوسة عندهم لم ينشأ على طول العصور إلا لأن القسيسين أرادوا أن يستولوا على « السلطة » . ومن أجل الاستيلاء على السلطة حاولوا أن يحولوا بين المخلوق وخالقه ، وأن يحتكروا الغفران لأنفسهم ، ومن أجل الاستيلاء على السلطة أيضا فرضوا طقوسا وتقاليد على من يمنحونهم الإيمان ، ومن أجل الاحتفاظ بهذه السلطة حاولوا أن يفسروا آيات الكتاب المقدس كما يحلو لهم . فبرنارد شو من الذين ينكرون سلطة القساوسة ورجال الدين ، وهو ينضم بذلك إلى سلسلة كريمة من المفكرين الدينيين الذين حاولوا أن يفرّقوا بين العقيدة الصادقة المخلصة وبين التظاهر بالعقيدة من أجـل غايات أخرى لاتمت للدين بسبب .

والثورة على السلطة هى التى تتمثل لنا فى كتاباته جميعا . ولعل هذه الثورة

نفسها هى التى دفعت به إلى الاعجاب بمحمد ﷺ . فقد كان المثل الأعلى للشخصية الدينية عند برنارد شو هى شخصية النبي العربى . فهو يتمثل فى هذه الشخصية تلك الحماسة الدينية وذلك الجهاد فى سبيل التحرر من السلطة . وهو يرى أن خير مافى حياة النبي أنه لم يدع سلطة دينية ليسخرها لمأرب دنيوى ، ولم يحاول أن يحول بين المؤمن وربه ، ولم يفرض على المسلمين أن يتخذوه وسيلة لله تعالى ، ولذلك فلم يخلف فى تاريخ الاسلام تلك السلطة التى ادعتها الكنيسة فى تاريخ المسيحية .

تلك لمحة عن آراء برنارد شو فيما يتصل بالعلاقة بين الدين والمتظاهرين بالتدين : كان يكره إذن هذا التحليل من أجل إدراك السلطة . وهو بعد ذلك يكره القسوة التى تقترف باسم الدين . لقد عاش شبابه الأول فى عصر كان أصحاب الدين يصورون الله تعالى فى صورة الحاكم المطلق الذى يشعر ويغضب وينتقم وينزل اللعنات ، وكان هؤلاء على أن القسوة نفسها من بعض ماتجرى به طبائع الأشياء وأنها مما تنزل به الدين نفسه . وباسم الدين كان يعذب الاطفال فى المدارس وباسمه كان الفقراء يتقبلون الفقر ، وباسمه كان المرضى يتقبلون المرض والمظلومون يتقبلون الظلم . فقد كان أصحاب الدين يؤيدون المرض والفقر والظلم ببعض آيات الكتاب المقدس . بل ولم يخل العصر من بعض المفكرين الذين ذهبوا إلى تسويغ الفقر والألم والاستعباد حتى يحدث توازن بين طبقات المجتمع .

بل هو عزف أيضا عن إراقة الدماء والتعذيب ، ووجد أن المسيحية قد عبرت زمنا وأهل الدين يعذبون غيرهم ويريقون دماءهم . بل هو قد عزف أيضا عن اتخاذ الصليب شعارا للمسيحية ، وسمى المسيحية فى كثير من كتاباته « دين الصليب (١) » لا « دين المسيح (٢) » ولم يقبل فى حياته أى مبادىء خاصة بأية كنيسة من الكنائس ولا أية طائفة من الطوائف تتخذ

---

(١) Crosstianity

(٢) Christanity

لها شعارا من شكل الصليب ولا أية أداة أخرى من أدوات التعذيب ولا أى رمز لسفك الدماء .

* * *

وشىء آخر أثار برنارد شو على أهل الدين فى عصره ذلك هو التعصب. لقد علمت أنه كان مفكرا يحذق التفكير ، وكان فى تفكيره يميل إلى النقاش وقرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان . كان يتخذ فى تدليله طريقة سقراط فى تفنيد كل رأى حتى يصل إلى الرأى الأخير . ثم إذا هو وصل إلى الرأى الأخير لم يكن هناك بد من أن يدلك على مواطن الضعف فيـه . تلك إذن طريقته كمفكر محترف ، وتلك طريقته أيضـًـا فى فهم الدين . فهو يضيق بالتعصب مهما تكن دوافعه ، وهو يرى أنه آفة الدين والعلم معاً ، وأن أهل الدين لايتعصبون لرأيهم إلا حين تضيق بهم الحيل ، وتستغلق عليهم أبواب الفكر ، وتعقد دونهم وسائل المحاجة .والمتعصبون عنده يشبهون عبدة الأصنام من حيث تقدير القيم وعبادة ما وجدوا عليه آباءهم . كل فكرة جديدة عنده قائمة حتى تبرز إلى الوجود فكرة أخرى تلاشيها ـ وهو يجد متاعا فكريا كما أسلفنا فى مناقشة كل فكرة مهما ظهرت غرابتها .

تلك كانت اتجاهات برنارد شو نحو الدين فى الفترة التى كان ينضج فيها تفكيره ، وهى كلها اتجاهات لنقد الدين الذى وجده حين نشأ فى دبلن ثم حين انتقل من دبلن إلى لنـدن . وقد استطاع الدكتور إنج كما قدمنـا أن يضع جانبا كل ذلك وأن يدرس مسرحيتيه « عودة إلى متوشالح » و « أندروكليز والأسد » فيرى أن برنارد شو مسيحى خالص المسيحية على الرغم من إنكاره لكل هذه الشكليات .

وعلى الرغم من أن هاتين المسرحيتين قد كتبهما شو وهو كهل الا أننا ينبغى أن نتابع تاريخ التفكير الدينى عنـد برنارد شو . وقد رأيت فيما أسلفنا عليك أن برنارد شو قـد وقع وهو صبى ثم وهو شاب فى المحنة التى يتعرض لها كثير من أمثاله حين يمرون بفترة من الضلال يعقبها فترة من الاستقرار أو

المدى . ثم لنذكر أن هـذا التطور الديني عند برنارد شو قد ظهر في قراءاته ومحاولاته في الفترة التي تكون إيمانه فيها وهي الحلقة الأخيرة من القرن التاسع عشر والحلقة الأولى من القرن العشرين .

* * *

وقد اشتجرت الخصـومة بين الدين والعلم في القرن التاسع عشر ، ولن نستطيع أن ندرك نشأة العقيدة الدينية عنـد برنارد شو إلا إذا درسنا هـذه الخصومة ، وإلا إذا قدرنا المصالحـة التي انتهى إليها الجانبان في مطلع القرن العشرين . ولعـل تاريخ الفكرة الدينية عند شو قد اختط نفس الطريق الذي سارت فيه تلك الخصومة . ولعلنا نرى في مذهبه الديني كيف عقدت المصالحة بين العلم والدين ، وكيف أدرك أهل العلم أخيرا أنهم لا يقلون عن أهل الدين تعصبا وغرورا ، وأنهم حين تمسكوا بكشوف العلم انما كانوا يهيئون طقوسا وتقاليد مثل الطقوس والتقاليد التي نشأت عند أهل الدين . بل لعلنا إذا درسنا تقلب هـذا العصر بين الشك واليقين وبين الهدى والضلال استطعنا أن نرى تطور التفكير الديني عند برنارد شو وتقدمه من درجة إلى درجة .

وتاريخ الفلسفـة في القرن التـاسع عشر يبدأ بالشك في الدين وبالإيمان بالعلم ، لكنه ينتهي بفلسفـة علمية تشبه الدين . بدأت بآثار الفلاسفـة مثل « امانويل كونت » (١٧٢٤ – ١٨٠٤) و « أوجست كونت » (١٧٩٨ – ١٨٥٧) فلاسفة إيجابيون (١) يجحدون الإلهام ويؤمنون بالعقل وحده. فقد كان « كانت » مثلا يرى أنه لا عـلاقة بين الخلق والدين ، وأن فكرة الخلق لم تكن إلا نتيجة للارادة الانسانية خالصة من كل دافع آخر ، منفصلة عن فكرة الدين في الجزاء والعقاب ، وكان لكونت فلسفة إيجابية تعترف بالحقائق والقوانين غير متأثرة بأي اعتبـار ديني . وذهب هو ومن تبعه ممن عاشوا في القرن التاسع عشر إلى أن الحقائق ليست في نفسها إلا ظواهر ندركها

---

(١) Positive

بالحواس ، أما ماوراء الحواس فلا توجد هذه الحقائق . ومثل هذه الفلسفة اللادينية كانت تشجع المذاهب المادية التي قامت في أوروبا ، وكانت تتكامل ومارآه أصحاب نظرية التطور من أن الكفاح بين الأنواع يستند على قانون الاختيار الطبيعي . مثل هذه المذاهب المادية المتكاملة هي التي كانت لاتحتفل بمبادىء الدين ومايتصل به من العواطف والإحساسات : ثم كانت لاتعترف بعنصر هام جدا من عناصر العقيدة الدينية وهو عنصر « الإلهام » .

وظل أهل العلم ـ فيما عدا قلة منهم ـ ينظرون إلى كل شيء وإلى كل ظاهرة نظرة واقعية إيجابية لا شأن للدين بها . أما أهل الدين فقد حاولوا أن يوفقوا بين بحوث العلم وعقائد الدين. حاول الأولون أن يبحثوا مشكلات الخلق والزواج والحكومة تحت النور الذى يضفيه العقل والحواس غير مرتبطين بما يمليه الدين . فالإنسانية عندهم كانت هي المرجع الأول والأخير ، والتفكير والتعقل وإدراك المحسات كانت هي الوسيلة لعمل الخير أو الواجب، وشخصية الإنسان كانت غاية في نفسها ينبغي أن يعمل كل فرد لاستكمالها . أما أهل الدين فقد قالوا إن كل ذلك من صلب الدين ، وأنه ينبغي أن يعنوا الإنسان لبعض العقائد التي انحدرت إليه ولو لم يستخدم في إدراكها عقله ولا حواسه ، وأن الدين لم يدع إلا إلى الخير والقيام بالواجب ، وأنه لن يقوم إنسان بواجبه إلا إذا كان بين جنبيه دافع من الشعور بالدين المعترف به، والدين المعترف به عندهم كان المسيحية في كل عقائدها ومظاهرها .

* * *

ذلك أساس الخصومة الحادة التي اشتجرت بين العلم والدين. وقد تعصّب أهل الدين لإيمانهم ، وتعصّب أهل العلم لما أنتجوا من بحوث العلم. لقد ظن أهل العلم أنهم قد انتهوا أخيرا إلى نتائج حاسمة لاسبيل إلى تفنيدها . وعبر العالم عشرات من السنين في مادية مطلقة لاتؤمن إلا بما تمليه الحواس ولا تعنو إلا للعقل. وخلق أهل العلم لأنفسهم طقوسا وأوضاعا تشبه في تشدّدها ما كان يختلقه لأنفسهم أهل الدين الأولون . ثم مالبث أن انجاب هذا الغرور العلمي ،

لأن العلماء أنفسهم كشفوا أخيرا أنهم كانوا مخدوعين ، وأن آراءهم العلمية التي بنيت على الحواس والعقـل يعتورها الخطل والوهم من كل ناحية ، وأنه لا سبيل إلى فهم الكون إلا إذا آمن الناس بالإلهام إلى جانب العقل ، وأن الإيمان الديني لم يكن جميعه باطلا كما ظنوا . بل لقد انتهى بعض العلماء إلى دين جديد هو الذي سموه « التطور الخالق (١) » وانحدر هذا الدين الجديد من سلسلة علمية بدأت بآراء «لا مارك» في مبدأ القرن التاسع عشر وانتهت بآراء «برجسون» في أول القرن العشرين.

وقد تعلم أن « كانت » كان يرى أن للانسان إرادة تتحكم في خلقه ، فاعلم أن هذه الإرادة هي النواة التي بني عليها الدين الجديد . لكن « كانت » كان قد أفرط في تقدير العقل فعزا هذه الإرادة للعقل وحده ، أما الدين الجديد فقد ذهب إلى أن هذه الإرادة قائمة في أغوار النفس كالإلهام . لقـد برهن قوم من العلماء على أن العقل وحده لا يكفي ، وعلى أن الحواس كثيرا ما تخطيء . وحينما شك العلماء في ماهية العلم غمرتهم موجة أخرى من الدين والتصوف . وكان من هؤلاء عالم فرنسي توفر على دراسة التطور وعلـم الأحياء ثمان سنوات وخرج بمذهب يجمع بين العلم والدين هو مذهب التطور الخالق . وإنما نقصد بذلك هنري برجسون، فهو الذي أثبت أن في كل نواة حية قوة متحفزة هي التي سماها « الانبثاقة الحيوية (٢) » . وهي عنده أساس مذهبه في التطور الخالق وهذا أساس الدين الجديد .

ويتلخص هذا الدين الجديد في أن للحياة الإنسانية على ظهر الأرض قوة في ذاتها هي قوة الحياة أو الخلود . كل خلية من الخلايا مليئة بهذه القوة المتحفزة التي تريد أن تنطلق من عقالها . ويستوي في هذا القوة الحيوية عند الإنسان والحيوان ، وهذه القوة هي السر في تطور الإنسان في الأجيـال

---

(١) Creative Evolution

(٢) Elan vital

السحيقة التى نشأت فيها الإنسانية . فالإنسان لم يتطور هذا التطور العجيب إلا لأن قوة الحياة عنده قد دفعته فى طريق التطور . وكلما مرت على الإنسان أجيال ظهرت قوة الحياة فى نفسه ، وابتدعت له جسما يلائم بينه وبين الوسط الجديد ، وعقلا ينير له سبل العيش ، وخلقا يستجيب به للحياة الجديدة ، وروحا تدفعه دائما إلى الأمام .

وإذا استطعنا أن ندرك قوة الحياة هذه ـ وبرنارد شو يسميها « قوة الحياة » ـ أدركنا ما وراء كتاباته من فلسفة ودين . لذلك ينبغى أن ندرك كل الإدراك هذه الحيوية التى نادى بها فلاسفة مثل هنرى برجسون . لقد كشف هؤلاء أن هذه الحيوية تتمثل فى إرادة الإنسان . فاذا استوت هذه الإرادة لفرد من الأفراد فلا بد ان يتطور ، ولا بد أن يتقدم نحو غرض الحياة السامى ، وإذا استوت هذه الإرادة لجمهرة من الناس فلا بد أن يتطور العالم إلى الدرجة المرجوة من الكمال . فاذا أراد إنسان أن يتقدم فينبغى أن ينشأ فى نفسه هذا الدافع الحيوى نحو الكمال : هذه الإرادة التى رُكِّبت فى النفس من غير أن تتدخل فيها الحواس . فليس للحواس تلك القيمة التى رآها الفلاسفة الايجابيون ، ، بل إن هذه الإرادة تعتمد على الفكر وتنشأ فى النفس كالوحى أو الإلهام . وما دامت هذه الإرادة ـ أو قل هذه النزعة الحيوية ـ كامنة فى النفس فهناك أمل فى خلود النوع الإنسانى وبلوغه غاية الكمال .

* * *

أين يكون برنارد شو من كل ذلك ؟ بين هذا الحديث وبرنارد شو كثير من الصلات ، فهو لم يؤمن بالدين كما أراد معاصروه أن يصوروا الدين ، ولم يؤمن بمظاهر القسوة التى كانت تتمثل فى بعض الطقوس الدينية ، ولم يؤمن بأهل الدين ولا بالمتدينين الذين كانوا يعتبرون أن الدين سلطة من السلطات . وهو لم يؤمن بطقوس العلم ولا بأوضاعه ولا بتقاليده ، بل لقد ذهب إلى أن أهل العلم أشد تعصبا وأكثر اندفاعا وراء الباطل من أهل

الدين . وهو قد اهتدى إلى هذا التطور الخالق الذى أوجزناه فيما أسلفنا . ذلك بأن برنارد شو كان شخصا دينيا فى قرارة نفسه ، وهو لم يتحدث عن موضوع كان موفقا فيه كما تحدث عن الدين ، ولم ينجح كما نجح فى تصوير شخصياته الدينية .

كان برنارد شو قد مضى فى أول أمره فى عصر من الشك والضلال ، لكنه فى نشأته الفكرية كانت تنجاب عنه شكوكه سنة بعد أخرى، ولم يكن تقلبه فى العقيدة بين الشك واليقين ، وبين الضلال والهدى ، إلا صورة لحياة العصر الذى عاش فيه : صورة لذلك النزاع الذى احتدم بين العلم والدين ثم انتهى بهذه المصالحة التى تحدثنا عنها .

حينما حاول الغلاة من أتباع دارون أن يدعوا إلى النشوء والارتقاء ، كان أكثرهم على أن الحياة قد بدأت فى هذه الأرض بدءا مجهولا ، وأن الانتخاب الطبيعى هو الذى أنتج التطور . فالمادة عندهم كانت الأصل فى كل شىء ، ولم يكن للروح مكان فى مثل هذه المادية المطلقة . ثم ذهبوا إلى أنه لامكان على ظهر الأرض إلا لأولئك الذين تلائمهم ظروفها . وكانت عملية الانتخاب الطبيعى عندهم تسير وفق الهوى والمصادفة ، لاتسيطر عليها إرادة عليا ، ولا تهيمن عليها قوة روحانية . وكذلك أنكر بعض أتباع دارون ماأتى به الدين ، وظنوا أن العالم لم يخلق إلا للأقوياء من الحيوان والأناسى. لكن رجلا مثل برنارد شو لم يكن يرضى بذلك كله. لقد نظرحواليه فرأى أية هوة سحيقة يتردى فيها الأناسى إذا هم آمنوا بما يصفه العلماء . إنها عند حد قوله أرض بلقع تشبه « موضعا اجتاحه جانب منهار من جبال الثلج ، أو أنها أشلاء رجل دهمه قطار » . لقد رأى أن غاية ما استطاع دارون وأتباعه أن يفسروه إنما هو « كيف خلق العالم ؟ » ولم يستطيعوا أن يفسروا « لماذا خلق العالم؟ » وقد آلى على نفسه أن يجيب عن السؤال الثانى.

هناك غرض سام خلق العالم من أجله ، وهذا الغرض السامى هو نفسه غرض الحياة . والتطور الخالق هو الذى يوجه الإنسانية نحو هذا الغرض

السامى . فالتطور الخالق عند برنارد شو حل لهـذه الخصومة العنيفة التى نشبت بين العلم والدين . وكان يعلم برنارد شو أنه لايستطيـع أن يفسر كل شىء بهذا التطور الخالق ، لكنه كان يرى أن قوة الحياة هـذه هى التى تدعو الإنسان إلى أن يتطور ويتغير ويتقدم . وقد تتطور قوة الحياة فى طريق غير صالح ، وقد يلتوى بها القصد ، وقد لاتصيب الإنسانية أهـدافها ، ولكنا سنبلغ الغايةمن حياتنا فوق ظهرالأرض إذا نحن آمنا بقوة الحياة . والإنسانية نفسها غير ذات شرور ولا آثام ، لكنها ذات أخطاء نستطيع أن نعالجهـا فى المستقبل البعيد إذا تهيأت لنا قوة الحياة .

وإذا أنت نظرت إلى الحياة من هذا الوجه وجدتها يسيرة ، ووجدت أن مشكلاتها تنحل الواحدة بعد الأخرى . فليس عـلى ظهر الأرض شرور ولا آثام ، بل هناك أخطاء . ليس الحقـد ولا الظلم ولا الجشع ولا القسوة ولا التعذيب طبـائع أصيلة فى النفس الإنسانية ، لكنها نتجت جميعـا لأن تطور الإنسان على ظهر الأرض كان خطأ ، ولأن الإنسانية نفسها كانت قد اتخذت نهجا ملتويا فى تطورها . فقوة الحياة كامنة فى نفوسنا ، وهى تريد أن تسلك بنا الطريق السوى، لكنها لاتستطيع أن تفعل ذلكحتىنعاونها علىبلوغ غرضها الأسمى . ولعلنا نستطيع أن نحتمل الآلام التى نلقاها فى حياتنا إذا نحنأطلقنا قوة الحياة هذه ، وإذا نحن ساعدناها على التطور فى سبيلها القويم .

تلك هى الفكرة الأساسية التى يؤمن بهـا برنارد شو إيمانا ثابتا مكينـا . إنها من تفكيره كما تكون البؤرة من العدسة ، أو كما يكون القالب من جسم الإنسان . إنه ينكر إنكارا باتا أن يكون هناك ضغط أو إرهاق أو إرغام أو عنف فى سبيل التطور ، وهو ينكر أن تكون هناك سلطة على الإنسان غير هذه السلطة الحيوية ، ثم هو يفحص عن الآثام والشرور التى يعانى منها العالم فيراها فى النور الذى يضفيه عليها إيمانه بفكرة التطور ، إنه يرى فى الفقر والمرض والجهل أخطاء ارتكبتها الإنسانية فى تطورها ، وهو لايدعى أن واحدا يستطيع أن يحيط علما بكل هذه الأخطـاء ، وغاية مايؤمن به أن

يتعاون الناس على ظهر الأرض حتى تندفع قوة الحياة فى سبيلها السوى فتتلاشى تلك الأخطاء الواحدة بعد الأخرى .

وعنده أن العمل والتعاون على ظهر الأرض كفيلان بأن يبلغا الإنسان هذا الغرض السامى الذى تمضى إليه قوة الحياة . وليست الجنة عنده إلا طورا بعيدا من أطوار الإنسانية يتجلى فيه التعاون والعمل على أحسن صورها . بل هو يرى أنه إذا لم يعتصم الأناسى بالتعاون والعمل فسيأتى يوم يزول فيه البشر ، ويحل محلهم على ظهر الأرض مخلوقات أخرى تستطيع أن تحقق أغراض الحياة العليا من حيث الفكر ثم من حيث العمل . وإذا كانت بحوث أصحاب علم الأحياء قد برهنت على أن مخلوقات أخرى قد سبقت الإنسان على ظهر هذه الأرض ، فان الإنسان لم يحل محلها إلا لأنه كان طورا من أطوار القوة الحيوية التى يؤمن بها . فاذا لم يبرهن الإنسان على أنه جدير بأن يمثل هذه الحياة المثالية ، فسوف يتلاشى هو أيضا ليحل محله مخلوق آخر يحقق هذه القوة الحيوية التى تسيطر على الوجود .

الأمر إذن أمر حياة أو موت عند الإنسان . ولابد له إذا أراد الخلود من أن يعمل ثم يعمل ثم يعمل. أما البطالة، وأما الكف عن التفكير، وأما التدابر ، فان هذه جميعا مقدمات لانحلال البشرية . ولن تجدى قوة الحياة هذه حتى نخدمها ونعاونها ، ونبذل لها أقصى ما نستطيع من الجهد ، ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا حاولنا أن نصفى نفوسنا من شوائب المادة ، وإلا إذا خالفنا التقاليد التى كبلتنا بالأغلال وسارت بنا فى طريق الأخطاء ، وإلا إذا اندفعنا فى طريق جديد تعمل فيه البشرية جميعا فى تعاون وثيق .

لقد أسلفنا عليك أن برنارد شو كان رجلا دينيا ، وأوجزنا لك بعض عقائده الدينية ، لكنك إذا أردت أن تحللها أخيرا وجدت أنه يؤمن بقوة الله. لقد كان يحلو له أن يسميها « قوة الحياة » ، وكان يحلو له أن يسميها « النزوع إلى البقاء » ، وكان يحلو له أن يتخذ لها اسما علميا هو « التطور الخالق » ،

لكن كل ذلك عندنا ينطبق على فكرة « الله » التى تروح وتغدو فى كتبه ومسرحياته . على أنه لم يكن من المؤمنين فحسب ، ولم يكن من الدعاة إلى الإيمان فحسب ، بل هو متصوف أصيل . إنه يفكر فى هذه القوة ما يفكر ، ثم تهتاجه الفكرة بعض أحيان فيخرج بها فى مقال أو قصة أو مسرحية . ولعل أروع مسرحياته لاتدور إلا على « قوة الحياة ». فمسرحيته « الإنسان والإنسان الأسمى » وقصصه الخمس « رجعة إلى متشالح » كلها تدور على هذه العقيدة الدينية التى وصل إليها . ولم يكن برنارد شو فى هذه المصالحة الدينية إلا واحدا من المفكرين فى هذا العالم الذين بدأوا بالتفكير لكنهم انتهوا إلى التصوف : نذكر منهم سانت أوجسطين فى تاريخ المسيحية ونذكر منهم الإمام الغزالى فى تاريخ الفكر الإسلامى .

* * *

تلك كانت إحدى المحن العميقة التى وقع فيها برنارد شو كمفكر . لقد وقع بين نقيضين من نقائض الحياة هما العلم والدين ، وكان ينبغى أن ينتهى به الجدل إلى مصالحة بين هذين النقيضين ، وقد انتهى إلى مصالحة تؤلف بين العلم والدين ، ومر بفترة من فترات المناقشة والمناظرة . ونستطيع أن نرى تلك المحنة التى مر بها فى كتاب صغير ألفه فى سنة ١٩٣٢ فى بعض أسفاره فى أفريقيا وهو كتاب سماه « مخاطرات الفتاة السوداء فى البحث عن الله ». ونحن نعالج هذا الكتاب لنرى فيه وصفا لهذه المحنة التى وقع فيها برنارد شو كمفكر ولنتم بعد ذلك موجزنا عن اتجاهاته الدينية .

وقد يبدو الكتاب فى أول الأمر مضحكا تملؤه السخرية والعبث ، ولكنه فى الحق سجل لحياة البحث والتحقيق التى عاشها برنارد شو . فقد أودع الكتاب وصفا للأدوار التى مرت بها عقائده ، إنه يصف نقلته من الضلال إلى الهدى ، ومن الشك إلى اليقين . والكتاب بعد ذلك نقد للعقائد الدينية التى يعتنقها فئات من الناس تختلف منطقا وجنسا ، ولكنها تتفق فى التعصب الأعمى ، أو قل إنه عرض للعقائد الدينية التى يذهب إليها كل فريق من الناس . وجدير بنا أن

نعرض هـذه العقائد بإيجاز ، وسنرى أنه إنما كان يسلك منهج البحث الذى امتاز به ، سنرى أنه لم يكن فى ذلك إلا مفكرا محترما يناقش كل فـكرة بنقيضها ، ثم يستخلص نتيجة مايزال بها حتى يبين فيها موضعا أو موضعين من مواضع الضعف .

وليست الفتاة السوداء فى بحثهـا عن الله إلا روحا حرة طليقة خرجت من خدرها فى بعض الآفاق من أواسط أفريقيا وقد تجردت من العقائد والتقاليد كى تهتدى إلى الله تعالى ، ولقيت فى بحثها كثيرا من المؤمنين العابدين . لكن كل فريق من هؤلاء كان يرى أنه هو وحـده على هدى وأن الآخرين فى ضلال بعيد . ثم تقلبت بين كل فريق وآخر ، وناقشت أولئك وهؤلاء ، فرأت نواحى الضعف فى العقـائد التى تقلبت بينها . لقـد قابلت فئات مختلفة ممن يؤمنون بآلهة مختلفين ، ثم انتهت أخـيرا إلى الإيمان بالعمل لأن العمل هو غاية الحياة . والحق لم تكن هذه الفتاة السوداء إلا برنارد شو .

وهذه الآلهة التى يصفها برنارد شو فى تلك الرسالة : إنها هى الآلهة التى لقيته حين كان يبحث عن الله . فهذا إله جبار متجبر يرسل البروق والصواعق ، أو يطلب إلى الناس أن يذبحوا له القرابين ، لقـد لقيته الفتاة السوداء أو برنارد شو ــ لسنا ندرى ــ فازورت عنه . ثم التقت بعده بأحد الذين لا يؤمنون إلا بالعلم ، كان رجلا قميئا قصير النظر وهب حياته للبحث العلمى وكفر بالله تعالى ، وكان يدعى أن العلم مبرأ من الخطأ ، لكنه مايلبث حتى يعترف بعجزه لأنه لا يستطيع أن يفرق بين الثعبـان وفرع من فروع الشجر ، ولا بين المقعد وظهر التمساح . ثم هناك نقاش بين الوثنية والاسلام : هناك نقاش فكرى بين عبادة الأصنام والتجرد من عبادة الأصنام : هناك التفكير فى الخلود وفى كل ما يمتاز به الإسلام من الوحدانية والصدق وقوة الإيمان . ثم ماذا ؟ ثم تنتهى الفتاة السوداء ــ أو قل برنارد شو ــ إلى الفلسفـة فتلقى رجلا شبيها بفولتير . وتعجز هذه الفلسفة عن أن ترضيها وترى نفسهـا أخيرا مسوقة إلى فكرة « التطور الخالق » .

ويلتقى بها برنارد شو وتؤمن به وبفكرته عن « التطــور الخالق »، وترى معه أنه لاسبيل إلى الحياة فى هذا العالم إلا بالعمل الصالح ، وأنه لابد من أن يتعاون الناس حتى ينتهجوا نهجا سويا . وترى الفتاة أنه لا مناص من أن تتزوج من هذا الأيرلندى العجوز ، ويحاول الهرب منها ولكنها تمسك بتلابيبه ويتزوج الإثنان ويعملان فى حديقة يحاولان أن يشذبا ما بها من شجر . وكذلك ينتهى بحثها أو بحثه عن الله بأن يعمل ثم يعمل حتى يهيىء هذه الحديقة لحياة أخرى جديدة يتجلى فيها العمل الصالح والتعاون الرشيد .

* * *

هذه هى الرحلة التى قطعهـا برنارد شو فى تفكيره الدينى . فقـد بدأ بأن نقد الآراء الدينية الشائعة، لكنه كما قال عنه دكتور إنج رجل دينى فى قرارة النفس . وسنصف فيما يلى من صحائف هـذا الكتاب رحلة أخرى قطعها فى هذا التفكير الدينى : سنعالج رحلة أخرى قطعها حتى وصلت به إلى مذهبه فى « التطور الخالق » أو « قوة الحياة » .

(٩)

قوة الحياة

كانت فكرة التطور قديمة قدم الفلسفة نفسها ، وقد عالجها أرسطو حين حاول أن يجعل الحيوانات فى فصائل ففرق بين الفقريات واللافقريات. لكنها لم تنل شيئا من الشيوع إلا فى القرن الثامن عشر . وفى خلال ذلك القرن لم تكن نظرية علمية بل لقد كانت مجرد فكرة ذهب إليها غير العلميين من أصحاب الاجتماع . فقد آمنوا بأن فى المجتمع تطورا أو تغييرا ـ وآمنوا بعد ذلك بفكرة التقدم . وكان فلاسفة القرن الثامن عشر من أمثال كوند ورسيه يناقشون فكرة التقدم على أساس أن العالم سوف يتطور إلى ماهو أحسن مها قدم عليه الزمان . وهذه الوجهة المتفائلة هى التى صاحبت بحوث أغلب فلاسفة القرن الثامن عشر الذين دعوا إلى سمو الإنسان وحريته ومساواته . وهى التى انتهت بالأفكار التى سبقت الثورة الفرنسية فى أخريات هذا القرن .

لكن فكرة التطور انتقلت من مرحلة التطور هذه إلى مرحلة الملاحظة والاستنتاج فى الحلقة الأخيرة من القرن الثامن عشر، أى انتقلت من طور التأمل والتفكير إلى طور البحث والدرس . وكان يدور هذا البحث على أسئلة هامة أولها كيف نقسم أنواع النبات والحيوان ؟ وثانيها كيف انحدرت أنواع النبات والحيوان فى تعاقب مستمر منذ البداية ؟ وثالثها كيف تتكيف هذه الأنواع وكيف تستجيب لتغيرات الوسط الذى تعيش فيه ؟ ورابعها كيف ظهر كثير من هذه الأنواع على ظهر الأرض ثم كيف اندثرت وحلت محلها أنواع أخرى ؟ ثم هل يمكن للانسان أن يتحكم فى تطوير هذه الأنواع ؟ كانت هذه هى الأسئلة التى حاول العلماء فى الحلقة الأخيرة من القرن الثامن عشر أن يجيبوا عليها . ومن جهود هؤلاء العلماء ظهر « علم الأحياء » وهذا العلم بكل ماينطوى عليه هو الذى حاول أن يفسر كل هذه الظواهر .

فى الحلقة الأخيرة من القرن الثامن عشر كان قد أجمع علماء التطور على أن تغيّر الوسط هو السبب المباشر فى تغيّر الأنواع. فتغيّر الوسط هو الذى يغيّر من النبات والحيوان وهو الذى يمهد لبعض الحيوانات أن تتطور وتعيش ويقضى على بعض الحيوانات الأخرى بالفناء . ولكن ظهر فى هذه الحقبة عالم فرنسى هو جان باتست لامارك (١٧٤٤ – ١٨٢٩)، وكان الرجل طالب علم منذ نعومة أظفاره ، درس الطب والظواهر الجوية ، وبحث فى الكيمياء ، لكنه انتهى إلى دراسة النبات ، ووطن النفس على أن يضع نباتات فرنسا فى فصائل محددة . ثم اتجه إلى دراسة الحيوان حين كلف أن يحاضر فى علم الحيوان . وأخرج أول كتاب له عن التطور فى سنة ١٨٠١ ، وظل قرابة الثلاثين سنة بعد ذلك يكتب عن التطور فهو يعد بحق أحد مؤسسى « علم الاحياء »، كما أنه بحق أول عالم هلهل البحث فى نظرية التطور .

وما ينتصف القرن التاسع عشر حتى يظهر عالم آخر من علماء التطور الذى نسبت إليه نظرية التطور ، لأنها لقيت على يديه الذيوع الجارف . وكان ذلك هو تشارلز روبرت دارون (١٨٠٩ – ١٨٨٢)، وقد ولد فى أسرة ديدنها العلم. وحاول أن يدرس الطب أولا لكنه عدل عن ذلك وأجيز من كمبردج فى سنة ١٨٣١، وظل من ديسمبر سنة ١٨٣١ إلى أكتوبر سنة ١٨٣٦ على ظهر باخرة اسمها « بيجل » يقوم بدراسة الحياة الطبيعية فى رحلات رمت به إلى جنوب أمريكا والجزر المجاورة ، ثم إلى تاهيتى ونيوزيلند واستراليا وتسمانيا والبرازيل وجزر الآزور . ولم يبدأ دارون بدراسة النبات والحيوان كما بدأ لامارك، لكنه بدأ بدراسة طبقات الأرض . وكان متأثرا كل التأثر بآراء أستاذه سير تشارلز ليل صاحب كتاب « مبادىء علم طبقات الأرض » . وكان ليل نفسه متأثرا بدراسة التطور عند لامارك . وليل هو الذى وجه الأذهان ببحوثه الجيولوجية إلى الآفاق العلمية الواسعة التى تنتظر العلماء فى بحوث التطور . وقد تأثر به تشارلز دارون فيمن تأثربهم . وعكف دارون على دراسة علم طبقات الأرض ، وانتهى بأن حاول أن يفسر التطور نفسه .

وسار فى مرحلة من مراحل الملاحظة والاستنتاج ، وانتهى بأن وضع نظاما للتطور هو الذى أخرجه فى كتابه « أصل الأنواع » فى سنة ١٨٥٩ .

والعنوان الكامل لهـذا الكتاب يدلنا على النقط التى ركز تشارلز داروين عليها ، فالعنوان بأكمله هو : « فى أصل الأنواع بوساطة الانتخاب الطبيعى أو حفظ أفضل الأجناس فى تنازع البقاء ». والكتاب ذو ثمانية فصول، وفى الفصول الأربعة الأولى يحاول داروين أن يفسر عمليـة الانتخاب الاصطناعى التى تجرى فى الحيوانات والنباتات ، ويستنتج منهـا داروين أن هناك أيضـا انتخابا طبيعيا بين هذه العضويات. وفى الفصـل الخامس يعالج داروين قوانين التخلف والتحول وأسباب التغيرات التى تحدث للعضويات إلى جانب الانتخاب الطبيعى. أما فى الفصول الثلاثة الأخيرة فان داروين يفصّـل البينات والبراهين التى تدل على أن نماء العضويات واندثارها محكوم بظاهرة التطور. وقد أعقب ظهور الكتاب مناقشات حادة عن التطور كان زعيمها توماس هكسلى . ولكن فلنذكر أن الذى ذاع عن داروين كان هو « تنازع البقاء » أو « الكفاح من أجل الحياة » و « بقاء الأصلح » . وقد شاع أن الذى يبقى بعد هذ الكفاح إنما هى الحيوانات الأفضل أو الأنسب، وأن هـذا البقاء رهين بظروف أو حوادث لم يستطع العقل البشرى أن يتحكم فيها .

وحينما نشر هذا الكتاب فى سنة ١٨٥٩ أقبل الناس على قراءته ومناقشته . وأثار كل ما كتب من قبل عن التطور ، ووجدت كل فئة فيه ما يرضيها أو يرضى حاجة عندها . وظلت كل هـذه الفئات ترجع إلى هذا الكتاب وما فيه من آراء . بل لقـد أساء كثير من هذه الفئات فهم الـكتاب، ولم يحيطوا علما بنظرية التطور كاملة ، بل خرجت أغلب المناقشات عن « تنازع البقاء » و« البقاء للأصلح » وهى ملونة بلون الفئة التى قامت بهـا : فبعضهم وجد فيه مؤيدا للمذهب المادى ، كما وجد فيه الاشتراكيون قاعدة لكفاحهم ضد الرأسمالية ، وكذلك وجد فيه الملحدون ما يؤيد إنكارهم لله سبحانه ، وبعضهم وجد فيه مسوّغا للحـرب التى تستعر بين الإنسان والإنسان وتنتهى ببقاء الأصلح ،

وبعضهم وجد فيه مؤيدا لتفوق الطبقات بعضها على بعض ، وتسويغا لاستبداد الأغنياء بالفقراء والأقوياء بالضعفاء والعلماء بالجهلاء ، وبعضهم رأى فيه سندا للتوسع الإمبراطوري وللاستعمار الأوروبي ولاستعباد الرجل الأبيض لغير البيض من سكان أفريقية وآسيا ، وبعضهم لجأ إلى آراء دارون ليوفقوا بينها وبين الدين . كل هؤلاء آمنوا بأن الأمر في التطور كان متروكا للصدفة المحضة ، وأن تنازع البقاء لايكاد يحكمه إلا القوة المادية العارمة . والحق أن دارون ومدرسته في التطور لم تعن إلا بوصف التطور وكيف نشأت الأنواع وكيف اختلفت ، ولكنها لم تعن بعنصر هام جدا وهو لماذا كان هذا التطور؟ عنيت بالكيف ووصفته لكنها لم تعن بالسبب ولم تمض فيه .

وتدبر برنارد شو كل ذلك ، ومازال يقرأ ما كتبه تشارلز دارون ومدرسته عن أصل الأنواع وعن تنازع البقاء وعن البقاء للأصلح حتى كبر في وهمه أن يكون الأمر جميعه رهينا بمحض المصادفة . لقد كان يدرك شو أن لآراء دارون قيمة موضوعية علمية لاقبل له بمناقشتها أو الجدال فيها ، لكنه كان يدرك في نفس الوقت أن نظريات دارون قد أدخلت في علم الأحياء ثم في الاجتماع والسياسة والعلاقات الانسانية ما أدخله مذهب « حرية التجارة » في الاقتصاد . فقد أدخل هذا المذهب منافسة شديدة لاحدود لها بين التجار والصناع وأصحاب رءوس الأموال . فهو الذى دعا هؤلاء وأولئك إلى اقتحام الأسواق وإلى إقامة حرب عوان في سبيل المنافسة . وكما أن أغلب أصحاب التجارة والصناعة والاقتصاد في ذلك العهد كانوا يدعون إلى « حرية التجارة » وإلى العنف والقسوة والظلم والاستبداد في سبيل الكسب ، فكذلك كان يدعو المؤمنون بمذهب دارون إلى حرية التقاتل في سبيل المادة. ويتحدث برنارد شو فيما بعد عن أثر نظرية دارون في حياة المجتمع فيشبهها بهوة سحيقة لاقرار لها ويصف هذه الهوة السحيقة فيقول :

« يبدو فيها الاستسلام للقدر استسلاما تشمئز منه النفس ، ثم يتزايل فيها تزايلا شنيعا لعينا كل ما في الحياة من جمال وذكاء ، ومن قوة وعزم ، ومن

شرف وأمل : تتزايل فيها هذه الأمور حتى لتبدو وكأنها صورة من أرض بلقع اجتاحها جانب منهار من جبال الثلج ، أو كأنما هى أشلاء إنسان دهمه قطار . . . فلو لم يكن هذا تجديفا فى حق الله سبحانه – إذا كان هذا كما يقولون حقيقة من حقائق العلم – فاننا لا نستطيع أن نرى فى نجوم السماء ، ولا فى المطر أو الندى ، ولا فى الشتاء والصيف ، ولا فى النار والحرارة ، ولا فى الجبال والتلال ما يسبّح معنا بحمد الله . فهذه جميعا (أى عند أتباع دارون) تخبط خبط عشواء ، فهى عندهم تعدل من الأشياء بأن تجيعها تجويعا أعمى ، وبأن تقتل منها كل ما لم يسعده الحظ بأن يتمكن من البقاء فى هذا الصراع العالمى الذى يصوره هذا اللغو » .

* * *

وفى هذا الجدل حول نظرية التطور لجأ برنارد شو إلى علماء آخرين تحدثوا عن التطور ، لكنهم كانوا يعالجون التطور ، لا من حيث أنه شىء خارجى تفرضه الظروف على الكائن العضوى ، ولكن من حيث أنه شىء داخلى ينبثق من نفس الكائن العضوى . وكان ملاذ برنارد شو فى ذلك العالم الفرنسى جان بابتست لامارك (١٧٤٤ – ١٨٢٩) . وقد كان لامارك كما أسلفنا يتحدث عن التطور قبل دارون بخمسين سنة على الأقل . وكان قد درس أثر الوسط من مناخ وغذاء وتربة فى تغيير الأنواع . ولكنه كان يرى أن الوسط ليس وحده هو السبب المباشر للتغيّر وإنما هو مجرد فرصة للتغيّر . أما السبب الأصلى فهو فى قانون آخر أثبت فيه أن التطور نتيجة لحاجة جديدة يشعر بها الحيوان . فليس التطور مجرد تأثر سلبى بالعوامل الخارجية ، بل هو تأثر بعوامل داخلية عند الكائن العضوى « يشتهى » فيها أن يتغير . وقد أطلق على هذا القانون نظرية « الاشتهاء » فالأعضاء قد تنكشف وتترقى نتيجة لتغير يحدث من الوسط ، ولكن السبب المباشر لهذا الترقى هو أنها ترغب أو تشتهى هذا الترقى ، وهى تترقى فعلا تبعا لكثرة الاستعمال .

وضرب لامارك الزرافة فى طول رقبتها مثلا لذلك . فهى لا شك قد ولدت

فى وسط كله أشجار ذات قمم عالية خضراء . وشعرت الزرافة بأنها فى حاجة إلى أن تأكل الورق الأخضر الغض من على قمم الشجر ، واشتهت ذلك وسعت إليه ، وكلما كانت تمد رقبتها لحاجتها إلى هذا الورق كانت تطول هذه الرقبة. فالاستعمال العضو والشعور بالحاجة إليه هو الذى ينمى هـذا العضو. وعلى العكس من ذلك تضمحل الأعضاء بالتدريج نتيجة لتغير ما فى الوسط مما يلغى الحاجة إليها أو الاشتهاء لها ومما يمحو استعمالها .

ثم إن لامارك ذهب إلى أن كل الصفات التى تكتسبها العضويات فى حياتها تنتقل من الجيل الذى ظهرت فيه إلى الأجيال التى تأتى من بعد . فسلالات الزرافة ظلت ترث هـذه الرقبة الطويلة حتى أصبحت هذه من خصائص هذا النوع .

* * *

وقد كان لدراسة التطور عنـد لامارك أشد الأثر فى اتجاهات برنارد شو فقد دفعته إلى أن يعالج التطور من الداخـل : أى التطور بالإرادة أو السعى أو الاشتهاء ، واستطاع أن ينقد دارون بما عرفه عن لامارك . ولكن لم يكن وحده فى نقده نظرية النشوء والارتقاء بما أسلفنا ، وإنما كان هناك كاتب إنجليزى آخر كان له أبلغ الأثر فى تفكير برنارد شو ، بل لقـد كان له أبلغ الأثر أيضا فى أسلوب برنارد شو ، وفى مقدرته على التهكم وفى إبرازه الحقائق العارية . وإنما نقصد بذلك صموئيل بطلر .

وقد ولد صموئيل بطلر سنة ١٨٣٥ وتوفى سنـة ١٩٠٢ . وكان كاتبـا وأديبا وناقدا ورساما هاجر فى شبابه إلى نيوزيلنده وعنى فيها بتربية الأغنام. وقد أسلفنا أن برنارد شو كان متأثرا بمذهبه الخلقى ولكن الذى يعنينا من تاريخ حياته فى هذا الموضع من كتابنا أنه كان صاحب رأى فى التطور. وقد عرف تشارلز دارون وصاحب ولده ، وقرأ له وكتب مقالات فى نقـد مذهبه . وكان صموئيل بطلر قد درس نظرية لامارك وتأثر بها ، فاختلف مع دارون فى نظرية « الانتخاب الطبيعى » . وكتب فى سنة ١٨٧٧ كتابا سماه « الحياة

والعادة »، وفى سنة ١٨٧٩ كتابا آخر سماه «التطور قديما وحديثا »،وفى سنة ١٨٨٠ كتابا ثالثا سماه « الذاكرة غير الواعية »، وفى سنة ١٨٨٦ كتابا رابعا سماه « حظ أم دهاء ؟ » . وفى كل هذه الكتب الأربعة كان يرى بطلر أن الأمر فى الانتخاب الطبيعى ليس متروكا للصدفة المحضة ، ولا للظروف ولا للحظ ، ولكن الأمر فى ذلك رهن بما سماه سعى الفرد إلى تكييف نفسه بنفسه حسب البيئة أو الوسط ، وأطلق على هذا السعى « مهارة » بعض أحيان وأطلق عليه « مكرا » فى أحيان أخرى : ثم إن هذا التطور نفسه ينتقل من جيل إلى جيل بحكم الذاكرة غير الواعية أو العادة التى ترثها السلالات الواحدة بعد الأخرى .

كان صمويل بطلر شغوفا بالنقاش العلمى وظل طول حياته يمارس الدراسات العلمية المتصلة بعلم الأحياء . لكنه لم يكن من « العلميين » الذين مارسوا البحث والتقصى والاستنتاج ، لذلك كان علماء الأحياء فى عصره ينظرون إليه نظرتهم إلى هواة العلم من الأدباء . أما هو فقد كان ينظر إليهم كأنما هم دولة علمية أوليجاركية تتخذ من العلم دكتاتورية عاتية . ومهما يكن من مكانته بين العلماء فقد كان يتحدى تفسيرهم للتطور وإنكارهم للعقل. ولذلك فهو يمتاز باثباته نقطتين هامتين : أولاهما أن وراء فكرة التطور فلسفة تقضى بأن فى كل خلية من خلايا الجسم مهارة أو إرادة موروثة من شأنها أن تشكل التطور لراحة الجسم وثباته ، وثانيتهما أن فكرة الوراثة قائمة على استمرار كل جيل فى الأجيال التى تليه . فقد ذهب بطلر إلى أن كل جيل يرث عن أسلافه عادات تختزنها ذاكرة غير واعية . وهذه الذاكرة غير الواعية هى التى تنقل العادات من سلالة إلى سلالة أخرى وهى التى تحفظ الجنس من الفناء .

* * *

وقف برنارد شو بين دارون من ناحية ، ولا مارك وصمويل بطلر من ناحية أخرى. وأنت تذكر ما أسلفنا عليك من فكرة «الاشتهاء» عند لامارك، ومن فكرة « السعى » أو « المهارة » أو « المكر » عند بطلر ، بل لعلك قد

أدركت معى أن صمويل بطلر قد اتبع الأساس الأول للتطور الذى ذهب إليه لامارك : اتبع هذا الأساس وزاد عليه وجعله قاعدة لتفكيره . وقد اتبع برنارد شو هو الآخر الآراء التى ذهب إليها بطلر ، وبخاصة فى كتاب بطلر « الحياة والعادة » فقد ثار شو بنظرية الانتخاب الطبيعى عند دارون ، وذهب إلى أن لكل العضويات درجة من الوعى أو الذاكرة أو الإرادة . فاذا حاولت هذه العضويات محاولة متصلة لأن « تطوّر » عينا أو أنفا أو رقبة، أو إذا هى حاولت أن تحصل على مقدرة على السباحة أو ركوب الدراجات ، فلا بد أنها ناجحة فى الحصول على ذلك . ثم إنه لابد أن ينتقل جزء ولو بسيط من هذا التعديل العضوى إلى السلالات المقبلة ، وذلك بفعل ذاكرة غير واعية ماتزال تندسى من جيل إلى جيل حتى تبدو يوما ظاهرة فى جسم العضو أو فى غريزته .

كان يرى شو أن الحياة الداخلية عند الكائن العضوى تنطوى على حافز إلى التطور ، وهذا الحافز الداخلى أصدق من التطور الخارجى الذى تفرضه على العضويات تلك القوى الخارجية العمياء التى ذكرها دارون وبحث فيها . كان شو متأثرا كل التأثر بلا مارك أولا، ثم بصمويل بطلر ثانيا ، وانتهى هو نفسه إلى نظرية غريبة قد لا تستقيم كثيرا مع مارآه العلميون ، ولا مع ما أثبته البحث فى المخابر فيا بعد . كان يرى أن وظائف الأعضاء فى الكائنات الحية ليست إلا عادات ، وكان يرى أن هذه العادات تورث من جيل إلى جيل حتى تؤخذ على أنها وظائف طبيعية . فاذا أراد كائن عضوى أن يتخذ عادة من العادات ، وإذا « سعى » الكائن العضوى إلى أن يمارس هذه العادة فلابد أنها تصبح وظيفة طبيعية فى مستقبل الأيام . وهنا نستطيع أن نلمس الأمل الذى كان يراه برنارد شو فى مستقبل الإنسانية . فقد كان يرى أنه إذا استطاع الإنسان كفرد أن يريد، ثم أن يتخذ عادة، ثم أن يرقى بنفسه، فلابد أنه بالغ الحالة التى يهدف إليها فى يوم من الأيام . وهذه الإرادة نفسها وهذا السعى وهذا التنبه إلى أمل المستقبل هو الذى يسميه برنارد شو « قوة الحياة . »

يكتب برنارد شو ايضاحا لنظريته ويحاول أن يبين العلاقة بين العادات ووظائف الجسم الطبيعية فيقول : « لنضرب لذلك مثلا الجنين حين يخرج إلى الدنيا كفرد مستقل منفصل . إن أول عمل يأتيه الطفل ساعة ولادته هو أن يصرخ صرخة تنم على الغضب : تلك الصرخة التى ظن شيكسبير أنها أشد الأصوات إثارة للأسى والرحمة . وبينما هو يصرخ هذه الصرخة يبدأ فى التنفس وهذه عادة أخرى قد تبدو غير ضرورية ، فقد يمكن التنفس بطريقة أخرى كتنفس الأسماك فى أعماق البحار . ويندفع الدم إلى قلبه فى الدورة الدموية . وهو يحتاج إلى وجبة من الغذاء ، وما أن يزدرد طعامه حتى يقوم بأشد العمليات الكيميائية تعقدا . وهو يصطنع لنفسه أسنانا ، ثم يتخلى عنها ، ثم يبدل بها أسنانا أخرى جديدة . فإذا أنت وازنت بين هذه العمليات المعجزة التى تسلك فى سلك العادات ، وبين المشى والقيام وركوب الدراجات ، فسترى أن ليست هذه الأمور إلا توافه بالنسبة لتلك العادات . على أنك لاتستطيع أن تبلغ شيئا من القيام ولا المشى ولا ركوب الدراجات إلا إذا مضيت فى تجربة من الرغبة والمحاولة ، أما فى هذه العادات الشاقة المعقدة فان الطفل يرغب فيها من غير وعى ويحاولها من غير وعى : بل لقد يعترض عليها أشد الاعتراض ».

ويعلق الاستاذ برنال على ذلك فيقول : إن الأشياء التى كان « يسعى » إليها كائن الحى قديما عند برنارد شو قد أصبحت الآن عادات . فالعادات الحالية التى تقع عن غير وعى لابد أنها كانت فى الماضى أشياء يسعى إليها الكائن الحى عن وعى . وهو لذلك يرى أن هذه الإرادة الواعية فى المادة الحية هى التى تنتج العادات . ثم هو يرى أن وراء مانراه من آثار الطبيعة فى الإنسان والحيوان وحتى فى النبات ، هذه الإرادة الواعية التى قد تصبح عادة غير واعية فى مستقبل الأيام .

* * *

هذا هو الأساس الذى اتخذه شو لعقيدته التى سماها « التطور الخالق »

والتى ذكر أنها دينه الذى يؤمن به فى وصيته قبل أن يموت . فقراءات برنارد شو ومجادلاته فى « علم الاحياء » أدت به إلى أن يجعل من الآراء العلمية دينا وإيمانا . فانه قد سمى إرادة التطور هذه « قوة الحياة » وذهب فى مسرحياته إلى أن قوة الحياة هذه ، والإرادة العضوية والمقدرة على التطور ، كل أولئك مما يدعو إلى تقدم البشر . لقد انتقل شو بهذه النظريات من نطاق الحياة العضوية إلى نطاق الإنسان . وهنا تبدو فلسفته الدينية ، فقد ذهب إلى أن للانسان كفرد ثم للناس كجماعة مقدرة على التطور إذا هم استطاعوا أن يستخدموا « قوة الحياة » عندهم . فليس على الفقير ولا الضعيف ولا الجاهل أن يستسلم لقوى تفرض عليه ، بل على كل واحد من هؤلاء أن « يريد » وأن « يسعى » وأن « يشتهى » وأن « يرغب » ولابد بعد ذلك من أن يتطور من حسن إلى أحسن . فاذا هو أوتى طول العمر استطاع فى عمره الطويل أن ينتقل من درجة إلى درجة ، وإلا فانه سيخلف للاجيال المقبلة بعده ميراثا من العادات لابد أن تنتهى إلى التقدم، ثم ليس لجماعة البشر أن تقف موقفا سلبيا أمام ظروف الحياة ، بل عليها أن تسعى وأن تجاهد وأن «تريد» وعليها أن تكتل إرادتها أمام ظروفها وتعمل ، حتى تبلغ أهداف الكمال . وفى ذلك وضع شو كل عقيدته الدينية . بل فى ذلك اتفق شو و فلاسفة التقدم المتفائلين الذين سبقوه فى القرن الثامن عشر.(١)

وكان الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون ــ وهو معاصر لبرنارد شو ــ هو الذى يمثل مذهب « التطور الخالق » فى مجال الفلسفة . وقد انتهى برجسون بعد أن تفرغ لدراسة التطور دراسة علمية لمدى ثمانى سنوات إلى النهاية التى انتهى إليها برنارد شو وأكد فى بحوثه فكرة « الإلهام » . لقد رأى برجسون أن الأمر فى تطور الكائن العضوى لايقتصر على النشأة المادية فحسب ، بل إن الأصل فيه هو « دفعة حيوية » أو انبثاقة حيوية تخرج

(١) أليس هذا تفسيرا جزئيا لقوله تعالى : « إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » صدق الله العظيم .

من خلية الكائن العضوى . وقد استطاع برجسون حينما فصل البحث فى هذه « الدفعة الحيوية » أن يشيع فكرة الإلهام التى كان قد أنكرها العلماء الماديون من قبل . وقد قرأ برنارد شو ماكان يخرجه برجسون ولكن ينبغى أن نذكر أن برنارد شو كان قد وصل إلى فكرته عن « قوة الحياة » قبل أن تنشر بحوث هنرى برجسون عند اكتمالها .

* * *

وكذلك نرى أن برنارد شو قد استطاع أن يصالح فى نفسه بين الضلال والهدى ، فقد انتقل من فترة من فترات الشك إلى نهاية من اليقين وكذلك انتقل من عالم الحس والعقل إلى عالم آخر من الوحى والإرادة . وانتهى إلى عقيدة دينية تعلو عن الحياة المادية التى كان يعيش فيها ، ثم إنه انتهى إلى المصالحة بين العلم والدين : فقد اتجه أول الأمر اتجاها علميا ، لكنه رأى فى مذهب التطور هذه القوة الخالقة التى سماها « قوة الحياة » . ثم إنه عبر الجسر الذى تحدث عنه الدكتور إنج ، فخطا إلى الجانب الروحانى ، وانتقل من عالم الحقائق إلى عالم القيم وهذا ما نسميه عالم الدين .

فلسفة

فى حديثنا عن فلسفة برنارد شو نرى أنه لابد أن نرجع البصر إلى ماأسلفنا الحديث عنه من نواحيه الفكرية . وإذا كانت الفلسفة جماع ما يفكر فيه المرء ، وهى أسلوبه فى التفكير ، وهى إعمال العقل فيما حول الإنسان من واقع ، فقد كان كل ماذكرنا أساسا لفلسفة برنارد شو تتنظر آثارها فى كل ما كتب .

ويكاد لا يخرج برنارد شو مسرحية كبرى فى الدين والسياسة والاجتماع إلا وتكون « قوة الحياة » محورا لواحد أو إثنين من شخوصها . وليست جان دارك ولا قيصر ولا حتى تابع الشيطان إلا مظاهر لهذه القوة . ولكن برنارد شو يحاول تفصيل فلسفته تفصيلا ظاهرا فى مسرحيتين من كبرى مسرحياته: أولاهما « الإنسان والإنسان الاسمى » التى كتبها فى سنة ١٩٠٥ وثانيتهما « عودة إلى متشالح » التى كتبها فى سنة ١٩٢١ .

ففى هاتين المسرحيتين يفصل برنارد شو كل التفصيل القضايا الكبرى التى تنطوى عليها الفلسفة . فهو فيهما دائب التفكير فى الأسئلة الكبرى التى ترتبط بالوجود . فما هذه اللانهاية التى تنبسط أمامنا فى الأرض والبحر والسماء ؟ وهل هى أرض بلقع لاغناء فيها ؟ ثم ما العلاقة بين العقل والمادة وهل يذهب مع الفلاسفة الماديين من أن المادة هى التى خلقت العقل ؟ أم أن العقل هو الذى سبق المادة إلى الوجود ؟ ثم ما الخلود وما مهمة الإنسان على الأرض ؟ ثم هل هناك غرض للحياه ؟ وماهذا الغرض إن وجد ؟ ثم ما للجنة وما النار ؟ ثم هل الإنسان يفكر بوعى من نفسه أم هو يعمل مدفوعا بقوة الحياة ؟ وفى هذا هل الإنسان مخير حر الإرادة أم هو مسير مجبور تحتم عليه قوة الحياة أن يعيش كما يعيش ويأخذ من الأمور مايضطر إلى الأخذ به ويدع منها مايضطر إلى مجانبته ؟ ثم أليس مخ الفيلسوف أداة من أدوات الحياة لأنها

أداة للتفكير وتطور الحياة على هذه الأرض ؟ كل هذه هى الأسئلة التى يناقشها برنارد شو فى مسرحيتيه « الإنسان والإنسان الاسمى » و « عودة إلى متشالح » . ولسنا نعلم أنه بعد كل هذا الجهد قد استطاع أن ينتهى برأى فى كل أمر من هذه الأمور ، ولكننا سنورد لك بعض لمحات مما عالجه حتى نكمل هذا الحديث الذى بدأناه عن « قوة الحياة » .

على أننا قبل أن نمضى فى الحديث عن هذه الفلسفة ينبغى أن نقف وقفة قصيرة عند بعض التعبيرات التى يستعملها برنارد شو فى بعض مسرحياته . فهل « قوة الحياة » هذه معنى غير معنى « قوة الله » ؟ وحين يجرى برنارد شو اسم الله سبحانه على لسان جان دارك هل كان يعنى مايعنيه التقى الورع من معنى « اسم الله » ؟ ثم ماذا كان يعنى حين كان يتحدث عن وحدة الله فى كلام تحدثت به جان دارك . حين هددها أصحاب محكمة التفتيش بالسجن المنفرد طول حياتها ، وحينما ذكروا لها وحدة السجن تحدثت عن وجودها إلى جانب الله . فهل ترى أن مثل هذا الاتجاه الروحى هو اتجاه برنارد شو نفسه ؟ وهل ترى أن مثل هذا الكلام الذى تحدثت به جان دارك كلام يمثل حالة تصوفيه كان يحسها برنارد شو فى دخيلة نفسه ؟

حينما هددها قضاة محكمة التفتيش بالسجن المنفرد قالت الفتاة : «تتهددونى بوحدتى ، ومابى والله ذعر منها . إن فرنسا لوحيدة ، وإن ربى لوحيد . فما وحدتى إلى جانب وحدة فرنسا ووحدة الله ربى . لقد تعلمت الآن أن وحدة الله هى سر قوته . ألا ما كان الله لو أنه ـ سبحانه ـ أصغى لنصائح منكم حقيرة ، تصدر عن قلوب مريضة غيورة. قوة الله فى وحدته ، وكذلك قوتى ستكون فى وحدتى بجوار الله ، فلن تخوننى صداقته ، ولن تعوزنى محبته ، ولن تخذلنى نصيحته . وساستمد مددا من مدده ، فأقتحم المهالك وأركب الأخطار حتى أموت . والآن أخرج إلى الشعب ، إلى عامة الناس ودهمائهم ، لعل الحب الذى أجده فى عيونهم يفرج عنى كربة البغضاء التى أجدها فى عيونكم . إنكم ستفرحون جميعا لحرقى ، ولكنى إن سرت إلى

النار ، فانما أسير عبرها إلى الخلود فى قلوب الناس ، ففى هذه القلوب سأحيى إلى أبد الآباد . والآن تداركنى بلطفك يارحمن (١) . »

فاذا أنت أمعنت النظر فى هذا الحديث وجدت أن قوة الحياة التى تدفعت بين جنبي جان دارك لم تكن إلا قوة الله تعالى. وهنا ينبغى أن نكرر ما ذكرناه فى حديثنا عن آرائه الدينية من أنه كان متدينا فى الصميم من أعماق نفسه ، ومن أنه كان يؤمن إيمانا لاشك فيه بالروح القدس ، ومن أنه بمنطقة الجدلى استطاع أن يصالح بين المتدينين القدامى والمؤمنين بالعلم الحديث ، بل وأنه كان من المتصوفين الذين أرادوا أن تذوب ذواتهم فى ذات الله تعالى .

* * *

وننتقل الآن إلى مناقشة الأصل فى « قوة الحياة » . وكما اعتدنا فى مناقشة كل قضاياه ينبغى أن نبحث عن الأسلوب الديالكتيكى الذى أقام عليه هذا الجانب الأخير من فلسفته . درج أغلب الفلاسفة على أن يناقشوا مسألة الوجود على أساس أن هناك عقلا ومادة ، وبعض الفلاسفة يسمونها روحا وجسدا . وعلى هذا الأساس الثنائى يناقش برنارد شو أصل الوجود . لكنه يناقشه أيضا فى مسرحية ، ويناقشة على أساس أن هذه المسرحية قائمة على أسطورة ، واستمع إليه وهو يجرى على لسان قوة الحياة بعض هذا الحديث الذى يصف فيه الخليقة وهى تنتقل من عالم الغيب إلى عالم الحس أولا ، ثم من عالم الحس إلى عالم الغيب لتعود سيرتها الأولى :

« بعد أن يمروا ـ أى الخلائق ـ بعدد من الأهداف قد يبلغ المليون عدا يصلون إلى قرارة تحررت من المادة : إلى دوامة الذكاء الخالص ـ قد كانت هذه عند بدء الخليقة دوامة من القوة الخالصة . وعلى الرغم من أن كل الذى فعلوه لايبدو إلا أولى ساعات الخلق ـ فالخلق عمل لانهاية له ، إلا أننى لن

---

(١) عن « جان دارك » ترجمة الدكتور أحمد زكى ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

أحل محلهم إلا إذا عبروا بسلام تلك الفجوة الأخيرة التى تقوم بين الجسد والروح ، وإلا إذا استطاعوا تخليص حياتهم من المادة التى كانت دائما تحبط أعمالهم وتسخر منهم . لقد جئت بالحياة إلى دوامة القوة وأرغمت عدوى — وهو المادة — أن تطيعنى أنا الروح الحية ، ولكنى فى استعبادى عدو الحياة جعلته سيدا للحياة ، وهذا فى نفسه منتهى ما تصل إليه العبودية . والآن فسأرى العبد وقد أطلق سراحه ، وأرى العدو وقد اطمأن إلى المصالحة ، وستكون هذه الدوامة قوة لا أثر للمادة فيها » .

فاذا حاولنا أن نتفهم هذا الكلام استخلصنا منه أن الحياة فى الأصل كانت دوامة من القوة الخالصة لها قرار عميق ، وأن هذه القوة قد دخلت إلى المادة فاستخدمتها وأرغمتها على الإذعان لها . ولكن بدلا من أن تظل المادة مستعبَدة للعقل — أو قل بدلا من أن يظل الجسد مستعبَدا للروح — فقد انتصرت المادة وأصبحت فى هذا الطور الذى نعيش فيه هى سيدة الحياة ، وأصبح العقل طيّعا للمادة مذعنا لها . والآن فان الهدف الذى نعيش من أجله هو أن نتخلص من هذه المادة وأن نمضى قدما فى سبيل التطور الفكرى — أو الروحى — حتى نصبح نحن سادة المادة وحتى تصبح المادة طيّعة فى أيدينا نحن أصحاب الفكر والروح كما بدأت سيرتها الأولى .

هذا هو الذى نستخلصه من مثل هذه الفقرات ومن عشرات غيرها . فاذا نحن حاولنا أن نفكر فى هذه القضية على أساس المنطق الجدلى رأينا أن الأصل فى الوجود كان قوة الحياة وهذا هو الموضوع ، وأن هذه القوة الفكرية أو الروحية وجدت نقيضا لها وهو المادة — وقد تغلبت المادة فعلا على الفكر وبسطت عليه عبوديتها فهذا نقيض الموضوع . ويعمل الإنسان الآن على سطح هذه الأرض ويطور الحياة ويستخلص من هذه المادة التى استعبدت فكره — أو روحه — وينتهى به الأمر إلى التخلص من عبودية المادة وهذا هو مركب الموضوع .

وإذن فقد قامت فلسفة برنارد شو على هذه الدورة الثلاثية الديالكتيكية

التى أسلفنا ففصلناها عندما تحدثنا عنه كمفكر محترف [١]. ولعله لم يكن برنارد شو أصيلا فى إيراد هذه القضية الثلاثية ، ولكن الذى يهمنا من كل ذلك هو هذا الإطار الذى وضعها فيه . فهى دوامة تندفع فيها قوة الحياة ، وهى قوة من الفكر الخالص، وهى روح محررة من أسباب المادة. وهذه القوة فى دورتها العارمة تريد أن تطوّع المادة لها فتصبح هى نفسها مطوعة للمادة . وهنا يبدو الأناسى وكأنما قد شدّوا بحبال إلى هذه الأرض فاستعبدتهم المادة، وألزمتهم بلوازم تعتبر فى طبيعتها ظلما وطغيانا على العقل . فاذا عشنا اليوم عبيدا لهذه المادة فلا بد من أن نعمل على سطح هذه الأرض حتى نعود سيرتنا الأولى فكرا خالصا .

ذلك ما صوره برنارد شو فى خياله المسرحى من هذه الفلسفة التى بدأت بالعقل وتوسطت فيها المادة ثم لا بد أن تتخلص من المادة حتى تصبح فكرا خالصا. وتعرض لنا فى «الإنسان والإنسان الأسمى» فقرة يعبر فيها برنارد شو عن استعباد المادة للانسان ويعدد فيها الأمور والعادات والواقع الدنيوى الذى يرين على عقل الإنسان فيحجبه عن الحقائق السامية . إنه يصف الجنة وفى نظره أنها المكان الذى يسود فيه الفكر على المادة. إنه يرى «أن الجنة مأوى لسادة الحقيقة ، وأنها منعزل عن الأرض – والأرض مأوى للذين استعبدتهم الحقيقة . إن الأرض ملعب أطفال يلعب فيه الأبطال والبطلات والقديسون والآثمون ، لكن أجسادهم تشدهم إلى أدنى ، من الفردوس الخيالى الذى يعيشون فيه كالبلهاء :هناك الجوع والبرد والظمأ ، وهناك الكبر والانحلال والمرض ، ثم هناك الموت قبل كل شىء . كل هذه تجعلهم عبيدا للحقيقة : وجبات ثلاث كل يوم يجب أن تؤكل وتهضم ، وأجيال ثلاثة فى كل قرن ينبغى أن تتوالد : عصور من الإيمان والخيال والعلم كلها تنساق إلى دعوة واحدة هى «أحلنى حيوانا صحيح الجسم » . ولكن هنا – أى فى الجنة –

(١) انظر الفصل الأول – الباب الثانى من هذا الكتاب من صحيفة ٢٤٤ إلى صحيفة ٢٦٢ .

إنك تهرب من ظلم الجسد لأنك لا تكون حيوانا : إنك هنا شبح ، هيئة ، وهم ، عرف ، وأنت لا تموت ولا تكبر. وفي كلمات قليلة إنك إنسان بلا جسد وليس هنا مشكلات اجتماعية ولا مشكلات سياسية ولا مشكلات دينية، وخير من ذلك فليس هناك مشكلات تتصل بالعادات العلمية . هنا تسمى هيئتك جمالا ، وانفعالاتك حبا ، وعواطف بطولة ، وآمالك فضيلة كما كنت تسميها على الأرض ، ولكن لا تجبهك هنا الحقائق الجامدة . فلا تباين بين حاجاتك وما تصبو اليه ، ولا تمثيلية فكاهية من أعمال البشر تلهيك ، ليس هنا إلا قصة خيالية خالدة ، ومسرحية عالمية متباينة النواحي » .

* * *

وبعد ذلك التفسير المنطقي والخيالي الذي أجملناه لك فيما سلف نعرض لقضية أخرى فلسفية عالجها برنارد شو أيضا في كثير من الاطناب. ذلك هو الغرض من الحياة . والغرض الأسمى من الحياة عند برنارد شو هو أن تنقلب الحياة إلى فكر خالص خالد . هي أن تنقلب الحياة إلى ما جاء في وصف الجنة . جاء في « عودة إلى متشالح » حديث قصير بين « الرجل المعمر » « والمرأة المعمرة » وإحدى حديثات الولادة نقله إليك فيما يلي :

« الرجل المعمر » : ما دمنا بهذا الجسد الطاغي علينا فنحن معرضون لموته ، ولا يمكن أن تنتهي إلى إنجاز ما يقتضيه مصيرنا .

« المولودة حديثا » : ما مصيرك ؟ .

« الرجل المعمر » : أن أكون خالدا .

« المرأة المعمرة » : سيأتي يوم لن يكون هناك أناسي . سيكون هناك الفكر وحده .

« الرجل المعمر » : وستكون هذه هي الحياة الخالدة .

ومعنى ذلك أن وجود الأناسي في هذه الحياة ليس الغرض منه إلا أن تنقلب الحياة فكرا خالصا « تنقلب فيها الهيئة جمالا ، والانفعالات حبا ،

والعواطف بطولة والآمال فضيلة ... ولا تجبه الإنسان بعد ذلك الحقائق الجامدة » أما أكبر حقيقة جامدة يلقاها الإنسان على الأرض فهى الموت ، فانها الحقيقة التى تطغى على كل ما عداها . وهنا نستطيع أن ندرك الغرض من الحياة فى نظر برنارد شو وهو الخلود ـ والخلود عنده هو المتحرر من المادة.

يرى برنارد شو أننا أدوات فى قبضة قوة الحياة تستخدمنا لتحقيق هذا الغرض السامى وهو الخلود ، وأننا فى حياتنا القصيرة على الأرض لا نستطيع أن نبلغ هذا الغرض السامى إلا قليلا . لذلك يرى برنارد شو أن عمر الإنسان على الأرض لا يكاد يحقق له ولا جزءا قليلا من هـذا الغرض . ولو عاش الإنسان أضعاف السنين التى يعيشها الآن لاستطاع أن يحقق شيئا . وعلى ذلك لجأ إلى قصة متشالح وهى إحدى قصص الأنجيل التى يعيش فيها متشالح تسعمائة وتسعة وستين عاما ، ويبلغ من اكتمال العقل حدا يطوع له أن يبلغ شيئا من الفكر الخالص .

فى مسرحية « الإنسان والإنسان الاسمى » حـديث بـين دون جوان والشيطان ننقله اليك هنا . وسترى فيه آراء برنارد شو عن الغرض من الحياة وعن وضعنا كالآت فى قبضته قوة الحياة . وسترى فيه أيضا تفرقة بين عقل الفيلسوف وعقل الرجل العادى، وكيف أن قوة الحياة تلجأ إلى عقل الفيلسوف فتزكيه وتنميه حتى يكون عدة لإدراك الغرض السامى . واستمع بعد ذلك إلى هذا الحديث :

« **دون جوان** ـ هل الإنسان أقل شأنا من الدود ؟ وهل الكلب خير من الذئب لأنه أقوى على احتمال التعب؟ هل ينبغى ألا يأكل الإنسان لأنه يفسد شهيته حين يريد أن يرضيها ؟ وهل الحقل معطل لاغناء فيه إذا بدا وكأنه أرض بور .. ؟ فلنفترض أن قوة الحياة العظيمة قد أصابت نفس الحيلة التى يستعملها بندول الساعة على أن تكون الأرض هى

القوس ، ولنفترض أن تاريخ كل ذبذبة ـ وهو الذى يبدو لنا جديداً لانهما كنا فى العمل ـ لنفترض أن تاريخ كل ذبذبة تكرار لتاريخ الذبذبة السالفة ، ولنفترض أكثر من ذلك فى هذه اللانهاية التى لا يستطيع الفكر أن يبلغ مداها ، أن الشمس ترمى بكرة الأرض ثم تلقفها ألف مرة كما يرمى البهلوان الراكب الكرة ويلقفها ، ولنفترض أن عصورنا التى تمتد آمادا سحيقة ما هى إلا فترات بين الرمية واللقفة : فهل تعتقد بعد ذلك أن هذا الكون العظيم كائن من غير غرض ؟ »

« الشيطان ـ أجل !! من غير غرض يا أخى ! أنت تعتقد أنه ما دام لك أنت غرض فانه يجب أن يكون للطبيعة غرض أيضا. لعلك تحسب أن للطبيعة أصابع فى اليدين والقدمين لأن لك أنت هذه الأصابع ! .. »

« دون جوان ـ ما كان ينبغى أن يكون لى هذه الأصابع لو لم تخدم غرضا معينا ولست يا صاحبى إلا جزءا من الطبيعة كما أن إصبعى جزء منى . إذا كانت إصبعى هى العضو الذى أستخدمه للقبض على السيف والقيثارة فان مخى هو العضو الذى تسعى به الطبيعة لأن تفهم نفسها. وللكلب مخ ولكنه لا يخدم إلا أغراضه الخاصة ، أما مخى أنا فانه يعمل لمعرفة ليست لنفسى خاصة، بل إنها معرفة تجعل جسمى حاقلدا على نفسى وتجعلنى أعتبر الفناء والموت كارثة من الكوارث. فاذا لم يكن يتملكنى غرض أسمى من غرض الحياة كان حقيقاً بى أن أكون حارثا لا فيلسوفا، فحارث الأرض يعيش نفس السنين التى يعيشها الفيلسوف، ويأكل أكثر منه ، وينام خيرا منه، وينعم بصاحبة فؤاده من غير أن تعكر صفو حياته كثير من الشبهات ذلك لأن

الفيلسوف واقع فى قبضة قوة الحياة. وكأنى بقوة الحياة وهى تقول له: «لقد فعلت آلاف الأشياء العجيبة من غير وعى منى، وإنما كان ذلك بارادة الحياة واتباع خطة تستدعى أقل مقاومة، إننى أريد الآن أن أعرف نفسى، وأن أعرف غاية رحلتى. أريد أن أختار طريقى إلى هذه الغاية ولذلك فقد صنعت لك مخا خاصا، مخ فيلسوف ـ لكى يدرك هذه المعرفة من أجلى كما يقبض الفلاح على المحراث من أجلى أيضا، وتمضى قورة الحياة وهى تقول للفيلسوف: «وهذا ما لا بد أن تسعى لإدراكه من أجلى إلى أن تموت، أما بعد موتك فسأصنع أنا مخا آخر وفيلسوفا آخر حتى يستمر هذا العمل» .

« الشيطان ــ ما فائدة المعرفة ؟ . »

« دون جوان ــ عجبا ! حتى يمكن أن نختار طريقا يواتينا فيه أكبر قدر من الخير، بدلا من أن نستسلم لخطة تدعونا إلى أقل المقاومة، ألا ترى أن سفينة تجرى فى مستقرها إلى غاية من الغايات خير من قطعة من خشب تندفع على غير هدى. إن الفيلسوف هو ملاح الطبيعة، وهنا نستطيع أن ندرك ما بيننا من خلاف: إن الجحيم هو أن يمضى الإنسان على غير هدى كقطعة الخشب أما الجنة فهى أن يوجه الإنسان حياته كما يوجه الملاح السفينة . »

« الشيطان ــ ليرتطم بالصخور فى معظم الأحوال .

« دون جوان ــ ما أسوأ ما تقول ! أى السفينتين حقيقة بأن ترتطم بالصخور أو أن تغرق إلى قاع البحر؟ أهى السفينة التى تمضى من غير هاد يهديها، أم هى السفينة التى يقف على ظهرها الملاح ؟ .

* * *

وأنت ترى من هذا الحديث الطويل أن دون جوان ـ أو قل برنارد شو اسمنا ندرى ـ يحاول الإجابة عن الأسئلة الكبرى التى قدمنا بها هذا الفصل ، ولنذكر فى كل ذلك أن برنارد شو كان يتحدث ووراء كلماته تلك البحوث التى قام بها عن « التطور الخالق » و « قوة الحياة ». لقد تبدو الأرض بلقعا أو بورا لا غناء فيها ، لكن العقل الإنسانى قد وجد ليعى ويعمل، وليمضى فى هذه الحياة إلى غرض آخر أسمى فى عالم آخر هو الفكر الخالص.

وعندنا أن هذا الحديث الذى كتبه برنارد شو فى سنة ١٨٠٥ وأجراه على لسان الشيطان هو ملخص لما كان يراه فى التطور الخالق . إنه يرى أن ليست الخلائق إلا أدوات فى أيدى قوة عليا هى قوة الحياة ، وأن قوة الحياة تدفع بهم إلى هذا الغرض. وهنا نستعيد ما سبق أن قلناه من أن التطور عند برنارد شو كان دائما تطورا منبثقا من الداخل لا تطورا مفروضا من الخارج. وأن تصرفات الإنسان قد يكون مرجعها إلى تلك القوة العارمة. بل إن أعمال الإنسان قد تكون فيضا من نشاط فكرى أو نفسى أو روحى يذعن له الإنسان ويستسلم له ولا يستطيع مقاومته لأنه يجد نفسه بين يدى قوة عليا لا يستطيع لها ردا ولا منها فكاكا.

وتكون المرأة فى فلسفة الخلق هذه كما يكون المركز من الدائرة . فانها بتكوينها ووظيفتها هى الأداة التى تستخدمها قوة الحياة لإدراك غرضها. إنها هى التى تحمل الحياة من جيل إلى جيل ،وهى الوعاء الذى تنقل فيه البشرية من عصر إلى عصر . ولا يستطيع برنارد شو أن يتصور العلاقة بين الرجل والمرأة إلا على هذا الأساس. لا يستطيع أن يتصور الحب الخيالى الرومانتيكى ولا التهالك على المتعة واللذة ، ولا العناء الذى يلقاه الرجل فى سبيل المرأه ، ولا الزواج نفسه إلا على أساس أن هذا جميعه فيض من دفعة حيوية تنبثق من المرأة . أما الرجل فى كل ذلك فليس هو إلا أداة أعدتها قوة الحياة ليكون صالحا للمرأة حتى يتكامل بذلك لقاء الذكر والأنثى . لقد كانت « الإنسان والانسان الاسمى » نفسها مسرحية طويلة أراد برنارد شو أن

يفسّر بها فلسفة المرأة . وقد كتبها حين طلب اليه أحد أصدقائه أن يكتب مسرحية عن دون جوان وسعيه إلى المرأة وحبه لها وإيقاعه بها - فكان هذا هو ردّ برنارد شو . وكان فى هذه المسرحية ملاك فلسفة المرأة فى نظر برنارد شو . ولنذكر أن الإنسان الأسمى عنده لم يكن غير المرأة.

* * *

نستطيع حين نلم بما قدمنا من حديث عن أفكار برنارد شو من حيث دراساته الاشتراكية ونقداته الاجتماعية وفكرته عن الخلق، واتجاهاته العملية، وآراؤه السياسية وعقائده الدينية: نستطيع بعد كل ذلك أن نقيم صرحا منسقا من فلسفته. وفى الأعماق من فلسفته ذلك الذى أجملناه فى هذا الفصل من الصراع بين العقل والمادة - وهو صراع عندنا يمكن أن يعنى الصراع بين الروح والجسد. وقد استطاع شو أن يصوّر فى مسرحيتيه الكبيرتين تصويرا تمثيليا لزوع العقل أو الروح وانتصارهما على المادة والجسد . ولكن على الرغم من ذلك فلنا بعض النقدات على هذه الفلسفة مما نريد أن نورده حتى يكتمل البحث .

هناك نواح ثلاث نستطيع أن ننقد منها هذه الفلسفة . الأولى هى وصف الصراع بين العقل والمادة وتغلب الأولى على الثانية وخلود العقل ومصير المادة - والناحية الثانية هى مسألة الإرادة وهل الإنسان مخيّر أم مسيّر ؟ والناحية الثالثة هى فكرة الشر على الأرض - وهل الشر أصيل فى خلق الإنسان أم غير أصيل ؟ وفى النواحى الثلاث لم يجد الكاتب الانجليزى چود(١) أن برنارد شو كان مقنعا فى إكمال هذه الجوانب الثلاثة ، وإتمام ما قدم من قضايا ومما لفّفه بها من أساطير .

أما عن الناحية الأولى التى تبدو لنا فهى تتصل بمصير المادة. فاذا كان الهدف الأسمى هو أن تتطور الحياة حتى تضع حدا لاستعباد المادة للعقل أو الجسد للروح فليس من الواضح إذا ما كانت المادة ستظل كما هى بعد أن تتلخص الحياة منها وتخليها جانبا ؟ أم سوف تتلاشى المادة ويحل محلها الفكر الخالص

---

(١) C.M.E. Joad

لم يستطع چود ولا غيره من الباحثين أن يتبينوا رأى برنارد شو فى نتيجة هذا الصراع ، ولا فى مصير هذه المادة التى ستكون فريسة للعقل .

وأما الزاوية الثانية التى ننقد منها فلسفة برنارد شو فهى تتصل بارادة الإنسان على الأرض وهل هى إرادة حرة ؟ أم هى إرادة محتومة يكون الإنسان مجبرا عليها ؟ وإذا صح أن هناك غرضا ساميا للحياة فى كليتها ، وإذا صح أننا نحن الأناسى أدوات فى قبضة قوة الحياة ، وأن هذه القوة تستخدمنا لتحقيق غرضها ولإحالة الوجود إلى فكر خالص خالد ، فهل يكون المرء مسئولا عن الشرور التى يقترفها فى هذه الحياة ، وهل يكون مجزيا بأعمال الخير التى يقوم بها ؟ يشبّه چود الإرادة العامة لقوة الحياة بالنهر المنهمر الذى تندفع مياهه فى تيار سريع وأننا نحن الأناسى لا نستطيع إلا أن نكون شعابا صغيرة من هذا النهر . وكل فرد من الأفراد يتصرف فى حياته كما يرى ولكن لابد له من أن يسير وفق ما يندفع به النهر الأصيل . وهذا الخيال — وهو خيال چود — لا يمكن إلا أن يكون تصويراً ناقصا لما كان يراه برنارد شو فى فلسفته .

ففى نفس الوقت الذى يتحدث فيه برنارد شو عن الإرادة العامة، لا تخلو مسرحية من مسرحياته من التحدث عن هذه الإرادة الفردية التى كان دائما يمثلها على المسرح . وعظماء رجاله ونسائه جميعا يتمتعون بهذه الفردية الشخصية وليست هذه المشكلة عندنا ، وليس الصراع بين حرية الاختيار والحتمية إلا مثلا من أمثلة النقائض التى رأينا أن برنارد شو تعرض لها لمئات غيرها فى حياته الفكرية الطويلة .

أما ثالث النواحى التى ننقد منها فلسفته فهى أصل الشر . لقد سلفت فى هذا الكتاب اقتباسات كثيرة من مؤلفات برنارد شو رأينا فيها أنه ينسب إلى الإنسان الشر ، ويفضل عليه الحيوان والقردة . ورأينا فى فصول أخرى حينما عرضنا لمسرحياته أنه لا يتهم الإنسان بالشر أصلا، لكنه يرى أن ظروف الحياة هى التى تجعل من الإنسان خيّرا أو شريرا . ثم إنه لم يكن يتفق مع رأى جمهرة المتدينين فى تعريف الشر ولا تعريف الخير . وقد بسطنا الكلام بعض

البسط فى هذا حين تكلمنا عن العلاقة فى نظره بين الخلق والدين . ولكن بقى بعد كل ذلك أن الجدل حول الشر والخير لم ينته به برنارد شو إلى نهاية مقنعة ولا نظن أن عقلا بشريا آخر سينتهى به إلى نهاية مقنعة .

ذلك حديثنا عن برنارد شو . لقد صاحبنا هـذا الرجل بضع سنين حاولنا أن نسايره فيها ، وأن نتعلم منه ، وأن نقرأ له ، وأن نتمثله فى جده وهز له ، وفى روحه وجسده ، وفى عقله ووجدانه ـ لكأنى به ما يزال جاثما إلى جانبي : عقلا خالصا من غير مادة، وروحاً خالده من غير جسد. لكأنى به يهزأ بما كتبت ويسخر . ولكن فليغفر له الله! وسلام على الروح الخالدة والعقل الراجح والفكر الخالص . سلام على صديقى برنارد شو ! .

* * *

مؤلفات برنارد شو

حسب ظهورها

Novels :

IMMATURITY (1879).

Unpublished until 1930, when it was provided with an informative autobiographical Preface by the author .

THE IRRATIONAL KNOT (1880).

LOVE AMONG THE ARTISTS (1881).

CASHEL BYRON'S PROFESSION (1882).

AN UNSOCIAL SOCIALIST (1883).

Plays (mostly with Prefaces) :

PLAYS PLEASANT AND UNPLEASANT (1898).

(Vol. 1 : Plays Unpleasent (" Widowers' Houses " ; "The Philanderer" ; "Mrs. Wurren's Profession"). Vol. II : Plays Pleasant ("Arms and the Man"; "Candida"; "The Man of Destiny"; "You Never Can Tell").

THREE PLAYS FOR PURITANS (1901).

("The Devil's Disciple"; "Caesar and Cleopatra"; "Captain Brassbound's Conversion").

MAN AND SUPERMAN (1903).

JOHN BULL'S OTHER ISLAND (1907).

("John Bull's Other Island"; "How He Lied to Her Husband"; "Major Barbara").

THE DOCTOR'S DILEMMA (1911).

("The Doctor's Dilemma"; "Getting Married"; "The shewing up of Blanco Posnet").

MISALLIANCE (1914).

("Misalliance"; "The Dark Lady of the Sonnets"; "Fanny's First Play".)

ANDROCLES AND THE LION (1918).

("Androcles and the Lion"; "Overruled"; "Pygmalion".)

HEARTBREAK HOUSE (1919).

("Heartbreak House"; "Great Catherine"; "Playlets of the War".)

BACK TO METHUSELAH (1921).

SAINT JOAN (1924).

TRANSLATIONS AND TOMFOOLERIES (1926).

("Jitta's Atonement": "The Admirable Bashville"; "Press Cuttings": "The Glimpse of Reality"; "Passion, Poison, and Petrifaction"; "The Fascinating Foundling"; "The Music Cure".)

THE APPLE CART (1930).

TOO TRUE TO BE GOOD (1934).

("Too True to be Good"; "Village Wooing"; "On the Rocks".)

THE SIMPLETON OF THE UNEXPECTED ISLES (1936).

("The Simpleton of the Unexpected Isles"; "The Six of Calais"; "The Millionairess").

GENEVA (1939).

"IN GOOD KING CHARLES'S GOLDEN DAYS" (1939).

BUOYANT BILLIONS (1951).

("Buoyant Billions"; "Farfetched Fables"; "Shakes. versus Shaw".)

Critical, Political, and Autobiographical Works:

THE QUINTESSENCE OF IBSENISM (1891).

THE PERFECT WAGNERITE (1898).

THE INTELLIGENT WOMAN'S GUIDE TO SOCIALISM AND CAPITALISM (1928).

ELLEN TERRY AND BERNARD SHAW: A CORRESPONDENCE(1930)

OUR THEATRES IN THE NINETIES (1931). 3 vols.

(Articles from the Saturday Review 1895-8.)

WHAT I REALLY WROTE ABOUT THE WAR (1931).

(Including "Common Sense About the War", 1914.)

MUSIC IN LONDON (1931).

(Articles from the World, 1890-4)

PEN PORTAITS AND REVIEWS (1931).

(Including articles on William Morris, Samuel Butler, William Archer, G. K. Chesterton, Dean Inge, and others; of various dates.)

THE ADVENTURES OF THE BLACK GIRL IN HER SEARCH FOR GOD (1932).

ESSAYS IN FABIAN SOCIALISM (1932).

(Most of these were written in the 1890s and 1900s.)

SHORT STORIES (1932).

(The majority are of early dates, but "The Black Girl"-see above under 1932 - is included.)

LONDON MUSIC IN 1888-9 (1937).

(Articles from The Star.)

EVERYBODY'S POLITICAL WHAT's WHAT (1944).

SIXTEEN SELF SKETCHES (1949).

(Miscellaneous autobiographical pieces.)

مطبعة م.ك. الاسكندرية
محمد محمود محمد مسعد
٥ شارع أديب اسحاق (عمارة البصير)
تليفون ٣٠٨٤٧
٣٠٩١٠